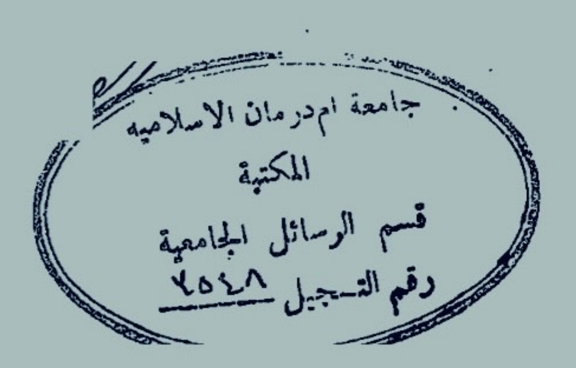
بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة أم درمان الإسلامية

كلية الآداب

قسم التاريخ والحضارة الإسلامية



السودان في عهد الخديوي توفيق

(١٢٩٦-١٣٠٢هـ/١٨٧٩-١٨٨٥م)

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث

إعداد

بابكر فضل المولى حسين أحمد

إشراف

الدكتور بشير كوكو حميدة

كلية الآداب - جامعة أم درمان الإسلامية

١٤٢١هـ-٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

إلى والديَّ وأبنائي أهدي هذا البحث

رحمةً وبراً ... تقديراً وعرفاناً

شكر وتقدير

الحمد لله رب العالمين ، له الحمد والشكر على عظيم فضله ، وإحسانه ، بما أنعم علي من نعمة الصحة والعافية ، وما وفقني إليه من القيام بهذه الدراسة العلمية التاريخية ، وما يسره لي من تحمل مشقات البحث والاطلاع ، في سبيل العلم والمعرفة . والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد:

يطيب لي ، أن أتقدم بجزيل الشكر والتقدير والعرفان ، إلى الأستاذ الجليل الدكتور ، بشير كوكو حميدة ، أستاذ التاريخ الحديث ، بكلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية . الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث ، منذ أن كان فكرة ، وحتى أصبح حقيقة ماثلة . فقد بذل لي من وقته الثمين ، وعلمه الوافر الغزير ، وخبرته الطويلة ، وتجربته الثرة ، وصبره الذي لم ينفد ، وتوجيهاته ، ونصائحه القيمة ، ما كان عوناً لي في التغلب على الصعوبات والمشقات ، التي واجهتني في هذا البحث في كل مراحله . كما أكرر له الشكر والتقدير ، على مجموعة الوثائق عن عهد الخديو إسماعيل ، والتي أمدني بها ، وأفادتني كثيراً في بعض جوانب هذا البحث ، سائلاً الله سبحانه وتعالى أن يجزيه عني خير الجزاء .

كما أذكر بالشكر والتقدير ، ما وجدته من عون ومساعدة من الأخوة العاملين بدار الوثائق القومية بالخرطوم ، ومكتبة السودان بجامعة الخرطوم ، ومكتبة جامعة أم درمان الإسلامية ، والمركز الثقافي بأبي ظبي ، ومكتبة جامعة الشارقة ، والمكتبة المركزية بدبي .

والشكر مبذول ، لجامعة أم درمان الإسلامية ، التي أتاحت لي هذه الفرصة للقيام بهذه الدراسة متمنياً لها ،ولإدارتها ، ولأساتذتها ، والعاملين بها ، دوام التقدم والازدهار .

وفي الختام أشكر جميع من أعانوني بجهدهم ، ونصائحهم ، في هذا البحث، من الأخوة الأساتذة بجامعتي الخرطوم ، وأم درمان الإسلامية ، وغيرهم .لهم مني جميعاً وافر الشكر وعظيم الثناء .

٦ شوال ١٤٢١هـ

٣١/١٢/٢٠٠٠م

الباحث

مقدمـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شـهدت بلادنـا العزيزة بعد الاستقلال ، وفي السنين الأخيرة على وجه الخصوص ، كـثيراً من الاهتمام بتاريخنا الحديث ، وكثرت الدراسات التي تبحث فيه ، وتعمل على إبراز أثره في تعزيز روابط الوحدة السياسية ، والثقافية ، والاجتماعية ، في السودان .

ومما لا ريب فيه ، أن عهد الحكم التركي المصري في السودان (١٢٣٥-١٣٠٢هـ/ ١٨٢١-١٨٨٥م) عمومـاً ، كان من أهم الحقب ، في تاريخنا الحديث ، لما له من دور فعال في مسيرة الحضارة في السودان .

وهـذا البحث يختص بالفترة الأخيرة من عهد الحكم التركي المصري في السودان ، وهي فترة حكم الخديو توفيق ، التي ارتبطت بالأحداث التي أدت إلى نهاية عهد الحكم التركي المصري ، وقيام الحكم الوطني ممثلاً في الدولة المهدية في السودان .

أهمية الموضوع وسبب اختياري له :

يمثل عهد الخديو توفيق ، مرحلة هامة من مراحل الحكم التركي المصري في السودان . وهـذه الفـترة ، رغم أهميتها ، لم تجد حظها من الباحثين . ومعظم الذين تناولوها بالدراسة المتخصصـة ، كـانت بحوثهم قاصرة على بعض جوانبها وموضوعاتها . ولا نكاد نجد دراسة عـلمية شـاملة ، لعهد الخديو توفيق في السودان . ولهذا فقد كان اختياري للموضوع ،يمثل رغـبة ذاتيـة في تـناول هذه الفترة بالبحث والاستقصاء،وتتبع التطورات التي نتجت عن الأحداث في السودان في ذلك العهد . ولعل هذا الموضوع يساعد في سد ثغرة هامة في المكتبة السودانية .

ورغـم أن عهد الخديو توفيق في السودان ، كان قصيراً ، ولم يكن حافلاً بالإنجازات الحضـارية ، كعهـد والده الخديو إسماعيل ، إلا أن أهمية هذا الموضوع تكمن في التطورات الكبيرة ، والأحداث المتلاحقة ، التي صحبته ، وكانت ذات أثر هام في التأثير على الأوضاع في السودان . وكان أبرز هذه التطورات في مصر ، التدخل الأجنبي ، وقيام الثورة العرابية ،

وما ترتب عليها من الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢م . وخضوع الخديو توفيق وحكومته لسلطات الاحتلال البريطاني في مصر .

وعلى الباحث أن يتتبع في هذه الفترة ، أثر كل هذه التطورات على السودان . وبخاصة قيام الثورة المهدية (١٨٨١-١٨٩٩م) . وأن يبين أهداف وأساليب التدخل البريطاني، والدور البطولي للشعب السوداني في التصدي والمقاومة لهذه الأساليب والأهداف . وما حققته الثورة المهدية من تلاحم وترابط ، وإيمان بالقيم الإسلامية في السودان .

إننا بحاجة إلى دراسة علمية ، موضوعية ، متجردة ، تتناول العلاقات بين مصر والسودان في العهد التركي عموماً ، وفي عهد الخديو توفيق على وجه الخصوص ، لتحدد العوامل الحقيقية ، لإخفاق وفشل تجربة الوحدة بين مصر والسودان في هذه الفترة . ومثل هذه الدراسة العلمية ، أمر هام وضروري لبناء أية وحدة جديدة ، أو علاقات تعاون بين شعبي وادي النيل في مصر والسودان .

منهج البحث :

توخيت في هذه الدراسة المنهج التاريخي ، باعتباره أصلح المناهج العلمية وأفضلها لدراسة التاريخ . كما راعيت التسلسل التاريخي في استقصاء الأحداث والظواهر التاريخية . وكذلك استخدمت المنهج الإستقرائي ، في فحص ومعالجة المجموعة الكبيرة من الوثائق التي حصلت عليها ، وعلى رأسها ، مجموعة الوثائق المحفوظة في دار الوثائق القومية بالخرطوم ، والوثائق المحفوظة في دار الوثائق القومية بالقاهرة ، والتي توجد منها مجموعة من الوثائق المصورة أو المنسوخة ، في دار الوثائق القومية بالخرطوم .

ولقد بذلت جهدي في اتباع الأسلوب العلمي ، الذي يتسم بالموضوعية والتجرد ، في فحص هذه الوثائق التاريخية ، وقبول النتائج التي توصلت إليها .

الصعوبات التي واجهت البحث :

قد يبدو للوهلة الأولى أن البحث في هذا الموضوع (السودان في عهد الخديو توفيق) ، أمر سهل وميسر . وذلك لقصر الفترة الزمنية التي يغطيها ، وتناول الباحثين لبعض موضوعاته. ولكن بعد الدراسة ، تبين لي أن هذا الموضوع واسع ومتشعب . وأن الباحث فيه يواجه عدة صعوبات.

وهذه الصعوبات على النحو التالي :

١- لا يقتصـــر هـــذا الموضوع على سياسة الخديو توفيق في السودان فقط ، كما يتبادر لـــلذهن ، وإنما هو موضوع مفتوح ، يشمل كافة الأطراف المؤثرة في القرار . إذ أن الخديـــو توفيـــق ، لم تكـــن له سياسة إيجابية ، مستقلة ، في حكم السودان . وذلك لضعف شخصيته وخضوعه للتدخل الأجنبي ، وسلطات الاحتلال البريطاني في مصر.

٢- كمـــا يشمل هذا الموضوع أيضاً ، كافة التطورات والأحداث المرتبطة بعهد الخديو توفيق في مصر . كأحداث الحركة الوطنية والثورة العرابية ، وتأثيرها في الأوضاع في السودان ، لاسيما أحداث الثورة المهدية ، ومحاولات القضاء عليها .

٣- وممـــا يزيد من الصعوبات التي تواجه الباحث ، أن بعض جوانب الدراسة ، يقتضي تتبع جميع فترة الحكم التركي المصري في السودان ، وذلك كأسباب الثورة المهدية .

٤- وأمام هذه الصعوبات ، كان على الباحث أن يتلمس طريقه ، للحصول على المصادر الأولية ، والوثائق الهامة . وقد وفقت بحمد الله تعالى ، في دراسة الوثائق الموجودة في دار الوثـــائق القوميـــة بالخرطوم . وهي تحوي وثائق المهدية ، وبعض الوثائق الهامة ، الخاصـــة بالمخابرات المصرية ، وبعض الوثائق المخطوطة أو المصورة من دار الوثائق القوميـــة بالقاهـــرة . وبعض الوثائق الإنجليزية المصورة (P.R.O.) والخاصة بوزارة الخارجية البريطانية (F.O.) .

٥- ولقد بذلت جهدي في الحصول على الوثائق المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة ، رغم الصـــعوبات التي واجهتني في الحصول عليها ، في وقت تعذر فيه السفر إلى مصر، بسبب بعض العقبات التي طرأت على العلاقات بين مصر والسودان ، في فترة هذا البحث .

٦- ولعل ظروف عملي بالخليج ، وعدم تفرغي الكامل للدراسة ، يمثلان أيضاً . واحدة من هذه العقبات ، التي أدت إلى إطالة مدة هذا البحث .

خطة البحث:

يتألف هذا البحث من مقدمة وتمهيد ، وخمسة فصول ، وخاتمة . وقد راعيت أن تكون خطة البحث ، متوازنة ، وشاملة ، ووافية بعنوان البحث :السودان في عهد الخديو توفيق .

ولقد كانت خطة البحث على النحو التالي :

١- مقدمة : تشمل أهمية الموضوع ، ومنهجه وخطته ، والصعوبات التي واجهته ، وتقويم المصادر والمراجع .

٢- تمهيد : السودان قبل عهد الخديو توفيق (١٢٣٥-١٢٩٦هـ/١٨٢١-١٨٧٩م) وهو يمثل خلفية تاريخية للبحث .

٣- الفصل الأول : وهو سياسة الخديو توفيق في السودان ، (١٢٩٦-١٣٠٢هـ/ ١٨٧٩- ١٨٨٥م). ناقشت فيه المؤثرات في حكم الخديو توفيق ، وخطته السياسية والإدارية لحكم السودان ، والتغيرات التي حدثت في عهده .

٤- الفصل الثاني : الثورة المهدية – نشأها وأسباها :وقد تناولت فيه دراسة شخصية محمد المهدي ، ونشأته ، وأسباب إعلان الثورة المهدية.

٥- الفصل الثالث : وهو الحكومة المصرية والثورة المهدية . تتبعت فيه جهود الحكومة المصرية في مواجهة الثورة المهدية ، حتى نهاية حكم الحكمدار عبد القادر باشا حلمي (مارس ١٨٨٣م).

٦- الفصل الرابع : بعنوان حملة هكس باشا ونتائجها (واقعة شيكان) يتناول ظروف إعداد الحملة ، ودور بريطانيا فيها ، والنتائج التي ترتبت عليها .

٧- الفصل الخامس : وهو سياسة إخلاء السودان . ناقشت فيه مهمة غوردون في السودان . طبيعتها وأهدافها ، وعوامل فشلها .

٨- خاتمة : اشتملت على ملخص مختصر للبحث ، وأهم النتائج التي توصلت إليها ، والتوصيات للباحثين في هذا المجال .

تقويم أهم المصادر والمراجع :

أولاً : المصادر الأولية العربية :

تمثل الوثائق والمخطوطات ،غير المنشورة ، والمحفوظة في دار الوثائق القومية بالخرطوم، أهـم المصـادر الأولية التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة . وهي عبارة عن المنشورات ، والرسائل ، والخطابات ، الصادرة من محمد المهدي إلى أحبابه ، وخلصائه ، وأنصاره وغيرهم، كمـا تشمل الخطابات الواردة إلى محمد المهدي ، من القواد والأمراء وغيرهم . وقد وضعت هذه الرسائل والمنشورات تحت قائمة المهدية . وبعضها تحت قائمة المتنوعات . ومعظمها يحمل أسماء قادة المهدية .

وهـناك مصنفات ، تم تصنيفها تحت اسم الشخص الذي جمعها وأهداها لدار الوثائق القومية ، أو تبعاً للجهة التي تحتفظ بها (١).

كمـا توجد بدار الوثائق القومية بالخرطوم ، وثائق خاصة بالمخابرات المصرية ، تحوي بعـض الـتقارير والبرقيات . وأيضاً توجد بعض الوثائق المصرية ، مستنسخة من دار الوثائق القومية بالقاهرة تحمل رقم ٤٤٢ .

وتمثل مذكرات عثمان دقنة ، التي عثر عليها في مركز عفاييت بطوكر في ٢١ مارس ١٨٩١م ، مصـدراً هامـاً لوثائق شرق السودان . وقد استفاد منها ريجنالد ونجت ، مدير المخابـرات المصـرية آنذاك ، والحاكم العام للسودان فيما بعد ، في كتابة تقاريره عن شرق السـودان . ولكـنه شكك في نسبتها لعثمان دقنة . غير أن الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم الذي حقق هذه المذكرات عام ١٩٩١م ، أثبت صحتها ونسبتها إلى عثمان دقنة (٢).

وأما الوثائق غير المنشورة والمحفوظة في دار الوثائق القومية بالقاهرة ، فهي تمثل جزءاً هاماً من المصادر الأولية ، لهذا البحث ، وهي تشمل ، محافظ أبحاث السودان ، ودفاتر المعية السنية والبرقيات الصادرة والواردة إلى مصر والتقارير الخاصة بالسودان ، ومجموعة الأوامر العالية .

---

(١) انظر قائمة المصادر والمراجع في نهاية هذا البحث .

(٢) مذكرات عثمان دقنة ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩١م.

وقد تم نشر بعض هذه الوثائق . ومن ذلك ، مجموعة الوثائق التاريخية للسياسة المصرية في أفــريقيا . نشرها الدكتور السيد يوسف نصر عام ١٩٨٠م . ومجموعة نصوص ووثائق في التاريخ الحديث والمعاصر ، نشرها محمد فؤاد شكري وآخرون .

ومــن المخطوطــات الهامــة ، كتاب سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي.لمؤلفه ، إسمــاعيل عبد القادر الكردفاني . وقد حققه الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم عام ١٩٧٢م. والمؤلف ولد في عام ١٨٤٤م،ومعاصر للثورة المهدية ، واشتغل بالقضاء في عهد الخليفة عبد الله .وكتابه أول كتاب يؤلف في تاريخ المهدية عام ١٨٨٩م ، بتوجيه من الخليفة عبد الله(٣).

ومــن المخطوطات الهامة أيضاً رسالة من تأليف أحمد العوام ، وهو مصري الجنسية ، درس بالأزهــر ، وشارك في ثورة عرابي ، ثم نفي إلى الخرطوم ، حيث تشيع للثورة المهدية ، وكتب رسالته (نصيحة العوام) في ١٧ رمضان عام ١٣٠١هـ/١١ يوليو ١٨٨٤م . وأعلن فيهــا إيمانه بالثورة المهدية ، وكراهيته للحكومة المصرية . وانتهى الأمر باتهامه بتفجير مخازن السلاح بالخرطوم ، وقتل على يد غوردون (٤).

وثانياً : المصادر الأولية البريطانية :

وأهم هذه المصادر ، وثائق وزارة الخرجية البريطانية (F.O.) وتوجد منها صورة بدار الوثــائق القوميــة بالخــرطوم تحمــل الرمــز (P.R.O.) وهــو ا ختصار لمصدرها الأصلي (The Public Record Office) . وقــد اســتفدت منها بصورة خاصة في الفصلين الرابع والخامس من البحث .

وثالثاً : المصادر الثانوية العربية :

مــن المصادر الثانوية الهامة ، كتاب جغرافية وتاريخ السودان ، لمؤلفه ، نعوم شقير ، الذي ولد بلبنان عام ١٨٦٣م ، وعمل في المخابرات المصرية ، وشارك في حملة إنقاذ غوردون

(٣)الكــردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، تحقيق دكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .

(٤)أحمــد العوام : نصيحة العوام للخاص والعام من إخواني أهل الإيمان والإسلام ، والعلاقة بين العرابية والمهدية ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد رشدي حسن ، الدار السودانية ، الخرطوم . دار الفكر بيروت ، ١٩٧٩م .

عام ١٨٨٤م ، وحملة استرداد الخرطوم عام ١٨٩٨م . وكتابه هذا سفر ضخم يتصف بالشمول . وقد حقق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، الجزء التاريخي منه تحت عنوان ، تاريخ السودان (٥).

والكتاب مفيد،ولكن معلوماته ينبغي أن تؤخذ بحذر وتمحيص.وذلك لأن مؤلفه،إلى جانب أنه كان موظفاً في قلم المخابرات المصرية،كان مسيحياً ومعادياً للثورة المهدية.

وأما كتاب ، السودان بين يدي غوردون وكتشنر (٦)، لمؤلفه إبراهيم فوزي ، فأهميته تكاد ترقى به إلى مستوى المصادر الأولية ، فهو وثيقة هامة لأن كاتبه معاصر لعهد الخديو توفيق، ومشارك في الأحداث . فهو مصري الجنسية ، وعمل بالجيش المصري وكان مرافقاً لغوردون في مهمته الخاصة بإخلاء السودان ، وظل معه طيلة أيام الحصار ،حتى وقع أسيراً في أيدي أنصار المهدي بعد فتح الخرطوم ١٨٨٥م.

وهناك كتب المؤرخين المصريين المحدثين . ومعظم هؤلاء ، يتناول هذه الفترة ، من منطلق الدفاع عن الوجود المصري في السودان . وإثبات حق مصر في ممتلكاتها فيه . ومعظمهم ينساق وراء الهوى في تبرير مساوئ الحكم التركي المصري في السودان . ومن هؤلاء المؤرخين المصريين ، الدكتور محمد فؤاد شكري ، في كتابه مصر والسودان (٧).

ولقد أشاد الدكتور عبد الودود إبراهيم شلبي ، في كتابه الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته ، بالثورة المهدية . ولكنه ألقى باللائمة في مساوئ الحكم التركي المصري في السودان ، على الأتراك ، والشراكسة والأرناؤوط ، محاولاً إبعاد مصر عن المشاركة في هذه المساوئ !

ومن الكتب التي استفدت منها ، كتاب الوجود المصري في أفريقيا في القرن التاسع عشر (١٨٢٠-١٨٩٩م) ، للدكتور السيد يوسف نصر . فهو يتتبع تاريخ الحكم التركي المصري في السودان وشرق أفريقيا في دراسة علمية موثقة . وأفرد بعض الفصول لعهد الخديو توفيق في السودان (٨).

---

(٥)شقير(نعوم) : تاريخ السودان ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، دار الجيل ، طبعة جديدة، بيروت، ١٩٨١م.

(٦) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٥٨م.

(٧)محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ، القاهرة، ١٩٦٣

(٨)السيد يوسف نصر : (الدكتور) : الوجود المصري في أفريقيا (١٨٢٠-١٨٩٩م)، الطبعة الأولى ، دار المعارف، مصر ، ١٩٨١م.

وفيما يختص بالمؤرخين السودانيين ، فإن كتب الدكتور مكي شبيكة تمثل ذخيرة هامة في دراسة تاريخنا . ومن أهم كتبه ، السودان عبر القرون ، ومقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط (٩). وهو دراسة تاريخية ، لإبراز دور السودان في مقاومة الغزاة والمتجبرين . وكتاب تاريخ شعوب وادي النيل ، مصر والسودان ، في القرن التاسع عشر (١٠). وكتاب السياسة البريطانية في السودان (١١). وقد كتبه بالإنجليزية . وهو دراسة هامة للتدخل البريطاني في السودان في هذه الفترة ، وتمتاز آراؤه بالدقة والموضوعية .

ومن أهم المصادر في تاريخ الثورة المهدية ، كتاب الآثار الكاملة للإمام المهدي (١٢). وهو من ثمانية أجزاء ، تتضمن منشورات المهدي وخطبه ورسائله ، جمعها وحققها الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم . ويمثل جهداً كبيراً ، لاسيما أنه ألحق معه كتاب المرشد لآثار الإمام المهدي ، وقد استفاد في وضعه ، من خبرته الطويلة في العمل بدار الوثائق القومية بالخرطوم .

ومن كتبه ذات الصلة الوثيقة ببحثي كتاب الحركة الفكرية في المهدية (١٣).وهو من الكتب الهامة في إبراز الجانب الفكري والفلسفي من الثورة المهدية .

ويعتبر كتاب محمد علي باشا في السودان (١٤). لمؤلفه الدكتور حسن أحمد إبراهيم ، من الكتب الهامة في تاريخ هذه الفترة .وهو رسالة ماجستير بعنوان ، أهداف فتح محمد علي باشا للسودان أعدها عام ١٩٦٥م في جامعة الخرطوم .

---

(٩) مكي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، معهد البحوث والدراسات العربية ، المنظمة العربية للثقافة والعلوم ، القاهرة ، ١٩٧٢م.

(١٠) مكي شبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل مصر والسودان في القرن التاسع عشر ، دار الثقافة ، بيروت، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م.

(١١) **(11) Shibeika , M., Britsh Policy in the Sudan , (1882-1902) (London , 1952)Oxford University press, London , 1962.**

(١٢) الآثار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، ٨ أجزاء ، الطبعة الأولى، دار جامعة الخرطوم للنشر ، مطبعة جامعة الخرطوم ، ١٩٩٠-١٩٩٣م.

(١٣) محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، مطبعة جامعة الخرطوم ، الطبعة الثالثة ، الخرطوم ، ١٩٨٩م.

(١٤) حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : محمد علي باشا في السودان ، (رسالة ماجستير) ، الطبعة الثانية ، مطبوعات جامعة الخرطوم ، ١٩٩١م.

ومـــن أهـــم البحوث التاريخية العلمية ، ذات العلاقة الوثيقة ببعض الموضوعات التي عالجتها في هذه الدراسة ، رسالة دكتوراة بعنوان ، السودان في عهد الخديو إسماعيل ، أعدها الدكـــتور بشـــير كوكو حميدة عام ١٩٧٦م في جامعة الخرطوم (١٥). والرسالة عبارة عن مخطـــوط ضخم يتكون من ٩١٧ صفحة ، وتعتبر ذخيرة علمية هامة لعهد الخديو إسماعيل في السودان (١٨٦٣-١٨٧٩م)، وتمتاز بالدقة في البحث والموضوعية وقوة الحكم ، والاعتماد الفعال على المصادر الأولية . فضلاً عن الشمول والتوسع في تغطية مادة البحث .

هـــذا ، وقد تم طبع نسخة من هذه الرسالة ، بعنوان ملامح من تاريخ السودان في عهد الخديو إسماعيل ، عام ١٩٨٣م ، ضمن مطبوعات كلية الدراسات العليا بجامعة الخرطوم(١٦). غير أن هذه الطبعة ، في تقديري ، كانت مسخاً مشوهاً للرسالة .فهي تختزل كثيراً من المعلومات وتفتقر إلى جودة الطباعة والإخراج ولا ترقى للمستوى المطلوب لنشر هذه الرسالة القيمة .

ومـــن الرسائل العلمية الهامة ، التي استفدت منها ، رسالة دكتوراه بعنوان ، عصرا عـــباس ومحمد سعيد في السودان ، أعدها الدكتور محمد الأمين سعيد ، عام ١٩٧٦م بجامعة الخـــرطوم. وهـــي جهـــد عـــلمي كـــبير ، مدعم بالوثائق عن فترة عباس ومحمد سعيد في السودان(١٧).

أما رسالة الدكتور إبراهيم الجاك بعنوان الحياة الاجتماعية في الدولة المهدية بالسودان، فأهميتها تتمثل في تناولها للجانب الاجتماعي في الثورة المهدية بالسودان(١٨).

ولقد استفدت أيضاً من رسالة دكتوراه أعدها الدكتور إبراهيم عكاشة وتم طبعها عام ١٩٨٢م بعنوان التبشير النصراني في جنوب سوادن وادي النيل (١٩). وأهميتها في الكشف عن أساليب التبشير النصراني في العهد التركي المصري بالسودان .

---

(١٥)بشير كوكو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، رسالة دكتوراة (مخطوط) ، جامعة الخرطوم ، ١٩٧٦م.

(١٦)بشـــير كوكـــو حميدة (الدكتور) : ملامح من تاريخ السودان في عهد الخديو إسماعيل ، مطبوعات كلية الدراسات العليا ، الخرطوم ، جامعة الخرطوم ، الطبعة الأولى ، الخرطوم ، ١٩٨٣م.

(١٧)محمد الأمين سعيد (الدكتور): عصرا عباس ومحمدسعيد في السودان ، رسالة دكتوراة ، مخطوط ،جامعة الخرطوم، ١٩٧٦م.

(١٨)إبراهـــيم الجاك إبراهيم (الدكتور) : الحياة الاجتماعية في الدولة المهدية بالسودان (١٢٩٨-١٣١٥هـــ/١٨٨١-١٨٩٨م) – رسالة دكتوراة – جامعة أم درمان الإسلامية ، ١٤١٧هـــ/١٩٩٦م. (مخطوط).

(١٩)إبراهـــيم عكاشـــة (الدكتور) : التبشير النصراني في جنوب سودان وادي النيل (دكتوراة) ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، ١٤٠٢هـــ/١٩٨٢م.

ورابعاً : المصادر الثانوية الأوربية :

من أهم المصادر الأوربية التي استفدت منها كتاب اللورد ، كرومر بعنوان ، بريطانيا في الســـودان ، ولقد ترجمه عبد العزيز أحمد عرابي عام ١٩٦٠م (٢٠). وهو مصدر تاريخي هـــام، لأن مؤلفـــه السير ايفلين بارنج (كرومر عام ١٩٠٧م) ، كان يشغل منصب القنصل الـــبريطاني العام بمصر في عهد الاحتلال البريطاني ، منذ ١١ سبتمبر عام ١٨٨٣م . وعاصر الأحداث في السودان حتى فتح الخرطوم (١٨٨٥) . وكان له دور فعال في صنع الأحداث ، لأنه كان أحد أركان السياسة البريطانية . ولعله يمثل أهم الشخصيات المؤثرة في اتخاذ القرار بمصر والسودان في عهد الاحتلال البريطاني . ولهذا فإن كتابه هذا ، يعتبر وثيقة تاريخية هامة ، فـــيما يخـــتص بالسياسة البريطانية في السودان في هذه الفترة ، لاسيما أنه احتوى على أهم الرســـائل والبرقيات ، بين الحكومة البريطانية ، وسلطات الاحتلال البريطاني في مصر ، كما احـــتوى عـــلى أهم الرسائل بين كرومر وغوردون فيما يتعلق بسياسة إخلاء السودان .كما كشف الكثير من أسرار الدبلماسية البريطانية بشأن السودان .

ويعتـــبر كـــتاب سلاطين باشا ، السيف والنار في السودان (٢١). أحد المصادر الهامـــة في تاريخ هذه الفترة . رغم أن كثيراً من آرائه بحاجة إلى التمحيص والنظر ، فقد كان مؤلفه لا يخفى حقده ، وكراهيته للثورة المهدية . غير أن أهميته تكمن في ، أن مؤلفه كـــان مديـــراً لدارفور في عهد الخديو توفيق ، وعاصر أحداث الثورة المهدية ، واضطر لإعـــلان إسلامه ، وتسليم دارفور بعد موقعة شيكان . وظل سجيناً في أم درمان، حتى تمكـــن من الهرب أخيراً . وكتابه ترجم من الألمانية إلى الإنجليزية عام ١٨٩٦م على يد ونجت ، ثم ترجم إلى اللغة العربية عام ١٩٣٠م(٢٢).

---

(٢٠)كرومر (اللورد):بريطانيا في السودان ، ترجمة عبد العزيز أحمد عرابي ، الشركة العربية للطباعة والنشر،القاهرة، ١٩٦٠م.

(٢١) (21) Slatin , R.C., Fire and Sword in the Sudan ,(1879-1895),translated .by Wingate , (London , 1895).

(٢٢)ســـلاطين باشـــا : السيف والنار في السودان ، ترجمة جريدة البلاغ البيروتية ١٩٣٠م ، مكتبة الحرية ، أم درمان ، السودان، ١٩٣٠م .

ومن الكتب الهامة أيضاً كتاب المهدية في السودان (١٨٨١-١٨٩٩م)، لمؤلفه أ.ب. ثيوبولد(٢٣). وتتمثل فائدته في شموله لأحداث الثورة المهدية .

وأما كتب البروفسير ب.م. هولت ، فهي من المراجع الهامة في تاريخ السودان ، لأنـــه عمل فترة ، ليست بالقصيرة في دار الوثائق القومية بالخرطوم وساعد في تصنيف الوثـــائق بهـــا ، ممـــا أكسبه خبرة في تاريخ السودان . وقد عرف هذا المؤلف بقدر من الموضـــوعية . ولعل كتابه، الدولة المهدية في السودان (٢٤). من المراجع التي استفدت منها في كثير من جوانب بحثي .

ورغـــم أهمية هذه المراجع الأوربية ، في دراسة تاريخ السودان . إلا أننا ينبغي أن نـــتوخى الحــــذر في الاستفادة منها ، إذ أن معظمها ، ينطلق من أهداف صليبية تبشيرية حـــاقدة ، تمهـــد للتغـــلغل الاســـتعماري في السودان ، وتخطط للقضاء على الإسلام والمســـلمين. وخاصة كتابات المؤلفين الذين كانوا أسرى في عهد الثورة المهدية ، أمثال سلاطين باشا (٢٥).

---

(٢٣) (23) Theobald , A . B . , The Mahadiya ,(1881-1899) London , 1949.

(٢٤) (24) Holt , P.M., The Mahdist State in The Sudan ,(1881-1898) ,second edition ,London , 1970.

(٢٥)إبراهيم الجاك إبراهيم (الدكتور) : الحياة الاجتماعية في الدولة المهدية بالسودان ، المرجع السابق ص ٣٢٥.

قائمة المحتويات

(الفهرس)

قائمة المحتويات (الفهرس)

م	الموضوع	الصفحة
	(ب)عبد القادر باشا حلمي حكمدارا على السودان	١٤٣
	١-ولاية جيقلر الألماني نيابة عن الحكمدار	١٤٣
	٢-واقعة الشلالي	١٤٥
	٣-انتشار الثورة في الجزيرة	١٥٠
	٤-حركة الشريف أحمد طه	١٥١
	٥-الجهود العسكرية للحكمدار عبد القادر باشا	١٥٢
	٦-الحكمدار عبد القادر باشا يواجه الثورة في الجزيرة	١٥٤
	٧-حرب الدعاية	١٥٦
	٨-الثورة في كردفان	١٥٨
	٩-سقوط الأبيض	١٦٠
	١٠-استدعاء عبد القادر باشا	١٦٢
-٨	**الفصل الرابع : حملة هكس باشا ونتائجها**	(١٦٥-٢٠٨)
	(أ) الاحتلال البريطاني لمصر وسياسة عدم التدخل	١٦٦
	١-أهداف سياسة عدم التدخل في السودان	١٦٦
	٢-بعثة الكولونيل ستيوارت	١٧١
	(ب) حملة هكس باشا (واقعة شيكان)	١٧٦
	١-إعداد الحملة وتجهيزها	١٧٦
	٢-زحف الحملة ، وهزيمتها في شيكان	١٨٤
	٣-أسباب هزيمة حملة هكس	١٨٩
	(جـ) نتائج موقعة شيكان	١٩١
	١- أثر الهزيمة على الحكومة المصرية في السودان	١٩١
	٢-تسليم دارفور	١٩٤
	٣-تسليم بحر الغزال	١٩٥
	٤-تسليم مديرية خط الاستواء	١٩٦
	٥-الثورة المهدية في شرق السودان	١٩٦
	(د) تبلور السياسة البريطانية تجاه السودان	٢٠٢

تمهيد

السودان قبل عهد الخديو توفيق

(١٢٣٥-١٢٩٦ هـ / ١٨٢١-١٨٧٩م)

تمهيـــد

السودان قبل عهد الخديو توفيق

(١٢٣٥-١٢٩٦ هـ / ١٨٢١-١٨٧٩م)

ما من ريب ، أن العلاقات بين مصر والسودان قديمة وأزلية ، تمتد عبر القرون ، وتختـــلف قـــوة وضعفاً تبعاً لاختلاف الظروف السياسية ، والاقتصادية ، والثقافية بين البـــلدين . ولقـــد فكر معظم الملوك والسلاطين الذين استقلوا بحكم مصر ، في امتداد مـــلكهم جـــنوباً إلى بلاد السودان منذ عهد الفراعنة ، وخاصة في عهد الدولة المصرية الحديثة وما بعدها (١).

وفي عهد الإمبراطورية الرومانية ، التي امتد نفوذها إلى مصر ، بدأت المسيحية منذ القرن الأول الميـــلادي تتســـرب إلى الممالك النوبية القديمة في السودان ، ولكن انتشارها ظل محـــدوداً ، إلى أن اعتنق ملوك ، دنقلا وسوبا ،هذه الديانة المسيحية في الفترة بين عامي (٥٤٣-٥٨٠م) ، وجعـــلوها ديانة رسمية في بلادهم (٢). إلا أن تأثيرها ظل ضعيفاً ، لأنها بقيت دين الطبقة الحاكمة (٣). ولم تتغلغل إلى الشعب في الأرياف (٤).

وعـــندما فـــتح المســـلمون مصر عام ١٨هـ/٦٣٩م ، اتجهوا لنشر الإسلام جنوباً والـــتوغل في بـــلاد الســـودان ، حيث كانت أول حملة عسكرية ضد النوبة في عهد الخليفة

---

(١) حســـن أحمد إبراهيم (الدكتور) : محمد علي باشا في السودان ، رسالة ماجستير ، دار جامعة الخرطوم للنشر، مطبعة جامعة الخرطوم ، الطبعة الثانية ، ١٩٩١م ، الخرطوم ، ص ٢٣ .

(٢) ج . فانـــتيني (الأب الدكـــتور) : تـــاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث ، الخرطوم، ١٩٧٨م ص ٤٠.

(٣) حســـن ســـليمان محمـــود (الدكتور) : تاريخ السودان من أقدم العصور إلى الآن ، دار الكتاب العربي، مصر ١٩٥٧ ، ص ٢١ .

(٤)ج.فانتيني (الأب الدكتور):تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث،المرجع السابق ص ١٩٨ .

الراشدي عمر بن الخطاب (٥). وتوالت الهجرات العربية والحملات العسكرية على بلاد النوبة بعد ذلك ، حتى تمكن العرب المسلمون من القضاء على الممالك المسيحية ، وإقامة حضارة عربية إسلامية على أنقاضها (٦).

وتمثلت أهم التطورات في تجمع القبائل العربية الضاربة في المنطقة بقيادة العبدلاب، وإسقاط مملكة علوة ، وتخريب عاصمتها سوبا ، وإقامة أول مملكة إسلامية في السودان ، تقلد العبدلاب فيها الحكم ، ثم جاء الفونج فيما بعد وتغلبوا على العبدلاب ، ومن ثم تم الاتفاق بين الفريقين على قيام مملكة الفونج الإسلامية ، في التقسيم المشهور بينهما (٧). وكان ذلك في عام ٩١٠هـ / ١٥٠٤م (٨).

ولقد ارتبط قيام مملكة الفونج الإسلامية بموجة فرح عمت العالم الإسلامي جميعه وكانت بلسماً لجراح المسلمين الذين كانوا يشعرون بالإحباط لسقوط الأندلس في أيدي المسيحيين (٩) قبل اثني عشر عاماً فقط من قيام دولة الفونج الإسلامية (١٠). مما فتح الباب لمزيد من هجرات العرب والمسلمين إلى بلاد السودان (١١).

---

(٥) المسعودي (علي بن الحسن) : مروج الذهب ، الجزء الأول ، الطبعة الرابعة ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٠م ص ٤٤١.

(٦) (6)Marlowe , J. , Anglo Egyptian Relations , (1800-1956) , Frank Cass and Company , L.T.D , Second Edition , London , 1965 . P. 138

(٧) مقابلة شخصية مع الدكتور بشير كوكو حميدة ، بمنزله بحلفاية الملوك بتاريخ ٢٠٠٠/٧/٢٥م وانظر كتاب أعلام وأيام الذي أصدرته جامعة أم درمان الإسلامية ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، مطبعة جامعة أم درمان الإسلامية ، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م ، ص٤١ .

(٨) أحمد بن الحاج أبو علي : مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، وشركاه ، القاهرة ، ١٩٦١م ، ص ٦ ، ٧.

(٩) كان سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس عام ١٤٩٢م ، مأساة أنهت ثمانية قرون من الوجود الإسلامي العربي في الأندلس ، حيث كان المسلمون قد أشادوا حضارة إسلامية مزدهرة ، ولكنهم لم يحافظوا عليها بسبب خلافاتهم وصراعهم على السلطة !

(١٠) بابكر فضل المولى حسين : مظاهر الحضارة في دولة الفونج الإسلامية ، رسالة ماجستير ، مخطوط، القاهرة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص ٩٧.

(١١) (11)Arkill, A.J.,A Histotry of The Sudan from earliest times to 1821,second Edition , The Alton press, London , 1955 , P.220.

الراشـــدي عمـــر بن الخطاب (٥). وتوالت الهجرات العربية والحملات العسكرية على بلاد الـــنوبة بعـــد ذلك ، حتى تمكن العرب المسلمون من القضاء على الممالك المسيحية ، وإقامة حضارة عربية إسلامية على أنقاضها (٦).

وتمثـــلت أهم التطورات في تجمع القبائل العربية الضاربة في المنطقة بقيادة العبدلاب، وإسقاط مملكة علوة ، وتخريب عاصمتها سوبا ، وإقامة أول مملكة إسلامية في السودان ، تقلد العبدلاب فيها الحكم ، ثم جاء الفونج فيما بعد وتغلبوا على العبدلاب ، ومن ثم تم الاتفاق بين الفـــريقين على قيام مملكة الفونج الإسلامية ، في التقسيم المشهور بينهما (٧). وكان ذلك في عام ٩١٠هـــ / ١٥٠٤م (٨).

ولقـــد ارتـــبط قيام مملكة الفونج الإسلامية بموجة فرح عمت العالم الإسلامي جميعه وكـــانت بلســـماً لجراح المسلمين الذين كانوا يشعرون بالإحباط لسقوط الأندلس في أيدي المسيحيين (٩) قبل اثني عشر عاماً فقط من قيام دولة الفونج الإسلامية (١٠). مما فتح الباب لمزيد من هجرات العرب والمسلمين إلى بلاد السودان (١١).

---

(٥) المســـعودي (عـــلي بـــن الحسن) : مروج الذهب ، الجزء الأول ، الطبعة الرابعة ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٠م ص ٤٤١.

(٦) (6)Marlowe , J. , Anglo Egyptian Relations , (1800-1956) , Frank Cass and Company , L.T.D , Second Edition , London , 1965 . P. 138

(٧) مقابـــلة شخصية مع الدكتور بشير كوكو حميدة ، بمنزله بحلفاية الملوك بتاريخ ٢٥/٧/٢٠٠٠م وانظر كتاب أعـــلام وأيـــام الذي أصدرته جامعة أم درمان الإسلامية ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، مطبعة جامعة أم درمان الإسلامية ، ١٤٢١هـــ/٢٠٠٠م ، ص٤١ .

(٨) أحمد بن الحاج أبو علي : مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، وشركاه ، القاهرة ، ١٩٦١م ، ص ٦ ، ٧.

(٩) كـــان ســـقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس عام ١٤٩٢م ، مأساة أنهت ثمانية قرون من الوجود الإســـلامي العـــربي في الأندلـــس ، حيث كان المسلمون قد أشادوا حضارة إسلامية مزدهرة ، ولكنهم لم يحافظوا عليها بسبب خلافاتهم وصراعهم على السلطة !

(١٠) بابكر فضل المولى حسين : مظاهر الحضارة في دولة الفونج الإسلامية ، رسالة ماجستير ، مخطوط، القاهرة ، ١٤٠٥هـــ/١٩٨٥م ، ص ٩٧.

(١١) (11)Arkill, A.J.,A Histotry of The Sudan from earliest times to 1821,second Edition , The Alton press, London , 1955 , P.220.

(أ) عهد محمد علي باشا في السودان

(١٢٣٧-١٢٦٥هـ/ ١٨٢١-١٨٤٩م)

تولى محمد علي باشا الحكم في مصر عام (١٢٢٠هـ/١٨٠٥م) . ولم يكن مستغرباً أن يفكر في التوسع جنوباً نحو السودان . فقد كان شديد الطموح ، وكان يهدف إلى الاستقلال بمصر ، والبلاد العربية ، عن الدولة العثمانية ، بل ربما ذهب به الطموح إلى أبعد من ذلك ، بالتفكير في الاستيلاء على الإمبراطورية العثمانية نفسها ؛ حيث كانت تعاني من الضعف(١٢). وكان يدرك تماماً أن طبيعة العلاقات بين مصر والسودان ذات أثر عميق في تحقيق طموحاته (١٣).

ويبدو لنا أن الأهداف العسكرية والاستراتيجية كانت في مقدمة أهداف محمد علي باشا لفتح السودان ، فقد كان الجيش هو الدعامة الأولى التي أشاد عليها محمد علي كيان دولته. ولهذا فكر في تجنيد السودانيين الذين اشتهروا بالشجاعة والصبر والطاعة ، ليكونوا بديلاً عن جنده الأرناؤوط والألبان ، الذين كانوا ينزعون إلى التمرد والعصيان (١٤).

وتشير الوثائق إلى أن الحصول على الرقيق الصالحين للجندية ، كان يمثل أهم أسباب فتح محمد علي باشا للسودان . فقد جاء في رسالته إلى ابنه إسماعيل قوله : " وجلب السودانيين هو غاية المراد ونتيجة المقصود مهما كانت الصورة التي يجلبون بها من أوطانهم"(١٥). ويؤكد ذلك في رسالة أخرى بقوله : " إن قيمة العبيد عندنا بمثابة قيمة الجواهر " (١٦). ويوضح في رسالة أخرى أن جلب الرقيق أهم من جمع المال ، حيث يقول :

---

(١٢) حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : محمد علي باشا في السودان ، المرجع السابق ص ٢٣.

(١٣) رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور) : مصر والسودان في العلاقات الدولية ، عالم الكتب ، القاهرة ، مصر ، عام ١٩٧٧م ، ص ٣٤.

(١٤) الرافعي (عبد الرحمن) : عصر محمد علي ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، مصر ، القاهرة ، عام ١٤٠٩ هـ/١٩٨٩م ص ١٥٦.

(١٥) دار الوثائق القومية ، القاهرة ،دفتر ١٠، معيه تركي ، المكاتبة رقم ١٧ ، ٢٧ محرم ١٢٣٧هـ/١٨٢١م.

(١٦)دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محفظة٣ ، معية تركي سنية ، وثيقة ٢٤٠ ، دفتر ١٠ ، معيه تركي، في ربيع الأول ١٢٣٧هـ/١٨٢١م دار الوثائق القومية ، القاهرة .

" المقصـــود الأصلي من هذه التكلفات الكثيرة ، والمتاعب الشاقة ليس جمع المال ، كما كتبنا إليكـــم ذلك مرة بعد أخرى ، بل الحصول على العبيد الذين يصلحون لأعمالنا ، ويجدرون لقضاء مصالحنا "(١٧).

ولعل الرسالة الأخيرة تبين أن محمد علي باشا كان يهدف إلى جانب الاستفادة من الرقيق عسكرياً إلى استخدامهم في العمل بالمشاريع الزراعية والصناعية في مصر(١٨).

وكـــان محمد علي يعقد الآمال على الاستفادة من السودان اقتصادياً ، وخاصة الحصول عـــلى الذهب في سنار وكردفان . وتشير رسائله إلى الدفتردار بضرورة البحث عن الذهب في جبال كردفان (١٩). وكذلك البحث عن معدن الحديد واستخراجه(٢٠).

وكان يهدف أيضاً إلى الاستفادة من حاصلات السودان الزراعية والتجارية كريش النعام والعـــاج ، والماشـــية وغيرهـــا (٢١). وهذا يقتضي الاهتمام بتأمين طرق التجارة التي اتسمت بالفوضى نتيجة ضعف مملكة الفونج في أواخر عهدها (٢٢).

وهكـــذا اختمرت فكرة فتح السودان في ذهن محمد علي باشا، فبدأ بجمع المعلومات ، وإعـــداد العدة لتنفيذ مهمته . فأعلن أن هذا الفتح يتم باسم خليفة المسلمين في تركيا ، وكان ذلك تبريراً لغرض الفتح ، إذ أن السلطان العثماني لم يكلفه بذلك ! ولكن محمد علي سعى فيما بعـــد إلى الحصـــول على اعتراف الدولة العثمانية بفتوحاته(٢٣). كما أنه استصدر فتوى من الأزهر تحلل له فتح هذه البلاد الإسلامية ، حتى لا تحدث غضاضة أو تذمر بين جنوده المسلمين (٢٤). واصطحب محمد علي باشا ، في حملة الفتح ثلاثة من أئمة المذاهب الإسلامية

---

(١٧) دفتر ١٠ ، معية تركي ، المكاتبة رقم ١٤ ، ٣ صفر ١٢٣٧هـ/١٨٢١م.

(١٨) (18)Hill ,R.,Egypt in the Sudan , 1820-1881, Oxford University Press, (London , New york ,Toronto ,1959), P.7.

(١٩)دار الوثائق القومية ، القاهرة،دفتر ١٠ ،معيه تركي،وثيقة ٤٨ ، ١٥ ربيع الأول ، ١٢٣٧هـ /١٨٢١م.

(٢٠)دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر ١٠ ، معيه تركي ، المكاتبة رقم ٢٤ ، ١٢٣٧هـ/١٨٢١م.

(٢١) (21) Marlowe ,J., Anglo Egyption Relrations op.cit. , P.139.

(٢٢) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ، دار الإرشاد الخرطوم ، ١٩٦٩م ص ١٢.

(٢٣) عمر عبد العزيز (الدكتور): تاريخ المشرق العربي ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ٣٦.

(٢٤) محمد رفعت : تاريخ مصر السياسي في الأزمنة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٢٧م.

نقلاً عن الدكتور رأفت غنيمي الشيخ : مصر والسودان ، المرجع السابق ص ٧٨ .

وذلك لتيسير مهمة الحملة (٢٥).

أعد محمد علي حملتين لفتح السودان ، إحداهما بقيادة ابنه إسماعيل لفتح المناطق النيلية حتى سنار ، والأخرى بقيادة صهره محمد الدفتردار لفتح كردفان ودارفور (٢٦). ولم تجد حملة سنار أي مقاومة تذكر في بلاد النوبة وحتى دنقلا . ورغم ما أبداه الشايقية من شجاعة وجسارة في مقاومتهم الباسلة للحملة ، إلا أن المعركة انجلت بهزيمتهم ، وتسليمهم، وانضمامهم للجيش الفاتح (٢٧).

وأما زعماء بربر ، وشندي ، والعبدلاب ، فلم يسعهم إلا التسليم للجيش الفاتح. ولم ينجح الوزير محمد ودعدلان ، الذي كان يتمتع بالسلطة الفعلية في سنار ، في تنظيم عملية المقاومة والدفاع عن سنار ، حيث اغتيل في هذه الظروف الحرجة ، وراح ضحية المؤامرات والخلافات والصراع على السلطة (٢٨). ولم يكن في مقدور الملك بادي السادس، أن يقاوم الجيش الفاتح ، فآثر التسليم ، ووقع تنازلاً عن جميع سلطاته لخليفة المسلمين في اسطنبول، مبايعاً له في رمضان ١٢٣٦هـ/١٣ يونيو ١٨٢١م ، وكان ذلك نهاية لعهد دولة الفونج الإسلامية التي ظلت تحكم السودان ما يزيد على ثلاثة قرون (٢٩).

وفي هذا الصدد أشار الجبرتي إلى فرحة أهل مصر بهذا الحدث العظيم ، الذي جاءت به بشائر الأخبار ، باستيلاء إسماعيل على سنار دون قتال ، وضربت مدافع القلعة في مصر تعبيراً عن هذه الفرحة (٣٠).

أما حملة كردفان فقد واجهت مقاومة باسلة من المقدوم مسلم ، زعيم كردفان، انتهت بهزيمته ومقتله(٣١). واستولى الدفتردار على الأبيض عاصمة كردفان في ١٩ ذي القعدة

---

(٢٥) شقير (نعوم):تاريخ السودان ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم،دار الجيل،بيروت،١٩٨١م،ص١٩٦

(٢٦) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ، المرجع السابق ، ص ٢١.

(٢٧) و : نكولز : الشايقية ،ترجمة عبد المجيد عابدين ، الدار السودانية للكتب ، الطبعة الأولى ، الخرطوم ،عام ١٩٧٢ ، ص ٤٨.

(٢٨)شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

(٢٩) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، دار الثقافة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، لبنان، ص ١٠٩.

(٣٠) الجبرتي (الشيخ عبد الرحمن) عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ج٣ ، دار الجيل ، بيروت ، ص ٦٥٩.

(31)Holt , P.M., Amodern History of The Sudan from The Fung Sultenate to The Present Day (London , 1963) P.42 . (٣١)

١٢٣٦هـ الموافق ٢٠ أغسطس ١٨٢١م (٣٢). وبذلك أصبح السودان رسمياً ضمن أملاك الدولة العثمانية ، إلا أنه في واقع الأمر ظل خارج نطاق سيطرة العثمانيين الفعلية(٣٣).

ورغم هذا النجاح الذي تحقق باستيلاء محمد علي باشا على السودان فإن البلاد لم تنعم بالهدوء والاستقرار ، إذ سرعان ما بدأت الثورات والاضطرابات ضد الحكم التركي المصري الذي كان طابعه القسوة والوحشية (٣٤).

ولقد ارتبط قيام هذه الثورات بصورة خاصة بتقدير وفرض الضرائب بواسطة اللجنة التي كان يرأسها حنا الطويل ، وهو قبطي ، يعاونه ديوان أفندي والأرباب دفع الله (٣٥). وذلك لجمع المال اللازم للإنفاق على القوات العسكرية ، ورجال الميري (٣٦). ولقد تم إجراء إحصاء دقيق لعدد القرى في ، سنار، وفازوغلي ، والحلفاية ، وكردفان ،حتى لا تتهرب أية قرية من دفع الضريبة(٣٧).

لم يألف السودانيون هذه الضرائب التي كانت باهظة وجديدة عليهم . وباعتراف والي مصر فإن واضعي الضرائب قد " تعدوا حدود الاعتدال " (٣٨). ولهذا لم يكن غريباً أن يهجر السودانيون أوطانهم فراراً من هذه الضرائب إلى جهات الحبشة وغيرها (٣٩).

---

(٣٢) شوقي عطا الله الجمل (الدكتور) : تاريخ سودان وادي النيل ، ج٢ ، الطبعة الأولى ، الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٩م ، ص٢٨.

(٣٣) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : ملامح من تاريخ السودان في عهد الخديو إسماعيل ، مطبوعات كلية الدراسات العليا ، جامعة الخرطوم ، السودان ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م ، ص١.

(٣٤) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، الخرطوم ، ١٩٦٤ ، ص ٤١.

(٣٥) الشاطر بصيلي عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل ، الطبعة الثانية ، مكتبة العرب ، القاهرة، ١٩٦٢م ص١٣٨.

(٣٦) دار الوثائق المصرية ، القاهرة ، محفظة ٣ ، معية سنية ، وثيقة ٥٨ ، في ربيع الأول ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م

(٣٧) دار الوثائق المصرية ، القاهرة ، دفتر ٢٠ ، معية تركي ، وثيقة ٣٦٩ ، ٨ رمضان ١٢٤١هـ /١٨٢٥م{وثيقة تبين نتائج الإحصاء}.

(٣٨)دار الوثائق المصرية ، القاهرة ، دفتر ١٠ ، معية تركي ، المكاتبة رقم ٣٢٥ ، بتاريخ ٥ ذو القعدة ١٢٣٧ هـ ، ٢٤ يوليو ١٨٨٢م ، من الجناب العالي إلى سر عسكر كردفان .

(٣٩) محفظة ١٩ ، بحر برا ، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣١ ، بتاريخ ١ رجب ١٢٣٧هـ الموافق ١٨٢٢م ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

وكان لمقتل إسماعيل باشا على يد الملك نمر بشندي ، نتائج خطيرة للغاية ، فقد عمت الـثورة معظـم البلاد ، وعاشت البلاد حالة من الرعب والفوضى نتيجة حملات الدفتردار الانتقامية ، وأصبحت ، كما أشار الدكتور بشير كوكو حميدة : " في حالة حرب مستمرة بين محاولات فرض السيطرة ، ومحاولات الثورة المستمرة ضد الحكومة التركية"(٤٠).

وقد أثارت مذابح الدفتردار مشاعر الرأي العام الأوربي ضد محمد علي باشا ، وأدت إلى رفع استنكارهم واحتجاجهم إليه ، فكان ذلك أول تدخل أجنبي ، وخاصة من بريطانيا في السـودان (٤١).فـلم يلـبث محمد علي أن استدعى صهره الدفتردار للتخلص من النقد ، وتحسين صورة الحكم التركي المصري في السودان .

ثم عمـد محمـد عـلي إلى محاولـة توخي سياسة، إدارية، وعمرانية حسنة لتحقيق الاسـتقرار، ووضـع الأسس السليمة للنهوض بالبلاد اقتصادياً ، فأسس النظام الإداري في السـودان على غرار النظام الإداري في مصر ، وهو مقتبس من النمط التركي (٤٢). وجعل على رأس الإدارة في السودان حاكماً أطلق عليه لقب الحكمدار ، وهو يتمتع برتبة الباشوية ، وفي يده جميع السلطات (٤٣).

ولقد تعاقب على حكم السودان في عهد محمد علي باشا عدد من الحكمداريين ، كان أبـرزهم خورشيد باشا (١٨٢٦-١٨٣٨م)، الذي كان له دور كبير في استقرار الأحوال ، وإقـناع الأهالي بالمشاركة في النظام الجديد . ولقد ساعده في ذلك بعض السودانيين ، منهم الشـيخ عـبد القادر ود الزين الذي اشتهر بسداد الرأي ،ورجاحة العقل ، وثقابة الفكر ، وحسن التدبير ، حتى أعجب به محمد علي عند زيارته لمصر (٤٤). ومنهم أيضاً الشيخ أحمد الريح العركي الذي كان مستشاراً لخورشيد باشا(٤٥).

---

(٤٠) بشـير كوكـو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، رسالة دكتوراه ، مخطوط ، جامعة الخرطوم ، ١٩٧٦، ص ١٠.

(٤١) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٤٦.

(٤٢) (42) Holt , P.M., Amodern History of The Sudan , op.cit., P.39 .

(٤٣) الرافعي (عبد الرحمن) : عصر محمد علي ، المرجع السابق ، ص ١٧٠.

(٤٤) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، المرجع السابق ، ص ٢٢٣.

(٤٥)ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٥٧.

بيــد أن الــنظام المركزي، الذي سار عليه محمد علي في بداية عهده ،خضع للتعديل بسبب أطماع الحكمدار أحمد باشا أبو ودان (١٨٣٨-١٨٤٣م)، الذي طمح إلى الاستقلال بالســودان . واستبدل محمد علي باشا منصب الحكمدار بمنصب (المنظم) الذي يشرف على التنظـيم والتنســيق بين المديريات التي تتبع رأساً لمصر ، وعليه فقد كانت سلطاته ضعيفة ، ضماناً لاستمرار سيطرة محمد علي باشا على البلاد (٤٦).

ونتـيجة لذلك دبت الفوضى والاضطراب في جهاز الإدارة ، فاضطر محمد علي إلى التراجع ، وقرر إرجاع المركزية ، على ألا يكون الحكمدار قوياً كأبي ودان (٤٧). بل يكون مــن الشخصــيات الــتي يســهل قيادها ، فاختار خالد باشا (١٨٤٦-١٨٥٠م)، ليكون حكمــداراً ، فــلم يظهــر مــن القوة والكفاءة ، ما كان لخورشيد باشا ، وأحمد باشا أبو ودان(٤٨).

وفي مجــال الاقتصـــاد والعمران بذل محمد علي باشا جهوداً كبيرة لاستغلال موارد الســودان والاســتفادة من خيراته ، وخاصة التنقيب عن الذهب الذي كان من أهم أهداف محمد علي لفتح السودان (٤٩).

ولهذا فقد اهتم إسماعيل بن محمد علي بالبحث عن الذهب ، فور وصوله سنار ، وسار بنفسه إلى منطقة فازوغلي ،وجبال بني شنقول ، يصحبه الخبراء والمعدنون (٥٠). وتواصلت الجهــود ، فأرســل محمــد عــلي عــام ١٨٣٧م بعثتين من الخبراء للبحث عن الذهب في السودان(٥١) ، وخاصة مناطق فازوغلي ، وجبال بني شنقول (٥٢). إلا أن تقارير البعثتين

---

(٤٦) (46) Holt , P.M., Amodern History of The Sudan , op.cit. . P.59 .

(٤٧)بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ، المرجع السابق ، ص ٤١ .

(٤٨) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ١٤٢ .

(٤٩) حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : محمد علي باشا في السودان ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٥٠) دفــتر ١٠ ، معية تركي ، ترجمة المكاتبة رقم ٢٤٠ ، بتاريخ ٧ شعبان ١٢٣٧هـــ/١٨٢٢م ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(٥١) (51) Hill , R., Egypt in The Sudan , op.cit. , P.66 .

(٥٢) محفظــة رقم ٢٦٥ ، عابدين ، ملف حكمدار السودان ، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٨٨ ، بتاريخ ٢٢ محرم ١٢٥٤هـــ/١٨٣٨م، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

كـــانت مختلفة ، وغير مشجعة (٥٣)، مما جعل الباشا يقرر زيارة السودان بنفسه ، رغم كبر سنه . في ٢٨شوال ١٢٥٤هـــ /١٤ يناير ١٨٣٩م .

وكان من نتائج هذه الزيارة ، أن تحطمت آماله وأحلامه تماماً في الحصول على الذهب بكميات كبيرة . فاتجه إلى تعزيز جهوده في مجال الزراعة والتجارة وغيرهما (٥٤).

ومـــن الجهود التي بذلت في مجال الزراعة ، اهتمام محمد علي بالخبرة الزراعية، بإرساله مجموعـــة من المشايخ والخولية ، لتعليم أبناء السودان الزراعة على أسس علمية(٥٥). واهتمامه بـــالغلات الـــزراعية وخاصة الصمغ السناري ، وجلبه إلى مصر (٥٦). وقد استفاد من القطن السوداني طويل التيلة ، وأجرى تجارب لزراعته بمصر (٥٧). كما اهتم بزراعة قصب السكر في دنقـــلا ، حيـــث طـــلب مديرها إقامة مصنع لصناعة السكر(٥٨). كما اهتم بزراعة القمح ، والشعير ، والذرة ، وأمر بإصلاح السواقي المعطلة وزيادة عدد المواشي لإدارتها(٥٩).

وعند زيارته للسودان (١٨٣٨-١٨٣٩م)خاطب محمد علي باشا السودانيين مشيراً لهم بتقليد المصريين في الإنتاج ليرتقوا " من مصاف الحيوان إلى مستوى البشر " (٦٠)! ومع أن الباشا حاول في هذه العبارة دفع السودانيين إلى زيادة الإنتاج ، إلا أنه لم يحالفه التوفيق في التعبير عن واقع السودانيين بأنهم في مصاف الحيوان !

---

(٥٣)حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : محمد علي باشا في السودان ، المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٥٤) نفس المرجع ، ص١١٤.

(٥٥) دفـــتر ١٩ ، صادر ، معية تركي ، وثيقة ٣٦٧ ، ٢٧٠ ، غرة رجب ١٢٤١هـــ/ ١٨٢٥م، دار الوثائق القومية، القاهرة .

(٥٦) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، المجلس العالي ، الديوان الخديوي ، ٢٦٦/١١٤/٧٦٦ ، بتاريخ ١٠ شوال ١٢٤٥هـــ الموافق ٨ إبريل ١٨٣٠م.

(٥٧) محـــافظ أبحـــاث السودان ، دفتر ٨٥٦ ، ديوان خديوي ، وثيقة ٣٣٨١ ، في ١ ذي القعدة ١٢٤١هـــ / ١٨٢٥م دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(٥٨)محـــافظ أبحـــاث السودان ، دفتر ٢٤٤ ، معية تركي ، وثيقة ٤٤٦ ، في ربيع الثاني ١٢٤٨هـــ /١٨٣٢م، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(٥٩) محفظـــة ٢٦٨ ، عـــابدين ، وثيقة ٧٨ ، في ٢٥ شوال ١٢٥٥هـــ الموافق ١٨٣٩م، دار الوثائق القومية ، القاهرة.

(٦٠) (60)F.O.(Foreign Office) 78, 373 Combell , 28 May , 1839.

نقلاً عن رسالة الدكتور بشير كوكو حميدة ، السودان في عهد الخديو إسماعيل ، المرجع السابق ، ص ١٤.

ولم يكـــن اهتمام محمد علي بالتجارة أقل من اهتمامه بالزراعة . فقد عمل على تأمين الطـــرق التجارية وحماية القوافل . وعمد إلى احتكار تجارة العاج ، وريش النعام ، والصمغ ، لــتعويض فشـــله في الــتعدين ، واهــتم بــتجارة الجمال والمواشي ، واستفاد من الجلود والصوف(٦١).

وأمـــا في مجال الصناعة ، فقد تم إنشاء صناعات توفرت لها المواد الخام في السودان ، مثل صناعة النيلة التي أقام لها المصانع ليسهل نقلها إلى مصر (٦٢). وأرسل محمد علي العمال والصـــناع المهـــرة ، في شتى المهن ، إلى هذه البلاد ، حيث كانت احتياجات الميري تستلزم ذلـــك (٦٣). وكـــانت فـــترة أحمـــد باشـــا أبـــو ودان عامرة بالإنجازات تماماً مثل فترة خورشيد(٦٤).

ورغـــم هـــذه الجهود ، فإن سياسة محمد علي باشا في السودان ، قد ارتبطت ببعض الســـلبيات ، ومن أبرزها تجارة الرقيق وما تبعها من غزوات ، وانتشار الرشوة والاختلاس ، وتغـــلغل الأوربيـــين في السودان (٦٥)، حيث تزايدت أعدادهم في الخرطوم مستغلين حماية قناصل دولهم الأوربية (٦٦). وبلغت الإدارة حداً من السوء ، دفع الكثيرين من السودانيين إلى رفع عرائض التظلم من رداءة حكامهم (٦٧).

وفي تقديـــري أن أعمـــق السلبيات ، تمثل في فشل الحكم التركي المصري في إقناع الســـودانيين ، وهـــم مسلمون ، بأنهم أصبحوا تابعين لدولة تمثل الخلافة الإسلامية ، وتراعي

---

(٦١) محـــافظ أبحاث السودان ، دفتر ٨١ ، وثيقة ٣٦٦ ، في ٢٣ محرم١٢٥٣هـــ الموافق ١٨٣٧م، دار الوثائق القومية، القاهرة .

(٦٢) ديـــوان خديو تركي ، دفتر ٧٦٣ ، مكاتبة رقم ٢٩٧ ، قرار مجلس بتاريخ ٨ ذي القعدة ١٢٤٥هـــ ٣١ مايو ١٨٣٠م، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(٦٣) ديـــوان معية تركي ، دفتر ٥٧ ، من مجلس الحكام إلى المعية بتاريخ ٥ ذو القعدة ١٢٦٦هـــ/ ١٢ سبتمبر ١٨٥٠م، دار الوثائق القومية، القاهرة .

(٦٤) (64)Holt , P.M., Amodern History of The Sudan , op.cit. . P.59 .

(٦٥) رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور): مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٩١.

(٦٦) إبراهـــيم عكاشـــة (الدكتور) : التبشير النصراني في جنوب سودان وادي النيل ، رسالة دكتوراة ، (جامعة القاهرة ١٩٧٨)، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، ١٩٨٢م ص ٤٣.

(٦٧) بشير كوكو حميدة (الدكتور) :ملامح من تاريخ السودان في عهد الخديو إسماعيل ، المرجع السابق ، ص٢.

قواعـــد الإسلام في العدالة والمساواة ، وتطبق الشرع الإسلامي ، بل على العكس من ذلك ، "فـــإن السوداني في قريته الوادعة المطمئنة أشرب بغض التركي ، وكره منظر الجندي التركي بطربوشه وسوطه "(٦٨). ولا غرابة إذا ما اقترن اسم الأتراك في نفوس السودانيين ، بكل ما هو جائر وظالم (٦٩).

وقـــد أبرز المهدي فيما بعد ، هذه الحقيقة في منشوراته بقوله : " حكموا بغير ما أنزل الله ، وغـــيروا شريعة سيدنا محمد ﷺ ، وسبوا دين الله ، ووضعوا الجزية في رقابكم مع سائر المسلمين "(٧٠).

(ب) خلفاء محمد علي باشا

١-عباس بن طوسون (١٢٦٥-١٢٧١هـ / ١٨٤٨-١٨٥٤م):

تـــولى عباس بن طوسون بن محمد علي (١٢٦٥-١٢٧١هـ/ ١٨٤٨-١٨٥٤م) حكـــم مصر والسودان ، بعد وفاة عمه إبراهيم ، ومحمد علي جده لا يزال على قيد الحياة . بيـــد أنـــه كان ضعيفاً يعاني من الشيخوخة . وكان على الوالي الجديد أن يتدارك ما آل إليه الوضع في مصر والسودان ، من مشكلات ظهرت في أواخر عهد جده محمد علي (٧١).

ولقد كان عباس ذا طبيعة استبدادية ، فكان عهده كما وصفه الدكتور بشير كوكو حميـــدة بقوله : " كان عهد انتكاس وتدهور في كل من مصر والسودان ،إذ اتسم بالتراجع ثم التوقف في مجالي النهضة والتقدم التي تميزت بها حقبة محمد علي باشا "(٧٢). ولهذا فإن حركة التـــنمية في عهـــده أصيبت بالركود ، فقد " توخى سياسة مالية محورها الاقتصاد في النفقات الحكومية لا سيما في السودان ، حيث عطل المنشآت والمرافق العامة "(٧٣).

---

(٦٨) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٦٩) نفس المرجع ، ص ١٢٦.

(٧٠) مهديـــة ، ٥٦/٢٠/٣/٨ ، إنـــذارات ب ، ٢٤ شوال ١٢٩٩هـــ/ ٨ سبتمبر ١٨٨٢م ، من المهدي إلى أحبابه في الله ، دار الوثائق القومية، الخرطوم .

(٧١) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٧٢)بشير كوكو حميدة (الدكتور) : ملامح من تاريخ السودان في عهد الخديو إسماعيل ،المرجع السابق ، ص ٣.

(٧٣) نفس المرجع ، ص ٣.

ولعل من إيجابيات عهد عباس في مصر ، ما عرف به من عداء للأجانب ، إذ اتجه إلى طـرد الموظفـين الأوربيين ، ولم يبق منهم إلا القليل ، استجابة لالتماس من القنصل الفرنسي (٧٤).

وعـلى الـرغم من سياسته المعادية للأجانب في مصر ، فإن عهده في السودان ارتبط بسـيطرة هـؤلاء الأجانب . فقد أصدر عباس قراراً كان له دور خطير في مناطق السودان الجـنوبية ، ألا وهـو إطـلاق حـرية التجارة في السودان (٧٥). مما أدى إلى تزايد التجار الأوربيـين. ولقد استجاب عباس لضغط قناصل الدول الأوربية فعزل الحكمدار لطيف باشا الذي كان يعرقل حركة هؤلاء التجار الأجانب ، فاندفعوا تحقيقاً للثراء السريع (٧٦).

كمـا أن فترة عباس شهدت ازدياد نشاط الرهبان والمبشرين ، وغيرهم من الأجانب الذيـن كان نشاطهم ينطلق من أهداف استعمارية صليبية تهدف إلى تغلغل النفوذ الأوربي في البلاد(٧٧).

وقـد ارتبط عهد عباس بقيام أول مدرسة نظامية في السودان ، واختار لها علماً من أعلام الفكر في مصر ، ألا وهو رفاعة رافع الطهطاوي ، ليكون ناظراً لها (٧٨). ولكن يبدو أن عـباس كـان يـرغب في نفي الطهطاوي عن مصر ، أكثر من رغبته في خدمة التعليم في السودان (٧٩) !

---

(٧٤) دار الوثائق المصرية ، القاهرة ، محفظة ١٣ ، وثيقة بدون تاريخ .

– نقـلاً عن السيد يوسف نصر : (الدكتور) : الوجود المصري في أفريقيا من الفترة من ١٨٢٠-١٨٩٩م ، الطبعة الأولى ، دار المعارف، مصر ، ١٩٨١ ، ص ١٢٥.

(٧٥) مجلة الوقائع المصرية ، العدد ١٩ ، بتاريخ ١٩ جمادى الثاني ١٢٦٦هـ / ٢١ إبريل ١٨٥٠م .

نقـلاً عـن محمـد الأمين سعيد (الدكتور): عصرا عباس وسعيد في السودان ، رسالة دكتوراة ، غير منشورة ، ١٩٧٦م – جامعة الخرطوم ، ص ٢٠٧.

(٧٦) محمد الأمين سعيد (الدكتور): عصرا عباس وسعيد في السودان ، المرجع السابق ، ص ٢١٧.

(٧٧) إبراهيم عكاشة (الدكتور): التبشير النصراني في جنوب سودان وادي النيل ، المرجع السابق ، ص ٤٣.

(٧٨) محافظ أبحاث السودان ، دفتر ٢١٣٣ ، ديوان المدارس ، تركي ، وثيقة ١٦٧ ، ٦ رجب ١٢٦٦ الموافق ١٨٤٩م، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(٧٩) ناصـر السـيد (الدكتور): تاريخ السياسة والتعليم في السودان ، الطبعة الثانية ، مطبعة جامعة الخرطوم ، ١٩٩٠م ص ١١.

٢- محمد سعيد باشا (١٢٧١-١٢٧٩هـ/١٨٥٤-١٨٦٣م):

ولما تولى محمد سعيد الحكم ، كان جاداً في الإصلاح ، يدفعه إلى ذلك إخلاصه ونواياه الحسنة ، وتأثره بالثقافة الأوربية التي نال حظاً منها بدراسته في أوربا.

ولعل مما يدل على جديته في الإصلاح ، تعيينه لأخيه عبد الحليم حكمداراً على السودان(٨٠). ولا يقلل من أثر هذا القرار ما قيل من أن عبد الحليم قد بادر بإبداء رغبته في هذا المنصب (٨١).كما أنه أصدر قراراً بمنع تجارة الرقيق في السودان في ديسمبر ١٨٥٤م جاء فيه : " إن بيع وشراء الجواري السود والعبيد الذين صار جلبهم من السودان ودارفور، قد صار منعه من طرفنا كلياً "(٨٢).

وليس أدل على صدق نواياه في الإصلاح ،من زيارته إلى السودان (١٨٥٦-١٨٥٧م)، وتكبده المشاق ليقف على أحوال السودان بنفسه . ولقد أصيب بصدمة ، من هول ما وجده في السودان (٨٣). وأبدى أسفه حين وقف على المآسي التي عاشها السودانيون ، وعلى الطريقة الرديئة التي تدار بها البلاد ، لدرجة أنه فكر في التخلي عن السودان (٨٤). ولكنه عدل عن الفكرة وسارع بوضع النظم والقوانين التي تحقق الرفاهية والعمران لهذه البلاد. وقد عبر عن ذلك بقوله : " إنه من دواعي الأسف ألا تنتظم شئون السودان ، التابعة لحكومتنا كما نريده حتى الآن ، رغم حرصنا على تقدمها ، ورغبتنا في عمرانها . ولذلك كنت أفكر منذ مدة أن أسافر إليها بنفسي لأقوم برحلة في ربوعها وأشاهد عن كثب ، وأقف على شئونها حيث أضع من النظم والأسس ما هو كفيل بعمرانها ورفاهية سكانها من الرعاية الأهلية "(٨٥).

---

(٨٠) رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور): مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٩١.

(٨١) دفتر ١٨٨٣ ، صادر أوامر ، نمرة ٤ ، ص ٣ ، بتاريخ ١٢ ربيع الأول ١٢٧٢هـ/ ٢٢ نوفمبر١٨٥٥م، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(٨٢) دفتر ٧٢١ ، قيد الأوامر واللوائح ، خديوي ، مكاتبة رقم ١٠ ،ص ١٣،بتاريخ ١٤ ربيع الأول ١٢٧١ هـ / ديسمبر ١٨٥٤م، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(٨٣) (83) Theobold , A.B., The Mahadiya ,(Longmans Green and co. , London , New York .Toranto 1949) , P.11 .

(٨٤) (84) Hill , R., Egypt in The Sudan , op.cit. , P.94 .

(٨٥) محفظة ٣ ، مديريات ، وثيقة ٣٧٩ ، ١١ ربيع الأول ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م ، دار الوثائق القومية، القاهرة

وكان من نتائج هذه الزيارة تخفيض الضرائب وتنظيمها ، وتحسين طرق جبايتها(٨٦)، وإشـــراك بعض السودانيين في الحكم والإدارة ، ومطالبة الأهالي بإطاعة أوامرهم(٨٧)، ومنع الظـــلم والاستغلال ، بمنع تسخير جمال الأهالي في نقل أمتعة الميري، واستخدام أبناء الأهالي دون رضاهم (٨٨) .

وفي مجـــال الإنتاج شجع الأهالي على صناعة استخراج الزيوت من السمسم(٨٩). كمـــا شجع الصناعات ، مثل صناعة الصابون ، حيث أقام مصنعاً خصص إنتاجه لاستهلاك العساكر في مختلف المديريات (٩٠).

ومما يذكر أيضاً أن محمد سعيد باشا قام بإصلاحات أخرى عديدة ، كتنشيط التجارة، وتعـــبيد الطرق ، وحفظ الأمن ، واسترجاع نفوذ الحكومة في المناطق البعيدة (٩١)، وتنظيم البريد بين المديريات وبينها وبين مصر (٩٢).

ورغـــبة منه في الإصلاح ، اتخذ محمد سعيد عند وصوله الخرطوم قراراً خطيراً بالعودة إلى اللامركـــزية في إدارة البلاد . إلا أن نتائج هذا القرار كانت على عكس ما كان يهدف ، إذ ضعفت هيبة الحكومة وازدادت مشكلاتها ، وقلت فعالية الخرطوم كعاصمة للبلاد (٩٣). وتعطـــل تنفيذ كثير من المشروعات والإصلاحات التي اتخذها محمد سعيد ، وظلت حبراً على ورق ، وبلغت الإدارة حداً بعيداً من السوء والفوضى ، وأصيبت البلاد بالركود (٩٤).

---

(٨٦) (86) Theobold , A.B., The Mahadiya , op.cit. , P.12 .

(٨٧) محـــافظ أبحاث السودان ، دفتر ١٨٨٦ ، أوامر عربي ، وثيقة ١٨ ، ص ٥ ،٢٥ جمادي الأولى ١٢٧٣هـــ الموافق ١٨٥٦م، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(٨٨) محـــافظ أبحـــاث السودان ، دفتر ١٨٨٦ ، أوامر عربي ، وثيقة ١٥ ، ص ٣٣ ،٢٩ جماد أول ١٢٧٣هـــ الموافق ١٨٥٦م، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(٨٩) أوامر ، دفتر ١٨٨٦ ، أمر كريم إلى الشيخ أحمد علي بشير ،٢٩ جماد أول ١٢٧٣هـــ الموافق ١٨٥٦م ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(٩٠) محمد الأمين سعيد (الدكتور): عصرا عباس وسعيد في السودان ، المرجع السابق ، ص ٢٠١.

(٩١)محمد فؤاد شكري (الدكتور): مصر و السودان ، القاهرة ١٩٦٣م ص ٧٨.

(٩٢)بشير كوكو حميدة (الدكتور) : ملامح من تاريخ السودان ، المرجع السابق .

(٩٣) (93) Hill , R., Egypt in The Sudan , op.cit. , P.99 .

(٩٤)بشير كوكو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ،رسالة دكتوراة ،المرجع السابق،ص ٤١.

وفشلت محاولات سعيد للقضاء على تجارة الرقيق والحد من نفوذ التجار الأجانب (٩٥).

وقد تورط محمد سعيد في خطأ كبير حين أصدر فرماناً بتعيين أركيل بك مديراً لمديرية الخرطوم (٩٦). إذ أن أراكيل أوربي مسيحي ، مما تسبب في غضب الأهالي المسلمين ، وثورتهم ، واعتراضهم على هذا التعيين (٩٧).

ويرى الدكتور محمد الأمين سعيد أن الأهداف الاستغلالية المرتبطة باستغلال موارد البلاد البشرية والمادية ، والتي كانت أهدافاً أساسية لمحمد علي باشا ، في السودان استمرت في عهدي عباس وسعيد ، فلم تتغير إلا بالقدر الذي فرضته الظروف (٩٨). ولكن يبدو لنا أن عهد محمد سعيد باشا كان يختلف عن سابقيه ، فقد كان محمد سعيد أشد صدقاً وإخلاصاً ورغبة في الإصلاح ، وإن كانت تعوزه المقدرة والخبرة في تحويل هذه النوايا إلى واقع .

٣- عهد الخديو إسماعيل(١٢٧٩-١٢٩٦هـ/١٨٦٣-١٨٧٩م):

كان اعتلاء إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا ، أريكة الخديوية في عام ١٨٦٣م ، إيذاناً بتغير جديد في مصر والسودان . وآية ذلك أن إسماعيل أراد أن يجعل من مصر بلداً متحضراً على غرار فرنسا وغيرها من الدول الأوربية (٩٩)!

وقد انعكس هذا التوجه على الأوضاع في السودان ، فقد حاول إسماعيل جهده في التخطيط لإقامة إدارة حسنة وقوية في السودان(١٠٠). ولهذا فقد أكد على نظام المركزية ، والتي تم إرجاعها في أواخر عهد محمد سعيد ، بأن أصدر إسماعيل قراراً بالإبقاء على موسى

---

(٩٥) (95) Marlowe , J ., Anglo Egyption Relations , op.cit . , P.139.

(٩٦) دفتر ١٨٨٦ن صفحة ٣٢ ، في ٢٧ جمادى الأولى ١٢٧٣هـ / ٢٣ يناير ١٨٥٧م ، فرمان عالي، تنصيب أراكيل بك مديراً على مديرية الخرطوم، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(٩٧) (97)Holt , P.M., Amodern History of The Sudan , op.cit. , P.63 .

(٩٨)محمد الأمين سعيد (الدكتور): عصرا عباس وسعيد في السودان ، رسالة دكتوراة ، المرجع السابق ، ص ٤٧٨.

(٩٩) روثستين (ثيودور): تاريخ المسألة المصرية (أو خراب مصر) ، ترجمة عبد الحميد العبادي ومحمد بدران ، دار الوحدة ، بيروت ، ١٩٨١م ص ٣٣.

(١٠٠) (100) Hill , R., Egypt in The Sudan , op.cit. . P.107 .

حمـــدي ، حكمـــداراً على السودان ، وأوصاه بحسن الإدارة في حكم البلاد وفق " الأصول الموضوعية والقواعد المرعية "(١٠١).

ويشـــير الدكـــتور بشـــير كوكو حميدة إلى أن هذه الإدارة التي خطط لها إسماعيل، "اعـــتمدت أساساً على عاملين هما الجيش والمال"(١٠٢). أي القوة العسكرية والاقتصادية . ونلمس في هذه الأسس تشابهاً مع أهداف جده محمد علي التي أشرنا إليها من قبل .

وانطلاقـــاً من هذه الأسس ، فقد رسم الخديو إسماعيل لحكمدار السودان ، السياسة الـــتي ينـــبغي أن يـــتوخاها ، من حيث معاملة السودانيين بالعدل ، وتعمير البلاد ، وتطوير التجارة، والحفاظ على الأمن ، وحماية الحدود . مخاطباً له بقوله : " أن تعاملوا سكانه وقاطنيه بالعدل والحقانية ، وأن تبذلوا أقصى جهدكم في تزييد عمرانه ، وتوسيع نطاق تجارته وإيصاله إلى غايـــة الكمال من جهة الأمن ، والانضباط العام"(١٠٣). وهو لا يفتأ يشير إلى الإداريين بأهميـــة الأمن ، إذ يقول : " إن أهم شيء لدينا هو توطيد الأمن في المسالك والمعابر في جميع أرجاء مصر والسودان "(١٠٤).

ولقـــد توخى إسماعيل الحزم والشدة مع الإداريين في السودان لتحقيق هذه الغايات . فـــلم يتوان في عزل مدير النيل الأبيض من وظيفته ، وحكم عليه بالسجن عندما علم بسوء تصرفه وإهماله في حفظ الأمن (١٠٥).

ولا ريـــب أن من أبرز محاسن الإدارة في عهد الخديو إسماعيل استعانته بالسودانيين في الإدارة ، بقـــدر أكـــبر مما فعل محمد سعيد باشا ، فقد ترقى بعض السودانيين لتولي المناصب الإداريـــة الـــرفيعة ، كوظيفة مدير ، بعد أن كانت مشاركتهم مقصورة على مشيخة القبائل

---

(١٠١) المعية السنية ، نمرة ٥٢٦ ، دفتر ٥٢٩ ، صفحة ٤ ، بتاريخ غرة رجب ١٢٧٩هـ/ ٢٢ يناير ١٨٦٣م ، إرادة إلى موسى باشا حمدي حكمدار السودان ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٠٢)بشير كوكو حميدة (الدكتور) : تاريخ السودان في عهد الخديو إسماعيل ، المرجع السابق ،ص ٤٠.

(١٠٣) دفتر المعية السنية رقم ٥٢٦ ، صحيفة ٥٨ ، بتاريخ ٦ شوال سنة ١٢٧٩هـ / ٢٧ مارس ١٨٦٣م.

(١٠٤) إرادة صـــادرة إلى مديـــر دنقلة ، بتاريخ ٢٣ رجب ١٢٨٣هـ الموافق ١ ديسمبر ١٨٦٦م دفتر ٥٥٥ قسم ثاني، ص ١١ نمرة ١٧ (ظهورات) ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٠٥) دفـــتر ٥٥٨ ، معية تركي ، وثيقة ٢٣ ، ص ٦٣ ، ربيع الثاني ١٢٨٣هـ الموافق ١٨٦٦م، دار الوثائق القومية، القاهرة .

وبعض الأعمال الكتابية البسيطة في دواوين الحكومة (١٠٦). ومن هؤلاء الذين تمت ترقيتهم أحمـد عـوض الكريم أبو سن شيخ قبيلة الشكرية ، الذي تم تعيينه مديراً للخرطوم وسنار ، فكـان أول سوداني يتولى هذا المنصب ، وبقي في منصبه مدى عشر سنين . وقد برهن على كفـاءة السوداني ومقدرته الإدارية (١٠٧). وكذلك حسين باشا خليفة الذي تولى منصب مدير بربر ودنقلا بين عامي ١٨٧١و١٨٧٣م (١٠٨).

ولقـد وجه الخديو إسماعيل جهداً كبيراً لتوسيع رقعة السودان بفتح مناطق جديدة، ووصل بالسودان إلى أكثر من حدوده الحالية حتى بلغ بحيرة البرت وفكتوريا جنوباً ، والبحر الأحمـر وخليج عدن والصومال وارتريا شرقاً ، وحدود دارفور ووداي غرباً(١٠٩). كما تم ضـم سـواكن ومصوع وإلحاقهما بصفة نهائية بأملاك مصر ، بعد أن تنازل عنهما السلطان العثماني عام ١٨٦٥م (١١٠).

ويبدو لنا أن الخديو إسماعيل قد انطلق في هذه الفتوح من أهداف سياسية واقتصادية ، مـترسماً خطا جده محمد علي ، الذي كان يهدف إلى ضم دارفور (١١١). ويسعى للتوسع جنوباً والسيطرة على منابع النيل عندما أرسل بعثة بقيادة سليم قبودان عام١٨٣٨م(١١٢).

ولم يكن الدافع الأول لهذا التوسع في عهد إسماعيل محاربة تجارة الرقيق ، كما أشار إلى ذلك الدكتور أحمد طربين في قوله : " إن التوسع أو الفتح لم يكن غرضاً مقصوداً لذاته ، وإنما كان باعثه محاربة تجارة الرقيق في عقر دارها"(١١٣).

---

(١٠٦) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ، المرجع السابق ، ص ٥٦.

(١٠٧) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ١٥٩.

(١٠٨)بشـير كوكـو حميـدة (الدكتور): السودان في عهد الخديو إسماعيل ،رسالة دكتوراة ، المرجع السابق ، ص ١٠٠.

(١٠٩) الرافعي (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ، ج١ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨١م، ص ١١٠.

(١١٠) دفـتر ٢٢ عـابدين ، ص ١ ، رقـم ٣ ، مـن أفندينا إلى الباب العالي (الصدر الأعظم) ، في ١٢ محرم ١٢٨٢هـ / ٧ يونيو ١٨٥٦م، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١١١) (111)Holt , P.M., Amodern History of The Sudan , op.cit. , P.42 .

(١١٢) دفتر ٢٧٨ن شورى المعونة ، وثيقة ١١٣٠ في جماد ثاني ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م، دار الوثائق بالقاهرة.

(١١٣) أحمـد طـربين (الدكتور) : تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤م ، ص٣١٨.

فمن الراجح أن سياسة الخديو إسماعيل إزاء تجارة الرقيق كانت تتسم بالتناقض ، بل شجع رعاياه ومرؤوسيه سراً على الاتجار بالرقيق (١١٤). في الوقت الذي كان يعلن اهتمامه الشخصي بمحاربة تجارة الرقيق (١١٥).

وتشير الوثائق إلى أن الخديو إسماعيل طلب من حكمدار السودان إرسال " شبان سودانيين يصلحون للجندية النظامية"(١١٦). كما أمر الحكمدار أيضاً بإرسال " عشرة ألف سوداني ، بأي صورة كانت ، على ألا تكبل أيديهم بالقيود أثناء إرسالهم ، ولا يرسلون أيضاً من الجهة التي فيها غوردون باشا"(١١٧).حتى لا ينكشف أمره .

ومن هنا يتبين لنا أن الخديو إسماعيل لم يكن صادقاً في محاربته لتجارة الرقيق وأن التوسع والفتوح التي قام بها لم يكن دافعها الأول القضاء على تجارة الرقيق . وإنما دافعها ما أشرنا إليه من أهداف سياسية واقتصادية . وهذا لا يمنع أن الخديو إسماعيل ، كان أيضاً يهدف إلى إرضاء بريطانيا ، وإظهار نواياه وصدقه في القضاء على تجارة الرقيق (١١٨).

هذا وقد تعقدت مشكلات الإدارة المصرية في السودان نتيجة لهذا التوسع ، فقد أضيفت مديريات جديدة ، ومساحات شاسعة . ورغم أن الخديو إسماعيل في بداية عهده فضل استخدام النظام المركزي في الإدارة ، إلا أنه أمام هذا التوسع ، لم يلبث أن تأرجح النظام الإداري بين المركزية واللامركزية عدة مرات (١١٩).

وتطلب اتساع البلاد زيادة في النفقات ، كما تطلب أيضاً جهوداً كبيرة في مواجهة المشكلات الإدارية المختلفة ، مما أدى إلى تغيرات متلاحقة وتطورات مستمرة في نوع الإدارة

---

(١١٤)بشير كوكو حميدة (الدكتور):السودان في عهد الخديو إسماعيل،رسالة دكتوراة،المرجع السابق،ص ٣٩٥.

(115) F.O.(Foreign Office) 148 , Glarendon to Stanton , Februry 28 1866. (١١٥)

(١١٦) الدفتر ٢٢ ، عابدين ، صادر تلغرافات ، ترجمة المكاتبة التركية ، الشفرة ٢٦٣ ، بتاريخ ٢٦ ربيع الأول ١٢٩٣هـ / ٢٥ مايو ١٨٧٥م، أمر كريم إلى حكمدار السودان بالفاشر، دار الوثائق القومية ، القاهرة

(١١٧)الدفتر ٢٢ ، عابدين ، صادر تلغرافات ، ترجمة المكاتبة التركية ، الشفرة ٢١٠٧ ، ٦ صفر ١٢٩٣هـ الموافق مارس ١٨٧٥م ، أمر كريم إلى حكمدار السودان بالفاشر .

(118) Tom ,L , Modern Egypt , Ernest Benn Limited , Second Published , London , 1968 ,P.46. (١١٨)

(١١٩) بشير كوكو حميدة (الدكتور) :ملامح من تاريخ السودان في عهد الخديو إسماعيل ،المرجع السابق،ص ٩

والإداريين ، وما تبع ذلك من آثار بعيدة المدى صعب على السودانيين استيعابها(١٢٠).

ويبدو أن أشد هذه التطورات تأثيراً ، تمثل في استجابة الخديو إسماعيل لرغبة بريطانيا في استخدام الأوربيين ، وإطلاق يدهم في الإدارة في السودان. ومن هؤلاء صمويل بيكر الإنجليزي (Baker)، الذي اختاره إسماعيل لمهمة مطاردة تجارة الرقيق في جنوب السودان بناء على رغبة الأمير إدوارد ولي عهد بريطانيا . رغم معارضة الحكمدار جعفر باشا مظهر(١٢١). فقد كان بيكر استعمارياً من الطراز الأول ، فلا غرابة إذا لم يخف نواياه لزيادة النفوذ البريطاني في مصر والسودان ، عندما صرح بأن المناطق الاستوائية تعتبر ميداناً عظيماً للمشاريع البريطانية (١٢٢)!

وما من ريب أن من أكبر أخطاء الخديو إسماعيل تعيينه لشارلس غوردون (Gordon)، البريطاني المسيحي ، ليكون حاكماً عاماً للسودان (١٨٧٧-١٨٧٩م)(١٢٣) !

ويبدو أن الخديو إسماعيل كان مجبراً على اختيار غوردون بسبب موقفه الضعيف في مواجهة التدخل الأجنبي ، وقد أشار الدكتور بشير كوكو حميدة إلى ذلك بقوله : " لم يكن للخديو مندوحة عن الاستسلام لضغط فيفان ، وتقليد غوردون منصب حكمدار السودان،

---

(١٢٠)ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص٧٦.

(١٢١) (121) Hill , R., Egypt in The Sudan , op.cit. , P.116 .

(١٢٢) (122) Baker . B.S.R., Ismailia , 2 Vols. (London , 1874) , P.506

(١٢٣) غوردون باشا :(Charles george Gordon)

ولد شارلس جورج غوردون في ٢٨ يناير ١٨٣٣ ، بالقرب من مدينة لندن لأسرة اسكتلندية اشتهرت بالعسكرية والمغامرة ، وكانت أمه شديدة التدين ، اهتمت بتلقينه تعاليم الإنجيل ، مما يفسر ميله الشديد للمسيحية ، وكان أصغر إخوته البالغ عددهم أحد عشر ، من البنين والبنات ، ولكنه كان أكثر ارتباطاً بأخته أوغسطا ، التي تكبره بأثنتي عشرة سنة .

تخرج مهندساً عسكرياً ، وتطوع في حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٦م)، واشترك في الحرب الصينية (١٨٦٠م) . ولقد عرف بغوردون الصيني لاشتراكه في إخماد ثورة الصين (١٨٦٣-١٨٦٤م) وفي مطلع عام ١٨٧٤م وافق على العمل في الاستوائية خلفاً لبيكر . وكان ذلك بإيعاز من نوبار باشا . وكانت تصرفاته ومغامراته وعلاقاته العاطفية موضع شك وريبة . كما أنه كان على صلات وثيقة بالتبشير المسيحي، فضلاً عن علاقاته بحكومته البريطانية ومخططاتها لبسط النفوذ الاستعماري في السودان.

انظر : بشير كوكو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، رسالة دكتوراة ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ وما بعدها.

بـــرغم أن في ذلـــك مغامرة ، إذ ربما يثير هذا الإجراء سخطاً في عديد من الأماكن . ولكن إسماعيل كان مغامراً ، وكان يائساً لأن موقفه كان مهزوزاً يومئذ فهو بحاجة إلى إرضاء انجلترا أكـــبر المطالبين بالقضاء على الرق "(١٢٤). رغم أنه كان يحس بالامتعاض من إسناد إدارة السودان لمسيحي ، وتعيينه حاكماً عاماً على أعداد كبيرة من المسلمين (١٢٥).

وفي الواقـــع كـــانت بريطانيا حريصة على التأثير على الخديو إسماعيل لمنح غوردون سلطات واسعة ، تشمل عموم الأقاليم السودانية ، وخط الاستواء ، وبحر الغزال ، ودارفور، وســـواحل الـــبحر الأحمر إلى مصوع وسواكن (١٢٦). لأنها كانت تسعى لتحقيق أهداف استعمارية وتبشيرية .

وإلى هـــذا يشـــير الدكتور إبراهيم عكاشة ، موضحاً أن هناك تعاوناً وثيقاً بين هؤلاء الإداريـــين الأوربيـــين ، وبين التبشير المسيحي في السودان . فيقول في هذا الصدد : " عام ١٨٧٣م ، بدأت مرحلة جديدة من مراحل التبشير المسيحي في السودان ، اتسمت بالتعاون الكـــامل بـــين المبشرين وبين الإدارة الأوربية الجديدة ، التي فرضتها بريطانيا على الحكومة المصرية تحت شعار محاربة تجارة الرقيق"(١٢٧).

وعلى الرغم مما اتصف به غوردون من التفاني والإخلاص في العمل ، فقد حدث في عهده اضـــطراب لا مثيل له في الإدارة الحكومية في السودان ؛ فهو لا يثق في الأتراك والمصريين، وخضع للوشـــاة في معالجة كثير من القضايا مثل مشكلة سليمان الزبير (١٢٨) وكان متقلباً ، سريع التغير فضـــلاً عن تسرعه الشديد (١٢٩). وكان يرمي إلى تكوين جهاز أوربي كامل لإدارة السودان ، ولهـــذا عزل عدداً من المديرين المصريين أمثال محمد رؤوف باشا مدير هرر، ويوسف الشلالي

---

(١٢٤) بشير كوكو حميدة(الدكتور): السودان في عهد الخديو إسماعيل ،رسالة دكتوراة،المرجع السابق،ص ١٣٠.

(١٢٥) نفس المرجع ، ص ١٣٠.

(١٢٦) دفـــتر رقـــم ١٥ ، أوامر عربي ، ص ٧ ، رقم ١٦ بتاريخ ٤ صفر ١٢٩٤هـــ / ١٧ فبراير ١٨٧٧م ، صورة أمر كريم إلى غوردون باشا، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٢٧) إبراهيم عكاشة (الدكتور) : التبشير النصراني في جنوب سودان وادي النيل ، المرجع السابق ، ص ٤٥.

(١٢٨) مكـــي شـــبيكة (الدكـــتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، معهد البحوث والدراسات ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٤٨.

(١٢٩) كرومـــر (الـــلورد) : بـــريطانيا في الســـودان ، ترجمة عبد العزيز أحمد عرابي ، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٦٠م ، ص ٦٨ .

مديـــر بحـــر الغـــزال ، وعين بدلاً عنهم عدداً من الأوربيين (١٣٠)، الذين اشتركوا معه في الضرب بعنف على أيدي تجار الرقيق ، تنفيذاً لاتفاقية إلغاء تجارة الرقيق، التي عقدها الخديو إسماعيل مع بريطانيا ، في ٤ أغسطس عام ١٨٧٧م (١٣١).

وقـــد أثـــار تعيين هؤلاء الأوربيين ، فضلاً عن ممارساقم ، ومطاردهم العنيفة لتجارة الـــرقيق ، مشاعر السودانيين ، ضد الحكم التركي ، واعتبروا ذلك اضطهاداً دينياً ، وحرباً صـــليبية جديـــدة ضدهم (١٣٢). وأصبح من الصعب على السودانيين التفريق بين الكفر والتركية ، اللذين أصبحا صنوين في أعين السودانيين (١٣٣). خاصة وأن غوردون وهو على رأس هـــؤلاء الحكام الأوربيين ، كان يحتقر الإسلام كدين ، وكان يحقد على العرب ولا يثق فيهم (١٣٤). كما أنه كان يجهل اللغة العربية لدرجة أنه كان أمياً فيها (١٣٥).

ونتـــيجة لهـــذا الاضطراب الذي حدث في الإدارة الحكومية في السودان ، في عهد حكمداريـــة غوردون ، تعطلت الحياة اليومية وشاع الذعر والإرهاب (١٣٦). وكان ذلك وراء اشتعال الثورات ، في عهده ، بل " كان من بين العوامل التي بلورت الثورة المهدية التي أطاحت بالحكم التركي المصري في السودان "(١٣٧).

ونـــلمس بعـــض المبالغة في وصف غوردون من بعض المؤرخين الذين وصفوه بالأمانة والنزاهـــة ، ومـــنهم من وصفه بنقاء الثوب إذ يقول : " لم يعرف السكان موظفاً عظيماً ،

---

(١٣٠) Holt , P.M., The Mahdist State in The Sudan ,1881-1898, Second Edition , Clarendon Pres , Oxford ,London, 1970, P.38 .

(١٣١) محفظة ١ ، صورة اللائحة ، ونسخة من المعاهدة الخاصة بمنع الاتجار بالرقيق ، محرم ١٢٩٥هـ الموافق ٤ أغسطس ١٨٧٧م، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٣٢) Hill , R.,Egypt in The Sudan ,op. cit. , P.146.

(١٣٣) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٩٧.

(١٣٤) بشير كوكو حميدة(الدكتور):السودان في عهد الخديو إسماعيل،رسالة دكتوراة، المرجع السابق، ص ١٥٤.

(١٣٥) Holt , P.M., Amodern History of The Sudan , op.cit. , P.70 .

(١٣٦) الشاطر بصيلي عبد الجليل: معالم تاريخ سودان وادي النيل ، القاهرة ، ١٩٦٦-١٩٦٧م ص ١٦٤.

(١٣٧) بشير كوكو حميدة(الدكتور):السودان في عهد الخديو إسماعيل،رسالة دكتوراة،المرجع السابق، ص ١٥٨.

أخــلص في عمله وتفانى فيه مثل ما فعل غوردون . وما شك أحد في نزاهته وأمانته لأنه كان نظيف الثوب (١٣٨)! ويصف عهده بوجه عام بأنه " عهد استقرار وإدارة رشيدة"(١٣٩).

ومــع تقديري لإخلاص غوردون ، وتفانيه في عمله ، وتحمله المشاق والصعاب ، وترفعه عــن المطــامع المادية ، إلا أن نزاهته وأمانته كانت موضع شك ، وذلك لارتباطه بتحقيق مصالح الحكومــة الــبريطانية ، والكنيســة الإنجليكانية (١٤٠). ولم يكن أميناً في تحقيق مصالح مصر عام ١٨٧٦م ، عندما أحدث تغييراً شاملاً في السياسة التي كلفته بها الحكومة المصرية في التوسع جنوباً وضم يوغندا ، إذ بدأ سحب القوات المصرية من تلك المناطق دون علم مصر أو رغبتها (١٤١). وممــا يذكر في هذا الصدد أنه استقبل في الخرطوم ، بعد تعيينه حكمداراً على السودان ، دفعة من المبشــرين البريطانيين المتوجهين عن طريق النيل إلى أوغندا وحملهم بالهدايا الثمينة إلى امتيسا ملك يوغندا (١٤٢).

وأمــا وصــف عهــد غوردون بالاستقرار والإدارة الرشيدة عموماً ، فهو أمر على إطلاقــه، مجانب للصواب . فكما رأينا ، لم تنعم البلاد في عهده بالاستقرار ، كما أن إدارته لم تكن رشيدة ، بل " لم يكن صالحاً لإدارة السودان "(١٤٣). وأن اختياره حكمداراً للسودان " لم يكــن موفقــاً ، ولم يــأت بالثمرة التي كان يتوقعها الخديو إسماعيل ، وهي إمالة بريطانيا نحوه"(١٤٤). وقد كان يفتقر للخبرة (١٤٥).

كما أن صفاته الشخصية لا تؤهله للنجاح في الإدارة ، فقد كان ساذجاً ، حاد الطبع، متقلب الأهواء ، ويفتقر إلى الإحساس أو الروح الإدارية (١٤٦). وفوق ذلك كله لم ينجح

---

(١٣٨) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٤٠.

(١٣٩) نفس المرجع ، ص ٢٤١.

(١٤٠)إبراهيم عكاشة (الدكتور) : التبشير النصراني في جنوب سودان وادي النيل ، المرجع السابق ص ٥١.

(١٤١) جميل عبيد: المديرية الاستوائية،دار الكاتب العربي للطباعة والنشر،القاهرة ،١٣٨١هـ/١٩٦٧م ،ص٩٨.

(١٤٢) (142) M.S., Intelligence , Vol , 1/11X July 1898 , P.518.

نقلاً عن الدكتور إبراهيم عكاشة : التبشير النصراني ، المرجع السابق ، ص ٥١.

(١٤٣)بشير كوكو حميدة(الدكتور):السودان في عهد الخديو إسماعيل،رسالة دكتوراة،المرجع السابق ، ص ١٥٢.

(١٤٤)بشير كوكو حميدة (الدكتور) :نفس المرجع ، ص ١٥٨.

(١٤٥) (145) Holt , P.M., Amodern History of The Sudan , op.cit. P.70 .

(١٤٦) (146) Hill , R.,Egypt in The Sudan ,op. cit. , P.144.

في تـــنمية الاقتصـــاد الســـوداني ، ولم يهتم بتنمية التعليم أو أية خدمات اجتماعية يفيد منها المواطنون(١٤٧).

هـــذا وفي مجـــال الاقتصـــاد والعمران ، فقد اهتم إسماعيل باشا بالتجارة والزراعة، والصناعة والثروة المعدنية . وعمل على توسيع الأراضي المزروعة وتحسين وسائل الري بشق الـــترع وإنشـــاء الخزانات لإنجاح زراعة القطن ، ومن أمثلة هذه المشاريع ، إنشاء ترعة بربر لتوصـــيل ميـــاه الـــنيل للأراضي المزروعة (١٤٨). كما تم إنشاء خزان سواكن على خور الـــتمانيب الـــذي وفر ٢٥٠ ألف متر مكعب من المياه العذبة (١٤٩). واستخدمت إحدى الماكيـــنات لضخ المياه من هذا الخزان إلى المزارع(١٥٠). وكان لنجاح زراعة القطن أثر في إنشاء المحالج ومدها بالوابورات ، وخاصة في دنقلا وبربر (١٥١). كما تم تشجيع التوسع في زراعة الفاكهة (١٥٢).

عـــلى أن الـــنظام الاقتصادي في السودان في عهد الخديو إسماعيل لم يسلم من بعض الســـلبيات ، التي عاقت تطوره ، ومن ذلك احتكار الحكومة لتجارة العاج بهدف منع تجارة الرقيق ، مما أدى إلى تضييق فرص التجارة المشروعة ، وخاصة بالنسبة للعرب (١٥٣).

وقـــد اتبعت الحكومة إجراءات تعسفية في عهد الحكمدار موسى باشا حمدي ، بفرض ضـــريبة الويركو أو (ضريبة الرؤوس) في ٢ ديسمبر ١٨٦٣م ، مما أدى إلى سخط التجار

---

(١٤٧)بشير كوكو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، المرجع السابق ، ص ١٥٦.

(١٤٨) دفـــتر ١٨٣٩ ، أوامر كريمة ، عربي ، وثيقة ٨ ، ص ٥٤ ، غرة محرم ١٢٨٨هـــ/١٨٧١م، دار الوثائق القومية، القاهرة .

(١٤٩) محفظة ١٩ ، بحر برا ، وثيقة ٢٢١ ، في ٩ شعبان ١٢٨٦هـــ الموافق ١٨٦٩م،دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٥٠) دفـــتر ٢٣ ، عـــابدين ، وارد تلغراف ، وثيقة ٩ ، في ٢٢ ذي الحجة ١٢٩٠هـــ الموافق ١٨٧٣م، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٥١) دفـــتر ١٨٥٢ معيـــة عربي ، وثيقة ٤٤ ص ٧٥ ، في ٥ ذي الحجة ١٢٨٨هـــ /١٨٧١م، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٥٢) دفـــتر ١٨٤٧ معية عربي ، وثيقة ٦ ، ص ٤٠ ، في ١٢ صفر ١٢٨٨هـــ الموافق ١٨٧١م، دار الوثائق القومية، القاهرة .

(١٥٣)بشير كوكو حميدة(الدكتور):السودان في عهد الخديو إسماعيل ، رسالة دكتوراة ، المرجع السابق ، ص ٢٨٨.

الأجـــانب وغيرهم . وكان من نتائجها ، إصابة التجارة في النيل الأبيض بالشلل بسبب ضآلة الواردات (١٥٤).

كمـــا أن مشـــكلة الضرائب وفداحتها كانت معضلة استعصت على الحلول ، ورغم جهود غوردون في تنظيمها ، فقد استمرت الأزمة الضريبية متفاقمة (١٥٥).

ومـــن محاسن الإدارة في عهد الخديو إسماعيل ، توسعه في التعليم النظامي بإنشاء خمس مـــدارس نظامية في كل من بربر ، ودنقلا ، وكردفان ، والتاكا ، والخرطوم (١٥٦). كما تم الاهتمام برعاية الخلاوي والمساجد .

- **عزل الخديو إسماعيل**(١٢٩٦هـ/١٨٧٩م):

ازداد الـــتدخل الأجـــنبي في مصر في عهد الخديو إسماعيل ، وتردت البلاد إلى حالة مزرية من التبعية المالية والاقتصادية للأجانب (١٥٧). واستحكمت الأزمة المالية التي كان لها دورها في الإطاحة بحكم إسماعيل (١٥٨).

ولقـــد كـــان لسياسة الخديو إسماعيل المالية ، أثر كبير في ظهور هذه الأزمة المالية ، وازديـــاد التغـــلغل الأوربي في مصر والسودان . وذلك لأن الخديو إسماعيل كان يتصرف في سياسته المالية ، وكأن البلاد مقاطعة أو مزرعة خاصة به وبعائلته (١٥٩).

وكـــانت آفـــة الإسراف في الاقتراض من البيوت المالية والمرابين الأجانب ، من غير حساب ، أو نظر في العواقب ، هي الجانب المظلم من تاريخ إسماعيل ، والمأساة ، التي انتهت

---

(١٥٤) نفس المرجع ، ص ٢٨٩-٢٩٣.

(١٥٥)ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٩٧.

(١٥٦) دفتر ١٣٩ ، وارد ، معية سنية ، وثيقة ٥ ، ص ١٨ في ٢٣ ربيع الثاني ١٢٧٩هـ / ١٨٦٣م.

(١٥٧)عمر عبد العزيز (الدكتور):تاريخ مصر الحديث والمعاصر،دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ، ١٩٩٧م ،ص ٣٢٧.

(١٥٨) تقرير قارمان (القنصل الأمريكي في القاهرة) بتاريخ ١٢٩٥هـ/١٨٧٩م.

نقـــلاً عن الدكتور محمد فؤاد شكري وآخرون (نصوص وثائق من التاريخ الحديث) ، جمعها دكتور محمد فؤاد شكري وآخرون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٢م.

(١٥٩) (159) Tom , L., Modern Egypt , op. cit. , P.40.

بتصدع بناء استقلال مصر ، وتدخل الأجانب في شئون البلاد المالية ، والسياسية ، تحت مظلة الامتيازات الأجنبية (١٦٠).

ومن الثابت أن الخديو إسماعيل أساء التصرف في إنفاق ما يحصل عليه من أموال وقروض ، على نفسه ، وعائلته ، والمقربين له ، وخاصة الأجانب منهم . كما أنه كان يتعجل تنفيذ المشروعات العمرانية المختلفة في مجال التعليم والصحة ، وشق الترع ، وبناء الجسور ، والمصانع ، والسكك الحديدية ، وخطوط التلغراف ، وتعمير المدن ، وبناء القصور (١٦١).

ومنذ سنة ١٨٧٠م ، كان واضحاً أن هذه السياسة المالية الخرقاء ، تنذر بكارثة وشيكة الوقوع ، فقد استغلت الدول الأوربية ، وعلى رأسها بريطانيا هذا الضعف للخديو إسماعيل ، لإغراقه في المزيد من الديون ، لتتمكن من التدخل في شئون البلاد ، والسيطرة على مقدراتها .

وكان في مقدور الخديو إسماعيل أن يتفادى هذه الكارثة المالية ، لو أحسن التدبير والتصرف ، واستغل إمكانيات بلاده . ولكنه انخدع أمام خبث الماليين الأوربيين وجشعهم وتدخلهم في مصر (١٦٢). وتورط في القروض تلو القروض حتى ابتلعت الفوائد معظم موارد الميزانية . وأخيراً ظهر عجزه عن الوفاء بالتزاماته المالية ، ووقعت مصر في قبضة الدول الأوربية (١٦٣).

وأمام هذا العجز المالي ، اضطر الخديو إسماعيل لبيع نصيب مصر في أسهم قناة السويس لإنجلترا عام ١٨٧٥م ، لإنقاذ الحكومة المصرية التي كانت على شفا الإفلاس(١٦٤). إلا أن ذلك لم يجد فتيلاً ، في وقف العجز والانهيار في مالية الحكومة المصرية، فما كان من الخديو إسماعيل إلا أن طلب من الحكومة البريطانية ، إرسال خبير في الشئون

---

(١٦٠) الرافعي (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ، ج٢ ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٧م،ص ٣٣ .

(١٦١)الرافعي (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ، ج٢ ، المرجع السابق ، ص ٥٥ .

(١٦٢) روثستين (ثيودور) : المسألة المصرية ، (خراب مصر) ترجمة عبد الحميد العبادي ومحمد بدران، المرجع السابق ، ص ٤٥.

(١٦٣) الرافعي (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ، ج٢ ، الطبعة الثانية ، المرجع السابق ، ص٣٥.

(١٦٤) (164) Trevor , M., Egypt's Belle Epoque (Cairo, 1869-1952) London 1989 , P.121.

المالية، لتنظيم مالية مصر . فسارعت بريطانيا واستغلت هذه الفرصة استغلالاً بشعاً ، فأرسلت إليه في ديسمبر ١٨٧٥م لجنة برئاسة كيف **Cave** عضو البرلمان البريطاني(١٦٥).

ولقـــد أوصت تلك اللجنة ، بتحويل الديون إلى دين موحد بمقدار ٧٥ مليون جنيه ، يســـدد في خمســـين عامـــاً ، بفـــائدة قدرهـــا ٧% . كما اقترحت اللجنة إنشاء صندوق الدين(١٦٦). الذي أصبح بمثابة خزانة فرعية ، خضعت لها إيرادات بعض المديريات ، ومالية الجمـــارك ، والســـكك الحديديـــة وغيرها . وأصبحت معظم موارد الدولة وقفاً على سداد الديون (١٦٧).

وتحـــت ضـــغط وتهديد إنجلترا وفرنسا ، اضطر الخديو إسماعيل للموافقة على قبول المراقـــبة الثـــنائية ، من إنجلترا وفرنسا ، على مالية مصر إلى جانب صندوق الدين . وبذلك أحكمت السيطرة على مالية مصر (١٦٨).

وفرضت إنجلترا وفرنسا إجراءات تعسفية لتوفير المال اللازم لحملة السندات ، وأجبر الخديـــو عـــلى التخلي عن مظاهر الترف ، كما تم تسريح فريق من رجال الجيش ، وتعطل صـــرف الـــرواتب لموظفي الحكومة ، وتمت السيطرة على إدارة السكك الحديدية ، وجمارك الإســـكندرية ، وكـــان في خطـــتهم الـــتعاقد مع بعض الأجانب لإقامة دور للقمار وأخرى للغناء(١٦٩) ! دون مرعاة لمشاعر المسلمين وعاداتهم وتقاليدهم .

ولمـــا لم يحدث أي تقدم في مالية البلاد ، فرضت إنجلترا وفرنسا على الخديو إسماعيل تكوين لجنة تحقيق عليا لدراسة الأحوال المالية في مصر برئاسة فرديناند دلسبس **DeLeseps** والمســـتر ريفـــرس ولسون البريطاني **Wilson**. وكانت أهم توصيات هذه اللجنة، أن يتنازل الخديـــو إسمـــاعيل عن سلطته المطلقة لوزارة مسئولة (مختلطة)، يشارك فيها وزيران، إنجليزي

---

(١٦٥) (165) Ibid .

(١٦٦)مكي شبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل في القرن التاسع عشر ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، بيروت، لبنان ، ١٤٠٠هـ/١٩٨١م ، ص ٥٢٤.

(١٦٧) نفس المرجع ، ص ٥٢٤.

(١٦٨)الرافعي (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ، ج٢ ، الطبعة الثانية ، المرجع السابق ، ص ٧٥.

(١٦٩)روثستين (ثيودور) : المسألة المصرية ، (خراب مصر) المرجع السابق ، ص ٥١ .

وفرنسي . ومن ثم تم اختيار نوبار باشا الأرمني المسيحي المعروف بميوله الأوربية ليكون رئيساً لها (١٧٠).

تـولى المستر ريفرس ولسون البريطاني وزارة المالية في الوزارة المصرية الجديدة ، بينما تولى المسيو دي بلينيير الفرنسي (De Bligneres) وزارة الأشغال . وتم إلغاء الرقابة الثنائية عـلى مصـر ، وأسند دورها لوزارة المالية ، والوزارة المختلطة . وعلى ذلك فقد صار حكم الـبلاد الفعـلي في يد الوزيرين الأوربيين ، إذ أن نوبار باشا ، رئيس الوزراء ، ورياض باشا وزير الداخلية ، كانا منحازين انحيازاً تاماً للأوربيين (١٧١).

هذا وقد أصبحت الوزارة الأوربية المختلطة رمزاً للتسلط والقهر ، مما أدى إلى ظهور الحـركة الوطنية لمواجهة هذا التدخل الأجنبي . ولقد تولى زعامة هذه الحركة الوطنية مجموعة من ، العلماء ، والأعيان ، الذين كانوا يجتمعون سراً في منزل السيد البكري (١٧٢). وكانوا النواة للحزب الوطني الذي يمثل القيادة المدنية للحركة الوطنية ، بينما كانت فئة العسكريين بزعامة أحمد عرابي ، وبعض الضباط الذين درسوا في أوربا ، تمثل الجناح العسكري (١٧٣).

ولقد كان للنهضة التعليمية ، والحركة الثقافية التي بدأت في مصر منذ عهد محمد علي باشـا ، أن تؤتي ثمارها ، بظهور طائفة من العلماء والمفكرين الذين استفادوا من دراستهم في أوربـا ، وهـؤلاء اكتسبوا دراية بأساليب الاستعمار ، وأطماعه . ومن هؤلاء ، شخصيات ممتازة أمثال رفاعة رافع الطهطاوي ، وعلي مبارك ، ومحمد شريف وغيرهم (١٧٤).

وكـان للأزهر دور بارز في الحركة الوطنية ، تمثل في ظهور طائفة من دعاة الإصلاح المـثقفين ، الذين ارتبطوا بالتعليم الديني في الأزهر ، من أمثال الشيخ محمد عبده ، وعبد الله

---

(١٧٠) النظارات والوزارات المصرية : مجموعة وثائق خاصة بالنظارات والوزارات في مصر ، إعداد فؤاد كرم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ص ٧٧ .

(١٧١) الرافعي (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ، ج٢ ، الطبعة الثانية ، المرجع السابق ، ص٨٦.

(١٧٢) أحمد طربين (الدكتور) : تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر ، المرجع السابق ، ص ١٨٤.

(١٧٣) محمد محمود السروجي (الدكتور) : الجيش المصري في القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٧م ص ٥٦٥.

(١٧٤) مكي شبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل ، المرجع السابق ، ص ٥٥٨.

شـــئونهم العامة والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى ، يتصرف فيها حسب إرادته ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يبديه في إدارة بلاده "(١٧٩)!

وحـــتى بعد اضطلاع ثورة عرابي بزعامة الحركة الوطنية عسكرياً بعد ذلك ، لم تكن أهدافها السياسية بالوضوح الكافي لتجمع الناس حولها ضد الأطماع الأوربية (١٨٠).

ولقـــد ظهرت بوادر تصدي الجيش للتدخل الأجنبي ، عندما أقدمت الوزارة الأوربية في عـــام ١٨٧٩م ، عـــلى إحالة ٢٥٠٠ من الضباط إلى الاستيداع والتقاعد بعد أن كانت رواتبهم متأخرة لمدة طويلة ، فتحرك عدد من الضباط وتمكنوا من إسقاط وزارة نوبار باشا في ١٨ يـــناير ١٨٧٩م (١٨١). وتم إسناد الوزارة لتوفيق باشا دون أن يحدث تغيير يذكر ، مما أدى لقيام وزارة مسئولة برئاسة محمد شريف جميع أعضائها من المصريين (١٨٢).

وكـــان قيـــام هذه الوزارة المسئولة انتصاراً ونجاحاً للحركة الوطنية ، ويمثل أملاً في التخـــلص مـــن السيطرة الأجنبية في مصر . مما دفع الخديو إسماعيل لاستغلال هذه الفرصة بـــالوقوف إلى جـــانب الحركة الوطنية ، والاستفادة من موقفها في دفع أطماع الاستعمار ، والتخـــلص من السيطرة الأجنبية ، واسترداد سلطته . ولكن الخديو إسماعيل لم ينجح ، فقد كانت قبضة الدول الأوربية محكمة، لا يستطيع لها دفعاً (١٨٣).

وهكذا ، بدأت الدول الأوربية ، وعلى رأسها بريطانيا تتشكك في موقف الخديو إسمـــاعيل ، وتســـعى للتخلص منه . فطلبوا إليه الاستقالة ، ولكنه رفض . فلجأوا إلى الســـلطان العثماني في الآستانة لخلع الخديو إسماعيل من الحكم . فوجد السلطان العثماني في ذلـــك فرصة لاسترداد سلطته في مصر ، وإرضاء الدول الأوربية التي كانت تفرض

---

(١٧٩) مذكرات محمد عبده ،
نقلاً عن مكي شبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل ، المرجع السابق ، ص ٥٦٥ .

(١٨٠) (180) Vatikiotis , P.J. The History of Egypt , ,(London,1976) ,P.167.

(١٨١) عمر عبد العزيز (الدكتور) : تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، المرجع السابق ، ص ٣٤١.

(١٨٢) نفس المرجع ، ص ٣٤٢.

(١٨٣) (183) ShiBeika , M., British Policy in The Sudan , 1882-1902 , Oxford University Press ,London, 1952 , P. 13.

هيمنـــتها عـــلى الدولة العثمانية . فأصدر " إرادة " بعزل الخديو إسماعيل عن الحكم ، وتوليـــة ابـــنه الأكـــبر ، توفيق ، مكانه (١٨٤). وأخيراً غادر إسماعيل مصر في ٣٠ يونيه ١٨٧٩م ، وعـــاش بقيـــة حياتـــه في إيطاليا (١٨٥). تاركاً لابنه الخديو توفيق عرشاً مثقلاً بالمشكلات .

هذا ، ومن البين أن الخديو إسماعيل قد دفع ثمن أخطائه وسوء تصرفاته . ولقد حاول أن يقـــف أخيراً في وجه التدخل الأجنبي ، ولكن بعد فوات الأوان . فآثر التخلي عن العرش عـــلى الخضـــوع للاستعمار . وكان موقفه هذا محل تقدير من بعض المؤرخين ، ومن هؤلاء الـــرافعي حيـــث يقول في الإشادة بموقف إسماعيل : " لو هو ارتضى الذل والهوان ، وأذعن لمطـــالب الـــدول الأوربية ، وقبل عودة الوزيرين الأوربيين ، يسيطران على حكومة مصر ، ومصـــايرها ، لضـــمن لنفســـه الـــبقاء عـــلى عرشه . ولكنه آثر المقاومة على الاستمساك بالعرش"(١٨٦).

وهكـــذا انطـــوت صفحة هامة من تاريخ مصر والسودان الحديث ، وبدأت صفحة جديـــدة حافلة بالتغيرات والأحداث في مصر والسودان ، هي عهد الخديو توفيق الذي نحن بصدد دراسته.

---

(١٨٤) (184)Trever , M.,Egypt's Belle Epoque Cairo 1869-1952, op. cit., P.12

(١٨٥) (185) Ibid

(١٨٦) الرافعي (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ، ج٢ ، المرجع السابق ، ص ٣٥٥.

الفصـــل الأول

سياسة الخديو توفيق في السودان

(١٢٦٩-١٣٠٢هـ/١٨٧٩-١٨٨٥م)

الفصل الأول

سياسة الخديو توفيق في السودان

(١٢٩٦هـ-١٣٠٢هـ/ ١٨٧٩-١٨٨٥م)

(أ) اعتلاء الخديو توفيق أريكة الخديوية :

تـولى الخديو توفيق(١) الحكم بعد والده الخديو إسماعيل، الذي عرف بجهوده الصادقة في حكـم مصر والسودان ، ورغبته في تمدن الأقاليم وعمرانها (٢)، والعمل على ترقيتها حتى تتمكن من تغطية جميع نفقاتها بنفسها ، دون أن تكلف الحكومة المصرية مؤونة تقدمها وعمرانها (٣). فضلاً عن اهتمامه البالغ بإنماء التجارة في البلاد ، وإشاعة الأمن في ربوعها(٤). بيد أن الأحداث في مصر والسودان بدأت تتفاقم في أواخر عهده، وتنذر بالقضاء على حكمه !

---

(١) لـقب خديو :

(خديوي) فارسي الأصل معناه المالك والأمير والسيد . وفي اللغة التركية معناه وزير .

طوبيا العنيسي : تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه ، دار العرب للبستاني ، القاهرة، ١٩٦٥ ، ص ٢٤ .وقد ورد أيضاً أن لقب " خديو " بدون ياء في آخره فارسي يعني الإمبراطور العظيم.وإضافة ياء في آخره خطأ شائع .وقد ورد في الفرمانات الشاهانية (السلطانية)، الموجهة إلى (خديو مصر)، بدون يـاء في آخره . وكان يستخدم في مصر بصورة غير رسمية . ولكنه أصبح وراثياً في عهد إسماعيل باشا ، بموجب فرمان صدر في ٨ يونيو ١٨٦٧م بعد أن بذل إسماعيل ، العطايا للمسئولين في استانبول . وقد أتاح هذا اللقب لمصر نصيباً أكبر من الحرية في كل الأمور الخاصة بإدارة البلاد ، دون الرجوع إلى الباب العالي . وظل خلفاء إسماعيل في مصر يلقبون به حتى عام ١٩١٤م ، عندما أعلنت الحماية البريطانية على مصر وتغير اللقب إلى "سلطان".

عبد السميع سالم البراوي : لغة الإدارة العامة في مصر في القرن التاسع عشر ، ص ٣٨-٤٢ .

نقلاً عن الدكتور بشير كوكو حميدة ، ملامح من تاريخ السودان في عهد الخديو إسماعيل ، مطبوعات كلية الدراسات العليا ، جامعة الخرطوم . الخرطوم ، ١٩٨٣ (رسالة دكتوراة) ص ٥ .

(٢) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر ٥٣٧ ، بتاريخ ٩ محرم ١٢٨٢هـ/يونيو ١٨٦٥م ، ص ٩٠ .

(٣) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، صورة رسالة من المعية السنية إلى محمد رؤوف باشا ، مع الأمر العالي نمرة ٥ بتاريخ ٩ ربيع الأول سنة ١٢٩٣هـ/ ٤ إبريل ١٨٧٦م ص ٦٧ دفتر معية عربي ، بدون نمرة .

(٤)دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر٥٣٧ ، ترجمة الإرادة السنية ، الصادرة إلى حسن بك محافظ مصوع ، بتاريخ ٢٤ محرم سنة ١٢٨٢هـ / ١٩ يوليو ١٨٦٥م .

ولقد ارتبط عزل الخديو إسماعيل، كما أشرنا من قبل ، بصورة أساسية بالأزمة المالية، في مصـــر .تـــلك الأزمة التي نتجت عن إسرافه وتبذيره، وتورطه في الديون . وتزايد أطماع الدول الأوربية ، وخبث الماليين الأوربيين وجشعهم وتدخلهم في شئون مصر والسودان (٥).

وعـــلى الـــرغم مـــن أن الخديو إسماعيل بذل قصارى جهده لإرضاء الدول الأوربية لـــلحفاظ على عرشه، إلا أن هذه الدول عاملته بسوء نية وخبث وغدر (٦). لا سيما عندما حـــاول إسماعيل دفع الأطماع الاستعمارية ، والوقوف ضد التدخل الأجنبي، مستغلاً نشاط الحركة الوطنية، ونجاح الثورة العرابية في إسقاط وزارة نوبار ، في فبراير عام ١٨٧٩م(٧). فقـــد اتجهت بريطانيا وفرنسا للتخلص من حكم إسماعيل، فحاولتا إقناعه بالتنازل عن العرش لابـــنه توفيـــق دون تدخل الباب العالي، حتى لا يستغل الباب العالي الفرصة للحصول على امـــتيازات لنفسه .ولكن الخديو إسماعيل رفض الاستجابة لرغبة الدولتين ، بريطانيا وفرنسا، ورفـــض التنازل عن العرش .مما جعل الدولتين، تلجآن إلى أسلوب التهديد، وانضمت إليهما ألمانيـــا . وبـــدأت هذه الدول تلوح بخلع إسماعيل ، وتولية أخيه عبد الحليم مكانه، إمعاناً في الضغط عليه !ووجدت هذه الدول فرصتها أخيراً بالإيعاز للباب العالي ،في الآستانة، بإصدار فرمان يحقق أهدافها، بعزل الخديو إسماعيل، وتولية ابنه محمد توفيق مكانه(٨).

لقـــد اعتـــلى محمد توفيق باشا خديوية مصر في يوم الخميس السادس من رجب عام ١٢٩٦هـــ، الموافق ٢٦ يونيو عام ١٨٧٩م وذلك على أثر خلع والده الخديو إسماعيل باشا (١٨٣٠-١٨٩٥م)،حين وصلت إلى مصر برقية من الباب العالي في الآستانة ، تنفيذاً لإرادة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني(٩). ثم صدر فرمان السلطان العثماني بتولية الخديو محمد توفيق رسمياً، في شعبان عام ١٢٩٦هـــ الموافق ، ٧ أغسطس عام ١٨٧٩م، مؤكداً سيادة

---

(٥) تيـــودور روز ســـتين : تـــاريخ المسألة المصرية (خراب مصر) ترجمة عبد الحميد العبادي ومحمد بدران ، دار الوحدة ، القاهرة ، ١٩٢٣م ، ص٤٥.

(٦) نصوص ووثائق من التاريخ الحديث والمعاصر ، جمعها د. محمد فؤاد شكري ود. محمد أنيس ، تقرير فارمان ، المندوب الأمريكي في مصر (١٨٨٩) ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٢٦.

(٧) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، القاهرة ، ١٩٦٣م ص ١٧٤.

(٨) (8) Mostyn , T. , Egypts Belle Epoque Cairo 1869-1952, Quartet Books , London , New York , London , 1989, P.122.

(٩) عزيز زند : تاريخ الخديو توفيق ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩١م ص ١٩.

السلطان العثماني على مصر (١٠).

ووفقاً للفرمان السلطاني ، فقد حددت عدة الجيش المصري بثمانية عشر ألف جندي، وأن على مصر أن تدفع للسلطان العثماني جزية سنوية قدرها ٧٥٠،٠٠٠ (سبعمائة وخمسون ألـــف)جنيه تركي ، وألا يعقد الخديو قروضاً جديدة، إلا إذا كان الغرض منها إصلاح المالية المصرية، شريطة موافقة الدائنين الأوربيين أو ممثليهم الرسميين (١١).

ومـــن البين أن إقدام السلطان العثماني ، على عزل الخديو إسماعيل باشا، وتولية ابنه محمـــد توفيق مكانه، كان تحقيقاً لمصلحة عليا للسلطان ، في ممارسة سلطاته في مصر (١٢). وقد تم له ما أراد ، من إظهار سيادته العليا ، على أراضى الدولة العثمانية، باستخدام حقوقه الشـــرعية في الحكم، وتأكيد سلطته، ومحاولة إلغاء الامتيازات التي ظفرت بها مصر منذ عهد محمد علي باشا في الفرمانات التي صدرت في عامي ١٨٤١م و ١٨٧٣م (١٣).

وقـــد تـــبين لنا أن هذه السياسة ، التي اتبعها السلطان العثماني بعزل الخديو إسماعيل باشـــا، وتولية ابنه محمد توفيق، واستجابته وإذعانه لمطالب الدول الأوربية، أفسحت المجال، لـــنفس الـــدول الأوربية، للمزيد من التدخل في شئون الدولة العثمانية، وسياستها الخاصة. فالدولة العثمانية بهذا التصرف، كانت قصيرة النظر، حفرت لنفسها هاوية لم تلبث أن تردت فيها(١٤)!

١-العوامل المؤثرة في سياسة الخديو توفيق:

لقـــد استبشـــر المصريون خيراً بتولية الخديو محمد توفيق الحكم.فقد عرفوا عنه إيمانه بالمبادئ الحرة، ورغبته في الإصلاح .فقد كان من تلاميذ جمال الدين الأفغاني،الذي عاش بمصر

(١٠) مجموعـــة الوثـــائق السياســـية لمصر والسودان وقناة السويس ، جمعها وقدم لها وعلق عليها ، دكتور راشد الـــبراوي ، الطـــبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٤م ، فرمان تولية الخديو محمد توفيق ، بتاريخ ١٩ شعبان ١٢٩٦هـــ/٧ أغسطس ١٩٧٩م ، ص ٤١.

(١١) نفس المصدر السابق .

(١٢) (12) Tom , L., modern Egypt , Ernest Benn limited Second Published , London , 1968 , P.42

(١٣) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ١١٤.

(١٤) جورج يانج : تاريخ مصر من عهد المماليك إلى عهد إسماعيل ، تعريب علي أحمد شكري ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٦م ، ص٥٧٢.

في الســبعينات من القرن التاسع عشر،وكان له الفضل في إحياء الروح الوطنية،ونشر مبادئ الحرية على أساس تعاليم الإسلام (١٥).

وممـا زاد من ثقة الناس في توفيق وتقديرهم له ، تنازله عن ضياعه الخاصة، تمشياً مع توصيات لجنة التحقيق، دعماً لجهود الإصلاح الاقتصادي، والقضاء على الأزمة المالية(١٦).

وجدير بالذكر أن الخديو توفيق ، كان يختلف في حياته الخاصة عن أسلافه ، فقد قنع بـزوجة واحـدة . وعـرف عنه أيضاً أنه كان أكثر أسلافه اتباعاً لتعاليم الإسلام، وتمسكاً بمبادئه(١٧).

وإذا كـان أهـالي مصر ، قد استبشروا بتولية الخديو محمد توفيق الحكم ، فإن أهل السـودان أيضـاً ، كـانوا يأملون في الإصلاح . فقد كانوا أكثر معاناة من سياسة الخديو إسماعيل، التي لم تحقق تطلعات السودانيين . إذ شاع بينهم التذمر، وبغض الحكام(١٨)، الذين لقـوا عـلى أيديهم ألواناً صارخة من الظلم . بسبب سياسة الضغط والإرهاب التي مارسها غـوردون وأعوانه من الأوربيين المسيحيين، في قمع تجارة الرقيق مستغلين اتفاقية إلغاء الرق، التي عقدها الخديو إسماعيل مع الحكومة البريطانية عام ١٨٧٧م (١٩).

ومـن أسـباب معانـاة السودانيين أيضاً ثقل الضرائب المفروضة عليهم . وما كانوا يقاسـونه مـن ويلات من الحكام في جمع هذه الضرائب (٢٠).ولهذا فإن مجرد انقضاء حكم

---

(١٥) (15) Rich Mand , J.C.B., Egypt (1798-1952 , Mettruen and Co LTD. , First Published , London , 1977, P.116.

(١٦) أحمـد عـبد الرحـيم مصطفى (الدكتور) : مصر والمسألة المصرية ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى ، القاهرة، ١٩٦٥م ، ص ١٠٨.

(١٧) نفس المرجع السابق ، ص ١٠٨.

(١٨) بشـير كوكـو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، رسالة دكتوراه ، مخطوط ، ١٩٧٦م ص ٤٠٨.

(١٩) دار الوثـائق المصـرية ، القاهرة ، محفظة ١ ، صورة اللائحة ، ونسخة من المعاهدة الخاصة بمنع الاتجار في الرقيق ، بتاريخ محرم سنة ١٢٩٥هـ /٤ أغسطس عام ١٨٧٧م.

(٢٠) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر ١٠ ، معية تركي ، المكاتبة رقم ٣٢٥ ، بتاريخ ٥ ذو القعدة ١٢٣٧ هـ/٢٤ يوليو ١٨٢٢م.

إسمـــاعيل كان إيذاناً بتحقيق آمالهم في انتهاء عهد الظلم والإرهاب، الذي أشاعه غوردون، والحكام الأوربيون، الذين منح غوردون صلاحيات تعيينهم في السودان (٢١).

ولكن سرعان ما خابت آمال المواطنين، بمصر والسودان، في شخصية الخديو توفيق . وتبددت أحلامهم في الإصلاح، والتغيير إذ نكص الخديو توفيق عن مبادئه السابقة وما عرف عنه من ميل إلى المبادئ الحرة والإصلاح . قبل أن يتولى حكم البلاد (٢٢).

وربمـــا كان ذلك مرده إلى نشأته الأولى . فوالدته كانت إحدى جواري إسماعيل، فلم يحـــظ باحترام البلاط، أو بعطف الوالد، الذي كان يفضل عليه ابنيه الآخرين، حسن وحسين كـــامل ! ولم يوافـــق إسماعيل ، على جعله ولياً للعهد ، باعتباره أكبر أبنائه ، إلا بعد إصرار الســـلطان العثماني على ذلك .وكان والده يحد من اتصاله بممثلي الدول الأجنبية . إمعاناً في إبعـــاده عـــن الحياة السياسية . وربما كان ذلك وراء انضمام توفيق إلى الفئات ، التي كانت تطالب بالتغيير والإصلاح في مصر ، في أواخر عهد والده الخديو إسماعيل(٢٣).

ويبدو لنا أن التدخل الأجنبي في مصر والسودان ، كان له الدور الأكبر في جنوح الخديو توفيـــق إلى الحكـــم المطلق، والنكوص عن مبادئه السابقة، فقد كان يخشى في بداية حكمه، عودة والـــده إسمـــاعيل، إلى حكم مصر . ومن ثم لم يجرؤ على التصدي لنظام الإدارة الدولية ،حتى ولو أتـــيحت له الفرصة لإثبات وجوده. ذلك أن خلع والده إسماعيل، كان درساً أثر في تصرفاته طيلة حياته، فأيقن في نفسه، أن بقاءه في العرش، رهين بالانصياع لإرادة فرنسا وإنجلترا والدول الأوربية، فهـــي القوة التي أجلسته على الحكم، وأبعدت والده . فما كان له إلا أن يخضع لها . وبذلك فإن الخديو توفيق ، استسلم للدول الأوربية ، وأصبح ألعوبة في يد الاحتلال البريطاني (٢٤).

وتـــرتب على خضوع الخديو توفيق للتدخل الأجنبي، تعطيل المجلس النيابي في مصر، وإعـــادة المراقبة الثنائية على مالية مصر .ولم يتوان في قبول استقالة محمد شريف باشا رئيس الـــوزراء المصـــري الذي عرف بميوله الوطنية . وعين بدلاً عنه رياض باشا ، الذي كان ضد

---

(٢١) دار الوثـــائق القومية ، دفتر ٢٦ عابدين ، وارد تلغرافات ، صورة التلغراف العربي ، (إرادة سنية)، في ٢٣ رجب ١٢٩٥هـــ/١٢ يوليو ١٨٧٨م ، إرادة سنية إلى سعادة حكمدار عموم السودان .

(٢٢) مكـــي شـــبيكة (الدكـــتور) : تاريخ شعوب وادي النيل مصر والسودان في القرن التاسع عشر ، الطبعة الثانية، دار الثقافة ،بيروت ، لبنان ، ١٤٠٠هـــ/١٩٨١م ص ٥٦٢

(٢٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى (الدكتور) مصر والمسألة المصرية ، المرجع السابق ، ص ١٠٨.

(٢٤) (24)Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , (1881-1898) , Second Edition , Clarendon Press . Oxford , 1970, P.149.

النظام النيابي، رئيساً للنظار(٢٥). واستجاب لتحذير الدول الأوربية له من روح الثورة والتحرر التي يظهرها الشيخ جمال الدين الأفغاني في دروسه بمصر. ووصل الحد بالخديو توفيق إلى قوله لجمال الدين الأفغاني : "إن دروسكم وأقوالكم المهيجة ستؤدي بالشعب، والبلاد إلى تهلكة" ! ثم قرر أبعاده ونفيه إلى خارج البلاد متهماً إياه بالفساد (٢٦) !

وهكذا اتسم عهد الخديو توفيق ، بالضعف والخضوع والاستسلام ، للتدخل الأجنبي، وأصبحت بريطانيا هي صاحبة الشأن في سياسة مصر والسودان . وخاصة بعد الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢م ، حيث كان الإنجليز يسندون حكم الخديو توفيق، الذي اتصف بالخضوع والاستسلام، لأن ضعفه يمكنهم من تنفيذ رغباتهم في مصر والسودان(٢٧).

وكان على الخديو توفيق أن يتحمل نتائج هذا الضعف في مركز الخديوية، وأن يواجه آثاره ونتائجه، في كل من مصر والسودان، فقد تسبب هذا الضعف في قيام الثورة العرابية . والاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢م .وقد وصف عرابي عهد توفيق بأنه عهد الظلم والاستبداد ومجانبة الشرع والقانون (٢٨).

أما في السودان فقد مهد هذا الضعف لقيام الثورة المهدية في السودان ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م ، وما تبعها من أحداث أدت إلى انفصال السودان عن مصر .وقد كان محمد المهدي يأخذ على الخديو توفيق، اتخاذه الكفرة أولياء ويطلب منه التأسف على تفريطه في أمور المسلمين . والحزن والتأسي على الدسائس التي حاقت بالإسلام، والشوائب التي لحقت بالدين، وأدت إلى تعطيل الشرائع والأحكام (٢٩).

---

(٢٥) وثائق النظارات والوزارات المصرية ، الجزء الأول ، جمع وترتيب فؤاد كرم ، تعريب الأمر الكريم الصادر من الحضرة الفخيمة الخديوية إلى حضرة عطوفتل، رياض باشا في تاريخ ٢٤ شوال ١٢٩٦هـ / ٢١ سبتمبر ١٨٧٩م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٩٤م ، ص ٩٥.

(٢٦)مكي شبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل ، المرجع السابق ، ص ٥٦٢ .

(٢٧) مصطفى خالدي (الدكتور) : وعمر فروخ (الدكتور) : التبشير والاستعمار في البلاد العربية ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، الطبعة (٣) ، ١٩٥٣م ، ص ٢٣٩.

(٢٨) (28) Ahmad Urabi , The Defense Statement , Translated and Edited By Trever Le . , Gassiek , American Univirsity , Cairo , 1982 . P. 34 .

– تقرير كتبه أحمد عرابي بالعربية في ٢٦ ذو الحجة ١٢٩٩هـ/٢٩ أكتوبر ١٨٨٢م، بجزيرة سيلان .

(٢٩) مهدية ، ٢٧٧/٢٠/٣/٨ ، انذارات ب/ من المهدي إلى والي مصر ، ٣ رمضان سنة ١٣٠٢هـ / ١٧ يونيو ١٨٨٥م . دار الوثائق القومية، الخرطوم .

وقد مهد هذا الضعف أيضاً ، في عهد الخديو توفيق ، إلى محاولة طرد الإدارة المصرية وإضعاف النفوذ التركي، وإحلال الوجود البريطاني في الصومال (٣٠).ومهد لاتفاق بريطانيا ســواً مع إيطاليا ، حيث كانت إيطاليا ، تطمع في السيطرة على تلك المنطقة واحتلال موانئ البحر الأحمر (٣١).

وفي حقيقــة الأمــر ، بلغ ضعف الخديو توفيق حداً مزرياً . فقد كان بقاؤه في منصبه رهناً بتوقيعه للأوراق والأوامر التي كانت تعد له من بريطانيا ، دون أي نقد أو تعليق، مثله في ذلك مثل الجــندي الــذي ينفذ أوامر رؤسائه (٣٢)! ولقد كان قدر مصر والسودان ، أن يتولى العرش بعد إسماعيل حاكم ضعيف (٣٣)!

وســينعكس هــذا الضعف تلقائياً على الإدارة في السودان . وبالفعل فقد رأى غوردون حكمدار السودان ، أن موقفه في السودان ، بعد ذهاب الخديو إسماعيل ، سيكون ضعيفاً ، بعد أن كان مطلق اليد في هذه البلاد ولذلك فقد رأى أن يقدم استقالته عن حكمدارية السودان (٣٤).

٢-استقالة غوردون باشا :

لما تولى الخديو توفيق الحكم اهتم بأمر السودان ، حيث كان غوردون باشا **Gordon** لا يــزال حكمداراً على السودان . وكان أول ما اهتم به الخديو توفيق بشأن السودان ، هو تحديــد الحــدود بــين الســودان والحبشة ، والتي كانت تثير الاهتمام طيلة عهد إسماعيل باشــا(٣٥). ولهذا ، فقد بعث الخديو توفيق في طلب غوردون باشا إلى مصر ،لبحث هذا الأمر. فشد غوردون الرحال إلى مصر في أغسطس ١٨٧٩م . حيث أرجأ استقالته التي كان ينوي

---

(٣٠) وثــائق عن الصومال وأرتريا ، جمعها أحمد برخت ماج سجال ، شركة الطوبجي للطباعة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م ، ص ١٩٩.

(٣١) وثــائق الخارجيــة الإيطالية حول احتلال أرتريا ، جمع وإصدار ، جبهة التحرير الأرترية ، دمشق ، سوريا، ١٩٧٨م ، ص ٢٠٠ .

(٣٢) الــبرت فارمــان : مصر وكيف غدر بها ، ترجمة عبد الفتاح عنايت ، مراجعة علي جمال الدين ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٣١٧.

(٣٣) (33) Vatikiotis , P. J. , The History of Egypt , second Edition , London , 1967, P.156.

(٣٤) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ١٠١.

(٣٥) الســيد يوســف نصــر (الدكتور) : الوجود المصري في أفريقيا في الفترة من ١٨٢٠-١٨٩٩م ، الطبعة الأولى، دار المعارف ، مصر ، القاهرة ، ١٩٨١م ، ص ٣٠٦.

تقديمها، ووافق على السفر إلى الحبشة ، عن طريق مصوع لمقابلة الملك يوحنا ، والتفاوض معه بشأن العلاقات بين البلدين (٣٦).

ويبدو أن ملك الحبشة ، كان طامعاً في كثير من المناطق التابعة للإدارة المصرية ، ومنها المتمة ، وسنهيت ، وزيلع ،وقسم من إقليم هرر ،ومصوع .فلم يتمكن غوردون باشا، رغم ما بذلـــه مـــن جهد ، من الاتفاق معه على شيء ، في ما يتعلق بتحديد الحدود بين السودان والحبشـــة . وبذلـــك فقد فشل في مهمته ،وسمح له ملك الحبشة أخيراً بالعودة إلى مصر عن طـــريق مصـــوع ،بعد أن اعتقله وطرده طرداً مشيناً(٣٧).فلما وصل مصر ، قدم استقالته للخديو توفيق في أواخر عام ١٨٧٩م .

كـــانت اســـتقالة غوردون عن حكمدارية السودان ، إيذاناً بظهور رد فعل كبير في الســـودان ، وخاصة فيما يتعلق بانتعاش تجارة الرقيق من جديد ، حيث بدأ التجار يمارسون نشـــاطهم . بـــل بدأ بعض الموظفين الذين عينهم إسماعيل يمارسونها بأنفسهم . وصار سلطان الحكومة مهدداً بالزوال ، في كثير من أجزاء البلاد (٣٨).

ولقـــد تأخـــر تعيين حكمدار جديد للسودان ، بعد استقالة غوردون باشا ، إلى فترة ليســـت بالقصـــيرة ، تمـــتد نحو ستة أشهر ، مما أدى إلى المزيد من تسيب الإدارة ، وتفاقم المشكلات بسبب خلو منصب الحكمدارية . حتى شهر مارس ١٨٨٠م (٣٩).

ويـــبدو أن الحكومـــة المصرية كانت في هذه الفترة ، تبحث عن الحكمدار الكفء . ففكـــرت في إسناد منصب الحكمدارية لأحد رجالات الإدارة المصرية القدامى في السودان ، وهـــو إسمـــاعيل باشـــا أيـــوب ، الذي سبق له أن تولى منصب الحكمدارية في عهد الخديو إسماعيل(٤٠).وفي عهده أضيفت دارفور إلى الحكم المصري في السودان .

---

(٣٦) شـــوقي عطا الله الجمل (الدكتور) : سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م ، القاهرة ، مصر ، ص ٣٥.

(٣٧) مورهيد (آلان):النيل الأبيض ،ترجمة محمد بدر الدين خليل ،دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥م ، ص ٢٠١.

(٣٨) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٢٥٥-٢٥٦.

(٣٩) (39) Hill ,R.,Egypt in the Sudan , 1820-1881,(London , 1959) , P.148.

(٤٠) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهـــرة ، دفتر (بدون نمرة) مكاتبة ١ بتاريخ ١١ شوال ١٢٩٠هـ/٢ ديسمبر ١٨٧٣م. ، إرادة إلى إسماعيل أيوب باشا .

بيـــد أن إسماعيل أيوب ، قدم شروطاً ، يقبل بمقتضاها منصب الحكمدارية . ولم ير مجلس النظار قبولها ، ولهذا صرف النظر عن اختياره لهذا المنصب (٤١).

ولقـــد كـــان لانشغال مصر بتداعيات الأزمة المالية ونتائجها ، وتطورات الحركة الوطنية وتفاقمها ، في مصر ، أثر كبير في التأثير على القيادة السياسية في مصر ، فلم تجد أوضاع السودان الاهتمام والإشراف التام ، الذي كانت بحاجة ماسة إليه (٤٢).

(ب) معالم سياسة الخديو توفيق في السودان

١- تعيين محمد رؤوف باشا حكمداراً على السودان :

أصـــدر الخديـــو محمـــد توفيق باشا أمراً بتعيين محمد رؤوف باشا ، حكمداراً على السودان (٤٣)، في ٢٥ ربيع الثاني ١٢٩٧هـ/٢٧ مارس ١٨٨٠م . أي بعد مضي حوالي ستة أشهر ، من استقالة غوردون عن حكمدارية السودان . وقد سبق لمحمد رؤوف باشا ، أن

(٤١) مكي شبيكة(الدكتور):السودان عبر القرون ،دار الثقافة ، الطبعة الأولى،بيروت،لبنان،١٩٦٤م،ص ٢٤٢

(٤٢) (42) Hill ,R.,Egypt in the Sudan, op. cit . , P. 149.

(٤٣) محمد رؤوف باشا :

ضـــابط مصري (من أب نوبي من مصر العليا) بدأ نجمه يظهر في عام ١٨٦٩م ، ويعتبر أول حاكم عام للسودان من أصل مصري .

رافـــق صـــمويل بيكر ، في جنوب السودان ، وصحبه في كل حملاته . وحضر رفع العلم المصري على (غـــندكرو) التي سميت بالإسماعيلية في ١٥ إبريل سنة ١٨٧١م . وعندما انتهت خدمات صمويل بيكر عام ١٨٧٣م تم تعين محمد رؤوف باشا ، مديراً للمديرية مكانه . وهي مديرية خط الاستواء . وعندما عُـــين غوردون باشا مديراً لخط الاستواء ، صدر أمر إلى محمد رؤوف باشا في ٢ محرم ١٢٩١هـــ /١٩ فـــبراير عام ١٨٧٤م بتسليم سلطاته ومهماته إلى غوردون باشا .وقد أشاد غوردون بخدماته. ولم يلبث أن تم اخـــتياره لفـــتح إقليم هرر . وتمكن من رفع العلم المصري عليها في ١١ أكتوبر عام ١٨٧٥م . فصـــدر الأمر بتنصيبه حكمداراً لعموم الجالا والصومال وهرر . وأنعم الله عليه برتبة (فريق) . وفي عام ١٨٧٧م فصله غوردون من عمله في هرر ، دون أن يبدي أسباباً مقنعة لذلك !!

وفي عهـــد الخديـــو توفيق باشا تم اختيار محمد رؤوف حكمداراً للسودان خلفاً لغوردون ، وقد وصل الخـــرطوم في يونيو ١٨٨٠م وظل في منصبه حتى قيام الثورة المهدية ،إذ تم استدعاؤه لمصر في فبراير عام ١٨٨٢م وتم اختياره لرئاسة المجلس الذي حاكم عرابي!

-شـــوقي عطـــا الله الجمل (الدكتور) : سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، المرجع السابق ، ص ٢٣٣.

عمـــل في الســـودان مع بيكر في مديرية خط الاستواء ، ثم أصبح مديراً لها بعد انتهاء مهمة بيكـــر، لفـــترة وجيزة . تولى بعدها مهمة فتح إقليم هرر . ودانت له جميع القبائل بالطاعة ، وكـــتب تقريـــراً مفصلاً بين فيه مراحل الفتح (٤٤).ثم صدر الأمر بتعيين محمد رؤوف باشا حكمـــداراً على هرر وملحقاتها(٤٥). إلا أنه عزل عن منصبه على يد غوردون باشا في عام ١٨٧٧م . دون أسباب مقنعة .

وما من ريب أن خبرة محمد رؤوف باشا في الحكم والإدارة السابقة في أقاليم السودان، وما أبـــداه مـــن إخلاص ، كانت من أهم العوامل التي ساعدت على اختياره حكمداراً للسودان بعد اســـتقالة غـــوردون . ومن المتوقع أن تمهد له هذه الخبرة ، أسباب النجاح في إدارة البلاد . ولكن محمد رؤوف وجد أن الأحوال في السودان قد تغيرت ووصلت حداً من السوء لا يمكن له معالجته (٤٦).وكـــانت الأوضاع مقلوبة رأساً على عقب بسبب سياسة غوردون ، ومحاولاته للقضاء على تجارة الرقيق ، فلا غرابة أن يفشل محمد رؤوف في مهمته في إصلاح أحوال البلاد (٤٧).

٢ – خطة الخديو توفيق للحكم والإدارة في السودان:

تضـــمن الأمـــر العـــالي الـــذي صدر بتعيين محمد رؤوف باشا ، الخطة السياسية ، والإدارية، والاقتصادية ، والعسكرية ، التي أرادت الخديوية ، أن يتبعها محمد رؤوف في حكم السودان(٤٨).

ونلاحـــظ أن الســـلطات التي منحت للحكمدار محمد رؤوف باشا ، كانت محدودة ومقيـــدة . فبيـــنما كان سلفه غوردون باشا يتمتع بسلطات واسعة ، تشمل عموم الأقاليم الســـودانية ، وخط الاستواء ، وبحر الغزال ، ودارفور ، وسواحل البحر الأحمر ، إلى مصوع

---

(٤٤) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، الوثيقة العربية ٢/٣/٣ ، عابدين ، في ١٨ رمضان عام ١٢٩٢هـ/ أكتوبر ١٨٧٥م.

(٤٥) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر معية عربي ، بدون نمرة ، صفحة ٣٠ ،في ١٣شوال عام ١٢٩٢هـ / نوفمبر ١٨٧٥م.

(٤٦) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ١٠١.

(٤٧) (47) Hill , R., Egypt in The Sudan , op.cit. . P.149.

(٤٨) الأمر العالي بتعيين الحكمدار محمد رؤوف باشا ، بتاريخ ١٥ ربيع الثاني ١٢٩٧هـ / ٢٧ مارس١٨٨٠م، نقلاً عن نعوم شقير ، تاريخ السودان ، تحقيق د. محمد إبراهيم أبو سليم ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨١م، ص ٣٠٧.

وســواكن(٤٩)، كان الحكمدار محمد رؤوف مقيداً في خطواته وتصرفاته ، فقد أمره الخديو توفيق أن يرجع إلى النظارات (الوزارات) المصرية المختصة في القاهرة ، في كل شأن (٥٠) !

ولقــد أشــار الأمر العالي الذي صدر بتعيين محمد رؤوف باشا ، في ١٥ ربيع الثاني ١٢٩٧هـــ/مــارس عام ١٨٨٠م ، إلى ضرورة " تقدم وانتظام أحوال مملكة واسعة مثل الســودان . وبــذل ما يجب من المساعي لتوطيد أسباب عمارتها ، وتمدن ورفاهية أهاليها ، بتوسيع نطاق دائرتي التجارة والزراعة ، اللتين هما أعظم منابع الثروة العمومية "(٥١).

لقــد كان هذا الاهتمام بالعمران والتمدن والرفاهية في السودان ، أمراً شغل حكام مصــر منذ عهد محمد علي باشا ومحمد سعيد باشا (٥٢).كما كان أيضاً محل اهتمام الخديو إسمــاعيل باشا، في مخاطبته لحكمدار السودان موسى حمدي ، بتاريخ ٦ شوال ١٢٧٩هـــ / ٢٧ مارس ١٨٦٣م (٥٣).

وكمــا أن الخديــو إسماعيل ، أكد في بداية حكمه في السودان على الاهتمام بالجيش والمال ، وتوطيد الأمن في جميع أرجاء البلاد في مصر والسودان (٥٤).فإن الخديو توفيق سار عــلى نفس النهج ، في الاهتمام بمالية السودان وتنظيم الإدارة ، وإصلاح الحالة العسكرية ، وتوفير الأمن والنظام .

فقد أشار الأمر العالي الذي صدر بتعيين محمد رؤوف باشا ، إلى ضرورة تنظيم الميزانية لــتكون مســتوفية كافــة الإيرادات ، ومصروفات الحكمدارية ، بما يحقق الضبط والدقة ، والإحاطــة بكافــة أموال السودان ، وأنواع الضرائب ، والعوائد ، وسائر الأموال المقررة والجــاري تحصيلها ، وكيفية استعمالها وصرفها ، من غير إضرار بحالة الأهالي ، ولا إجحاف

---

(٤٩) دار الوثــائق المصرية ، القاهرة ، دفتر رقم ١٥ ، أوامر عربي ،ص ٧ ،رقم ١٦بتاريخ ٤صفر ١٢٩٤هـــ/ ١٧ فبراير ١٨٧٧م ، صورة أمر كريم إلى غوردون باشا .

(٥٠) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٤٢.

(٥١) الأمــر العــالي بتعيين محمد رؤوف باشا حكمداراً على السودان ، في ١٥ ربيع الثاني سنة ١٢٩٧هـــ/٢٧ مارس سنة ١٨٨٠م ، المرجع السابق، ص ٣٠٧.

(٥٢) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محفظة ٣ ، مديريات ،وثيقة ٣٧٩ ، ١١ربيع الأول ١٢٧٣هـــ/١٨٥٦م.

(٥٣) دار الوثــائق القومية ، القاهرة ، دفتر المعية السنية رقم ٥٢٦ ، صحيفة ٥٨ بتاريخ ٦ شوال سنة ١٢٧٩ هـــ/ ٢٧ مارس ١٨٦٣م.

(٥٤) دار الوثــائق القومية ، القاهرة ، إرادة صادرة إلى مدير دنقلا ، بتاريخ ٢٣ رجب ١٢٨٣هـــ/ ١ ديسمبر ١٨٦٦م ، دفتر ٥٥٥ قسم ثاني ص ١١ نمرة ١٧ ظهورات .

بحقــوق الخزيــنة . وطلب إرسال صورة من الميزانية ، إلى نظارة المالية بمصر ، وتقديم بيان بالمصروفات والإيرادات ، لهذه النظارة كل ثلاثة أشهر (٥٥).

ولكــن يــبدو أن هــذا الاهتمام بالناحية المالية كان مجرد نوايا ، لم تتبعها إجراءات مدروســة ، لوضــعها موضع التنفيذ . فقد لجأ محمد رؤوف إلى سياسة الباب المفتوح ، التي مكنت من جديد لازدهار تجارة الرقيق (٥٦).

وأما فيما يختص بالجيش ، فقد تضمن الأمر العالي بتعيين محمد رؤوف باشا ، ضرورة تنظيم وإصلاح الحالة العسكرية ، حسب احتياج البلاد لتوطيد الأمن والنظام العام ، وخاصة تقويــة الحــدود مــع الحبشة . وإجراء هذا التنظيم ، والترتيب ، وفق القانون العسكري ، بالاتفــاق مــع نظــارة الجهادية . وللحكمدار تنفيذ القانون العسكري في الجنايات وسائر الأحوال أيضاً ، بواسطة نظارة الجهادية (٥٧).

ونلاحظ أن خطة الخديو توفيق لحكم السودان ، رغم جنوحها إلى المركزية ، إذ ألزم الحكمــدار بالــرجوع إلى النظارات (الوزارات) المختلفة ، في كل أمر ، لم يظهر فيها جديد يخــالف سياســة ســلفه الخديــو إسماعيل باشا . فما لدينا من الوثائق لم يظهر أي موضوع جديد(٥٨).وربما كان ذلك مرده إلى أن الخديو توفيق ، اعتلى الأريكة الخديوية والبلاد بين محــن داخلية ومشكلات خارجية (٥٩)، لم تمكن الخديو توفيق والوزارات المصرية المختلفة ، مــن ممارســة الإشراف التام على أوضاع الحكم في السودان ، وتوجيه سياسة الحكمدار ، والإداريــين ، في مواجهة مشكلات البلاد (٦٠).وخاصة عند قيام الثورة العرابية بعد شهور

---

(٥٥) الأمــر العالي بتعيين محمد رؤوف باشا حكمداراً على السودان ، بتاريخ ٢٣ رجب ١٢٩٧هـ/٢٧ مارس سنة ١٨٨٠م ، المصدر السابق .

(٥٦) (56) Holt , P . M ., <u>The Mahadist State in the Sudan</u>, (1881-1899) ,op. cit . , P.40 .

(٥٧) الأمــر العالي بتعيين محمد رؤوف باشا حكمداراً على السودان ، بتاريخ ٢٣ رجب ١٢٩٧هـ/٢٧ مارس سنة ١٨٨٠م ، المصدر السابق .

(٥٨) مكي شبيكة (الدكتور) : <u>السودان عبر القرون</u> ، المرجع السابق ، ص ٢٤٢

(٥٩) عزيز زند : <u>تاريخ الخديو محمد باشا توفيق (صفحات من تاريخ مصر)</u> المرجع السابق ، ص ١٩.

(٦٠) (60)Hill ,R., <u>Egypt in the Sudan</u> , 1820-1881, op. cit ., P. 149 .

قليلة من تولي محمد رؤوف حكمدارية السودان (٦١). إذ بدأت بوادر ثورة عرابي في فبراير عام ١٨٨١هـ (٦٢).

وكـان قيـام الثورة المهدية في السودان ، إضافة لمشكلات جديدة ، لمتاعب الحكم المصري في السودان في عهد الخديو توفيق ، وحكمداره محمد رؤوف باشا . فقد أعلن محمد أحمد المهدي دعوته في الخطابات التي أرسلها إلى أحبابه وخلصائه بتاريخ ١شعبان ١٢٩٨هـ / ٣٠ يونيـو ١٨٨١م (٦٣). مما جعل الخديو توفيق ، والحكمدار محمد رؤوف باشا ، غير قـادرين عـلى إحداث أي تغيير جذري ، في السياسة المصرية في السودان ، يجعلها تختلف اخـتلافاً كـبيراً ، عن عهد الخديو إسماعيل (٦٤). فقد أصبح القضاء على الثورة المهدية ، وتحقيق الاستقرار ، هو الأمر الشاغل للخديو توفيق ، والإدارة المصرية في السودان ، فضلاً عـن زحمة المشكلات الدبلماسية الدولية ، والأزمات الداخلية ، التي لم تترك للخديو توفيق وحكومـته، إلا الـنذر اليسـير مـن الوقت ، لمعالجة مشكلات الولايات التابعة للإدارة المصرية(٦٥).

إن معظم المصادر والمراجع ، توجز الحديث عن عهد الخديو توفيق ، في السودان قبل قيـام الثورة المهدية . وربما كان ذلك بسبب قصر المدة الزمنية لهذه الفترة . فضلاً عن ضآلة الإنجـازات التي تمت فيها . والتي لا تشمل تغيرات كبيرة . كما وضحنا . وإنما تكاد تكون امتداداً لسياسة الخديو إسماعيل ، والحكمدار غوردون باشا (٦٦).

فقـد كـان محمـد رؤوف باشا حريصاً على المضي في نفس الطريق الذي سار عليه غـوردون باشـا ، في محاربـة تجارة الرقيق بالعنف والشدة لإرضاء الخديو توفيق ، وإرضاء

---

(٦١) (61)Ibid . P. 149.

(٦٢) مذكـرات أحمـد عرابي المصري ، تقرير عن الأحداث التي وقعت بمصر من يناير ١٨٨١م إلى اكتوبر سنة ١٨٨٢م ، كتـبه أحمـد عرابي في ٢٦ ذو الحجة سنة ١٢٩٩هـ / ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢م ، بمدينة كولمبو بجزيرة سيلان ، طبعت ، بالجامعة الأمريكية ، القاهرة ، ١٩٨٢م ص ٦.

(٦٣) مهدية ، ٩/٤/٣٥-٣٧ ، من المهدي إلى الشيخ محمد الطيب البصير ، غرة شعبان ١٢٩٨هـ/ ٣٠يونيو ١٨٨١م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٦٤) (64) Holt , P . M .The Mahadist State in the Sudan(1881-1889), op. cit . , P.41.

(٦٥) (65) Ibid .

(٦٦) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٤٢.

الحكومـــة الإنجليزية . التي تكررت شكاويها في غضون عام ١٨٨٠م و١٨٨١م إلى قنصلها العام في مصر ، السير إدوارد مالت، من أن تجارة الرقيق صارت مزدهرة في السودان ، أكثر من أي وقت مضى (٦٧).

وبقيام الثورة المهدية في السودان ، أصبحت المراجع والمصادر ، تهتم بأحداث الثورة ، وتطوراتها ، ومواجهة الحكومة المصرية لها .. وتكاد تمسك عن تناول الجوانب الإدارية والمالية وغيرهـــا ، إلا بـــالقدر الـــذي يرتـــبط بالـــثورة المهدية وأحداثها ، مما يعتبر ضمن تاريخ المهدية(٦٨).

وكما أوضحنا من قبل ، فإن احتلال الإنجليز لمصر في سبتمبر عام ١٨٨٢م ، أدى إلى خضوع الخديو توفيق ، والحكومة المصرية ، لإدارة سلطات الاحتلال البريطاني في مصر . فلم يعد الخديو توفيق يملك قراره (٦٩). وقد ترتب على ذلك تأثير كبير على قرارات وسياسات الخديـــو توفيـــق ، وحكومته ، في مصر والسودان . أفقدها المصداقية . فأصبحت صورة من صور التبعية لبريطانيا ، صاحبة النفوذ الفعلي في مصر (٧٠).

وســـنحاول في الصـــفحات الـــتالية ، أن نتتبع التغيرات السياسية ، والإدارية ، والاقتصـــادية ، والاجـــتماعية ، في عهد الخديو توفيق في السودان في مختلف المجالات ، رغـــم ما أوضحنا من صعوبات ، ناتجة عن الظروف التي أحاطت بعهده ، والتطورات السياســـية في مصـــر والسودان الناتجة عن الثورة العرابية ، والاحتلال البريطاني لمصر ، وقيام الثورة المهدية في السودان في غرة شعبان ١٢٩٨هـ /٣٠ يونيو ١٨٨١م (٧١).

---

(٦٧) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٢٥٨.

(٦٨) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٤٢.

(٦٩) الفرد سكاون بلنت : التاريخ السري لاحتلال انجلترا لمصر ، راجعه ووافق عليه السيخ محمد عبده ، المركز العربي للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١م ، ص ٣٥٥.

(٧٠) عمـــر عـــبد العزيز عمر (الدكتور) : دراسات في تاريخ مصر الحديث (١٥١٧-١٩٥٢م) ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ص ٣٢٩.

(٧١) دار الوثـــائق القوميـــة / الخرطوم ، مهدية ١٦/٣/٨ ، ٤ منشورات ، بتاريخ ١ شعبان عام ١٢٩٨هـ / ٣٠ يونيو ١٨٨١م .

(جـ) التغيرات السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية

١- النظام الإداري :

كانت مشكلة التنظيم الإداري ، من المشكلات التي شغلت الحكم التركي المصري في السودان ، منذ عهد محمد علي باشا ، وحتى عهد الخديو توفيق . فقد بدأ النظام الإداري في السـودان مركـزياً ، في عهد محمد علي باشا ، على غرار النظام الإداري في مصر، الذي تم اقتباسه من النمط الإداري التركي في الدولة العثمانية (٧٢).

ولقـد تـأرجح النظام الإداري في السودان ، في عهد محمد علي باشا ، ومحمد سعيد باشا، بين المركزية ، واللامركزية . فلما تولى إسماعيل باشا ، الحكم (١٨٦٣م) أعاد المركزية، وأوصـى حكمـدار السـودان ، موسى حمدي ، بحسن الإدارة وفق الأصول الموضوعية ، والقواعـد المرعية (٧٣).وتحقيق المزيد من " الأمن والانضباط العام "(٧٤).وكان يعتبر أن توطيد الأمن في المسالك والمعابر في جميع أرجاء مصر والسودان أهم شيء لديه (٧٥).

ومـع ذلـك فـإن الـنظام الإداري في عهـد إسماعيل ، تأرجح أيضاً بين المركزية واللامركـزية نتـيجة الفـتوحات، وتوسـع البلاد ، وتعقد مشكلات الإدارة المصرية في السـودان(٧٦). والتوسع في استخدام الأوربيين في إدارة السودان.حيث تم اختيار غوردون باشـا حكمـداراً للسودان،بسلطات واسعة(١٨٧٧-١٨٧٩م)(٧٧).فحكم البلاد حكماً

---

(٧٢) (72) Holt , P.M., Amodern History of The Sudan , from the Fung Sultenate to the Present day , London 1963 .p.39.

(٧٣) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٤٢.

(٧٤) دار الوثائق المصرية ، القاهرة ، المعية السنية ، دفتر رقم ٥٢٦ ،صحيفة ٥٨،بتاريخ ٦شوال ١٢٧٩هـ.

(٧٥)دار الوثـائق المصرية ، القاهرة ، إرادة صادرة إلى مدير دنقلا ، بتاريخ ٢٣ رجب ١٢٨٣هـ /٢١ ديسمبر ١٨٦٦م ، دفتر ٥٥٥ ، قسم ثاني ، ص ١١ ، نمرة ١٧ ظهورات.

(٧٦) بشـير كوكـو حميـدة (الدكتور) ، ملامح من تاريخ السودان في عهد الخديو إسماعيل ، مطبوعات كلية الدراسات العليا ، جامعة الخرطوم، ١٩٨٣م ص ٩ .

(٧٧) دار الوثـائق القومية ، القاهرة ، دفتر ١٥ ، أوامر عربي ، ص ٧ ، رقم ١٦ ، بتاريخ ٤ صفر ١٢٩٤هـ/ ١٧ فبراير ١٨٧٧م ، صورة الأمر الكريم إلى غوردون باشا.

مطـــلقاً، أشاع الذعر والإرهاب في السودان (٧٨). في سبيل تنفيذ اتفاقية إلغاء تجارة الرقيق التي عقدها بريطانيا مع الخديو إسماعيل في ٤ أغسطس عام ١٨٧٧م (٧٩).

ولقـــد اعتبر السودانيون ، ممارسات غوردون ، ومن معه من الأوربيين في السودان، ومطاردهم العنيفة لتجارة الرقيق ، اعتبروا ذلك اضطهاداً دينياً ، وحرباً صليبية جديدة ، ضد الإســـلام والمســـلمين (٨٠). وكان ذلك من أهم العوامل التي بلورت الثورة المهدية التي أطاحت بالحكم التركي المصري في السودان (٨١).

وعليه ، فقد ورث الخديو توفيق ، تركة مثقلة بالمشكلات الإدارية المعقدة ، جعلت البلاد في حالة من عدم الاستقرار ، وهيأها للثورة ضد الحكم التركي المصري في السودان(٨٢).

ومع أن الخديو توفيق في أوائل عهده ، سار على نفس النظام المركزي الذي ورثه عن ســـلفه إسمـــاعيل . إلا أن التنظيم الإداري في السودان ، لم يستقر على نظام واحد منذ عام ١٨٨٠م ، وما بعدها ، بل وفي كل الأقاليم الأفريقية التابعة لمصر . فقد تم تقسيم هذه البلاد إلى قسمين :

- القسم الأول : يتكون من دارفور ، وكردفان ، وشرق السودان ، وسواكن ، ومصوع وعليه حاكم برتبة مدير عام ، يتبع له مديرو المديريات ، ومشايخ القرى .
- القســـم الـــثاني :يتكون من بربرة ، وهرر ، وزيلع وتاجورة . وعليه حاكم برتبة مدير عموم(٨٣). ويتبع المديران العامان ، حكمدار السودان ومقره في الخرطوم(٨٤).

---

(٧٨) الشـــاطر بصـــيلي عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل ، الطبعة الثانية ، مكتبة العرب ، القاهرة، (١٩٦٦-١٩٦٧م) ، ص١٦٤.

(٧٩) دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، محفظة ١ ، صورة اللائحة ، ونسخة من المعاهدة ، الخاصة بمنع الاتجار في الرقيق ، محرم ١٢٩٥هـــ/ ٤ أغسطس ١٨٧٧م.

(٨٠) (80) Hill ,R.,Egypt in the Sudan , op. cit . , P. 146.

(٨١) بشـــير كوكـــو حميـــدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، رسالة دكتوراة ، مخطوط ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

(٨٢) مكي شبيكة(الدكتور):مقاومة السودان للغزو والتسلط ، معهد البحوث والدراسات، القاهرة ، ١٩٧٢م ص ٤٨

(٨٣) دار الوثائق المصرية ، القاهرة ، دفتر قيد الأوامر الكريمة ، أمر رقم ١٥ ، ١٠ صفر ١٢٩٧هـــ/ ١٢ يناير ١٨٨٠م ، دفتر رقم ٢ ، ص ٣ ، أمر كريم إلى محمد نادي باشا.

(٨٤) دار الوثائق القومية القاهرة ، تقرير إسماعيل باشا أيوب ، في ١٢ صفر ١٢٩٧هـــ/يناير ١٨٨٠م.

وكان هذا التقسيم الإداري الجديد ، يهدف إلى تنظيم السلطة وسرعة الإنجاز . ولكنه لم يستمر طويلاً ، لأنه لم يؤد الغرض المطلوب الذي أنشئ من أجله (٨٥).

وعـــليه ، فقد تمت إعادة تقسيم الأقاليم الأفريقية التابعة لمصر في ربيع الأول ١٢٩٨م/ ٢٢ فبراير ١٨٨١م ، إلى أربعة أقسام إدارية هي :

القسم الأول : مديرية عموم غرب السودان . ويضم مديريات دارفور ، وكردفان ، وشكا ، وبحر الغزال ، ودنقلة . وقد عُين على رأس هذا القسم حاكمٌ برتبة مدير عموم، وكان مقره مدينة الفاشر .

القسم الثاني : مديرية عموم وسط السودان . ويضم بربر ، والخرطوم ، وسنار ، وفاشودة ، وخط الاستواء . وكان يحكمه أيضاً حاكم برتبة مدير عموم . وكان مقره مدينة الخرطوم .

القســم الــثالث : مديرية عموم شرق السودان . ويضم مديريات التاكا وملحقاها وكسلا والقلايــات ، واميديب وسواكن ، ومصوع وملحقاها حتى باب المندب . وكان يحكمه أيضاً مدير عموم ، ومقره في ميناء مصوع .

القســم الرابع : مديرية عموم هرر وملحقاها . ويضم موانئ زيلع وبربرة وملحقاها . وكان يحكمه أيضاً مدير عموم . ويتخذ من بلدة هرر مقراً له (٨٦). وظل رضوان باشا مديراً عاماً على هرر وملحقاها في منصبه السابق (٨٧).

وكـــان من اختصاص مديري العموم ، الإشراف على مديري المديريات التابعة لهم ، والإشــراف عـــلى المجالس العسكرية ، والمحاكم الشرعية ، ورئاسة القوات المسلحة . وأما مديــرو المديريات فعلى كل منهم رئاسة المجالس المحلية . وحفظ الأمن والاستقرار بين سكان المديرية . وأن يعملوا على تحسين أحوال الزراعة والتجارة والمواصلات (٨٨).

---

(٨٥) الســيد يوســف نصر (الدكتور) : الوجود المصري في أفريقيا ، في الفترة من ١٨٢٠-١٨٩٩م ، المرجع السابق ، ص ٣٣٧.

(٨٦)دار الوثــائق القومية ، القاهرة ، تقريرخاص بتقسيم الأقاليم السودانية بناء على أمر مجلس النظار الصادر في ٤ ربيع الأول ١٢٩٩هـ/٢٢ فبراير ١٨٨٢م .

(٨٧)دار الوثــائق القوميــة ، القاهرة ، دفتر ٤ عابدين ، وارد تلغرافات ، تلغراف عربي ، شفرة ٧١٠ ، بتاريخ ١٣ مايو ١٨٧٨م.

(٨٨)دار الوثائق القومية القاهرة ، محفظة ١١١ ، (محافظ أبحاث السودان) ،سواحل البحر الأحمر (١٨٨٢م) . نقلاً عن د. السيد يوسف نصر : الوجود المصري في أفريقيا ، المرجع السابق ، ص ٣٣٨

هـــذا وقد زودت كل مديرية من المديريات بعدد من الموظفين للعمل في الضبطيات ، والمجالس ، والمحاكم الشرعية ، والمجالس العسكرية ، والضرائب ، لحصر الأموال والضرائب المقررة على كل شخص . كما تم تعيين مفتشين للضرائب لمراجعة السجلات والدفاتر ، ورفع تقارير إلى مدير عموم القسم (٨٩).

على أن هذا التقسيم الإداري اللامركزي لم يستمر طويلاً ، لأنه ، كالتقسيم السابق ، لم يحقـــق الهدف المنشود بسبب فشل المديرين في تحقيق ما أوكل إليهم من مهام . وربما كان الســـبب الرئيسي في العدول عنه ،يرجع إلى قيام الثورة المهدية ، في شعبان ١٢٩٨هـــ/٣٠ يونيو ١٨٨١م(٩٠).

ويبدو أن التنظيم الإداري الجديد الذي لجأت إليه الحكومة المصرية في السودان ، بعد قيام الثورة المهدية يونيو (١٨٨١م) ، كان مركزياً ، يختلف عن التنظيمات الإدارية السابقة . فقـــد جعلت إدارة جميع البلاد الأفريقية الخاضعة لمصر ، تحت إدارة نظارة (وزارة) جديدة ، عرفت باسم ، نظارة الأقاليم السودانية وملحقاها ، ويكون مقرها مدينة القاهرة . وتم اختيار عبد القادر باشا حلمي ناظراً لها ، وحكمداراً لعموم السودان (٩١).

وفي عام ١٨٨٤م ، وتحت ضغط بريطانيا ، اضطر مجلس النظار إلى إصدار أمر بإخلاء هـــرر ، وتولية أقرب وارث لسلطان هرر السابق ، قبل الفتح ، وإعطائه السلطة ، على أن يتعهد بدفع جزية سنوية للحكومة المصرية ، وأن يمنع تجارة الرقيق في بلاده . وبذلك خرجت هرر عن الإدارة المصرية (٩٢).

ومن الواضح أن اتساع هذه الأقاليم السودانية وتعقد مشكلاتها ، أدى إلى صعوبات إدارية ، ومتاعب يصعب معها استمرار ونجاح أي نظام إداري (٩٣).

---

(٨٩) نفس المصدر .

(٩٠) (90) Holt , P . M .The Mahadist State in the Sudan Op. Cit . , P.57.

(٩١)دار الوثائق القومية ،القاهرة ، محفظة ٤٣ ، مجلس الوزراء (سودان) صورة أمر عالي ، ٣ ربيع الثاني ١٢٩٩ هـــ/٢١ فبراير ١٨٨٢م.

(٩٢) مذكرة رئاسة مجلس النظار عن إخلاء هرر في أول إبريل ١٨٨٤م –نقلاً عن دكتور شوقي الجمل ، سياسة مصر في البحر الأحمر ، في النصف الثاني من القرن ١٩، المرجع السابق ، ص ٢٤٦

(٩٣) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، تحقيق د. محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٣٠٩.

٢-الجيش والأمن :

كان الاهتمام بالجيش أحد المظاهر الهامة للحكم التركي المصري في السودان منذ عهد محمد علي باشا ، الذي كان يهدف إلى استخدام السودانيين في الجيش المصري (٩٤). ولقد أبدى الخديو إسمـــاعيل من بعده ، اهتماماً كبيراً بالجيش ، والقوة العسكرية منذ بداية حكمه ، إذ أصبح الجيش والقوة العسكرية أحد الدعائم الهامة التي بنى عليها إسماعيل إدارته في السودان(٩٥).وذلك لتحقيق وتوطيد دعائم الأمن والانضباط العام ، وتوسيع دائرة المدنية والعمران (٩٦).

وفيما رأينا ، أن الخديو توفيق ، منذ توليه الحكم ، اهتم أيضاً بالجيش وإصلاح الحالة العســـكرية ، وتوطيـــد دعائم الأمن والنظام ، لكافة أنحاء الأقاليم السودانية . وذلك عندما أصـــدر أمره ، بتعيين الحكمدار محمد رؤوف باشا ، بتاريخ ١٥ ربيع الثاني ١٢٩٧هــ/٢٧ مارس ١٨٨٠م ، وضمنه هذا الاهتمام بالحالة العسكرية في السودان (٩٧).

ولقد تركزت المهام الأساسية لقوات الجيش في السودان ، في عهد الخديو توفيق ، في حمايـــة كافة الأقاليم الأفريقية التابعة لمصر ، وحفظ الأمن ، ومطاردة اللصوص والمتمردين ، والدفاع عن حدود البلاد ، وتحقيق النظام العام . وصد أي هجوم خارجي تتعرض له الأقاليم السودانية . وخاصة بعد قيام الثورة المهدية ، أصبح من واجب القوات العسكرية ، مواجهة أي عصيان ، وحماية المديريات من أي هجوم من قوات المهدي (٩٨).

لقـــد بـــلغت القوة العسكرية المصرية في الأقاليم الأفريقية التابعة لمصر عام ١٨٨٠م (٢٤,٥٠٠) جـــندياً . وكـــانت أسلحتهم تتكون من البنادق الرامتون ، بالإضافة إلى تزويد كل جندي ، بمائتين من الطلقات النارية . وبكمية من المؤن والمهمات (٩٩).

---

(٩٤)دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهـــرة ، دفتر ١٠ ، معية تركي ، ترجمة المكاتبة رقم ١٤ ٣ صفر ١٢٣٧هــ/ ١٨٢١م.

(٩٥)دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهرة ، دفتر ٥٨ ، معية تركي – وثيقة ١٥ ص ١٥ ، في ٢ جماد الثاني ١٢٨٢ هــ/١٨٥٦م .

(٩٦)دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، دفتر المعية السنية رقم ٥٢٦ ، صحيفة ٥٨ بتاريخ ٦ شوال ١٢٧٩هــ/ ٢٧ مارس ١٨٦٣م .

(٩٧) الأمر العالي بتعيين الحكمدار محمد رؤوف باشا ، بتاريخ ١٥ ربيع الثاني ١٢٩٧هــ /٢٧ مارس ١٨٨٠م.

(٩٨) المخابـــرات المصرية ١٨٨٣/١١٩/١١ ، برقيات ووثائق من السودان ، من حكمدار السودان ، لسعادة مهردار خديوي بتاريخ ٥ رجب ١٣٠٠هــ/١٠ مايو ١٨٨٣م ، (دار الوثائق القومية ، الخرطوم).

(٩٩) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، تقرير إسماعيل باشا أيوب ، في ١٢ صفر ١٢٩٧هــ/٢٢ يناير ١٨٨٠م.

وعمـــل عـــلى تحســـين نوعية الجنود وزيادة عددهم ، كما اهتم بأساليب الهجوم والدفاع والتحصين (١٠٥).

غـــير أنه لم ينجح في حمل العرابيين على الموافقة لإرسال مدد من القوات المصرية إلى الســـودان . فقد كان من رأي العرابيين أن إرسال أي قوات مصرية إلى السودان ، إنما يخدم مصـــالح الخديو توفيق ، والإنجليز ، ويعمل على إضعاف الجيش في مصر ، مما يعجل بالقضاء على الثورة العرابية (١٠٦).

وفي ديســـمبر ١٨٨٢م ، ارتفع عدد القوات المصرية في السودان بصورة ملحوظة، كما يبين الجدول المحرر من نظارة الأقاليم السودانية إلى المعية السنية بتاريخ صفر ١٣٠٠هـ ديســـمبر ١٨٨٢م . بأن عدد الضباط وصف الضباط ، والعساكر الجهادية ، والباشبوزق الموجودين بجهات السودان ، بما فيهم الذين توجهوا إلى السفرية، عددهم يبلغ (٤٢,٥٩٩) جندياً(١٠٧).

ويـــبدو أن هذه الزيادة في عدد الجنود ، ترجع إلى جهود عبد القادر باشا حلمي في تجـــنيد عدد من السود وغيرهم (١٠٨). بالإضافة إلى وصول أعداد من جنود عرابي ، الذين قـــررت الحكومـــة المصرية إرسالهم إلى السودان ، بعد هزيمة عرابي في موقعة التل الكبير ، وذلك لاستخدامهم في حملة هكس لمواجهة الثورة المهدية (١٠٩).

ومهـــا يكن من أمر ، فإن عدد القوات المصرية في السودان ، قد بدأ يعاني من النقص بســـبب الهزائم المتلاحقة للجيش المصري ، على يد قوات المهدي . ويشير تقرير ، صدر بعد

---

(١٠٥) (105) Shibeika , M., British Policy in the Sudan , (1882-1902) London , 1959, P.41.

(١٠٦) (106) Ahmad Urabi , The Defense Statement of Ahmad Urabi, Translateed and Edited by Trever Le gassieli,Cairo , 1982, p.32 .
تقرير كتبه عرابي بالعربية ٢٦ ذو الحجة ١٢٩٩هـ/ ٢٩ أكتوبر ١٨٨٢م بمدينة كولومبو بجزيرة سيلان.

(١٠٧) دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، محفظة ١٠٢ ، ملف ½ وثيقة ٣ صفر بتاريخ صفر ١٣٠٠هـ/ديسمبر ١٨٨٢م . توجد صورة بدار الوثائق القومية بالخرطوم برقم ١/٩٠/٤٤٢.

(١٠٨)شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، تحقيق د. محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٣٥٥.

(١٠٩) جـــلال يحـــيى (الدكتور) : مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية ، في القرن التاسع عشر ، دار المعارف، مصر ، ١٩٨٤م ، ص ٣٢٧.

قـــرار الحكومـــة المصرية بإخلاء السودان ، ويوافق هذا التقرير نفس اليوم الذي وصل فيه غـــوردون الخرطوم للقيام بمهمة إخلاء السودان ، وهو بتاريخ ٢١ ربيع الثاني ١٣٠١هــ/ ١٨ فـــبراير ١٨٨٤م إلى أن العدد الموجود بالخرطوم من ضباط وعساكر ، لغاية ١٨ فبراير ١٨٨٤م ، يبلغ (١٤,٢٣٣) جندياً(١١٠).

وكـــان من المتوقع أن يتم إخلاء السودان من الحاميات المصرية كما هو مقرر في سياسة الإخلاء .

٢-القضـــاء :

كان القضاء في عهد دولة الفونج ، التي سبقت الحكم التركي المصري في السودان ، يقـــوم عـــلى مبادئ الشريعة الإسلامية وفق المذهب المالكي (١١١). وكان يتميز بالعدالة والنزاهـــة (١١٢). وخاصة في عهد الشيخ عجيب المانجلك ، زعيم العبدلاب ، الذي اهتم بالقضاء فعين أربعين قاضياً لأحكام الشريعة الإسلامية ، فباشروه بعفة ونزاهة (١١٣).

ولما دانت البلاد ، لمحمد علي باشا ، أدخل القوانين المدنية ، والقوانين العسكرية ، إلى جانب الشريعة الإسلامية في السودان (١١٤). ونشأ ما يسمى بقضاء السياسة ، الذي أوكل للإداريـــين تصريف شئون البلاد ، بما يضمن حراسة وتأمين مصالح الدولة . وبذلك تم تجريد

---

(١١٠)دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهـــرة ، محفظة ١٠٢ ، ملف ٢/١ ، وثيقة رقم ١٠ بتاريخ ، ٢١ ربيع الثاني ١٣٠١هــ/١٨ فبراير ١٨٨٤م ، توجد صورة بدار الوثائق القومية بالخرطوم برقم ٤٤٢/٩٠/١.

(١١١)بشـــير كوكـــو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، رسالة دكتوراة ، مخطوط ، جامعة الخرطوم ، ١٩٧٧م ، ص ٢٠٠.

(١١٢) ود ضـــيف الله (محمد بن النور) : كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في الســـودان ، تحقيـــق الدكـــتور يوســـف فضل ، الطبعة الثانية ، شعبة أبحاث السودان ، معهد الدراسات الإفريقية ، دار التأليف والنشر ، جامعة الخرطوم ، الخرطوم ، ١٩٧٤م، ص ١١٠.

(١١٣) الحســـن بـــن شاور بن عجيب :مخطوطة واضح البيان في ملوك العرب بالسودان ، وملوك العبدلاب من الشيخ عجيب إلى تاريخه ، ص ٢ (نسخة مصورة بدار الوثائق المركزية بالخرطوم).

(١١٤) زكـــي مصطفى عبد المجيد : القانون المدني في السودان (معهد البحوث والدراسات العربية) ، القاهرة، ١٩٦٨م ، ص ١٤ .(نقـــلاً عـــن دكـــتور بشير كوكو حميدة : السودان في عهد الخديو إسماعيل، المرجع السابق ، ص ٢٠١) .

القاضي الشرعي من كثير من اختصاصاته (١١٥). وأصبح اختصاص القضاء الشرعي محصوراً في قضايا الأحوال الشخصية ، والإرث ، والوقف وإقامة الأوصياء على القصر ، وغير ذلك مما يتعلق بالأمور العائلية والخاصة (١١٦).

وقد اهتم الخديو إسماعيل باشا بإصلاح القضاء في السودان ، وكان يهتم بأسس تعيين القضاة ، وعزلهم ، ومحاسبتهم ، كما كان يتوخى في القاضي الكفاءة ، والنزاهة ، والتدين (١١٧). وأنشأ مجلساً للاستئناف عام ١٨٧٧م ، أعضاؤه من التجار والعمد ، لاستئناف القضايا المعقدة ، بدلاً عن إرسالها إلى مصر (١١٨).

وفي عهد الخديو توفيق ، استمرت النظم القضائية السابقة في عهد سلفه الخديو إسماعيل ، في السودان ، ولم نلحظ تغييراً كبيراً . فقد ظل القضاء الشرعي محصوراً في الأحوال الشخصية ، والمواريث ، والأوقاف ، بينما ظل الإداريون يمارسون قضاء السياسة للحفاظ على مصالح الدولة ، دون وضع اعتبار لما يترتب على ذلك من مشكلات . وبذلك استمر الإخلال بتطبيق الشريعة الإسلامية الذي لازم الحكم التركي المصري في السودان ، منذ عهد محمد علي باشا (١١٩).

وما من ريب أن الإخلال بتطبيق الشريعة الإسلامية في عهد الخديو توفيق ، ومن سبقه من الحكام الأتراك ، والتقصير في تنفيذ أحكام الإسلام ، كان من أهم الأسباب التي بنى عليها محمد أحمد المهدي ثورته ضد الحكم التركي المصري في السودان . وقد أشار المهدي إلى ذلك ، بقوله عن ممارسات الحكام الأتراك في السودان : " حكموا بغير ما أنزله الله ، وغيروا شريعة محمد ﷺ . وسبوا دين الله ، ووضعوا الجزية في رقابكم مع سائر المسلمين "(١٢٠).

---

(١١٥) محمد الأمين سعيد (الدكتور) : عصرا عباس وسعيد ، رسالة دكتوراة ، غير منشورة ، جامعة الخرطوم، ١٩٧٦م ، ص ٣٢٣.

(١١٦) حسين سيد أحمد المفتي : تطور نظام القضاء في السودان ، الخرطوم ، ١٩٥٩م ، ج١ ، ص ٨٥ .

(١١٧) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر رقم ٢٨٧ صادر ورشة الدواوين بمجلس الأحكام ، صورة المكاتبة العربية رقم ٢٥ ، ص ١٩ ، بتاريخ ٤ جمادى الثانية سنة ١٢٨٨هـ/٢١ أغسطس ١٨٧١م . من مجلس الأحكام إلى المعية السنية .

(١١٨) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر معية عربي ،وثيقة ٥ ص ٩٢ بتاريخ جماد أول١٢٩٤هـ/١٨٧٧م.

(١١٩)محمد الأمين سعيد (الدكتور): عصرا عباس وسعيد،رسالة دكتوراه،مخطوط،المرجع السابق،ص ٣٣٤ .

(١٢٠) مهدية ٥٦/٢٠/٣/٨ ، إنذارات ب ، بتاريخ ٢٤ شوال ١٢٩٩هـ/ ٨ سبتمبر ١٨٨٢م ، من المهدي إلى أحبابه في الله ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

٤-تجارة الرقيق :

ارتبط الحكم التركي المصري في السودان منذ قيامه ن بمشكلة تجارة الرقيق . فقد كان جـلب الـرقيق السود الصالحين للجندية ، من أهم أسباب فتح محمد علي للسودان ، مهما كانت الصورة التي يجلبون بها (١٢١).

إلا أن محمـد عـلي باشـا ، في أواخر عهده ، بدأ خطوات جادة للقضاء على تجارة الرقيق ، ففرض رسوماً جمركية على هذه التجارة (١٢٢)، ولم يكتف فقط بهذا القيد ، وإنما، عـين عـلى كل مديرية من مديريات السودان ، مديراً برتبة باشا . وذلك ليقوم كل منهم بمـتابعة العمـل على إلغاء الرق (١٢٣). وأصدر أمراً لحكمدار السودان ، بمنع الاتجار في الـرقيق(١٢٤). وكـان في ذلـك اسـتجابة لمطـالب بريطانيا التي تزعمت حركة إلغاء الرق(١٢٥).

وسار محمد سعيد باشا على نفس النهج ، فأصدر قراره ، كما أوضحنا من قبل ، بمنع تجارة الرقيق "منعاً كلياً"(١٢٦).

وكانت أكثر الخطوات جدية ، في القضاء على تجارة الرقيق ، في عهد الخديو إسماعيل، الذي توج جهوده ، في القضاء على هذه التجارة ، بعقد معاهدة مع بريطانيا في ٤ أغسطس ١٨٧٧م ، لتحريم بيع وشراء الرقيق في مصر في سبع سنوات ، وفي السودان في مدى اثنتي

---

(١٢١) دار الوثـائق القوميـة ، القاهرة ، دفتر ١٠ ، معية تركي ، ترجمة المكاتبة رقم ١٤ بتاريخ ١٢ صفر عام ١٢٣٧هـ/١٨٢١م .

(١٢٢) دار الوثـائق القومية ، القاهرة ، مفظ أبحاث السودان ، دفتر ١٩٧ معاونة أقاليم ، وثيق ١٣٩ ، في ١٩ محرم سنة ١٢٥٨هـ /١٨٤٢م.

(١٢٣) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، دفتر ١٠ عابدين ، وثيقة ١٢١ ، ص ٧، بتاريخ ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م.

(١٢٤) دار الوثـائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، دفتر ٣٦٢ ، صادر ديوان المعية ، وثيقة ٧٦ ، بتاريخ ٢٨ رمضان سنة ١٢٦١هـ/١٨٤٥م.

(١٢٥) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ١٤١ .

(١٢٦)دار الوثـائق القومية ، القاهرة ، دفتر ٧٢١ ، قيد الأوامر واللوائح ، خديوي ، مكاتبة رقم ٢١، صفحة ١٣ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول ١٢٧١هـ/ديسمبر ١٨٥٤م.

عشـــرة ســـنة (١٢٧). وأطـــلق يـــد غـــوردون باشـــا ، الـــذي كان قد عينه حكمداراً للسودان(١٢٨)، ليمارس سياسة صارمة وعنيفة ، ضد تجار الرقيق في السودان ، تنفيذاً لهذه الاتفاقية مما أثار الذعر والهلع في نفوس أهل السودان ، وأدى لقيام الثورة ضد الحكم التركي المصري في السودان (١٢٩).

ولمـــا تـــولى الخديـــو توفيق باشا ، الحكم عام ١٨٧٩م ، بعد عزل والده ، استقال غـــوردون باشـــا كمـــا وضحنا من قبل عن الحكم ، مما أدى إلى حدوث ردة فعل كبيرة في السودان ، حيث تنفس تجار الرقيق الصعداء ، وبدأت تجارة الرقيق تنتعش من جديد(١٣٠).

ولقـــد نـــبه الأمر العالي الذي أصدره الخديو توفيق ، بتعيين محمد رؤوف باشا حكمداراً للســـودان بتاريخ ١٥ ربيع الثاني عام ١٢٩٧هـ/٢٧ مارس ١٨٨٠م ، نبه إلى أن محاربة تجارة الـــرقيق ، أمر في غاية الأهمية . وآية ذلك أن بيع الرقيق مخالف للإنسانية ، ومخل باحترام بني آدم المنصوص عليه بالتكريم . وفي هذا القول إشارة إلى قول الله سبحانه وتعالى : { ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر}(١٣١). كما أن الواجب يقتضي المحافظة على شرائط المعاهدة بين الخديو والحكومة الإنجليزية في إبطال تجارة الرقيق ، ويشير إلى ضرورة إثبات " ما نحن عليه من شدة العزم والثبات في هذه المسألة "(١٣٢) .

وواضـــح من هذا التنبيه ، الذي اشتمل عليه هذا لأمرالذي أصدره الخديو توفيق ، لمحمد رؤوف باشـــا حكمدار السودان ، مدى اهتمام ، وحرص الخديو توفيق ، على محاربة تجارة الرقيق والقضاء عليها (١٣٣).

---

(١٢٧) دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، محفظة ١ ، صورة اللائحة ، ونسخة من المعاهدة الخاصة بمنع الاتجار في الرقيق ، محرم سنة ١٢٩٧هـ / أغسطس ١٨٧٧م.

(١٢٨) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر ١٥ ، أوامر عربي ، ص ٧ ، رقم ١٦ بتاريخ ٤ صفر ١٢٩٤هـ / ١٧ فبراير ١٨٧٧م . صورة أمر كريم إلى غوردون باشا.

(١٢٩) رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور) : مصر والسودان ، في العلاقات الدولية ، عالم الكتب ، مكتبة الدراسات التاريخية والعلاقات الدولية ، القاهرة ، ١٩٧٧م ص ٣٠٥.

(١٣٠) (130) Holt , P . M , .The Mahadist State in the Sudan op. cit . , P.40 .

(١٣١) سورة الإسراء ، الآية ٧٠ .

(١٣٢) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهرة ، الأمر العالي بتعيين محمد رؤوف باشا حكمداراً على السودان ، بتاريخ ١٥ ربيع الثاني ١٢٩٧هـ/ ٢٧ مارس عام ١٨٨٠م ، المرجع السابق .

(١٣٣) الســـيد يوسف نصر (الدكتور) : الوجود المصري في أفريقيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، المرجع السابق ، ص ٢٩٨.

ولمـــا بدأ محمد رؤوف باشا ، حكمدار السودان ، يباشر أعماله ، بعد وصوله الخرطوم في شـــهر يونيـــو ١٨٨٠م ، كـــانت الأحـــوال في الســـودان قد بلغت حداً من السوء ، تصعب معالجـــته(١٣٤). خاصة وأن شخصية محمد رؤوف لا تخلو من الضعف والعاطفية .وكان قدره أن يـــتحمل ثقـــل الأوضاع المتردية في السودان بعد ذهاب غوردون باشا ، والنتائج التي ترتبت على محاولاته للقضاء على تجارة الرقيق في السودان (١٣٥).

ومـــا يلفت النظر أن الحكمدار محمد رؤوف ، ارتكب نفس الخطأ الذي ارتكبه غوردون باشـــا ، من قبل ، في تنفيذ سياسة إلغاء الرق ، ومحاربة تجارة الرقيق بالعنف والشدة . والاستعانة بالموظفين الأجانب في الضرب بيد من حديد على ممارسات تجار الرقيق (١٣٦).

ولقد استعان محمد رؤوف باشا بشخصيات أوربية أمثال لبتون الإنجليزي ، الذي عينه مديـــراً على بحر الغزال ، بعد استقالة جسي الإيطالي في سبتمبر ١٨٨٠م ، واستبقى سلاطين باشا في منصبه في داره ، واميلياني في كوبي ، وميسيداليا في الفاشر ، والدكتور شنيتزر الألماني (دكتور أمين)في لادو .وعين أرنست مانرو التمساوي مفتشاً في فشودة ، وهؤلاء جميعاً عملوا بجد في القضاء على تجارة الرقيق حتى قيام الثورة المهدية (١٣٧).

ومـــا يذكر أن محمد رؤوف باشا قد حاول الإستعانة بالمبشرين ، المسيحيين ، أمثال الأســـقف كمـــبوني ، الذي كان محمد رؤوف يعتبره صديقاً له (١٣٨)! فأرسل إليه خطاباً بـــتاريخ ١٠ مـــايو ١٨٨١م . قال فيه:"إني لأرجو منك أن تكون مسألة تجارة الرقيق محل عنايـــتكم بشـــكل خاص ، وأن تقترحوا العلاج الذي ترونه كفيلاً بتلافيها. وستجدون مني أقوى سند في تنفيذ أوامر الخديو (١٣٩).

---

(١٣٤) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ١٠١.

(١٣٥) (135) Hill ,R.,Egypt in the Sudan , (1820-1881), op. cit . , P. 149.

(١٣٦) (136) Holt , P ., M .The Mahadist State in the Sudan op. cit . , P.38 .

(١٣٧) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٢٥٨.

(١٣٨) (138) Hill ,R.,Egypt in the Sudan , (1820-1881), op. cit . , P. 150.

(١٣٩) (139) S. N . R . Vol XXVII , 1940 , P. 123

وهذا التصرف ، بالاستعانة بالمبشرين في محاربة تجارة الرقيق، إنما يدل على مدى جهل الحكمدار محمد رؤوف بحقيقة الأمور ، وتخبطه وسوء إدراكه للعواقب في إقحام جهات يعتبر تدخلها مثيراً للشكوك والشبهات !

ولقــد أصدر الخديو توفيق الأوامر المشددة لمديري المديريات ، بمراقبة تحركات تجار الــرقيق وتعقبهم ، ومصادرة ما معهم من رقيق. وكان من نتائج هذه الأوامر ، إلقاء القبض عــلى بعض قوافل تجارة الرقيق ، ومن ذلك ، تمكن مدير أسيوط من القبض على قافلة ، يوم ٢٩ أبــريل عام ١٨٨٠م ، قادمة من دارفور عن طريق درب الأربعين وكان بها نحو ٦١٧ (ستمائة وسبعة عشر) عبداً (١٤٠). فأطلق سراحهم جميعاً بعد حصولهم على شهادات العتق وتقــرر محاكمــة الــتجار والعمد والمشايخ الذين ساعدوا على مرور القافلة ، أمام محاكم عسكرية ، نتيجة إهمالهم في مقاومة هذه التجارة (١٤١).

وفي ٢٤ يوليــو من نفس العام ، تمكن مأمور سواكن من إلقاء القبض على عدد من تجار الــرقيق ، بصــحبتهم ٨٠ عــبداً. ولما علم الخديو توفيق بذلك ، طلب من مأمور سواكن إلحاق الذكور الأقوياء بالجندية ، وإلحاق الضعاف والنساء ببعض الأعمال الأخرى (١٤٢).

وكــان الخديو توفيق ، يعاقب كل من يتهاون في تنفيذ الأوامر والتعليمات من الإداريين، فــيما يتعلق بالقضاء على تجارة الرقيق في السودان . ومثال ذلك مأمور فازوغلي ، الذي تمكن في ١٩ أغسطس ١٨٨٠م ، من إلقاء القبض على بعض تجار الرقيق الذين كان معهم ٢٠٠(مائتان) مــن الرقيق الذكور والإناث ، ولكن بدلاً من أن يتخذ مع تجار الرقيق الإجراءات القانونية ، نجده يقــوم ببيع الرقيق . ولما علم الخديو توفيق بذلك ، طلب من حكمدار السودان، إلقاء القبض على هــذا المأمور تمهيداً لمحاكمته أمام مجلس عسكري ، بتهمة مخالفة الأوامر والتعليمات الخاصة بمعاملة الرقيق (١٤٣).

---

(١٤٠) دار الوثــائق القومية ، القاهرة ، محفظة ٧ ، مجلس الوزراء (سودان) بتاريخ ١٨جماد الأول ١٢٩٧هــ/ ٢٩ إبريل عام ١٨٨٠م.

(١٤١) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محفظة ٧ ، مجلس الوزراء (سودان) ، نفس المرجع .

(١٤٢) دار الوثــائق القومية ، القاهرة ، محفظة ٧ مجلس الوزراء (سودان) بتاريخ ١٦ شعبان عام ١٢٩٧هــ / ٢٤ يوليو ١٨٨٠م.

(١٤٣) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محفظة ٧ ، مجلس الوزراء (سودان) بتاريخ ١٢ رمضان ١٢٩٧هــ/ ١٩ أغسطس ١٨٨٠م .

وفي عام ١٨٨١م حوكم مأمور فشودة ، واثنان من اليوزباشية العاملين معه ، بتهمة الاتجـــار في الرقيق ولقد وجد بمترل هذا المأمور ٥٤ (أربعة وخمسون) من الرقيق،كما وجد بمـــترل كـــل واحد من اليوزباشية الذين كانوا معه ، عدد ٢٨ (ثمان وعشرون) من الرقيق الذكور والإناث(١٤٤).

ورغـــم هـــذه الجهـــود التي بذلها الخديو توفيق باشا ، ومحمد رؤوف باشا حكمدار السودان ، في محاربة تجارة الرقيق ، تكررت الشكاوي من الحكومة الإنجليزية ، في غضون عام ١٨٨٠-١٨٨١م ، إلى قنصـــلها العام في مصر ، السير ادورد مالت ، بأن تجارة الرقيق في السودان وأقاليمه ، صارت مزدهرة أكثر من أي وقت مضى وأن موظفي الحكومة المصرية ، يشـــاركون تجـــار الرقيق نشاطهم ، وأن حكومة الخرطوم عاجزة عن تنفيذ معاهدة الرقيق . ونتـــيجة لذلك اضطرت حكومة الخديو توفيق ، إلى إصدار المزيد من التعليمات المشددة إلى محمد رؤوف باشا حكمدار السودان ، منذ شهر ديسمبر عام ١٨٨٠م بأن يضاعف جهوده في إخماد هذه التجارة (١٤٥).

ولم يلـــبث أن أصدر الخديو توفيق باشا أمراً بتأسيس مأمورية ، وتحديد منطقة واسعة يشرف عليها إنجليزي ، هو السير سال sir sall ، تمتد من القاهرة وحتى أسوان وتضم منطقة البحيرة ، ومريوط ، وسيوة ، ومهمته مراقبة البوغازات ، والطرق التي تربط مصر بالأقاليم الإفريقية ، وألحق بالعمل معه ، عدد من الجنود والضباط المصريين ، للقضاء على تجارة الرقيق في كـــل الأقالـــيم المصرية في أفريقيا (١٤٦). كما زود بعدد من الجمال والحصين وغيرها ، فضـــلاً عـــن تزويده بكل ما يلزم ، من الأسلحة ، والذخائر ، والمؤن . وطلب من مديري المديـــريات ، تقديم يد العون اللازم ، لرئيس هذه المأمورية . وتقرر أن تتخذ أسيوط مركزا رئيسياً لهذه المأمورية (١٤٧).

---

(١٤٤) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محفظة ٧ ، مجلس الوزراء (سودان) بتاريخ ١٢٩٨هـــ/١٨٨١م. نقلاً عن الدكتور السيد يوسف نصر : الوجود المصري في أفريقيا ، ص ٣٠٢ .

(١٤٥) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٢٥٨ .

(١٤٦) دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، محفظة ٨ ، مجلس الوزراء (سودان) بتاريخ ١٨ ربيع الثاني عام ١٢٩٨هـــ / ١٩ مارس ١٨٨١م .

(١٤٧) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهـــرة ، محافظ أبحاث السودان ، محفظة ٧ ، مجلس الوزراء (سودان) المرجع السابق .

وطلب الخديو توفيق من مديري المديريات ، منع مرور الرقيق من مديرياتهم ، وخاصة مدير بربر (١٤٨).

كما تم فرض رقابة مشددة على الحجاج ، إلى الأراضي المقدسة ، وطلب منهم تسجيل من بصحبتهم من الخدم والجواري لمنع تهريب أي عدد منهم خارج البلاد ، وإلا تعرضوا لطائلة القانون (١٤٩).

وفي ٢٢ فبراير عام ١٨٨٢م ، تم تعيين مفتش عام للإشراف على محاربة تجارة الرقيق في الأقاليم الإفريقية التابعة للإدارة المصرية عرف باسم (مفتش استئصال تجارة الرقيق في الأقطار السودانية) (١٥٠). وتبع ذلك إصدار عدد من القوانين الصارمة ، التي تقضي بمعاقبة المتجرين في الرقيق ، أو الذين يقومون بجلبه عن طريق البر أو البحر ، بعقوبة الأشغال الشاقة، كما شملت العقوبة ، أعضاء التجارة الذين يستخدمون سفنهم في نقل الرقيق(١٥١).

وتم إصدار قانون ، يفرض على أصحاب السفن العاملة في البحر الأحمر ، الحصول على تراخيص للعمل ، مع إجبارهم على رفع العلم المصري فوق سفنهم ، كما يشترط القانون أن يكون البحارة من المشهود لهم بالأخلاق الحميدة ، وعدم ممارسة الاتجار بالرقيق(١٥٢).

وهكذا نجد أن الحكومة المصرية في السودان في هذه الفترة التي تولى فيها محمد رؤوف باشا حكمدارية السودان ، قد بذلت جهداً كبيراً في القضاء على تجارة الرقيق إلا أن هذا الجهد والذي كان امتدادا للجهد الذي بذله الخديو إسماعيل، وحكمداره غوردون باشا ، لم يحقق الثمرة المطلوبة، وكان سبباً في إثارة تذمر كثير من السودانيين وسخطهم ، ليس بين تجار

---

(١٤٨) نفس المصدر .

(١٤٩) السيد يوسف نصر ، الوجود المصري في أفريقيا ، في الفترة من ١٨٢٠- ١٨٩٩م ، المرجع السابق ، ص ٣٠٤.

(١٥٠) نفس المرجع ، ص ٣٠٤.

(١٥١) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محفظة ٧ ، مجلس الوزراء (سودان) المصدر السابق .

(١٥٢) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محفظة ٧ ، مجلس الوزراء (سودان) المصدر السابق .

الرقيق وحدهم ، بل بين كافة قطاعات الشعب ، وكانوا في انتظار القائد الذي يقودهم للثورة(١٥٣).

ولعل مما يؤكد هذه الحقيقة ، ما حدث لأسرة عثمان دقنة التي تعرضت للسجن عام ١٨٧٧م ، بسبب اتهامها بالاتجار في الرقيق كما صودرت ممتلكاتها وصفيت أعمالهم التجارية (١٥٤). فكـــان ذلك سبباً في انضمام هذه الأسرة للثورة المهدية عام ١٨٨٢م ، إذ هاجر عـــثمان دقـــنة إلى المهدي وبايعه ، فعينه المهدي أميراً على شرق السودان وعموم البجة ، في غـــرة رجب ١٣٠٠هـــ الموافق ٨ مايو سنة ١٨٨٣م (١٥٥). وكتب له خطابات لزعماء شـــرق السودان يخطرهم بتأمير عثمان دقنة أميراً عليهم (١٥٦). فكان جهاد عثمان دقنة ، من أهم العوامل في إضعاف موقف الحكم التركي المصري في السودان، حيث بسط سيطرته على طريق سواكن بربر (١٥٧).

وفي تقديري أن السياسة التي اتبعها الخديو توفيق باشا،باستخدام المزيد من العنف والصرامة في القضـــاء على تجارة الرقيق ، كانت تعوزها الحكمة وحسن التقدير ، إذ أن البلاد كانت مهيأة للثورة ، وكان المنتظر مراجعة السياسات السابقة التي هيأت البلاد للثورة ، حتى يمكن تفاديها .

ولقـــد حـــاول غوردون باشا ، عندما تولى حكمدارية السودان لتنفيذ سياسة إخلاء الســـودان عام (١٨٨٤-١٨٨٥م)، حاول مراجعة هذه السياسة فأعلن إلغاء جميع الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق ، وأوقف العمل باتفاقية إلغاء الرق (١٨٧٧-١٨٨٩م) ولكن بعد فوات الأوان (١٥٨)!

---

(١٥٣) (153) Theobald ,A . B . , The Mahadiya , Longmans Green and co , London , Newyork , Tornato , 1949 , P. 26 .

(١٥٤) مذكـــرات عـــثمان دقنة ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١١هـــ /١٩٩١م ، ص ٧ (المقدمة) .

(١٥٥) الكـــردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، تحقيق دكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤٠٢هـــ/١٩٨٢م ، ص ٢٤٩ .

(١٥٦) مهديـــة /٦١/٧/٨ ، ٣ ، دقنة ، من المهدي إلى أحبابه في الله ، أهالي سواكن ، أول رجب ١٣٠٠هـــ/ ٨ مايو ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية / الخرطوم .

(١٥٧) مذكرات عثمان دقنة ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(١٥٨) فـــوزي (إبراهـــيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٣٧٩هـــ ، ص ٢٧٥.

٥-الضرائب :

منذ أن فرض محمد على باشا الضرائب ، في بداية الحكم التركي المصري في السودان عام ١٨٢١م ، ظلت مشكلة الضرائب من أهم المشكلات التي شغلت الإدارة المصرية . فقد كـــانت هـــذه الضرائب ، غير مألوفة للأهالي في السودان ، وكانت باهظة تزيد على حدود الاعتدال (١٥٩). وكانت وراء كثير من الثورات والاضطرابات ، وفرار الناس إلى المناطق الـــبعيدة، هـــرباً مـــن ملاحقة سلطات الإدارة المصرية ، وما يتعرضون له من أنواع الشدة والعنف بسبب الضرائب(١٦٠).

ورغـــم محاولات حكام مصر والسودان ، لمعالجة مشكلة الضرائب ، إلا أن محاولاتهم جميعـــاً باءت بالفشل ، وخاصة في عهد الخديو إسماعيل باشا ، إذ تضاعفت الضرائب بسبب تداعيـــات الأزمة المالية في مصر والسودان (١٦١). مما جعل الأهالي يجأرون بالشكوى من الضرائب المفروضة عليهم ، والتي كانت تحصل بدون مقابل معلوم (١٦٢).

ولـــما جـــاء عهد الخديو توفيق ، كانت مشكلة الضرائب لا تزال من أهم المشكلات التي واجهت الإدارة المصرية في السودان .وآية ذلك أن الخديو توفيق،أبدى اهتماماً كبيراً بهذه المسألة وطـــلب من الحكمدار محمد رؤوف ، أن يخبره بكافة أحوال السودان ، إجمالاً وتفصيلاً ، وخاصة أنواع الضرائب والعوائد وسائر الأموال المقررة ، والجاري تحصيلها ، وكيفية استعمالها ، وصرفها . كما أمر الحكمدار محمد رؤوف أن يرسل صورة من الميزانية إلى نظارة المالية بالقاهرة(١٦٣).

ولم يكن الحكمدار محمد رؤوف متساهلاً في جمع الضرائب ، بل شمل جهده في تحصيلها ، وجمعها ، مستخدماً كافة الأساليب والوسائل التي كانت سائدة ، منذ عهد سلفه غوردون باشا، مما

---

(١٥٩) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر ١٠ معية تركي ، المكاتبة رقم ٣٢٥ ، بتاريخ ٥ ذو القعدة ١٢٣٧ هـــ / ٢٤ يوليو ١٨٢٢م .

(١٦٠) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهـــرة ، محفظـــة ١٩ ، كربرا ، ترجمة الوثيقة التركية ، رقم ٣١ ، ١ رجب ١٢٣٧هـــ/١٨٢٢م.

(١٦١) بشـــير كوكـــو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، رسالة دكتوراة ، مخطوط ، المرجع السابق ، ص ٢٣٥.

(١٦٢) (162) Holt , P ., M .The Mahadist State in the Sudan , op. cit . , P.37.

(١٦٣) دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، الأمر العالي بتعيين محمد رؤوف باشا بتاريخ ١٥ ربيع الثاني ١٢٩٧هـــ/ ٢٧ مارس ١٨٨٠م.

أدى إلى المـــزيد مـــن ســـوء الحالـــة ، وتذمر الناس من ثقل الضرائب ، والمتاعب التي يلقونها في تحصيلها(١٦٤).

بيـــد أن الحكمدار محمد رؤوف بدأ يشعر بفداحة الضرائب في السودان ، وشكا من عجز الكثيرين ، في الخرطوم ، وسنار ، وفازوغلي ، وكردفان ، والتاكا ، عن دفع الضرائب، ممـــا جعل بعضهم يلجأ للهجرة إلى المناطق البعيدة ، وهجر مزارعهم هرباً من الضرائب التي يعجزون عن دفعها (١٦٥).

وقد وصل محمد رؤوف إلى قناعة هي ، أن من أسباب ضعف المالية ، زيادة الضرائب وعجز الناس عن دفعها للحكومة ، مما أوجد عجزاً في تحصيل المبالغ المقررة على الضرائب . ولهـــذا اقترح على وزير المالية في مصر ، تخفيض الضرائب المباشرة ، وإيجاد ضرائب بديلة سهلة الدفع لتغطي التخفيض . إلا أن اقتراحاته هذه واجهت الاعتراض في القاهرة ، بحجة أن الأدلة التي أوردها غير كافية (١٦٦).

ونلاحـــظ أن ســـلاطين باشا ، اقترح أيضاً تخفيض الضرائب في دارفور تحقيقاً للعدل والإنصاف ، فوافق محمد رؤوف باشا على ذلك (١٦٧).

ولما كانت اقتصاديات البلاد تعتمد اعتماداً كلياً على الإنتاج الزراعي ، وعلى الثروة الحيوانية ، فإن هجر المزارع والمراعي ، بسبب الضرائب ، كان عاملاً هاماً في نقص العائد من المـــزارعين والـــرعاة . ولهذا فإن الميزانية العامة كانت دائماً تعاني من المتاعب ، بسبب هذا النقص ، مما أربك الخزانة المركزية (١٦٨).

وممـــا يذكـــر أن وزيـــر المالية المصري ، عندما حاول تفسير النقص في المحصل العام للضرائب في السودان ، أرجع ذلك إلى إهمال المسئولين عن جمع الضرائب (١٦٩). ولم يشر

---

(١٦٤) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٤٦.

(١٦٥) (165) Hill ,R.,Egypt in the Sudan , (1820-1881), op. cit . , P. 154.

(١٦٦) (166) Ibid.

(١٦٧) ســـلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، تعريب جريدة البلاغ ، مكتبة الحرية ، أم درمان ، السودان ، ١٩٣٠ ، ص ٢٩.

(١٦٨) الشـــاطر بصيلي عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل ، من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر، مكتبة العرب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٤١ .

(١٦٩) (169) Hill ,R., Egypt in the Sudan , (1820-1881), op. cit . , P. 167.

إلى فداحة الضرائب وعجز الأهلين عن دفعها ، كما أوضح الحكمدار محمد رؤوف ، في رأيه الذي أشرنا إليه من قبل .

وفي تقديـــري أن تفسير الحكمدار محمد رؤوف ، لضعف المالية بأنه ناتج عن فداحة الضـــرائب المباشرة ، وعجز الناس عن دفعها ، هو أقرب للصواب ، من الإهمال في تحصيل الضرائب . فمن الواضح أن الحكمدار محمد رؤوف ، ومن معه من الإداريين في السودان ، لم يـــألوا جهداً ، في استخدام كافة الأساليب لجمع الضراب ، ولكن الواقع هو ، أن الضرائب كانت فوق طاقة الناس ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

ولقـــد كـــانت الضـــرائب في السودان ، من أهم المشكلات التي دفعت السودانيين للـــثورة، وحمـــلت كثيراً من القبائل على الانضمام للثورة المهدية . ومن ذلك انضمام قبيلة رفاعة الهوى، جنوب سنار ، إلى المهدية بسبب تشديد الحكومة في دفع الضرائب (١٧٠).

ونلاحـــظ أن المهـــدي عندما أشار في منشوراته ، إلى مساوئ العهد التركي ، ومظالم الأتـــراك، ذكر مسألة أخذ الضرائب ، وسماها بالجزية ، وذلك في قوله : " وضعوا الجزية في رقابكم مع سائر المسلمين "(١٧١).

ولقد حاول غوردون باشا عندما وصل إلى الخرطوم ، في ٢٠ ربيع الثاني ١٣٠١هـــ/ ١٨ فـــبراير ١٨٨٤م ،لـــلقيام بمهمة إخلاء السودان . حاول أن يسترضي أهل السودان ، فأعـــلن إعفاء الأهالي من دفع الضرائب المتأخرة ، حتى عام ١٨٨٣م وتجاوز أيضاً عن دفع ضرائب ثلاث سنين في المستقبل ابتداءً من أول عام ١٨٨٤م ، وأمر بإحراق دفاتر المتأخرات وأمر بإطلاق جميع المسجونين (١٧٢).

وفي هـــذا دليل واضح ، على مدى اقتناع المسئولين في الإدارة المصرية في السودان ، بالأخطـــاء التي ارتكبوها في حق أهل السودان ، والمظالم التي لحقت بالأهلين من جراء تنفيذ سياسات غاشمة ، بشأن الضرائب ، والإجراءات العقيمة التي تم اتباعها في تحصيلها .

---

(١٧٠) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص٢٧٣ .

(١٧١) مهدية ، ٥٦/٢٠/٣/٨ ، إنذارات ب ، بتاريخ ٤ شوال ١٢٩٩هـــ/ ٨ سبتمبر ١٨٨٢م ، من المهدي إلى أحبابه في الله . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٧٢) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ، المرجع السابق ، ص ٢٧٤.

٦-التجارة وطرق المواصلات :

كان الفتح التركي المصري للسودان (١٨٢١م)، عاملاً ، من عوامل ازدهار التجارة بـــين السودان ، ومصر ، والحجاز ، وذلك لما تحقق من الهدوء والاستقرار ، وخضوع البلاد لسلطة سياسية موحدة ، ساعدت على تأمين المسافرين والقوافل التجارية (١٧٣).

ولقد اهتم محمد علي باشا ، بالتجارة كهدف هام من أهدافه لفتح السودان ، وعمل عـــلى تنشـــيط حـــركة الـــتجارة بـــين مصـــر والســـودان ، وتوفير الجمال اللازمة لنقل الـــواردات(١٧٤). ولقـــد تعاونت القبائل السودانية ، مع الحكومة التركية في السودان ، كقبيـــلتي العـــبابدة والكـــبابيش . وذلك بتوفير الإبل لنقل التجارة ، وحراسة القوافل تأميناً وتسهيلاً للترحيلات التجارية (١٧٥).

وكان الخديو إسماعيل أشد اهتماماً ، بازدهار التجارة ، وكانت التجارة عنده مرادفة للـــتمدن والعمـــران (١٧٦). وقد بذل جهوداً كبيرة في هذا المجال . وفي عهده أصبح طريق بربـــر سواكن يمثل أهم المعابر التجارية ، بعد ضم سواكن ومصوع ، إلى الإدارة المصرية في السودان ، عام ١٨٦٥م ، عندما أصدر السلطان العثماني ، الفرمان العالي بذلك (١٧٧).

وممـــا ســـاعد على المزيد من ازدهار طريق بربر سواكن ، افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م ، إذ أصـــبحت حـــركة الملاحة بين السودان وأوربا ، مزدهرة ومنتظمة ، عبر قناة السويس . حتى أصبح ميناء سواكن ميناءً هاماً ورئيسياً (١٧٨).

---

(١٧٣) حســـن أحمـــد إبراهيم (الدكتور) : محمد علي باشا في السودان ، (رسالة ماجستير) دار جامعة الخرطوم للنشر ، مطبعة جامعة الخرطوم ، الطبعة الثانية ، ١٩٩١ ، ص ١٤٧.

(١٧٤) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهـــرة ، دفتر ٧٥ ، ديوان الخديو ، وثيقة ٤٧ ، بتاريخ غرة ذي الحجة عام ١٢٤٥هـــ/١٨٣٠م.

(١٧٥) دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، ١١١/٦٢/١٩٤٦ ، مديرية كردفان ، بتاريخ ١٧ ربيع الأول ١٢٩٠ هـــ /١٨٧٣م (توجد صورة بدار الوثائق القومية ، الخرطوم).

(١٧٦) بشـــير كوكـــو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، رسالة دكتوراة ، مخطوط ، المرجع السابق ، ص ٢٩٦.

(١٧٧) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهرة ، دفتر ٢٢ عابدين ص ١ رقم ٣ ، من أفندينا إلى الباب العالي (الصدر الأعظم) في ١٣ محرم سنة ١٢٨٢هـــ / ٧ يونيو ١٨٦٥م.

(١٧٨) (178) Hill , R., Egypt in The Sudan , op.cit., P. 156.

ولما اعتلى الخديو توفيق أريكة الخديوية في مصر ، عام ١٨٧٩م ، أبدى اهتماماً كبيراً، ونوايا حسنة ، فيما يختص بتطوير التجارة والزراعة ، في السودان . فقد تضمن الأمر العالي الذي أصدره الخديو توفيق إلى محمد رؤوف باشا حكمدار السودان ، في ١٥ ربيع الثاني عام ١٢٩٧هـ/ ٢٧ مارس ١٨٨٠م ، ضرورة بذل ما يجب من المساعي ، لتوطيد أسباب عمارة بلاد السودان ، وتمدنها ، ورفاهية أهلها ، بتوسيع دائرتي التجارة والزراعة(١٧٩).

وكانت أهم الحاصلات التجارية ، هي الصمغ والعاج ، وريش النعام والجلود ، والسنامكي ، والعسل ، وغيرها من حاصلات السودان . إلا أن الاهتمام الأكبر في عهد الخديو توفيق كان يتمثل في الصمغ العربي ، الذي نمت تجارته ، وازدهرت بصورة خاصة ، مع بريطانيا ، عبر طريق بربر سواكن (١٨٠).

وفي عام ١٨٨١م أصبحت بريطانيا ، وحدها ، تستورد ٣,٣٦٠ طناً من الصمغ العربي من السودان ، قيمتها ١٨٠,٠٨٤ جنيهاً . وأصبح السودان بذلك ، المورد الرئيسي للصمغ العربي لبريطانيا (١٨١).

ونلاحظ أن الاهتمام بالتجارة ، استمر حتى بعد قيام الثورة المهدية ، واشتعال الثورة في معظم أقاليم السودان . فالوثائق تشير إلى أن الجداول المحررة من نظارة الأقاليم السودانية ، تشتمل على بعض البيانات التجارية جنباً إلى جنب ، مع البيانات العسكرية ، ومن ذلك ، الجدول المحرر من نظارة الأقاليم السودانية ، بتاريخ ٣ صفر ١٣٠٠هـ / ديسمبر ١٨٨٢م يبين أنواع رسالة سن الفيل التي تم بيعها ، بمعرفة المالية ، بمبلغ ٢٧,٤٥١ جنيهاً (١٨٢).

ولقد نمت مدينة بربر ، التي تقع على ملتقى طريق النيل شمالاً إلى مصر ، وطريق سواكن بربر ، كما نما دور العبابدة في نقل التجارة إلى مصر (١٨٣).

---

(١٧٩)دار الوثائق القومية ، القاهرة ، الأمر العالي بتعيين محمد رؤوف حكمداراً على السودان ، بتاريخ ١٢ ربيع الثاني ١٢٩٧هـ / ٢٧ مارس ١٨٨٠م .

(١٨٠) (180) Hill ,R.,Egypt in the Sudan , 1821-1881, op. cit . , P.156.

(١٨١) (181) Ibid .

(١٨٢)دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، محفظة ، ١٠٢ ، ملف ١/ ٢ ، وثيقة ٣، بتاريخ صفر ١٣٠٠هـ/ ديسمبر ١٨٨٢م . توجد نسخة منها بدار الوثائق بالخرطوم برقم ١/٩٠/١٤٤٢.

(١٨٣) (183)Hill ,R.,Egypt in the Sudan , 1821-1881, op. cit . , P.157.

وقـــد سمح محمد رؤوف بسياسة الباب المفتوح في التجارة ، مما أدى إلى نتائج سلبية ، على محاربة تجارة الرقيق ، إذ ازدهرت تجارة الرقيق مرة أخرى (١٨٤). ولكن بصورة أقل مما كانت عليه الحال سابقاً ، حيث ظلت تمارس سراً إلى الجزيرة العربية ومصر (١٨٥).

وبقيـــام الثورة المهدية (١٨٨١م) ، وانتشارها ، لم تعد طرق التجارة آمنة ، ولم تعد الـــبلاد مستقرة . وبذلك تأثرت التجارة تأثراً كبيراً ، وخاصة بعد أن تمكن عثمان دقنة من قطع طريق بربر سواكن ، والسيطرة على معظم بلاد شرق السودان (١٨٦).

ومـــع ذلـــك تشير الوثائق إلى استمرار التجارة بين مصر والسودان ، في الحاصلات الســـودانية ، ومـــن ذلـــك تلغراف بتاريخ ٩ نوفمبر عام ١٨٨٤م من التاجر أحمد وداعة بالقاهرة، إلى سالم العجوب بالخرطوم ، يفيده باستلام الريش (١٨٧).

وبســـقوط بربـــر في يد أنصار المهدي بقيادة الشيخ محمد الخير في ١٠ جمادي الثانية ١٣٠١هـــــ/ ١٨ يونيـــو ١٨٨٤م ، توقف النشاط التجاري للحكومة المصرية نهائياً بين السودان ومصر ، باستيلاء الأنصار على تلك المنطقة (١٨٨)، وخروجها من سيطرة الإدارة المصرية .

٧-مشروع السكة حديد :

بدأ العمل الجاد لإنشاء سكة حديد السودان ، في عهد الخديو إسماعيل ، الذي قرر مد خطين من السكة الحديد في السودان ، أحدهما يبدأ من أسوان وحتى الخرطوم ، والآخر يبدأ من بربر أو شندي حتى سواكن ومصوع على البحر الأحمر (١٨٩).

---

(١٨٤) (184) Holt , P . M . , The Mahadist State in the Sudan , op. cit . , P.40

(١٨٥) (185)Hill ,R.,Egypt in the Sudan , 1821-1881, Op. Cit . , P.157.

(١٨٦) مهديـــة ، ٦١/٧/٨ ، ١٦ دقنة ، من المهدي إلى عثمان دقنة ، بتاريخ ٢٠ جمادى الأول سنة ١٣٠١هـــ / ١٨ مارس ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية الخرطوم .

(١٨٧) المخابـــرات المصرية ٢٦/٤/١ تلغراف نمرة ٣٣٦ بتاريخ ٩ فبراير ١٨٨٤م من أحمد وداعة بالقاهرة إلى سالم العجوب بالخرطوم . توجد منه صورة بدار الوثائق القومية بالخرطوم برقم ١٤٤٢/٩٠/١.

(١٨٨) مهديـــة ، ٢١٧ فيوضات ٣ ، من المهدي إلى محمد الخير عبد الله خوجلي ، ٢٢ رجب ١٣٠١هـــ/ ١٨ مايو ١٨٨٤م (يخبره بوصول خطابه بسقوط بربر).

(١٨٩) (189) Mandour EL Mahady , Ashort History of the Sudan , Oxford ,London, 1965 , p . 77.

وبعــد الانتهاء من الخطط والدراسات ، بدأ العمل في إنشاء خط سكة حديد حلفا – المتمة ، بإرسال الخبراء ، والمعدات اللازمة ، وتقرر جمع العمال من دنقلا ومدهم بحاجتهم من الـذرة (١٩٠). وقرر الخديو إسماعيل إجبارهم على العمل بالقوة إذا رفضوا الاستمرار في ذلك(١٩١).

بيــد أن العمل في خط السكة حديد ، قد توقف بصورة نهائية عام ١٨٧٨م ، بعد أن أنفق إسماعيل عليه مبلغاً قدره ٤٥,٠٠٠ جنيه مصري (١٩٢). ويبدو أن توقفه كان بسبب تدهــور الموقف المالي في مصر نتيجة الأزمة المالية ، ومعارضة غوردون في تنفيذه ، فلم يوله اهتماماً (١٩٣). بل كان غوردون يرى أن مد الخط الحديدي بين مصر والسودان ، سيزيد مــن تدعــيم الــروابط والاتصــالات بــين مصــر والسودان مما يضر بمصالح بريطانيا في أفريقيا(١٩٤)!

بيد أن الخديو توفيق ، قرر مواصلة العمل في تنفيذ مشروع خط السكة حديد ، الذي كــان قــد توقف منذ عام ١٨٧٨م .وقد يكون الدافع الرئيسي لذلك ، هو تقدير الخديو توفيق، للأهمية الاقتصادية لهذا الخط ، الممتد من حلفا جنوباً مع نهر النيل ، في نقل الحاصلات الــزراعية السودانية إلى مصر والعالم ، زيادة على أنه سيزيد من عمران المناطق التي يمر بها ، ويقرب المسافة بين البلدان السودانية ، بربطها ببعضها البعض ، ويساعد على تدعيم الأمن ، في جميع الأقاليم الإفريقية والسودانية ، التي تخضع للسيادة المصرية (١٩٥).

---

(١٩٠) دار الوثــائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، دفتر ٢٣ عابدين ، صادر تلغراف ، وثيقة ٥٠، ص ٨٦ ، بتاريخ ١٦ رجب ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م .

(١٩١) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، دفتر ٢٢ عابدين ، وثيقة ٢٦٣ ص ٥٩، بتاريخ ٧ ربيع الأول ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م.

(١٩٢) (192) Report on Egyption Provinces of the Sudan , Red Sea and Eguatoria , London , 1884, p.26.
نقلاً عن دكتور السيد يوسف نصر ، الوجود المصري في أفريقيا ، المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

(١٩٣) (193) Hill , R., Egypt in The Sudan ,(1821-1881) op.cit. . P.158.

(١٩٤) الســيد يوسف نصر (الدكتور) : الوجود المصري في أفريقيا ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، المرجع السابق ، ص ٣٠٩.

(١٩٥) نفس المرجع السابق . ص ٣٠٩.

ولم يـــأخذ الخديو توفيق برأي بعثة بتييه ، المبعوث الفرنسي الذي أشار ، بأنه في حالة عدم وصول الخط الحديدي إلى دنقله ، فإن الأفضل هو إيقاف الخط الذي تم تشغيله من قبل وطوله ٧ (سبعة) أميال ، بدءاً من أسوان إلى قرية الشلال ، وبيع المهمات الخاصة به ، والتي توجد في مخازن حلفا وأسوان وقيمتها ٣٠,٠٠٠ جنيه مصري (١٩٦).

ورأى الخديـــو توفيـــق ، مواصـــلة الجهود في هذا المجال ، فأرسل بعثة أخرى بقيادة جودنـــج في ٢٤ يوليـــو ١٨٨٠م ، وكان من ضمن أفراد البعثة المسيو هايوت ، والمهندس المصـــري أحمد فهمي(١٩٧). فكان تقرير البعثة مشجعاً . حيث أوضحت البعثة ، أن الجزء الـــذي تم تشغيله من الخط وطوله ٧ (سبعة) أميال ، حقق نجاحاً حيث بلغ إيراده ، في ذلك العـــام (١٨٨٠م) ١٤,٩٦٦ جنيهاً مصرياً (١٩٨). ويعود ذلك إلى حركة نقل المسافرين والبضائع .

وأشار جودنج إلى ضرورة مد الخط الحديدي ، من أمبيجول إلى فركة ، لأن النهر في هـــذه المنطقة ، لا يصلح للملاحة، لوجود شلالات تنجور وعكاشة ودال (١٩٩). وقدرت تكـــاليف مد الخط إلى فركة بمبلغ ٢٣٢,١٩٢ جنيهاً مصرياً بما فيها تكلفة القناطر ، وورش العمل ، والمهمات ، والأدوات ، والقاطرات (٢٠٠).

وبعد دراسة المشاريع المقدمة ، لخط سكة حديد حلفا – الخرطوم ، تبين أن المشروع الأفضـــل ، هـــو الـــبدء بمد الخط من حلفا إلى مدينة دنقلا ، لأنه سوف يتيح فرصاً أوسع للـــتجارة. وتقرر أن تقوم إحدى الشركات الأجنبية بتنفيذه ، واشترط أن يكون للحكومة

---

(١٩٦) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ،محفظة ٢٦ ، مجلس الوزراء (سودان) ، تقرير المسيو بتييه ، بدون تاريخ.

(١٩٧) دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ،محفظة ٢٦ ، مجلس الوزراء (سودان) ، مذكرة لمجلس النظار في ١٢ أكتوبر عام ١٨٨٠م.

(١٩٨) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ،محفظة ٤٦ ، مجلس الوزراء (سودان) ، بتاريخ ٣١ مارس ١٨٨١م.

نقلاً عن السيد يوسف نصر (الدكتور) : الوجود المصري في أفريقيا ،المرجع السابق ، ص ٣١٢ .

(١٩٩) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ،محفظة ٤٦ ، مجلس الوزراء (سودان) بتاريخ ٣١ مارس ١٨٨١م ، المرجع السابق .

(٢٠٠) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ،محفظة ٣٦ ، قرار مجلس النظار الخاص بسكة حديد السودان بتاريخ ١٠ نوفمبر عام ١٨٨١م .

المصـــرية الحـــق في أن تشـــتري هــــذا الخط من الشركة ، بعد مضي المدة المتفق عليها في العقد(٢٠١).

ولكــــن الحكومة المصرية لم تكن جادة في الموافقة على مد الخط ، فضلاً عن عدم توفر المال اللازم ، بسبب الصعوبات المالية التي كانت تعيشها مصر آنذاك (٢٠٢).

أمـــا فيما يتعلق بخط سكة حديد سواكن بربر ، فقد كان الهدف منه ربط السودان بالبحر الأحمـــر ، بوسيلة مواصلات فعالة . وتنشيط حركة التجارة في شرق السودان وتقريب المسافة بين القاهرة والخرطوم (٢٠٣).

وقد أبدى المسيو وايلد ، في عشرين ديسمبر عام ١٨٨٢م رغبته للحكومة المصرية في مد هذا الخط ، وقدم شروطه لذلك ، مبيناً الفوائد التي تعود على البلاد منه (٢٠٤).

ورغم أن خط سكة حديد سواكن – بربر ، وجد معارضة من بعض المهندسين الإنجليز إلا أن الدراســـة الـــتي أعدها ماسون بك عن سكة حديد السودان ، أوضحت أن إنشاء سكة حديد البحر الأحمر بربر ، يعود بفائدة كبيرة على الحكومة الخديوية (٢٠٥).

ولقد اهتمت الدراسات العسكرية والبريطانية اهتماما كبيراً ، بإنشاء خط حديد سواكن – بربر . كما يوضح تقرير كلارك عام ١٨٨٤م (٢٠٦).

وبـــالفعل تم الـــبدء في تنفيذ مشروع سكة حديد سواكن – بربر عام ١٨٨٥م ، عندما قررت مصر وبريطانيا استرداد السودان . وقد تمكنت السلطات المصرية من مدة مسافة ٣٣ميلاً ، ابـــتداء من سواكن ، وحتى بلدة عطوة ، ولكن قوات المهدي في شرق السودان تمكنت من تدمير هذا الخط (٢٠٧). فاضطرت مصر وبريطانيا لوقف العمل فيه .

---

(٢٠١) دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ،محفظة ٣٦ ، محضر مجلس النظار ، في ١٠ فبراير ١٨٨١م.

(٢٠٢) السيد يوسف نصر (الدكتور) : الوجود المصري في أفريقيا ، المرجع السابق ، ص ٣١٤.

(٢٠٣) دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ،محفظة ٢٦ ، مجلس الوزراء (سودان) ، خطاب المسيو ويلد إلى رئيس مجلس النظار في ٣٠ ديسمبر عام ١٨٨٢م.

(٢٠٤) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، مجلس الوزراء (سودان) ، المرجع السابق.

(٢٠٥) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ،محفظة ٣٦ ، مجلس الوزراء (سودان) ، تقرير ماسون بك في ١٥ يونيو عام ١٨٨٣م.

(٢٠٦) (206) P.R.O.(F.O.), War Office , 10 May 1884 .
(نسخة مصورة بدار الوثائق القومية الخرطوم برقم ١٩/١٢/١)

(٢٠٧) السيد يوسف نصر (الدكتور) : الوجود المصري في أفريقيا ، المرجع السابق ، ص ٣٢٤.

٩- التعليم :

أشـــرنا من قبل إلى أن التعليم النظامي في العهد التركي المصري في السودان ، بدأ في عهد عباس ، بإنشاء أول مدرسة نظامية على يد رفاعة رافع الطهاوي (٢١٢).

ولقـــد تم التوسع في التعليم النظامي الحديث ، في عهد الخديو إسماعيل إذ أنشأ خمس مدارس ابتدائية في السودان عام ١٨٦٣م (٢١٣).

وفي عهـــد الخديو توفيق ، استمرت المدارس الخمس ، التي أنشأها الخديو إسماعيل ، تمارس نشاطها التعلمي وتؤدي رسالتها في السودان .

وقـــد تم إنشاء مدرسة طبية ، في عهد الخديو توفيق بالخرطوم لتعليم أبناء السودان العلوم الطـــبية (٢١٤). وكـــانت الصـــيدلة تدرس أيضاً في هذه الكلية الطبية التي فتحت في الخرطوم (٢١٥).

وكـــانت الامـــتحانات الـــتحريرية ، والشفوية ، تشمل الحساب ، وعلوم الدين ، واللغة العـــربية، وتـــأليف الشعر ، والخط . ويشارك في الإشراف على هذه الامتحانات كبار المسئولين الحكوميين (٢١٦).

وتقـــام الاحتفالات السنوية لإظهار نشاط هذه المدارس . ومن ذلك ، الاحتفال الذي أقيم في ٢١ شعبان عام ١٢٩٨هـــ/يوليو ١٨٨١م بمدرسة الخرطوم ، برئاسة الحكمدار محمد رؤوف . فكـــان مظهـــراً حياً للعناية بالحضارة والتعليم في السودان (٢١٧). كما تم احتفال مماثل في نفس العام بمدينة بربر (٢١٨).

---

(٢١٢)دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهرة ، دفتر ٢١٣٣ ، ديوان المدارس ، تركي ، وثيقة رقم ١٦٧ ، ٦ رجب ١٢٦٦هـــ/ ١٢٤٩م.

(٢١٣)دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، دفتر ١٣٩ ، وارد ، معية سنية ، وثيقة ٥ ، ص ١٨ ، بتاريخ ٢٣ ربيع الثاني ١٢٧٩هـــ/ ١٨٦٣م.

(٢١٤) الرافعي (عبد الرحمن) : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، مصر، ١٩٨٣م ، ص ٩٦.

(٢١٥) ناصـــر السيد (الدكتور) : تاريخ السياسة والتعليم في السودان ، الطبعة الثانية ، مطبعة جامعة الخرطوم، الخرطوم ، ١٩٩٠م ، ص٢٢.

(٢١٦) نفس المرجع ، ص ٢٢.

(٢١٧)الرافعي (عبد الرحمن) : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، المرجع السابق ، ص ٩٦.

(٢١٨)ناصر السيد (الدكتور) : تاريخ السياسة والتعليم في السودان ، المرجع السابق ، ص ٢٢.

وفي هـــذه الاحتفالات ، تلقى القصائد والأشعار ، بتمجيد الحاكم ، وتمجيد الخديو توفيـــق . ويعـــزف النشيد الوطني ، احتفاءً بالخريجين الذين يمثلون إضافة جديدة للعاملين في مكاتب الحكومة أو التلغراف (٢١٩).

إلى جـــانب التعلـــيم الحكومي ، كانت الخلاوي والمساجد ، تؤدي دورها في تعليم الأهـــالي القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وكافة علوم الدين واللغة العربية ، إلى جانب مبادئ الحساب ومبادئ القراءة والكتابة (٢٢٠).

ممـــا تقـــدم نخلص إلى أن سياسة الخديو توفيق ، في كافة المجالات ، رغم ما فيها من تغيرات طفيفة ، كانت تمثل في حقيقتها ، امتداداً لسياسة والده الخديو إسماعيل في السودان . ولم نلحظ فيها تغيرات جذرية تذكر ، حتى قيام الثورة المهدية (٢٢١).

وفي تقديـــري ، أن الظـــروف التي تولى فيها الخديو توفيق الحكم ، والمشكلات التي أحـــاطت بـــه ، لم تكن لتساعد على إحداث التغير المرتقب . فلقد تولى الحكم وهو ضعيف الشخصـــية ، مســـلوب الإرادة ، والبلاد في قبضة السيطرة الأجنبية ، تعاني من مشكلات سياســـية ، واقتصـــادية ، وأزمـــة ماليـــة مستحكمة . فضلاً عن ظروف الاضطراب وعدم الاستقرار ، المتمثل في قيام الثورة العرابية في مصر ، والثورة المهدية في السودان .

---

(٢١٩) نفس المرجع ، ص ٢٢.

(٢٢٠) محمد فوزي مصطفى عبد الرحمن : الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان المعاصر ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، الدار السودانية ، الخرطوم ، ١٩٧٢م ، رسالة ماجستير ، ص ٤٩ .

(٢٢١) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٤٢.

الفصل الثاني

الثورة المهدية - نشأتها وأسبابها

(١٢٩٨هـ/١٨٨١م)

الفصل الثاني

الثورة المهدية - نشأتها وأسبابها

(١٢٩٨هـ/١٨٨١م)

مـا مـن شـك أن إعلان محمد أحمد المهدي ثورته ضد الحكم التركي المصري في السـودان ، في غـرة شعبان ١٢٩٨هـ /٣٠ يونيو ١٨٨١م (١)، يعتبر مرحلة جديدة ، وتطوراً خطيراً في تاريخ السودان في عهد الخديو توفيق . ومما يؤيد ذلك ما أشار إليه الدكتور بشير كوكو حميدة بقوله : " إن الثورة المهدية كانت من أعظم الثورات القومية التي نشبت في العالم على مدار التاريخ، وكانت نقطة تحول وانطلاق كبيرين في تاريخ بلادنا العزيزة "(٢).

ولقـد كان لشخصية محمد أحمد المهدي الدور الحاسم في قيام هذه الثورة ، وإحداث هذا التحول . وهذا يقتضي التعرف على نشأة هذه الشخصية ، ودراسة الأسباب التي أدت إلى إعـلان الثورة ضد الحكم التركي المصري في السودان ، قبل التعرف على أحداث الثورة ونتائجها .

(أ) نشأة محمد أحمد المهدي

في الحديـث عـن أي شخصـية مرموقة في التاريخ ، ينبغي للمؤرخ أن يتتبع نشأة تلك الشخصية ،والبلد الذي نبتت فوق تربته ،وترعرعت في نواحيه.ومحمد أحمد المهدي ، مفجر الثورة المهدية في السودان ،لم يختلف اثنان في أنه ولد في جزيرة لبب،بمنطقة دنقلا بشمال السودان (٣).

وتختـلف الروايات في تاريخ مولده ، رغم أنها متقاربة . فقد ذهب بعضهم إلى أنه ولد عام ١٢٥٨هـ/١٨٤٣م (٤).بيـنما ذهـب فريق آخر إلى أن تاريخ مولده كان عام ١٢٦٠هـ/

---

(١) مهدية ٩/٤/٣٥-٣٧ ، من المهدي إلى الشيخ محمد الطيب البصير ،غرة شعبان ١٢٩٨هـ/يونيو ١٨٨١م، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢) بشير كوكو حميدة (الدكتور):صفحات من التركية والمهدية ، دار الإرشاد ، الخرطوم ، مطابع معتوق إخوان، لبنان، بيروت ، ١٩٦٩م ، ص ١٢٦.

(٣) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، دار الثقافة ، الطبعة الثالثة ، لبنان ، ١٩٦٤م ، ص ٢٥٠.

(٤) محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، مطبعة جامعة الخرطوم ، الطبعة الثالثة ، الخرطوم، ١٩٨٩م ، ص٢٧ .

وانظر نعوم شقير : تاريخ السودان ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، دار الجيل ، طبعة جديدة، بيروت ، ١٩٨١م ص ٣٢١ .

١٨٤٤م . ومن هؤلاء الدكتور مكي شبيكة (٥)، وهولت الذي حدد تاريخ مولده بأنه كان في ٢٧ رجب ١٢٦٠هـ/١٢ أغسطس ١٨٤٤م (٦).

ولعل هؤلاء استندوا في تحديد هذا التاريخ إلى الرواية التي نقلها الشاطر بصيلي عبد الجليل ، الذي التقى بالإمام عبد الرحمن المهدي ، وسأله عن تاريخ ميلاد والده ، فأجاب بأنه كان عام ١٨٤٤م (٧). ويبدو لنا أن هذه الرواية التي نقلت عن الإمام عبد الرحمن المهدي ، أقرب للصواب، وذلك لعلاقة عبد الرحمن المهدي المباشرة بتاريخ والده ، مما يجعله أوثق تحقيقاً لميلاده .

أما أسرة المهدي، فالمشهور أنها تنتمي إلى الأشراف (٨). ولها شهرة دينية ترتبط بجدهم حاج شريف . وقد أكد المهدي نفسه ، بعد إعلان مهديته ، نسبه الذي ينتمي إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما ، ويمتد إلى الرسول ﷺ ، في منشوراته بقوله : " وليكن معلوماً عندكم أني من نسل رسول الله ﷺ ، فأبي حسيني من أبيه وأمه ، وأمي كذلك من جهة أمها ، وأبوها عباسي . ولي نسبة إلى الحسين ، والله أعلم "(٩).

ويشير بعضهم إلى أن قبيلته من العرب "المتنوبة" (نسبة إلى النوبة) ، وأنه ينتمي إلى جدٍ أبعد يسمى نجم الدين ، وهو جد الكنوز (١٠).ويؤيد المهدي انتماءه إلى نجم الدين هذا ، في النسب الذي أورده عنه إسماعيل عبد القادر الكردفاني ، وأوصله إلى الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (١١).

---

(٥) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٥٠.

(٦) (6)Holt , P.M. The Mahadist State in The Sudan , (1881-1898) , Second Edition , Clarendon Press . Oxford , 1970, P.45.

(٧) رواية الإمام عبد الرحمن المهدي عن تاريخ ميلاد والده محمد أحمد المهدي .
نقلا عن : الشاطر بصيلي عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل ، من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر،مكتبة العرب ، الطبعة الثانية ، القاهرة، ١٩٦٧، ص١٩٦.

(٨) (8)Churchill, W., The River War , Lands borough Publication, Limited , London ,1956 , , P.23.

(٩) مهدية ١٦/٣/٨ منشورات ، من المهدي إلى أحبابه في الله المؤمنين بالله وبكتابه ، ١ شعبان عام ١٢٩٨هـ/ ٣٠ يونيو ١٨٨١م (دار الوثائق القومية بالخرطوم).

(١٠) نعوم شقير : تاريخ السودان ، المرجع السابق ، ص ٣٢١.

(١١) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم، دار الجيل، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٨٨٢م ص ٧٤.

ونلاحظ هنا أنه ليس بالضرورة أن يكون المهدي من الكنوز ، فقد يكون نجم الدين المذكور جداً لفروع مختلفة من القبائل العربية . والمعروف أن الكنوز أوطانهم معظمها داخل القطر المصري بين كرسكو وأسوان (١٢).

وأما انتماؤه إلى قبيلة الدناقلة فهو أيضاً محل نظر ، فالدناقلة كما أشار محمد عوض محمد إليهم بقوله : " في الاصطلاح الجنسي هم فرع من السلالة النوبية ، وليسوا مجرد سكان مديرية دنقلا . وهؤلاء الدناقلة يتكلمون لهجة نوبية "(١٣).

ويبدو لنا أن انتماء المهدي إلى الدناقلة ، هو انتماء للمكان وليس القبيلة ، فقد كانت اللغة العربية هي لغته الأولى ، كما أنه من الثابت أن هناك قبائل عربية أخرى كالجوابرة ، والركابية ، والبديرية ، كانت تسكن داخل بلاد النوبة في منطقة الدناقلة والمحس (١٤). وعليه فإن قبيلة الأشراف التي ينتمي إليها المهدي، قد تكون واحدة من هذه القبائل التي سكنت منطقة دنقلا ولا تنتمي إلى الدناقلة .

ومما يؤيد ذلك ما أورده الدكتور موسى عبد الله حامد عن هجرة أسرة المهدي، التي تنتمي إلى الولي الصالح نجم الدين في مصر ، وهاجرت صوب الجنوب " حتى ألقت عصا الترحال لبعض الوقت في إقليم دنقلا "(١٥).

وليس من المستبعد ، بحكم نشأة أسرة المهدي في إقليم دنقلا ، أن تكون أسرته قد اكتسبت بعض صفات وعادات أهل المنطقة عن طريق المصاهرة (١٦).

ولقد كان عبد الله ، والد محمد أحمد ، يعمل بصناعة المراكب والسواقي . فهاجر هو وأسرته جنوباً ، ومحمد أحمد لا يزال صغيراً ،حتى استقر بهم المقام في منطقة كرري التي تقع

---

(١٢) محمد عوض محمد : السودان الشمالي سكانه وقبائله ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، الطبعة الثانية، القاهرة ، ١٩٥٦م ، ص ٣٠٢-٣٠٤.

(١٣)محمد عوض محمد : السودان الشمالي سكانه وقبائله ، المرجع السابق ، ص ١٦٤ .

(١٤) نفس المرجع ، ص ١٦٨.

(١٥) موسى عبد الله حامد (الدكتور) : الثورة المهدية والعلاقات السودانية المصرية ، مقال مجلة الخرطوم ، العدد ٥ ، الخرطوم ، ١٩٨٢م ، ص ٣١ .

(١٦) محمد محجوب مالك : المقاومة الداخلية لحركة المهدي (١٨٨١-١٨٩٨م) ، رسالة ماجستير ، ١٣٩٦ هـ/١٩٧٦م – مخطوط ، جامعة القاهرة فرع الخرطوم ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم ، ص ٢٩.

شمـــال مدينة أم درمان (١٧). ولعل ضيق العيش ، والبحث عن الأخشاب لصناعة المراكب كان من أهم دوافع هجرة أسرة محمد أحمد جنوباً إلى كرري (١٨).

غـــير أن أسباب هجرة محمد أحمد ، لم تكن اقتصادية بحتة ، وإنما كانت هناك أسباب سياسية ، تتمثل في المضايقات التي سببها لهم الحكم التركي المصري في السودان (١٩). فقد اقمـــت أسرة محمد أحمد بإيواء ، بعض الهاربين من دنقلا فراراً من ظلم الكاشف ود نميري ، أحد حكام المنطقة ، وتسخيره الناس لبناء قصره المشهور في منطقة دنقلا . وقد تسبب ذلك الاتهام في أخذ تعهد مالي كبير على الأسرة إذا آوت أحد الهاربين (٢٠).

ويـــبدو لـــنا أن هذه المضايقات التي سببها الحكم التركي المصري لأسرة محمد أحمد، كانت تمثل الأسباب المباشرة لهجرة الأسرة جنوباً . فهي تمثل ضغطاً سياسياً واجتماعياً ، فضلاً عـــن أنهـــا زادت مـــن الأعباء الاقتصادية للأسرة ، بما يمكن أن يفرض عليها من غرامات . ففضلت أسرة المهدي الهجرة جنوباً فراراً من هذه المضايقات (٢١). ولابد أن هذه الأسباب قد تركت أثراً في شخصية محمد أحمد ، الذي كان عمره بين الخامسة والسابعة عندما حدثت هذه الهجرة (٢٢).

ولم تكد أسرة المهدي تستقر في مقرها الجديد بكرري ، حتى توفي والده ودفن هناك ، ثم لحقـــت بـــه والدته ومحمد أحمد لا يزال صغيراً ، فأصبح يتيم الأبوين (٢٣)، ومن ثمّ تولى إخوته أعباء تربيته .

---

(١٧) مكي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، معهد البحوث والدراسات العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ١٩٧٢م القاهرة ، ص ٥٣.

(١٨) (8)Theobald , A.B., The Mahadiya , Longman Green and co , New York Toranto London, 1949 , P.27.

(١٩) موسى عبد الله حامد (الدكتور) : الثورة المهدية والعلاقات السودانية المصرية ، مقال ، مجلة الخرطوم ، المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٢٠) المهدي (علي) : مذكرات علي المهدي ، تحقيق عبد الله محمد حسن (جهاد في سبيل الله)، الخرطوم ، بدون تاريخ ، ص ٣٠.

(٢١) المهدي (علي) : مذكرات علي المهدي ، تحقيق عبد الله محمد حسن ، المرجع السابق ، ص ٣٠.

(٢٢) نفس المرجع ، ص ٣٠.

(٢٣) محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .

كـــان محمد أحمد يميل إلى الدراسة ، وقد عُرف بالذكاء ، ولهذا فقد اتجه إلى التعلم في خلوة الفكي هاشم في كوري . ورفض الانصياع لمحاولات إخوته لمنعه من الدراسة ، وإجباره عـــلى الانخـــراط في مهنة صناعة المراكب . وصمم محمد أحمد على تحقيق رغبته في الدراسة ، حـــتى وصـــل به الحد إلى الامتناع عن الطعام ! فلم يجد إخوته بداً من السماح له بالذهاب للخـــلوة (٢٤). ولعل مما شجعه على ذلك أن والده قبل وفاته ، كان يتوق إلى أن ينال ابنه محمـــد أحمـــد ، قســـطاً مـــن التعلـــيم الديـــني ، وحفظ القرآن الكريم ، والإلمام بالقراءة والكتابة(٢٥).

تـــنقل محمد أحمد بين خلاوي كوري ، والخرطوم ، حيث درس على يد الشيخ شرف الدين عبد الصادق . ثم التحق بخلوة بُري ، وتعلم القرآن الكريم على يد الشيخ الفكي محمد المـــبارك ، ثم انتقل إلى قرية كترانج ، جنوب الخرطوم ، على الضفة الشرقية للنيل الأزرق ، وتعـــلم على يد الأمين الصويلح بن محمد ، ومكث هناك عامين ، ودرس علوم الدين واللغة العربية (٢٦).

ويبدو أن محمد أحمد تأثر بالجو العلمي في كترانج ، التي كان لشيوخها ارتباط بالأزهر الشريف ، فخرج من كترانج ينشد الأزهر بمصر (٢٧). وفي طريقه شمالاً ، استقر في شندي، وقـــرأ القـــرآن على أحد شيوخها وهو الفكي الرهيِّف (٢٨). ثم ارتحل إلى بربر . ويبدو أن بعـــض طلاب العلم هناك اقنعوه بالبقاء في بربر ، وترك الدراسة في مصر ، ليتفرغ للعلم على يـــد الشـــيخ محمد الخير ، حيث درس الفقه والتوحيد وعلوم القرآن واللغة العربية (٢٩). واشتهر بالذكاء والتفوق على جميع أقرانه (٣٠).

---

(٢٤) إبراهيم فوزي : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ، ج١ ، القاهرة ١٣١٩هـ ، ص ٧.

(٢٥) (25)Churchill, W., The River War op. cit., P.23 .

(٢٦) عز الدين الأمين : قرية كترانج وأثرها العلمي في السودان ، رسالة ماجستير ، الطبعة الأولى ، معهد الدراسات الأفريقية ، جامعة الخرطوم ، ١٩٧٥م ، ص ٥٦-٥٧ .

(٢٧) محمد سعيد القدال (الدكتور) : الإمام المهدي ، مطبعة جامعة الخرطوم ، ١٩٨٥م ، ص ٣٥.

(٢٨) رواية الفكي الأمين يوسف ، إمام مسجد والده بشندي ، بتاريخ ١٨/٨/١٩٩٩م .

وانظر : محمود محمد علي نمر ومحمد سعيد معروف : الجعليون ، تاريخهم ونسبهم وحياتهم وأدبهم ، دار السودان الحديث للطباعة والنشر ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٤م ، ص ٢٦.

(٢٩) محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، المرجع السابق ، ص ٢٦.

(٣٠) (30)Theobald , A.B., The Mahadiya ,op. cit , p.27 .

وعرف محمد أحمد بالصدق والإخلاص ، والزهد والورع ، والجد في العبادة ، والولاء لأستاذه ، كما بدأ يظهر تعففاً وامتناعاً عن أكل مال الجرايات ، التي كانت تجريها الحكومة التركية المصرية على مشايخ الخلاوي ، باعتبار هذه الجرايات مالاً مشبوهاً . ولهذا امتنع عن أكل طعام أستاذه محمد الخير . ولما علم الشيخ محمد الخير بذلك أقنعه بأن يشاركه في الأكل من طعامه ، من محصول سواقيه الخاصة ، لا من هبات الحكومة التركية (٣١).

لقد أعجب الشيخ محمد الخير بتلميذه محمد أحمد ، أيما إعجاب ، فقربه إليه ، ووثق فيه ، وجعله خطيباً للمسجد . وكانت العادة أن تقرأ خطبة الجمعة من كتاب ، ولكن محمد أحمد ، ارتجل الخطبة . وكانت أولى خطبه بليغة أعجب بها الناس ، حتى قال عنه الشيخ محمد الخير : " ما رأيت خطيباً مثله "(٣٢)!

وهكذا استطاع محمد أحمد أن يحفظ القرآن الكريم ويتقن علومه ، ويدرس الفقه ، والتصوف ، واللغة العربية وآدابها ، والعلوم العقلية ، والفلسفة ، والمنطق ، كما عرف الغزالي، وابن رشد ، وابن سينا ، والإمام الشافعي وأصبح بذلك عالماً فقيهاً متحدثاً ، مفسراً ، أديباً كاتباً (٣٣).

ويشير الفقيه عبد الله إبراهيم الذي عني بسيرة الإمام المهدي، إلى أن محمد أحمد المهدي قد أخذ من العلوم ثمرتها الحقيقية ، فضلاً عن ،الزهد ، والصوم ، والعبادة ، والصلاة ، والتبتل ، والمداومة على ذكر الله (٣٤).

وقد وصفه ونجت Wengate، الذي أصبح حاكماً للسودان فيما بعد ، وقام بدراسة للمهدي ، خلص منها إلى وصف المهدي قائلاً : " لاشك أن هذا الرجل أوتي أقوى رأس ، وأصفى بصيرة ذهنية ، في المليون ميل مربع التي فرض سيطرته عليها"(٣٥)!

وقد أبدى محمد أحمد نزعة صوفية ، دفعته لدراسة كتب المتصوفة ، أمثال الغزالي وكتابه "إحياء علوم الدين" ، وابن عربي وكتابه "الفتوحات المكية" . وحاول الشيخ محمد

---

(٣١)مكي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، المرجع السابق ، ص ٥٤.

(٣٢)محمود محمد علي نمر ومحمد سعيد معروف : الجعليون ، المرجع السابق ، ص ٢٧.

(٣٣) عبد الودود شلبي (الدكتور):الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني،دار المعارف،مصر ١٩٧٩م،ص٢٢

(٣٤) دار الوثائق القومية ، الخرطوم ،قائمة المتنوعات ، ١٧٨٩/١٣٧/١ ، مولد الإمام المهدي ، الفقيه عبد الله إبراهيم، مخطوط . ١٣٤٩هـ.

(٣٥) مورهيد ، آلان : النيل الأبيض ، ترجمة محمد بدران خليل، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٥م ، ص ٢١٦.

الخـــير أن يمنعه من دراسة هذه الكتب قبل أن يجيد دراسة كتب الفقه ، إلا أن نزعة التصوف في نفسه كانت أقوى ، ولم تشبعها دروس الشيخ محمد الخير ، فقرر الرحيل إلى شيخ مشهور من شيوخ الطرق الصوفية ، ألا وهو الشيخ محمد شريف نور الدائم ، شيخ الطريقة السمانية. وكـــان مقـــره في شمالي الخرطوم . وهناك سلك الطريقة السمانية على يديه ، ووجد ما كان يصبو إليه ، فاستغرق في العبادة والتأمل ، والتهجد (٣٦).

وقد أعجب به الشيخ محمد شريف ، لما أظهره من جد في العبادة ، وقيام الليل ، وما أظهره من تفان في خدمة أستاذه . فقربه إليه ، وسمح له بأن يسلك الطريقة للراغبين نيابة عنه. وتشـــير الوثـــائق إلى أنه قام بمباشرة إصدار إجازات للسالكين للطريقة في هذه الفترة . ومن ذلك الإجازة التي أصدرها محمد أحمد (المهدي) بتاريخ ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م ، للشيخ سراج الدين بن الفقيه أحمد الجنيد ، بصفته تلميذ القطب محمد شريف نور الدائم . ويقرر أنه "أجازه وخـــلفه في الطـــريقة ، إجـــازة مطـــلقة بالتـــلقين وتـــربية المريدين ، وأن يسلك الطالب الراغب"(٣٧).

وفي حـــوالي عام ١٢٨٦هـ/١٨٧٠م ، رحل إخوة محمد أحمد إلى الجزيرة أبا ، طلباً للأخشـــاب لصناعة المراكب ، فرحل معهم ، وبنى في تلك الجزيرة مسجداً وخلوة ، فاجتمع عـــليه ســـكان المنطقة من قبائل الحسانية ، ودغيم ، والعمارنة، وغيرهم ، ودخلوا في عهده وتلمذته (٣٨). واشتهر بين الناس بالصلاح والتقوى والزهد ، وعلا شأن الطريقة السمانية ، فعرض على شيخه محمد شريف ، الرحيل إلى منطقة العرديبة القريبة من الجزيرة أبا ، وزّين له الأحوال في تلك المنطقة ، مما زاد من توثيق عرى المودة بينه بين أستاذه محمد شريف(٣٩).

غير أن الخلاف سرعان ما دب بين الشيخ محمد شريف وتلميذه محمد أحمد . وتذهب بعـــض الـــروايات إلى أن أسباب هذا الخلاف شخصية ، ترجع إلى ما صادفه محمد أحمد من

---

(٣٦) (36) Shibeika , M., British Policy in the Sudan , 1882-1902 , Oxford University press , London New York Toranto , London 1952 , p.21.

(٣٧) صورة فوتغرافية عن الأصل ، وجدت ضمن وثائق الشيخ محمد عبد الرحيم ، عام ١٩٦٦م ، دار الوثائق القومية — الخرطوم .

(٣٨) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، المرجع السابق ، ص ١٠٩.

(٣٩)محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، المرجع السابق ، ص ٢٩.

نجـــاح، وما ناله من شهرة ومكانة . وهذا الرأي هو رأي أتباع محمد أحمد (٤٠). أما الشيخ محمـــد شريف، فهو يرى أن محمد أحمد أصابه الغرور ، وسوّل له الشيطان ، فأسر إلى أستاذه بأنـــه المهدي المنتظر ، وكان ذلك عام ١٢٩٥هـــ/١٨٧٨م ، أي قبل ظهور المهدية بثلاث ســـنين ، فزجره ونهاه مراراً ، وعقد له مجلساً في الجزيرة أبا، حضره عدد من المشايخ ونظار القبائل ، وحاول محمد شريف أن يشاطره نصف أمواله ، فلم يرجع . وذكر نعوم شقير الذي روى هـــذا الـــرأي أن الشيخ محمد شريف ، الذي عاش إلى ما بعد سقوط دولة المهدية عام ١٨٩٨م ، أكد له شخصياً هذا السبب في العداء بينه وبين محمد أحمد ، بعد سقوط أم درمان عام ١٨٩٨م (٤١).

ويـــبدو لنا أن هذا التفسير الذي أورده نعوم شقير عن أسباب العداء بين محمد أحمد وشـــيخه محمد شريف ، يواجه نقداً يضعفه ، إذ أن الشيخ محمد شريف دُفع لهذا القول وهو في حالة العداء للمهدية (٤٢). وربما يكون قد دُفع إليه بإيعاز من الحكمدار عبد القادر باشا حلمي ، إذ نظم محمد شريف قصيدة طويلة في تكذيب المهدي (٤٣).

ويـــرى هولـــت أن الرواية الأخيرة التي رواها نعوم شقير ، بأن محمد شريف أكد له أســـباب عدائه للمهدية بعد سقوط أم درمان عام ١٨٩٨م ، بأنها ترجع إلى إسرار محمد أحمد لـــه بالمهدية ، يرى هولت أنها مجرد محاولة من الشيخ محمد شريف لتملق الغزاة من البريطانيين والمصـــريين ، لتصوير أنه أول من أدرك خطر المهدية بعد قيامها ، فضلاً عن أنه لم يثبت قيام المهديـــة في ذلك التاريخ المبكر . وإذا حدث مثل هذا الاجتماع المذكور والذي حضره نظار القبائل ، فلن يكون خافياً على الحكومة التركية (٤٤).

ولهذا فإن الراجح أن أسباب الخلاف بين محمد أحمد وأستاذه محمد شريف ، تتمثل في تـــزايد أتباع محمد أحمد ، وانتشار سمعته ، وعلو مكانته على مكانة أستاذه ، مما أوجد شعوراً بـــالغيرة ، والحســـد في نفس محمد شريف ، دفعه لمحاولة صرف الناس عن محمد أحمد ، فعين

---

(٤٠) حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، دار النشر التربوي ، شركة الطابع السوداني، الطبعة السابعة ، الخرطوم ، ١٩٨٨م ، ص ٥٨ .

(٤١) شقير (نعوم): تاريخ السودان ، المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .

(٤٢)محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، المرجع السابق ، ص ٣٠.

(٤٣) نفس المرجع ، ص ٣٠.

(٤٤) (44) Holt , R . M .The Mahadist State in the Sudan , ,op. cit . ; P.47 .

الشـــيخ رضوان ، أحد خلفائه ، نداً لمحمد أحمد في قوز العلوب قريباً من الجزيرة أبا ، وحث العـــربان عـــلى اتباعه . وقد أنكر محمد أحمد هذا التحامل والجفاء من أستاذه محمد شريف . وحـــدث نفور بينه وبين الشيخ رضوان ، وأتباعه ، حتى وصل حد الضرب . ولم يسلم محمد أحمـــد نفسه من الضرب ، فرفع الأمر بالشكوى إلى ناظر الكوة . وتمت تسوية الأمر بتدخل الشيخ محمد شريف للصلح بين محمد أحمد والشيخ رضوان ، وإخراج تلامذة الشيخ رضوان من السجن (٤٥).

وكان السبب المباشر لانفصام العلاقات بين الشيخ محمد شريف ومحمد أحمد ، حادثة خـــتان أبـــناء الشيخ محمد شريف ، وسماحه للرقص والطرب ، والغناء ، واختلاط الرجال بالنســـاء . وقـــد اعتـــبر محمـــد أحمـــد ذلـــك بدعة وفساداً ، وخروجاً على تعاليم الدين الإســـلامي(٤٦). وكـــان محمد أحمد لا ينفك ينتقد شيخه محمد شريف ، في السماح للنساء بتقـــبيل يده ، معتبراً ذلك مخالفاً للشرع الإسلامي . وقد أثار كل ذلك حفيظة الشيخ محمد شـــريف ، واعتبره تطاولاً من تلميذه محمد أحمد ، فعنّفه ، ووبخه ، وطرده من اتباع الطريقة الســـمانية .وعبـــثاً حـــاول محمد أحمد الاعتذار والغفران ، فقد رفض محمد شريف عذره ، وتذللـــه وبالغ في إساءته (٤٧).

لم يكن من السهل على محمد أحمد التخلي عن الطريقة السمانية ، فاتجه إلى شيخ آخر من شيوخ هذه الطريقة ، هو الشيخ القرشي ود الزين في طيبة ، وهو الذي أخذ الطريقة رأساً مـــن مؤسســـها الشيخ الطيب ، وكان على خلاف مع الشيخ محمد شريف . فرحب الشيخ القرشي بالشيخ محمد أحمد ، وجدد له العهد وأعاده إلى سلك الطريقة السمانية (٤٨).

حـــاول الشيخ محمد شريف ، إثناء محمد أحمد عن الالتحاق بمنافسه الشيخ القرشي ، عارضاً عليه الصفح عنه ، فرفض محمد أحمد في إباء وشمم . وارتفع شأن محمد أحمد نتيجة هذا الشجار ، وأصبح ذا شهرة بعيدة في جميع أنحاء الجزيرة (٤٩). كما أن الشيخ القرشي وجد في انضمام محمد أحمد إليه كسباً كبيراً ، فعرض عليه مصاهرته ، وزوجه بابنته النعمة ، وجعله

---

(٤٥) شقير (نعوم): تاريخ السودان ، المرجع السابق ، ص ٣٢٦.

(٤٦) سلاطين باشا:السيف والنار في السودان تعريب جريدة البلاغ،مكتبة الحرية،أم درمان ، ١٩٢٠م،ص ٤٠

(٤٧)شقير (نعوم): تاريخ السودان ، المرجع السابق ، ص ٤٦.

(٤٨) (48)Churchill, W., The River War op. , cit., P.26

(٤٩) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٤٦.

خليفة من بعده ، متخطياً ولده عبد الرحمن ، الذي كان صغيراً ولا يستطيع مواجهة منافسيه ، فأصبح محمد أحمد بذلك شيخاً للطريقة السمانية بعد وفاة الشيخ القرشي (٥٠).

(ب) إعلان الدعوة المهدية

١- المرحلة السرية :

كـــان محمد أحمد في هذه الفترة يقوم برحلات إلى كردفان وشمال السودان ، والنيل الأبيـــض ، يدعـــو الناس إلى اتباع الدين الحق ، والعمل بتعاليم الإسلام . وهنا تظهر بوادر دعوته ، وهي تبدو ذات أهداف دينية محضة (٥١).

وكـــان مـــن نتائج هذه الرحلات التقاؤه بكبار السودانيين في الأبيض ، حيث لمس شـــعورهم نحو الحكومة ، وضجرهم من الحيف والظلم اللذين لحقا بهم ، ووقف على ما كان بـــين زعماء القبائل ، وكبار الشخصيات ، من أمثال الشيخ أحمد بك دفع الله ، وإلياس باشا أمبرير من منافسه (٥٢).

هـــذا وتشـــير الوثائق في هذه الفترة ، إلى أن محمد أحمد كتب عدة رسائل إلى بعض أحـــبابه ، يدعوهم للاستعداد للقيام بأمر فيه قوام الدين . منها خطاب من محمد أحمد بن عبد الله (المهـــدي) إلى إبراهيم محمود ، وآخرين بتاريخ ٤ ذي القعدة سنة ١٢٩٧هـــ/٨ أكتوبر ١٨٨٠م ، يدعوهـــم إلى نصرة الدين ، والحضور إليه سريعاً (٥٣). ومن هذه الرسائل أيضاً رســـالة مـــن محمد أحمد بن عبد الله (المهدي)، إلى عبد الفتاح بن عبد الله ، بتاريخ ٢٧ ذي القعدة ١٢٩٧هـــ/٣١ أكتوبر ١٨٨٠م جاء فيها : " حبيبي هيا إلى إقامة الدين . فإننا كاتبنا جميع المحبين والمتبعين لأوامر الدين ، وأنت من آكد المهتمين بأمر الديانة "(٥٤).

---

(٥٠) محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، المرجع السابق ، ص ٣٢.

(٥١) محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، المرجع السابق ، ص ٤٦.

(٥٢) (52) Holt , R . M .The Mahadist State in the Sudan, ,op. cit . , P.49 .

(٥٣) مهدية ، ٢٦/ إنذارات ، أ، من محمد أحمد بن عبد الله (المهدي) إلى إبراهيم محمود وأخيه محمد وآخرين، بتاريخ ٤ ذي القعدة ١٢٩٧هـــ/٨ أكتوبر ١٨٨٠م ، دار الوثائق القومية – الخرطوم .

(٥٤) مهدية ، ٢٥/٣/٩ ، من محمد أحمد بن عبد الله (المهدي) إلى عبد الفتاح بن عبد الله ، بتاريخ ٢٧ ذي القعدة ١٢٩٧هـــ/٣١ أكتوبر ١٨٨٠م. دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

ونلاحــظ هنا أن محمد أحمد (المهدي) لم يفصح عن مهديته بعد ، وإنما أشار إلى أمر به قــوام الدين ، وطلب من خلصائه الرحيل والهجرة إليه ، والاجتماع به . كما طلب كتمان الأمــر حتى يحين موعد ظهوره . ولم يقدم حتى على الإسرار بمهديته لخلصائه ، ولكنه نوه في رسائله في هذه الفترة إلى ظهور بعض الأنوار والبشائر والأسرار والهواتف ، مما يعده بشارات عظــيمة . وممــا يؤكــد ذلك خطابه ، إلى صديقه محمد الطيب البصير بتاريخ ١ذي القعدة ١٢٩٧هــــ/٥ أكــتوبر ١٨٨٠م ، والذي يقول فيه عن أمر دعوته : " وذلك مما ورد في حقــائق غيبية وأوامر إلهية وأوامر نبوية ، أوجبت لنا مهمات صرنا مشغولين بها "(٥٥). ثم يمضي فيقول : " ثم تواترت الأنوار والبشائر والأسرار ، والأوامر النبوية ، والهواتف الإلهية ، بإشــارات وبشــارات عظيمة . وقد كتبت إلى حضرتكم المكرمة ، على المبادئ قبل التأكيد الكــلي ، والأمــر الأعلى .. وهذا مما يكتم وجوباً ، ولا يطلع عليه إلا أنت ، حتى يظهر الله الأمر "(٥٦).

وفي هذه المرحلة أيضاً ، أمر إخوته ألا يتعاقدوا لصنع مراكب جديدة ، بل عليهم أن ينهوا معاملاتهم التي في أيديهم . ويتضح من ذلك أنه كان يخطط ، وينوي الرحيل والهجرة إلى مكان يكون فيه الجهر بالدعوة وإحياء الدين (٥٧).

ويــبدو أن تردي أحوال البلاد بسبب تفاقم مشكلات الإدارة التركية في السودان ، دفع الكثيرين إلى توقع ظهور المهدي . وهيأ لبدء المرحلة السرية للدعوة المهدية . ولعل قصة التقاء عبد الله التعايشي بمحمد أحمد (المهدي) ، وما أظهره عبد الله من تذلل وخضوع وتسليم لمحمد أحمد ، بأنه المهدي المنتظر ، تشير إلى هذا الشعور المتنامي بقرب ظهور المهدية (٥٨).

ولقــد استفاد محمد أحمدمن هذا الواقع . الذي صادف ما يجيش بنفسه من طموحات لإظهار دعوته وإعلان مهديته ،وقابل هذه البشائر بالرضا والقبول.واستطاع عبد الله التعايشي

---

(٥٥) مهدية ، ٩/٤/٣٥-١٠٣/٣٧ صادق ، من محمد أحمد بن عبد الله (المهدي) إلى محمد الطيب البصير ، ١ ذي القعدة ١٢٩٧هـــ/٥ أكتوبر ١٨٨٠م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٥٦) مهدية ، ٩/٤/٣٥-١٠٣/٣٧ صادق ، من محمد أحمد بن عبد الله (المهدي) إلى محمد الطيب البصير ، ١ ذي القعدة ١٢٩٧هـــ/٥ أكتوبر ١٨٨٠م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم.

(٥٧) مكي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، المرجع السابق ، ص ٥٦.

(٥٨)سلاطين باشا : السيف والنار المرجع السابق ، ص ٤٤.

الذي بشره بالمهدية ، أن يحرز بسرعة مكانة مرموقة في قلبه (٥٩).ويشير إسماعيل عبد القادر الكردفاني إلى أن المهدي أخبر بأن ظهوره بالمهدية ، قبل بلوغه الأربعين ، كان كرامة للخليفة عبد الله (٦٠).

وفي ربيع الثاني عام ١٢٩٨هـ/ مارس ١٨٨١م أسر محمد أحمد إلى بعض خلصائه وتلامذته بأنه المهدي المنتظر . وكان عبد الله التعايشي من أول من أسر لهم بمهديته ، فصدقه على الفور وآمن بدعوته (٦١). وهذا يمثل بداية المرحلة السرية للحركة المهدية .

ومن ثم ، رأى المهدي أن يقوم برحلة ثانية إلى غرب السودان ، للتبشير بالدعوة المهدية بين مريديه وخاصته ، قبل إعلانها رسمياً . فذهب إلى الأبيض في جمع من مريديه . وهناك أسر بالمهدية إلى بعض مشايخها وأعيانها ، وترك الأمر سراً ، لأن وقت ظهوره لم يحن بعد . وطاف في إقليم كردفان بمنطقة جبال النوبة . ولعله كان يختبر تلك المنطقة لتكون هجرته إليها (٦٢).

وكانت هذه الرحلة ذات أهمية كبيرة في مسيرة الدعوة المهدية ، إذ أن المهدي كان يشير في كثير من رسائله ، إلى العهود والوعود التي قطعها في هذه الرحلة مع الزعماء ، أمثال إلياس باشا امبرير ، ومحمد بن العريق ، وأبناء كنونه ، والمنا إسماعيل ، والشيخ البرير ، وعساكر أبو كلام ، والملك آدم أم دبالو ، وأحمد البدوي . ومن هذه الرسائل رسالته إلى أحمد البدوي ، والفقيه أحمد زروق ، وآخرين . يطلب منهم الهجرة إليه ويذكرهم بعهودهم السابقة (٦٣). ورسالته إلى الشيخ البرير ود الحسين ، بتاريخ ١٦ شوال ١٢٩٩هـ/٣١ أغسطس ١٨٨٢م ، يتساءل فيها عن سبب تأخير الهجرة إليه بالرغم من العهود بينهما(٦٤). ومن ذلك أيضاً رسالته إلى عساكر أبو كلام بتاريخ ٨ شعبان ١٢٩٩هـ / يونيو ١٨٨٢م .

---

(٥٩) (59) Holt , R . M .The Mahadist State in the Sudan, ,op. cit . , P.51

(٦٠) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، المرجع السابق ، ص ٩٤.

(٦١) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، الخرطوم ، ١٩٦٤م ، ص١٠٧ .

(٦٢) (62) Shibeika , M., British Policy in the Sudan , op.cit , p.23.

(٦٣) مهدية ، ٦٩ / فيوضات /٤ ، بتاريخ ٨ ربيع الأول ١٢٩٩هـ/٢٨ يناير ١٨٨٢م ، دار الوثائق بالخرطوم.

(٦٤) متنوعات ١١١٧/٦٢/١ ، ١٠٩٦ بتاريخ قبل ١٦ شوال ١٢٩٩هـ / قبل ٣١ أغسطس ١٨٨٢ المرجع السابق ، ص ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

والـــتي يوبخه فيها على تخلفه ، ويطلب منه الهجرة إليه ، ويذكره بعهوده قائلاً : " إنك سابقاً عاهدتنا في أول الأمر "(٦٥).

٢- المرحلة الجهرية :

هـــذا وفي غرة شعبان عام ١٢٩٨هـــ/ ٣٠ يونيو ١٨٨١م ، وبعد عودته من رحلته إلى كـــردفان ، بـــدأ محمد أحمد المهدي ، يكتب إلى أصحابه ، وخلصائه من العلماء والفقهاء والأعيـــان ، ومشايخ الطرق الصوفية ، ومشايخ القبائل ، مصرحاً لهم بدعوته ، وإنه المهدي المنتظر . ويطلب منهم الهجرة والانضمام إليه ، ومبايعته على الجهاد في سبيل الله ، ومناصرته لحرب الكفرة . وكان ذلك بداية الدعوة الجهرية (٦٦).

ومن الوثائق الهامة في ذلك ، خطاب المهدي إلى صديقه محمد الطيب البصير بتاريخ ١ شعبان عام ١٢٩٨هـــ/ ٣٠ يونيو ١٨٨١م ، وهو نفس تاريخ بداية الدعوة الجهرية ، يشير فيـــه إلى وصـــف المشهد الذي تم فيه تنصيبه مهدياً ، في حضرة الرسول ﷺ ، بحضور الفقيه عيســـى (٦٧)، والشـــيخ عبد الله (٦٨)، والشيخ الطيب شيخ الطريقة السمانية ، والشيخ البصـــير ، والشـــيخ القرشي ، والشيخ عبد القادر الجيلاني . يقول فيه : " ومن البشائر التي حصـــلت لنا بعدك ، أنه حصلت لنا حضرة نبوية حاضر عليها الفقيه عيسى ، فيأتي النبي ﷺ ويجـــلس ويقول للأخ المذكور : شيخك هو المهدي . فيقول : إني مؤمن بذلك . فيقول ﷺ : من لم يصدق بمهديته كفر بالله ورسوله ، قالها ثلاث مرات "(٦٩).

وهـــناك منشور آخر عام (من محمد المهدي إلى أحبابه في الله ، المؤمنين بالله وكتابه) يحمل نفس تاريخ بداية الدعوة الجهرية ١ شعبان ١٢٩٨هـــ /٣٠ يونيو ١٨٨١م . جاء فيه

---

(٦٥) مهدية ، ٧٠/ فيوضات ٤ ، بتاريخ ٨ شعبان عام ١٢٩٩هـــ/يونيو ١٨٨٢م ، دار الوثائق بالخرطوم.

(٦٦) حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٥٣-٥٤.

(٦٧) يبدو من السياق أن الفقيه عيسى من أتباع المهدي الكبار . انظر : (الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، منشورات المهدية)، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٩م ص ١٤.

(٦٨) من المرجح أنه الخليفة عبد الله التعايشي . (الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ١٤).

(٦٩) مهدية ٩/٤/٣٥-٣٧/١٠١ صادق ،بتاريخ ١ شعبان ١٢٩٨هـــ/٣٠يونيو ١٨٨١م ، دار الوثائق القومية — الخرطوم .

قولـــه : " وقد أمرني سيد الوجود ﷺ بمكاتبة المسلمين ودعوهم إلى الهجرة معنا إلى محل يكون فيه قوام الدين وإصلاح أمر الدارين ، ومعاذ الله أن أكذب على رسول الله ﷺ" (٧٠).

ثم يمضـــي فيقول : " وإني لا أعلم بهذا الأمر حتى هجم علي من الله ورسوله من غير استحقاق لي بذلك فأمره مطاع ، وهو يفعل ما يشاء ويختار وحكم نبيه ﷺ كحكمه "(٧١).

ونلاحـــظ أن دعـــوة المهدي ارتبطت بأواخر القرن الثالث عشر الهجري ، مما جعلها قريبة التصديق ، حيث أنها مرتبطة بالفكرة الشائعة عند المسلمين بظهور منقذ ، عند نهاية كل قـــرن ، يجدد لهذه الأمة دينها . فلابد أن كثيراً من المسلمين كانوا يتوقون إلى ظهور المنقذ أو المهدي المنتظر (٧٢).

وقد استجاب كثير ممن وصلتهم خطابات المهدي للدعوة ، وعارض بعضهم ، إلا أنه لم تصـــلنا ردود خطابـــات مؤيدة أو معارضة . وربما كان ذلك ناتجاً من إحراق بعض الوثائق والخطابـــات عندما هاجم محمد سعيد ، والي الأبيض ، الجزيرة أبا بعد خروج المهدي منها إلى قدير ، حيث أمر محمد سعيد بإحراقها (٧٣).

وقـــد وقعت خطابات المهدي بإعلان مهديته في يد الحكومة ولم يعد الأمر سراً ، وهنا تـــبدأ مرحلة جديدة تتمثل في المواجهة بين المهدي والحكومة التركية ، وتطورت حتى شملت معظـــم الشـــعب الســـوداني ، وأدت في النهاية إلى القضاء على الحكم التركي المصري في السودان .وقيام الدولة المهدية .

(جـ) أسباب الثورة المهدية

في تقديري أن أية ثورة كأية حرب . فكما أن لكل حرب أسباباً غير مباشرة ، وسبباً مباشـــراً . كذلـــك الثورة لها أسباب سابقة تكمن في المجتمع الذي تنشب فيه ، ثم تأتي أخيراً الشـــرارة الـــتي تشعل الفتيل . وفي الثورة المهدية تضافرت عوامل متعددة أدت إلى قيامها ، يمكـــن إجمالهـــا في الأسباب الدينية ، والسياسة ، والاقتصادية ، والاجتماعية . كما أن هناك عوامل ساعدت على نجاح الثورة المهدية .

---

(٧٠) مهدية ١٦/٣/٨ ، ٤ منشورات ، بتاريخ ١ شعبان ١٢٩٨هـ/٣٠ يونيو ١٨٨١م ، دار الوثائق القومية، الخرطوم .

(٧١) نفس المنشور ، مهدية ١٦/٣/٨ ، ٤ منشورات . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٧٢) حسن احمد إبراهيم (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٥١.

(٧٣) شقير (نعوم): تاريخ السودان ، المرجع السابق ، ص ٣٤٠ .

أولاً : الأسباب الدينية :

رغـــم اختلاف بعض المؤرخين في تفسير وتحديد قوة أسباب الثورة المهدية ، فالواضح أن الـثورة المهدية ثورة دينية في المقام الأول ، هدفها تحرير العقيدة الإسلامية مما لحق بها من شـــوائب ، وإعادة مجد الإسلام القديم (٧٤). وقائد الثورة كان رجلاً دينياً نذر نفسه لنصرة الديـــن ، وإقامـــة دولة إسلامية ، دستورها القرآن ، وقانونها الشرع الإسلامي ، وتقوم على نظام الخلافة الإسلامية (٧٥).ومما يؤيد ما ذهبنا إليه،ما أشار إليه آلان مورهيد(Allan, M) بـــأن ثـــورة المهدي في السودان ، " كانت حركة دينية أكثر منها سياسية ، وكانت انفجاراً منبعثاً من داخل السودان ذاته "(٧٦).

ولقـــد حـــاول نعـــوم شقير تفسير ، وتحديد أسباب الثورة المهدية ، مستبعداً العامل الديني، حيث حصر أسباب الثورة المهدية في العنف الذي صحب الحكم التركي منذ البداية ، بسبب الضرائب وتجارة الرقيق ، بالإضافة إلى المساوئ السياسية والإدارية (٧٧).

ويـــرى هولـــت أن هذه العوامل التي أشار إليها شقير ، كانت عوامل سخط وتبرم ، وســـوء إدارة ، ظـــلت ملازمـــة للحكم التركي منذ قيامه ، ولم تكن حاسمة في ظهور الثورة المهديـــة، عدا العامل الخاص بمنع تجارة الرقيق وقمعها بالقوة ، فهو العامل الذي شكل سبباً واضحاً ، ومباشراً لقيام الثورة المهدية (٧٨).

ومـــع تقديـــري لأهمية هذه الأسباب التي حددها كل من شقير وهولت ، ودورها في قيام الثورة المهدية ، إلا أنهما في واقع الأمر ، لم ينجحا في تحديد السبب الرئيس في قيام الثورة المهدية . ألا وهو السبب الديني .

ترتبط الأسباب الدينية للثورة المهدية في السودان ارتباطاً وثيقاً بفكرة المهدية وظهورها في التاريخ الإسلامي . فقد كانت هذه الفكرة قديمة ومألوفة وخاصة لدى طوائف الشيعة (٧٩).

---

(٧٤) حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٥٢.

(٧٥) مهدية ٣٨/٢٠/٣/٨ إنذارات ب ، من المهدي إلى عمد وتجار وفقراء الأبيض ، ١٦ شوال سنة ١٢٩٩ هـــ/٣١ أغسطس ١٨٨٢م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٧٦) مورهيد (آلان) : النيل الأبيض ، ترجمة محمد بدران خليل ، المرجع السابق ، ص ٢١٣.

(٧٧)شقير (نعوم): تاريخ السودان ، المرجع السابق ،ص ٣١٥– ٣١٧.

(٧٨) (78) Holt , R . M .The Mahadist State in the Sudan, ,op. cit . , P.33 .

(٧٩) بشير كوكو (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ، المرجع السابق ، ص ١٣٦.

بيد أن الأدلة التي تسند فكرة المهدية ، من القرآن والسنة ضعيفة ، إذ أن لفظ المهدي لم يرد في القرآن الكريم ، ولا في صحيحي البخاري ومسلم ، وهما أصح كتب الحديث . وإنما ورد في بعض كتب الحديث الأخرى كسنن أبي داود ، وابن ماجه ، والترمذي ، والنسائي(٨٠). ولهذا شكك كثيرون في صحة هذه الأحاديث ، ومنهم ابن خلدون الذي نسب الفكرة للفاطميين (٨١).

وكانت فكرة المهدية مظهراً من مظاهر الأمل في تحقيق العدل ، وملاذاً للمظلومين والمضطهدين ، والمغلوبين على أمرهم ، ولهذا فإن الشيعة كانوا أسبق الفرق الإسلامية إلى التعلق بهذه الفكرة ، لما قاسوه من ألوان الاضطهاد (٨٢).

أما أهل السنة فإنهم يرون أن المهدي المنتظر ، مصلح ديني يعيد للإسلام مجده ونقاءه ، وهم ، رغم تأثرهم بأفكار الشيعة ، إلا أنهم يأخذون الفكرة أخذاً معتدلاً . نابعاً من الإمامة أو الخلافة (٨٣).

وقد اختلفت الفرق في مكان ظهور المهدي . فقال بعضهم بأنه يظهر في مكة ، وقال بعضهم بأنه يظهر في المشرق دون تحديد ، وقال الكندي ، وهو فيلسوف من المغرب ، أن المهدي يفتح الأندلس . وهذا يشير إلى حلم مغربي منذ سقوط الأندلس في أيدي المسيحيين(٨٤). ومنهم من يرى أنه يظهر في النيل ومكة (٨٥). ويبدو أن محمد أحمد المهدي كان يأخذ بهذه الفكرة الأخيرة (٨٦). حيث تتم البيعة الكبرى ، أو بيعة الرضوان والفوز ، بمبايعة شريف مكة ومن معه ، للمهدي عند بلوغه البيت الحرام (٨٧).

---

(٨٠)حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ٥٠.

(٨١) ابن خلدون (عبد الرحمن) : مقدمة بن خلدون ، طبعة القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٣٢٢.

(٨٢) محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، المرجع السابق ، ص ١١.

(٨٣) عبد الودود شلبي (الدكتور) : الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ، المرجع السابق ، ص ١٤٨.

(٨٤) محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، المرجع السابق ، ص ١٦.

(٨٥) مكي شبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل مصر والسودان في القرن التاسع عشر ، الطبعة الثانية، دار الثقافة بيروت ، ١٩٨٠م ، ص ٦٤٥.

(٨٦) مهدية ٩/٤/٣٥-٣٧ ، ١٠١ صادق من من المهدي إلى الطيب البصير ، بتاريخ غرة شعبان ١٢٩٨هـ/ ٣٠ يونيو ١٨٨١م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٨٧) مهدية ٨/٤/٢/ح/١٠/١/١ من المهدي إلى كافة الأحباب في الله ، ١ شعبان ١٢٩٨هـ/٣٠ يونيو ١٨٨١م دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

وهـــذا لا يـــنفي أن ظهور عبد الله التعايشي ، وبشارته وتأييده ، عمّق من نظرة محمد أحمد لمهديته (١٠١). وربما شجعه للإسراع بإعلان مهديته التي كان ينوي إعلانها عندما يبلغ سن الأربعين (١٠٢).

والمهدي في ثورته على الأتراك والإنجليز ينطلق من منطلق ديني ، حيث ينعت الأتراك بالكفـــر ، ويعتبر خلافتهم باطلة ، ويجعل من نفسه ولياً للأمر . وبهذا يسوغ لنفسه وأتباعه الخروج على الدولة العثمانية . وهذا المفهوم في الثورة ضد الحكم التركي ، كان جديداً على المجتمع السوداني ، وهو بذلك يرفع شعاراً لم يرد من قبل بين دوافع السودانيين للتذمر والثورة عـــلى نظـــام الحكم القائم . وهو يقيم هذا الشعار ، على أساس ديني بحت يقوم على فكرة بطـــلان الخلافـــة بعد خلافة الخلفاء الراشدين ، إلى أن ظهرت الخلافة الصحيحة من جديد ، ممثلة في الخلافة الكبرى للمهدية (١٠٣).

ونلاحظ هنا أن السودانيين منذ عهد الفتح التركي المصري ، يرون أن الدولة العثمانية هي دولة الخلافة ، وهي تمثل وحدة المسلمين ، وأن الخضوع لها واجب ديني ، يحتمه ارتباطهم بهـــا مـــنذ أن تـــنازل سلطان سنار لخليفة المسلمين في تركيا . وهذه النزعة الدينية هي التي أخضـــعت الـــبلاد لحكم محمد علي ، وأقنعت الزبير باشا بتسليم فتوحاته في غرب السودان للحكم التركي (١٠٤).

ولم تغفل الحكومة التركية المصرية في السودان ، عن الاستفادة من هذا الجانب الديني في محاولاتهـــا لكسب الولاء والطاعة من أهل السودان ، فقد فطن أبو السعود إلى ذلك عندما طلب من المهدي طاعة ولي الأمر ، وأن يعمل بمقتضى قوله تعالى : {يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعـــوا الرسول وأولي الأمر منكم}(١٠٥). غير أن المهدي رد عليه بأنه هو ولي الأمر الذي تجب طاعته على جميع الأمة المحمدية .

---

(١٠١) (101) Holt , R . M .The Mahadist State in the Sudan, ,op. cit . , P.59

(١٠٢) عبد الودود شلبي (الدكتور) : الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ،المرجع السابق ، ص ١٥٧.

(١٠٣) إبراهيم شحاته (الدكتور) : مصر والسودان ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، مصر ، ١٩٧١م، ص ١٤٨.

(١٠٤)ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ١١٢.

(١٠٥) سورة النساء ، الآية رقم (٥٩) .

وبذلك كان المهدي أول مفكر ديني في السودان يخلع طاعة الحكومة التركية المصرية ، من منظور ديني إسلامي . ويقرر في منشوراته أن الطاعة لولي الأمر واجبة . ويجب عليهم أن يطيعوه لأنه هو إمام القرن (١٠٦).

وهكذا يمضي المهدي في ثورته ضد الحكم التركي من منظور إسلامي ، ولم يكن هدفه قاصـــراً عـــلى إقامة دولة إسلامية في السودان وحده ، وإنما يهدف إلى أن تشمل دولته جميع الأقطار الإسلامية (١٠٧).

هذا ، وإن أهم ما يميز فكر المهدي أنه كان سلفياً يدعو للعودة إلى أصل الدين الإسلامي ، المتمثل في الكتاب والسنة وحدهما . فالمهدية بذلك امتداد للصدر الإسلامي الأول(١٠٨).

وثانياً : الأسباب السياسية :

لم يـــنعم الحكـــم التركي المصري في السودان بالهدوء والاستقرار ، منذ بداية سيطرة محمـــد علي باشا على السودان ، وحتى قيام الثورة المهدية . وذلك لأن هذا الحكم كان منذ الـــبداية ، يحمـــل في طياتـــه طابع الهيمنة السياسية ، والسيطرة والاستغلال لموارد السودان وخيراتـــه (١٠٩). وكان محمد علي باشا يهدف بصورة أساسية لجلب الرقيق " مهما كانت الصـــورة التي يجلبون بها من أوطانهم "(١١٠)، والبحث عن معدن الذهب (١١١). ومعدن الحديد (١١٢) وغيرهما للاستفادة منهما في مشاريعه .

ورغم أن الفتح التركي المصري للسودان أعلن باسم الدولة العثمانية ، لإعطائه نوعاً من الشرعية المرتبطة بوحدة المسلمين ، إلا أن مفهوم الظلم والسيطرة والاستغلال ، والهيمنة السياســية ، قد استقر في نفوس السودانيين منذ البداية وهم يقاومون هذا الحكم . ومما يدل

---

(١٠٦)مهدية ١٦/٣/٨ من المهدي إلى أحبابه في الله بعد٢٤ شوال ١٢٩٩هـ/بعد ١٠ سبتمبر ١٨٨٢م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم.

(١٠٧) مهدية ، ٤/٨/ح/١١ ، من المهدي إلى الملك يوحنا ، ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م ، دار الوثائق بالخرطوم .

(١٠٨) الصادق المهدي : يسألونك عن المهدية ، بيروت ، ١٩٧٥م ، ص ١٦٩.

(١٠٩)حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : محمد علي باشا في السودان ، الطبعة الأولى ، مطبعة جامعة الخرطوم ، ١٩٩١م ، ص ٣٤.

(١١٠) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر ١٠ ، معية تركي ، المكاتبة ١٧ ، ٢٧ محرم ١٢٣٧هـ/١٨٢١م.

(١١١)دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر ١٠ ،معية تركي،وثيقة ٤٨ ، ١٥ ربيع الأول ١٢٣٧هـ/١٨٢١م.

(١١٢)دار الوثائق القومية ؛ القاهرة ، دفتر ١٠ ، معية تركي ، المكاتبة ٢٤ ، ١٢٣٧هـ/١٨٢١م.

عـــلى ذلـــك خطاب المقدوم مسلم للدفتردار قائد ، حملة كردفان والذي يقول فيه : " أنتم غاصبين وظالمين وسايلين (صايلين)"(١١٣).

وكان العنف هو الطابع المميز للحكم التركي في السودان منذ بداية الفتح . وقد تمثل هذا العنف في المعاملة القاسية للزعماء والأهلين والخارجين على الحكم . ولم يكن هذا العنف قاصـــراً على الخارجين على الحكم التركي وحدهم ، وإنما شمل الجميع في كثير من الأحيان وخاصـــة حملات الدفتردار ، الانتقامية التي كانت صحيفة دموية لم يشهد السودان مثلها في تاريخه (١١٤). فقد أُخذ البرئ بذنب المجرم (١١٥)!

وفي الواقع كان فشل الحكم التركي في كسب ود قبيلة الجعليين ، وهي من أكبر قبائل السودان ، ومواجهتها بالعداوة والقسوة ، كان من أكبر أخطاء الحكم التركي المصري. وكان وراء كـــثير مـــن المشكلات التي واجهت الحكم التركي المصري في السودان ، وتسبب في مسارعة هذه القبيلة لتأييد المهدي والانضمام إليه عند قيام الثورة المهدية (١١٦).

ومـــا من ريب أن كثيراً من السودانيين الذين انضموا للثورة المهدية ، كانت تدفعهم أسباب مماثلة مرتبطة بالعنف والقسوة التي كان يمارسها الحكم التركي المصري في السودان . فقد افتقد الحكم التركي المصري الحكمة والصواب ، وكانت أهدافه تركز على تحقيق المطامع أكثر من ترقية الشعب (١١٧).

وكـــانت مســـاوئ العنصر الإداري للحكم التركي المصري في السودان ، من أبرز العوامل التي أدت إلى التذمر والثورة ، فقد كان كثير من الحكام والإداريين يكرهون العمل في الســـودان ويعتبرونه عقاباً . مما أدى إلى وجود موظفين غاية في السوء . كانوا سبباً في فشل كـــثير مـــن نوايا الإصلاح والعدالة ، التي كان يظهرها حكام مصر ، أو حكمدار الخرطوم . وذلـــك لعدم تعاون هؤلاء الموظفين ، وعدم التزامهم بتنفيذ ما يطلب إليهم (١١٨). وكان

(١١٣) محفظة ١٩ ، وثيقة ١٦ ، ١٢٣٧هـ/١٨٢١م ، دار الوثائق القومية ، القاهرة ،
- نقلا عن د. مكي شبيكة : السودان عبر القرون ، ص ١١١.

(١١٤) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ١٢٤.

(١١٥) بشير كوكو حميدة (الدكتور) ، صفحات من التركية والمهدية ، المرجع السابق ،ص ١٢٨.

(١١٦)شقير (نعوم): تاريخ السودان ، المرجع السابق ، ص ٣١٥.

(١١٧) (117)Churchill, W., The River War op.cit , P.13 .

(١١٨) (118)Thobald , A.B., The Mahadiya ,op. cit., p.26.

كـــثير من هؤلاء الموظفين والإداريين ، على جانب كبير من الجهل وعدم الكفاءة ، والإهمال والتقصير (١١٩).

وقد اتسمت ممارسات كثير من هؤلاء الموظفين والإداريين بمحاولات تحقيق أطماعهم بشـــتى الطـــرق من العنف ، والمفاسد ، والرشا ، مستغلين بعدهم عن الحكومة في مصر دون رقيـــب عـــليهم أو حسيب (١٢٠). وقد انتهز بعض وكلاء حكومة محمد علي باشا الذين أرســـلوا لشـــراء منتجات السودان ، الفرصة للشراء عن طريق الفساد . مما اضطر الحكومة للقبض عليهم وإجبارهم على دفع ما اختلسوه من أموال ، أو إرسالهم إلى مصر (١٢١).

ويصور المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي هذا الواقع المؤلم ، المرتبط بمظالم الحكام في العهد التركي المصري في السودان ، وما عاناه الأهلون من عسف وجور ، بقوله : " يلزمنا أن نعـــترف بأن حكام السودان قبل الثورة المهدية ، وحين ظهورها ، كانوا على جانب كبير من الظلم والجور ، لقد كانوا خليطاً من الترك والشراكسة أو المصريين . وكانوا كلهم سواء في إرهـــاق الأهلين . هذه حقيقة قد نشعر بالمرارة إذ نُقرها ، ولكنها الحقيقة الواقعة التي لا يجوز أن نتجاهـــلها "(١٢٢)! وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن سوء الإداريين والحكام ، ومظالمهم ، كان من أهم العوامل التي أدت إلى كراهية الحكم المصري في السودان ، وقيام الثورة المهدية .

ويحاول محمد فؤاد شكري أن يدافع عن مساوئ الحكم والإدارة المصرية في السودان، فينفي أن تكون تلك المساوئ من أسباب الثورة المهدية . ويذهب إلى أن أسباب الثورة المهدية تنحصر في سببين هما : مكافحة الرق وتجارة الرقيق بالقوة والعنف ، وضعف الحكومة المركزية في القاهرة (١٢٣).

وفي تقديـــري أن هذا الرأي الذي حاول محمد فؤاد شكري أن يدافع به عن مساوئ الحكـــم والإدارة المصـــرية في السودان ، جانبه الصواب والتوفيق . فهو يهدف إلى الدفاع ،

---

(١١٩) Hill ,R.,Egypt in the Sudan , Oxford University press , London , New York , Toranto ,London 1959, p.58 .

(١٢٠) الرافعي (عبد الرحمن) : مصر والسودان منذ أوائل عهد الاحتلال ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، مصر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، ص ٩٨.

(١٢١) دفتر ٧٥٨ ، ديوان خديو ، ترجمة القرار ٤٦ بتاريخ ٦ جمادى الأولى ١٢٤٥هـ/ دار الوثائق القومية ، القاهرة.

(١٢٢) الرافعي (عبد الرحمن) : مصر والسودان منذ أوائل عهد الاحتلال ، المرجع السابق ، ص ٩٨.

(١٢٣) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص ٢٤٦.

وتبرير تلك المساوئ ، أكثر مما يهدف لإقرار الحقيقة التاريخية ، وهو يبرز بعض الأسباب ، ولكنه يهمل الأسباب الحقيقة لقيام الثورة المهدية (١٢٤).

حقاً إن ضعف الحكومة المركزية في القاهرة ، والذي برز بصورة واضحة في عهد الخديو توفيق ، نتيجة خضوعه لسلطات الاحتلال البريطاني في مصر ، يلقي بظلاله على أوضاع الحكم المحلي في السودان . ولكنه ليس وحده كافياً لتفسير كثير من الممارسات ، والأخطاء ، والمساوئ التي ارتبطت بالحكم والإدارة المصرية في السودان ، منذ بداية ذلك الحكم في عهد محمد علي وحتى قيام الثورة المهدية (١٨٢١-١٨٨١م) . إذ أن مساوئ الحكام المحليين ، ظلت ملازمة للحكم التركي في السودان ، حتى إبان العهود التي عرفت فيها السلطة المركزية بالقوة كعهد محمد علي وعهد الخديو إسماعيل (١٢٥). وكانت تلك المساوئ على امتداد الحكم التركي المصري في السودان ، سبباً من الأسباب الجوهرية لقيام الثورة المهدية .

ومن العوامل التي ساعدت على تفاقم مشكلات الحكم والإدارة في السودان ، وأدت إلى كراهية السودانيين للحكم التركي المصري ، و هيأهم للثورة المهدية ، التدخل الأجنبي في مصر والسودان . يشير إلى ذلك الدكتور رأفت غنيمي الشيخ بقوله : " نجد التدخل الأجنبي دافعاً أساسياً لثورة محمد أحمد . ومن مظاهر التدخل الأجنبي تدفق الأجانب ، من مغامرين ، ومبشرين ، وتجار ، وغيرهم ، إلى السودان منذ عهد محمد سعيد "(١٢٦).

ولقد كان التدخل الأجنبي وراء كثير من المشكلات ، في كل من مصر والسودان . فقد ترتب عليه ضعف منصب الخديوية ، وإملاء كثير من القرارات التي أدت إلى التذمر والثورة في السودان (١٢٧).

ولم يتورع حكام مصر ، من استخدام حكام أجانب من الأوربيين المسيحيين ، في حكم السودان . فقد أقدم محمد سعيد باشا على تعين أول حاكم أوربي مسيحي مديراً لمديرية

---

(١٢٤) انظر الأسباب الدينية من هذا الفصل ص٩٣.

(١٢٥) حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٧٠.

(١٢٦) رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور) : مصر والسودان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص ١٤٣.

(١٢٧)حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٥٢ و٥٣.

الخـــرطوم ، وهو أراكيل Arakil باشا (١٢٨). وقد احتج عليه السودانيون ، وكان تعيينه مديراً ، من أبرز أخطاء محمد سعيد باشا (١٢٩).

وقـــد طفـــح الكيل بصورة أكبر في عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩م) ، إذ استخدم الأوربيين وأطلق يدهم في الإدارة ، فقد استعان بصمويل بيكر Bakerعام ١٨٦٩م لمهمـــة مطـــاردة تجار الرقيق في جنوب السودان ، كما استعان بغوردون Gordonالمسيحي الـــبريطاني ليكـــون حاكماً على السودان (١٨٧٧-١٨٧٩م)، بسلطات مطلقة ، استجابة لرغبة قنصل بريطانيا في مصر (١٣٠).

وكـــان استخدام هؤلاء الأوربيين ، وما ارتكبوه من أخطاء في السودان ، من أقوى دوافع الـــثورة المهديـــة ، فقد ارتبط بالناحية الدينية ، وجسد مخالفات الحكومة التركية للشرع الإسلامي أمـــام الناس ، ولم يراع مشاعرهم ومعتقداهم . فلا غرو فقد كان ذلك الإجراء أعلى صرخة دوى بها صوت المهدي ، في مواجهة الحكم التركي المصري في السودان(١٣١)!

وممـــا يؤيد ذلك تلك الرسالة التي كتبها محمد المهدي إلى والي مصر (الخديو توفيق) بتاريخ ٣ رمضان ١٣٠٢هـــ/١٧ يونيو ١٨٨٥م ، يوبخه فيها لاتخاذه الكفرة أولياء ، قائلاً : " وما كان يحسن منك أن تتخذ الكافرين أولياء من دون الله ، وتستعين بهم على سفك دماء أمـــة محمد ﷺ "(١٣٢). وأيضاً رسالة المهدي إلى علماء مصر بتاريخ ٣ رمضان ١٣٠٢هـــ/ ١٧ يونيـــو ١٨٨٥م . التي يذكر فيها التدهور الذي أصاب العالم الإسلامي ، وتغول الكفرة على البلاد الإسلامية ، ووقف العمل بالشريعة الإسلامية (١٣٣).

---

(١٢٨) دفتر ١٨٨٦ ، صفحة ٣٢ ، في ٢٧ جماد الأول ١٢٧٣هـــ/ ٣ يناير ١٨٥٧م ، فرمان عالي ، تنصيب أراكيل بك مديرا على مديرية الخرطوم ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(129) Holt , P.M., Amodern History of The Sudan , from the Fung (١٢٩) Sultenate to the Present day , Weidenfeld and Nicolson , London, 1963 ,p.63.

(١٣٠) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٢٠.

(١٣١) أحمد شلبي (الدكتور) : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ج٦ ، الطبعة الرابعة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٧م ، ص ٣٦٣ .

(١٣٢) مهدية /٢٧٧/٢٠/٣/٨/ إنذارات ب ، من المهدي إلى والي مصر (الخديو توفيق) بتاريخ ٣ رمضان ١٣٠٢هـــ/١٧ يونيو ١٨٨٥م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٣٣) مهدية ، ١٣ منشورات مطبوعة ، من المهدي إلى علماء مصر ، بتاريخ ٣ رمضان ١٣٠٢هـــ/ ١٧ يونيو ١٨٨٥م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

ومـــن ذلـــك أيضاً خطاب محمد خالد زقل ، عامل المهدي على دارفور ، إلى الخديو توفيق بتاريخ ٦ جماد أول ١٣٠١هـ/٤ مارس ١٨٨٤م ، يستنكر عليه استعمال الأجانب ، وتفويضه أمر مصر إلى أعداء الله ، وتمليك رقاب المسلمين إلى الإنجليز النصارى ، مخالفاً بذلك الشريعة الإسلامية (١٣٤).

وقد نتج عن استخدام هؤلاء الأوربيين ، والتغاضي عن أعمالهم ، وممارساتهم ، إتاحة الفرصـــة لـــتحقيق أهـــداف التدخل الأجنبي . ومن ذلك ازدياد حركة التبشير المسيحي في السودان . ففي الفترة بين عامي ١٨٧١م و١٨٨١م ، تكونت الجالية المسيحية في السودان ، مـــن أســـر المســـيحيين الذين رباهم كمبوني وزملاؤه ، وأصبحت النواة الأولى ، والأساس الثابت، للكنيسة الكاثوليكية بالسودان ، وهذا يشير إلى نجاح جماعات التبشير في مدة وجيزة في إيجاد مكان لها بالسودان (١٣٥). ولم يكن هذا النشاط خافياً على المسلمين في السودان . ولابد أنه ترك أثره في شخصية المهدي والثائرين معه .

وبخضوع مصر للاحتلال البريطاني عام ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م ، وسيطرة بريطانيا على مقـــاليد الأمور في مصر والسودان ، أصبحت المواجهة الحقيقية في السودان بين حكم أجنبي مســـيحي ، متمثل في الإدارة المصرية الخاضعة لتوجيه بريطانيا، وبين ثورة إسلامية هي الثورة المهديـــة في السودان . وكان ذلك من ضمن العوامل التي ساعدت على إذكاء الثورة المهدية ونجاحهـــا في السودان . ذلك أن حقيقة المواجهة أصبحت صراعاً ، بين الكفر والإيمان ، وبين المســـيحية والإسلام ، كما ورد في منشورات المهدي إلى أنصاره المحاصرين للخرطوم ، يحثهم على التشديد على الكفار (١٣٦).

---

(١٣٤) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، محفظة ١٠٢ وثيقة ٣ ملف ٥٤/٥/١ السودان،بتاريخ ٦ جماد أول ١٣٠١هـ/ ٤ مارس ١٨٨٤م.

نقلا عن د. إبراهيم الجاك ، الحياة الاجتماعية في الدولة المهدية بالسودان ، رسالة دكتوراة (مخطوط) – الملاحق ص ٢٧٩/٢٨٠ .

(١٣٥) فانتيني (الأب الدكتور) : تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث ، الخرطوم ، ١٩٧٨م ، ص ٢٤٠.

(١٣٦) دار الوثائق القومية ، الخرطوم ، مهدية ٤٨، نجومي ،بتاريخ أول رجب سنة ١٣٠١هـ/٢٧ إبريل ١٨٨٤م من المهدي إلى الأنصار المحاصرين الخرطوم .

والمهدي في صراعه ضد التدخل الأجنبي ، ممثلاً في بريطانيا ، يرفض رفضاً باتاً وقاطعاً كـــل مـــا جاء من أوربا ، بخلاف مفكري الحقبة الاستعمارية من المسلمين الذين ركزوا على جانب الانفتاح نحو أوربا في العصر الحديث بصورة تجعلهم أقرب للعلمانية (١٣٧). والمهدي في ذلـــك ينطلق من فكر سياسي ثوري مغاير . وكانت حركته من أهم الحركات الإسلامية الـــتحررية خـــلال القرن التاسع عشر ، إذ أنها ركزت على المصادر الأساسية للإسلام . أي القـــرآن الكـــريم ، والحديث الشريف ، كما كان يهدف إلى توحيد العالم الإسلامي في ظل المهدية (١٣٨).

ومن العوامل السياسية والإدارية التي ساعدت على قيام الثورة ، تلك المشكلات التي نتجت عن التوسع الإقليمي في عهد الخديو إسماعيل ، إذ أصبحت مهمة الحكم والإدارة أكثر تعقيداً (١٣٩).

ورغـــم أن هـــذا التوسع كان إنجازاً حضارياً كبيراً ، ساعد على امتداد النفوذ العربي الإسلامي إلى جنوب السودان ، ودار فور ، وشرق أفريقيا (١٤٠). وعمل على تأخير حركة الاستعمار الأوربي في المناطق الواسعة التي خضعت لمصر (١٤١)، إلا أنه كلف مصر جهوداً ، إداريـــة ، وسياســـية ، وعسكرية ، واقتصادية ، كبيرة . للوقوف ضد الاستعمار والتدخل الأجنبي والتغلغل التبشيري المسيحي ، في بلاد واسعة يصعب السيطرة عليها ، والدفاع عنها. وكـــان هـــذا التوســـع أكـــبر مـــن قـــدرة الكفايـــة الإدارية للحكم التركي المصري في السودان(١٤٢). ولهذا فقد ضاعف من مشكلات الحكم والإدارة وكان من ضمن الأسباب التي ساعدت على قيام الثورة المهدية .

---

(١٣٧)حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : مقال ، الفكر السياسي عند مهدي السودان ، مجلة الدراسات الأفريقية، العدد الثالث ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، ص ٨.

(١٣٨) جلال يحيى (الدكتور) : الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان ، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٩م ، ص ٤٠ .

(١٣٩) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٢٤٨.

(١٤٠) محمد عمر بشير (الدكتور) : جنوب السودان ، دراسة لأسباب النزاع ، ترجمة أسعد حليم ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص ٣٧.

(١٤١) أحمد شلبي (الدكتور) : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، المرجع السابق ، ص ٣٥٤.

(١٤٢) (142)Theobald , A.B., The Mahadiya ,op. cit., p.26.

وثالثاً : العوامل الاقتصادية للثورة المهدية :

ترتبط العوامل الاقتصادية للثورة المهدية ارتباطاً وثيقاً بأهداف الفتح التركي المصري للسودان ، حيث كان استغلال الموارد المادية والبشرية يمثل أهم أهداف الفتح (١٤٣). وبصفة خاصة الحصول على الرقيق والذهب (١٤٤). ولما تحطمت آمال محمد علي في الحصول على الذهب والمعادن الأخرى ، اتجه إلى الاعتماد على استغلال الموارد الاقتصادية الأخرى ومنها الضرائب (١٤٥).

١- الضرائب :

منذ بداية الفتح التركي المصري للسودان تم فرض الضرائب وتقديرها على يد لجنة برئاسة حنا الطويل ، وهو قبطي مسيحي (١٤٦). وجرى إحصاء دقيق للقرى في سنار ، وفازوغلي ، والحلفاية ، وكردفان ، حتى لا تتهرب أية قرية من دفع الضريبة (١٤٧).

وكانت هذه الضرائب باهضة ، فوق مقدور واستطاعة الناس ، وتزيد على حد الاعتدال (١٤٨). مما أدى إلى فرار الناس إلى المناطق البعيدة هرباً من الضرائب (١٤٩).

وكانت الضرائب "والمطاليب" ، وراء كثير من المشكلات والثورات التي واجهت الحكم التركي المصري في السودان . ولقد كان مقتل إسماعيل بن محمد علي باشا ، حرقاً في شندي ، على يد الملك نمر والجعليين ، نتيجة لمطالبته لهم بدفع كميات كبيرة من الذهب

---

(١٤٣)حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : محمد علي باشا في السودان ، المرجع السابق ، ص ٢٤.

(١٤٤) (144)Theobald , A.B., The Mahadiya ,op. cit., p.26 .

(١٤٥) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ١٣٥.

(١٤٦) الشاطر بصيلي عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل ، من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر، المرجع السابق ، ص ١٣٨.

(١٤٧) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر ٢٠ ، معية تركي ، وثيقة رقم ٣٦٩ ، بتاريخ ٨ رمضان ١٢٤١ هـ/ ١٨٢٥م.

(١٤٨) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر ١٠ ، معية تركي ، المكاتبة رقم ٣٢٥ ، بتاريخ ٥ ذو القعدة ١٢٣٧هـ/ ٢٤ يونيو ١٨٢٢م.

(١٤٩) محفظة ١٩ بحر برا ، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٣١ ، ١ رجب ١٢٣٧هـ/١٨٢٢م ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

والأمـــوال ، تعجز طاقاتهم عن دفعها (١٥٠)، مما أدى إلى حملات الدفتردار الانتقامية ، وما أحدثـــته مـــن قـــتل وتشريد وتخريب وعدم استقرار . كما أن الضرائب العالية التي فرضها الحكمــدار إسماعيل أيوب ، على سكان دارفور عام ١٨٧٧م ، كانت من أسباب قيام ثورة الأمير هارون (١٥١).

ولم تكـــن فداحـــة الضرائب وحدها ، أهم مساوئ النظام الضريبي في العهد التركي المصري في السودان ، وإنما كانت هناك مساوئ أخرى تتمثل في الطريقة العنيفة التي توختها الحكومة التركية في جمع الضرائب ، وكثيراً ما تعرض الأهالي لمهاجمة قوات الحكومة إن تأخروا في دفع الضرائب . ومن ذلك مهاجمة رستم بك بعض جهات كردفان مع جماعة من عساكره لتحصيل الضرائب (١٥٢).

وكان العساكر يعطون رواتبهم ونفقاتهم من حصيلة الضرائب السودانية (١٥٣). مما دفعهم إلى القسوة والتشديد في جمعها ضماناً لسداد رواتبهم ، وقد يطول بهم المقام بين البدو ســنتين أو ثلاثة بحجة تحصيل الأموال (١٥٤)، وعلى الأهالي القيام بواجب ضيافتهم . وكان جمــع الضــرائب أشبه بعملية حربية ضد الأهالي ، أو ما يشبه الغزو العسكري (١٥٥). بل كانت تحركات الجنود لجمع الضرائب يطلق عليها أحياناً "الغزو !"(١٥٦).

ورغـــم فداحـــة الضـــرائب فقد كانت الحكومة المصرية تلجأ لزيادتها ، فقد زيدت الضــرائب في السودان منذ عام ١٢٨٣هــ/١٨٦٦م ، بمعدل ثلثي الضرائب السابقة على

---

(١٥٠) محمود محمد علي نمر ومحمد سعيد معروف : الجعليون ، المرجع السابق ، ص ١٥.

(١٥١) شقير (نعوم) تاريخ السودان ، المرجع السابق ، ص ٢٨٤.

(١٥٢) دفتر ٧٣٦ ، ديوان الخديو ، وثيقة رقم ٢٩٥ ، بتاريخ ٢٩ ذي الحجة ١٢٤٢هــ/١٨٢٧م ، دار الوثائق ، القاهرة .

(١٥٣) محفظة نمرة ١٩ ، بحر برا ، وارد وثيقة تركية رقم ٦٨ ، من مدير سنار إلى الجناب ، بتاريخ ٢٣ ذي القعدة ١٢٦١هــ/ ٢٣ نوفمبر ١٨٤٥م ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٥٤) وثيقة نمرة ٦١ ، محفظة ٦ يوم الخميس ١٠ شعبان سنة ١٢٨٢هــ/٢٩ ديسمبر ١٨٦٥م ، دار الوثائق، القاهرة .

(١٥٥) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، رسالة دكتوراه ، مخطوط ، جامعة الخرطوم ، ١٩٧٧م ، ص ٢٤٩

(١٥٦) وثيقة نمرة ٦١ ، محفظة ٦ يوم الخميس ١٠ شعبان سنة ١٢٨٢هــ/٢٩ ديسمبر ١٨٦٥م ، دار الوثائق القومية، القاهرة.

أطيــان الســواقي والســلوكة ، وعلى البدو ، والنخل ، لتغطية زيادة المصاريف (١٥٧). وبصــورة عامة فإن الضرائب تضاعفت في عهد إسماعيل ، مقارنة بعهد سلفه محمد سعيد ، في بعض الحالات (١٥٨). ولعل السبب في ذلك هو تداعيات الأزمة المالية ، والحروب بين مصر والحبشــة ، مما جعل الأهالي يجأرون بالشكوى من الضرائب المفروضة عليهم ، والتي كانت تحصل دون مقابل واضح معلوم (١٥٩).

وقد ازداد التشديد في جمع الضرائب ، رغم معاناة الأهلين ، فقد أمر الخديو إسماعيل بتحصــيل كافــة المــتأخرات عــام ١٨٧٥م ، ووقــف مرتــبات الموظفين حتى يتم ذلك التحصــيل(١٦٠). كما أن الحكومة المصرية في عهد الخديو توفيق رفضت تخفيض الضرائب وأمرت الحكمدار محمد رؤوف بالتشديد في جمعها (١٦١).

ومـــا زاد الأمر سوءاً ، أن بعض الحكام والموظفين الأتراك ، الذين يباشرون جمع هذه الضــرائب ، كانوا يفرضون على الأهالي أتاوات غير رسمية ، يحصلونها مع الضرائب ، انتفاعاً بوظائفهم ، واستغلالاً للفرصة التي أتيحت لهم لجمع الثروة والغنى (١٦٢).

لقــد كانت مشكلة الضرائب في عهد الحكم التركي المصري في السودان ، فوق ما يحتمل أهل البلاد . وعليه فقد كانت من الأسباب الرئيسية لقيام الثورة المهدية .

ولقــد حــاول هولت ، في تفسيره لأسباب الثورة المهدية ، أن يعتبر الضرائب سبباً ثانويــاً، وليــس أساســياً ، في قيــام الثورة لأنه كما يرى ، يمكن تفاديه بالهجرة إلى مناطق بعيدة(١٦٣).

---

(١٥٧) صورة المكاتبة الواردة من حكمدارية السودان إلى المعية السنية ، بتاريخ ٤ ذي القعدة سنة ١٢٨٧هـ/ ٢٦ يناير ١٨٧١م ، مقيدة بالدفتر ١٨٤٢ معية ، وثيقة رقم ٨ ص ٣٠ ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٥٨)بشير كوكو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، المرجع السابق، ص ٢٣٥.

(١٥٩) (159) Holt , P . M .The Mahadist State, ,op. cit . , P.37 .

(١٦٠) (160) Ibid ., p.37

(١٦١) (161) Hill , R., Egypt in the Sudan , op. cit., p.154.

(١٦٢) نعوم شقير : تاريخ السودان ، المرجع السابق ، ص ٣١٦.

(١٦٣) (163) Holt , P . M .The Mahadist State, ,op. cit . , P.33 .

الخدمـــة العســـكرية . وليكـــون هؤلاء الأرقاء ، بعد دخولهم الإسلام سفراء لنشر الدعوة الإسلامية في بلادهم(١٦٨).

ولقـــد شغلت مسألة الرق في السودان فقهاء المسلمين في صدر الإسلام . فاتفق رأي الإمـــام مالك ، والليث بن سعد ، وفقهاء مصر ، على تحريم ما يقوم به "النهاضة" إلى مناطق الســـودان من الاسترقاق ، ووصفوه بالبغي والسرقة . بل كان رأي الإمام مالك بن أنس أن أرض النوبة أرض صلح ، ولهذا لا يجوز شراء رقيقهم (١٦٩).

وهـــذه الأحكام والفتاوي هامة جداً في النظر إلى المشكلات التي نتجت عن غزوات اصـــطياد الرقيق ، والممارسات التي تمت بغير وجه حق شرعي في عهد محمد علي باشا ، ومن بعده من الحكام في السودان .

وبينماكانت دولة الفونج التي سبقت العهد التركي المصري في السودان ، قد التزمت إلى حـــد كـــبير ، بالأحكام الخاصة بالرق في الإسلام وكانت تعامل الرقيق معاملة إنسانية ، وتعمـــل عـــلى تحريره ، وتنفق أموال الزكاة أحياناً لتحقيق هذه الغاية (١٧٠). فإن الفتح الـــتركي المصـــري للسودان قد جعل من أهم أهدافه ، جلب الرقيق السود لاستخدامهم في الجندية ، " مهما كانت الصورة التي يجلبون بها من أوطانهم "(١٧١).

وهكذا فتح الحكم التركي المصري في السودان باباً خطيراً للاسترقاق والظلم ، كان قد أغلق منذ دخول الإسلام في السودان . وهكذا بدأت الغزوات لاصطياد الرقيق من جبال فازوغـــلي وبـــلاد الدينكا وغيرها يقودها الحكام الأتراك بأنفسهم (١٧٢). وفي ذلك مخالفة كـــبيرة ، انهارت أمامها كل دعاوي الفتح التركي المصري بأنه فتح إسلامي ، وامتداد لدولة

---

(١٦٨) انظر (مظاهر الحضارة في دولة الفونج الإسلامية) رسالة ماجستير ، مخطوط . معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة ، ١٩٨٥م – للباحث (بابكر فضل المولى حسين) ، ص ٥٥.

(١٦٩) المقريزي(أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي): الخطط المقريزية، ج١ ،مطبعة النيل ، مصر ، ١٣٢٤ هـ، ص ٣٣٤.

(١٧٠) ود ضيف الله (محمد النور) : كتاب الطبقات ، في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان، تحقيق يوسف فضل ، الطبعة الثانية ، دار التأليف ، جامعة الخرطوم ، ١٩٧٤م ص ١٨٩.

(١٧١) دفتر ١٠ ، معية تركي ، ترجمة المكاتبة رقم ١٤ ، بتاريخ ١٣ صفر ١٢٣٧هـ/١٨٢١م ، دار الوثائق القومية، القاهرة .

(١٧٢) محافظ أبحاث السودان ، دفتر ٤٩ ، معية سنية ، في ١٥ ربيع أول سنة ١٢٣٧هـ/١٨٢١م ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

الخلافـــة الإســـلامية في الســـودان . وتسبب ذلك في فقدان الثقة بين القبائل الجنوبية التي استهدفتها هذه الغزوات ، وبين الحكام الأتراك وعرب الشمال الذين شاركوا في هذه التجارة البغيضة . وما وقر في نفوس هذه القبائل الجنوبية ، ما زلنا نعيش آثاره حتى اليوم.

ولمـــا أفاق حكام مصر إلى حجم الكارثة ، كان ذلك بضغط من الدول الأوربية ، وخاصة إنجلترا ، التي كانت تتخذ من محاربة تجارة الرقيق ، ذريعة وحجة للتدخل في شئون البلاد (١٧٣).

وبيـــنما كـــانت إنجلترا ، أكثر الدول الأوربية اهتماماً بإلغاء تجارة الرقيق ، تلح على محمـــد علي باشا ، ومن بعده من حكام مصر ، بالقضاء على تجارة الرقيق ، كانت توافق سراً لـــبعض الحكام في المنطقة الأفريقية بممارسة هذه التجارة . ومن هؤلاء السلطان السيد سعيد الـــذي سمحـــت له بـــريطانيا بمزاولة هذه التجارة البغيضة في الموانئ الأفريقية التابعة له عام ١٨٥٤م (١٧٤). وهذا مما يقضي على مصداقيتها ، ويبين حقيقة أهدافها .

وقـــد بـــذل محمد علي باشا جهده ، في السنوات الأخيرة من حكمه ، في الاستجابة لضـــغط إنجلترا بإلغاء تجارة الرقيق ، وخاصة عام ١٨٤٥م ، إذ كتب إلى حكمدار السودان بمـــنع الاتجـــار في الرقيق (١٧٥). وكذلك بدأ محمد سعيد محاولات جادة للقضاء على هذه التجارة ، فأصدر قراره الذي أشرنا إليه من قبل ، بمنع تجارة الرقيق منعاً "كلياً"(١٧٦).

ولما تولى الخديو إسماعيل حكم مصر عام ١٨٦٣م ، كانت مشكلة الرق تتطلب حلاً جذريـــاً، ممـــا اضطره إلى الإسراع في العمل على وقف نشاط تجار الرقيق ، فبدأ بنظام حرية التجارة المشروعة ، وأقر سياسة عمه محمد سعيد باشا في ذلك . وكان يرى أن تسهيل دائرة الـــتجارة ، يعـــود منها بالثمرات والفوائد على الأهالي (١٧٧). وأصدر توجيهاته إلى محافظ

---

(١٧٣) زاهر رياض (الدكتور) : استعمار أفريقيا ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م ،ص ٩١.

(١٧٤) وثائق عن الصومال وأرتريا والحبشة ، جمعها أحمد برخت حاج سجال ، شركة الطوبجي للطباعة والنشر ، القاهرة، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م ، ص ٤١٢.

(١٧٥) محافظ أبحاث السودان ، دفتر ٣٦٢ ، صادر ديوان المعية ، وثيقة ٧٦ في ٢٨ رمضان سنة ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٧٦) دفتر ٧٢١ ، قيد الأوامر واللوائح ، خديو ، مكاتبة رقم ٢١٠ ، صفحة ١٣ ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول ١٢٧١هـ/ ديسمبر ١٨٥٤م ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٧٧) صورة الأمر الكريم الصادر إلى محمد حسين أفندي خليفة متعهد العشور رقم ٨٥ ، ومقيد بدفتر ١٩٤٦ ، أوامر عربي ، صفحة ٤٣ ، بتاريخ ١٢ محرم ١٢٩٠هـ/مارس ١٨٧٣م ، دار الوثائق القومية، القاهرة .

ســـواكن، بـــالعمل على " توسيع التجارة وتسهيل تعاطيها "(١٧٨). وظل يصدر توجيهاته وأوامره بمنع الاتجار في الرقيق " منعاً باتاً "(١٧٩). ويكرر تنبيهاته إلى محافظي سواحل البحر الأحمـــر بأنه " ملتزم " بمنع تجارة الرقيق في كافة البلاد التي خضعت له (١٨٠). ويشير إلى " أن الاتجار بالرقيق هو غاية أمل العاجز أن يقضي عليه "(١٨١).

غـــير أن الخديـــو إسماعيل اصطدم بممارسات تجار الرقيق ، الذين أسسوا الشركات الكـــبرى في أعـــالي الـــنيل وبحـــر الغزال ، وكانوا يزاولون تجارة الرقيق تحت ستار التجارة المشـــروعة في العـــاج وغيره . وكانوا في حقيقة الأمر هم حكام المناطق التي يزاولون تجارقم فيها(١٨٢). وكان هذا من ضمن الأسباب التي جعلت الخديو إسماعيل يعمل على مد حدود دولته لتشمل الحدود الطبيعية لحوض نهر النيل (١٨٣).

وقـــد استجاب الخديو إسماعيل لاقتراح بيكر ، باحتكار التجارة في مناطق النيل العليا لقمع تجارة الرقيق (١٨٤). فأصدر أمره في ديسمبر ١٨٧٣م ، إلى مدير عموم قبلي السودان لينفذ قرار احتكار التجارة في سن الفيل ، وريش النعام وغيرهما (١٨٥). وسار غوردون عام ١٨٧٤م على نفس سياسة الاحتكار ، ومنع استيراد الأسلحة والذخيرة ، كما منع السفر إلى

(١٧٨) دفتر ٥٣٧ ، صفحة ٧١ ، نمرة المكاتبة ١٣١ ، ٢٤ محرم سنة ١٢٨٢هـ/يونيو ١٨٦٥م ، ترجمة الإرادة الصادرة إلى ممتاز بك ، محافظ سواكن ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٧٩) محفظة ٩ ، ديوان خديو تركي ، ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢٤٨ ، بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٢٨٢هـ/ ١٤ يونيو ١٨٦٥م من الخديو إسماعيل إلى شريف باشا ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٨٠) صورة الأمر الكريم الصادر إلى حكمدار عساكر ، وملاحظة أشغال مصوع ، ١٢ صفر ١٢٩٤هـ / ٢٦ فبراير ١٨٧٧م نمرة ٢٧ ، دفتر ، ٨ ، أوامر عربي صفحة ١٢ ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٨١) دفتر ٢١ ، عابدين ، رقم ٥٢ ، صفحة ٢٢٨ ، من أفندينا إلى معتمده في الآستانه ، بدون تاريخ ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٨٢) (182) Holt , P . M .The Mahadist State in the Sudan, ,op. cit . , P.33 .

(١٨٣) جلال يحيى (الدكتور) : مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٤م ، ص ٥٦.

(١٨٤) الدكتور جميل عبيد : المديرية الاستوائية،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر،القاهرة ١٩٦٧م،ص ١٧٥.

(١٨٥) دفتر ١٦ عابدين ، صادر تلغرافات ، من خيري باشا إلى عموم قبلي السودان ، صورة التلغراف العربي، الشفرة رقم ٣٦١ ، ص ٥٥ ، بتاريخ ١٠ شوال ١٢٩٠هـ/أول ديسمبر ١٨٧٣م المرجع السابق ، ص دار الوثائق القومية ، القاهرة .

أعـــالي الـــنيل إلا بإذن (١٨٦). وصدر قرار الحكومة المصرية إلى حكمدار السودان ، بالموافقة على هذه السياسة في ٢٦ إبريل ١٨٧٤م (١٨٧).

وكـــان غـــوردون ، منطلقاً من أهدافه الخاصة ، يرى ضرورة وضع قيود على الـــتجار العـــرب والســـودانيين ،دون الأوربيين .رغم أن التجار الأوربيين كانوا أيضاً يشـــاركون في تجارة الرقيق (١٨٨). ولهذا فإن غوردون في حقيقة الأمر،كان يهدف إلى القضـــاء على نفوذ التجار العرب والمسلمين ، الذين كانوا يمثلون عقبة كأداء في طريق التغـــلغل الأوربي الاستعماري ، كما وضح في كتابات المستكشفين والرحالة والمبشرين الأوربيين (١٨٩).

ومما لا ريب فيه أن هذه السياسة التي اتبعتها الحكومة المصرية في محاربة تجارة الرقيق ، والتي تقوم على احتكار التجارة ، وخاصة تجارة العاج ، والإجراءات التعسفية التي اتبعت في تنفيذ هذه السياسة ، ونزع ملكية زرائب تجار الرقيق (١٩٠)، أدت إلى ركود التجارة بجنوب السودان .يشير إلى ذلك الدكتور بشير كوكو حميدة بقوله :" إن التجارة في النيل الأبيض قد أصابها شلل بسبب ضآلة الواردات " (١٩١).

وأصبحت المديرية الاستوائية منطقة مغلقة ، وأجبر كثير من التجار على ترك التجارة، الأمـــر الـــذي أدى إلى زيادة السخط على سياسة الخديو إسماعيل (١٩٢). وأدى إلى تذمر الـــتجار جميعاً . ومنهم من كان يقتصر نشاطه على التجارة المشروعة فقط . وبهذا فقد أُجبر هؤلاء على أن يكونوا عنصراً مؤيداً للثورة (١٩٣).

---

(١٨٦)بشير كوكو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، المرجع السابق ، ص ٢٨٧.

(١٨٧) صورة المكاتبة الصادرة من المعية السنية إلى حكمدار السودان ، نمرة ٦،بتاريخ ٩ربيع الأول ١٢٩١ هـــ/٢٦ إبريل ١٨٧٤م ، مقيد بدفتر ١٨٧١ ، معية عربي ، ص ٤١ ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٨٨) (188) Gray , R., A History of the Suthern Sudan , p.75 .
نقلا عن ، بشير كوكو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، المرجع السابق ، ص ٢٨٨.

(١٨٩) جلال يحيى (الدكتور):مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر،مرجع سابق،ص ٥٧.

(١٩٠) (190) Holt , P . M., The Mahadist State, ,op. cit . , P.34 .

(١٩١) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، المرجع السابق ، ص ٢٩٣.

(١٩٢) (192) Holt , P . M., The Mahadist State, ,op. cit . , P.36 .

(١٩٣) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ١٣٤.

ويـــرى الكولونيل شابي لونج بك ، أن أمر غوردون باحتكار محصول العاج ، قد أثار تجـــار السودان جميعهم على الحكومة ، وهؤلاء التجار كانوا سادة السودان الحقيقيين . فكان هذا العمل المنطوي على الظلم هو النواة الأولى للثورة المهدية (١٩٤).

و لقد نجحت بريطانيا في محاولاتها مع الخديو إسماعيل ، لعقد معاهدة لإلغاء تجارة الـــرقيق في مصـــر والســـودان ، والمـــناطق التابعة لمصر . ووقعت الدولتان ، المصرية والإنجـــليزية ، على الاتفاقية في الإسكندرية في ٤ أغسطس ١٨٧٧م (١٩٥). وتقضي هـــذه المعـــاهدة بتحريم بيع وشراء الرقيق ، في مصر في سبع سنوات ، وفي السودان في مدى اثنتي عشرة سنة(١٩٦).

ولم يكـــن عقـــد هـــذه الاتفاقية التي تحدد فترة زمنية محددة لإلغاء الرق في مصر والســـودان ، أمـــراً حكيماً . كما أن تنفيذها كان متعذراً ، ولكن الخديو إسماعيل استجاب لضغط بريطانيا بسبب المشكلات التي كانت تحيط بحكمه (١٩٧).

ومهما يكن من أمر فإن هذه الاتفاقية قد جانبها التوفيق ، لما انطوت عليه من أخطاء ، أثارت المواطنين في السودان ، وأدت فيما بعد إلى قيام الثورة المهدية (١٩٨).

ولعل من أبرز أخطاء اتفاقية تحريم تجارة الرقيق ، أن الحكومة المصرية ، في عقدها لهذه الاتفاقيـــة ، أغفـــلت الجـــانب الديني ، عندما أقرت إلغاء الرقيق المشروع . وهو مباح في الإســـلام، رغم أن الإسلام حثّ على العتق وسعى لتحرير الرقيق (١٩٩). كما أنها أغفلت أيضـــاً الجوانـــب الاقتصادية والاجتماعية ، إذ أن الرقيق يمثل أيدٍ عاملة يقوم عليها الاقتصاد الســـوداني منذ القدم . فهم يعملون في المزارع والمتاجر والمنازل . وتحرير الرقيق بهذه الطريقة

---

(١٩٤) الكولونيل شابي لونج بك : مصر ومديرياتها المفقودة ، ص ١٨٦ ،
نقلا عن ، عبد الرحمن الرافعي ، مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٩٩.

(١٩٥) الشاطر بصيلي عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل ، المرجع السابق ، ص ١٦٠.

(١٩٦) محفظة ١ ، صورة اللائحة،ونسخة المعاهدة الخاصة بمنع الاتجار في الرقيق ، محرم سنة ١٢٩٧هـــ/إبريل ١٨٧٧م دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(١٩٧) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ١٣٥.

(١٩٨) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، المرجع السابق ، ص ١٠١.

(١٩٩) صبحي الصالح (الدكتور) : النظم الإسلامية ، نشأتها وتطورها ، الطبعة الثالثة ، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٧٦م ، ص ٢٦٤.

المستعجلة ، من شأنه أن يحرم الناس من أهم أركان اقتصادهم ، مما يؤثر على أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية (٢٠٠).

ولا ريب ، أن من أكبر الأخطاء المرتبطة بهذه الاتفاقية ، وتنفيذها ، استخدام الحكومة المصرية غوردون باشا ، وهو مسيحي ، حكمداراً على السودان بسلطات مطلقة ، عام ١٨٧٧م (٢٠١).

ورغم الصعوبات التي واجهت غوردون في تنفيذ هذه الاتفاقية ، والسلبيات التي أحاطت بها ، فقد مضى غوردون قدماً في استخدام المزيد من العنف والشدة في تطبيقها ، وطلب من الحكومة المصرية الإذن له بفصل من يريد من الموظفين المصريين ، وتعيين أوربيين بدلاً عنهم(٢٠٢). وسرعان ما منحه الخديو هذه الصلاحيات (٢٠٣). فعزل عدداً من المصريين والسودانيين، وعين بدلاً عنهم أوربيين في وظائف لم يكونوا مؤهلين لها ! مما أثار بغض السودانيين لكافة الأجانب بمن فيهم المصريين (٢٠٤). وفي نفس الوقت أثار غيرة المصريين وتذمرهم ضد التسلط الأجنبي البريطاني(٢٠٥).

وكان من نتائج السياسة العنيفة التي استخدمها غوردون ومعاونوه في محاربة تجارة الرقيق ، إثارة الذعر والهلع في نفوس أهل السودان (٢٠٦). واعتبروها حرباً مقدسة يشنها النصارى ضد الإسلام (٢٠٧). وكانت سبباً في قيام ثورات تجار الرقيق ، وما تبعها من عنف في القضاء عليها ، ومن أبرز هذه الثورات ، ثورة سليمان الزبير (١٨٧٩م)، وثورة صباحي في كردفان (١٨٧٧-١٨٧٩) ، وثورة الأمير هارون في دارفور (١٨٧٩-١٨٨٠م) .

---

(٢٠٠) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٢٣٨.

(٢٠١) دفتر رقم ١٥ ، أوامر عربي ، ص ٧ ، رقم ١٦ ، بتاريخ ٤ صفر ١٢٩٤هـ/٧ فبراير ١٨٧٧م ، صورة أمر كريم إلى غوردون باشا ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(٢٠٢) دفتر ٥٠ عابدين ، وارد تلغرافات ، صورة التلغراف العربي رقم ١٩٠ ، ص ٣٤ في ١٠ رجب ١٢٩٥ هـ/١٠ يوليو ١٨٧٨م ، من غوردون باشا إلى خيري باشا ، دار الوثائق القومية ، القاهرة .

(٢٠٣)دفتر ٢٦ عابدين ، صادر تلغرافات ، صورة التلغراف العربي رقم ٥٠٠ ، في ٢٣ رجب ١٢٩٥هـ/١٢ يوليو ١٨٧٨م ، إرادة سنية إلى سعادة حكمدار عموم السودان ، دار الوثائق القومية ، القاهرة . .

(٢٠٤) (204) Hill , R., Egypt in the Sudan, op. Cit ., p.145.

(٢٠٥) (205) Holt , P . M .The Mahadist State, ,op. cit . , P.27 .

(٢٠٦) رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور) : مصر والسودان في العلاقات الدولية ، المرجع السابق ، ص ٣٠٥.

(٢٠٧) (207) Holt , P . M., The Mahadist State, ,op. cit . , P.38 .

ورغم الهدوء النسبي بعد القضاء على هذه الثورات ، فإن الثورة ظلت تعتمل في النفوس ، وأصبح التذمر الشديد ينذر بالانفجار ، والثورة من جديد . ولم تعد الإدارة المصرية قادرة على الحفاظ على الأمن ، وخاصة في المناطق البعيدة (٢٠٨).

وكان لعزل الخديو إسماعيل عن الحكم عام ١٨٧٩م ، وما تبعه من استقالة غوردون ، أثر كبير على الأوضاع في السودان ، فقد حدث رد فعل كبير ، وانتعشت تجارة الرقيق من جديد ، ولم يكن أمام الخديو توفيق ، إلا أن يستجيب لضغط بريطانيا للاستمرار في تنفيذ اتفاقية إلغاء الرق ، فشدد على الحكمدار الجديد محمد رؤوف ، ومديري المديريات ، في تنفيذ هذه الاتفاقية (٢٠٩). وأصدرت المحاكم عدداً من الأحكام بشأن المخالفين ، ومن ذلك محاكمة مدير فاشودة ، وبعض اليوزباشية العاملين معه بتهمة الاتجار في الرقيق (٢١٠). وبعض التجار الذين تم القبض عليهم ، وبعض العمد ، والمشايخ ، والخفراء أمام محاكم عسكرية(٢١١).

ولقد استفاد المهدي من هذا الوضع . وكان من الذين أعانوه ووقفوا إلى جانبه في ثورته ضد الأتراك ، تجار الرقيق ، والتجار عامة . ومن هؤلاء أسرة الأمير عثمان دقنة في شرق السودان ، التي تعرضت للسجن ومصادرة الأموال عام ١٨٧٧م بتهمة الاتجار في الرقيق (٢١٢). فهؤلاء وغيرهم من تجار الرقيق ، وقفوا إلى جانب الثورة المهدية ، وكان بلاؤهم فيها عظيماً .

ولا يؤخذ من هذا أن المهدي كان حامياً لتجار الرقيق ، أو مؤيداً لهم . فقد كان من ألد أعداء الرق ، وحاربه محاربة جادة ، ومن منطلق ديني ، فقد كتب للناس في أحد منشوراته يوضح لهم أن امتلاك الرقيق من أقوى الأسباب التي تمنع المسلم من التقرب إلى الله(٢١٣). ولكن المهدي استفاد من مؤازرة تجار الرقيق وتأييدهم له .

---

(٢٠٨)بشير كوكو حميدة (الدكتور) : ملامح من تاريخ السودان في عهد الخديو إسماعيل ، مطبوعات كلية الدراسات العليا ، الخرطوم ، جامعة الخرطوم ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م ، ص ٣٣.

(٢٠٩) محفظة ٧ ، مجلس الوزراء (سودان) في ١٢٩٧هـ/ ٢٩ إبريل ١٨٨٠م ، دار الوثائق القومية ، القاهرة.

(٢١٠) نفس الوثيقة .

(٢١١) نفس الوثيقة .

(٢١٢) مذكرات عثمان دقنة : تحقيق د. محمد إبراهيم أبو سليم ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ،بيروت ، لبنان، ١٩٩١م ، ص ٧.

(٢١٣) مهدية /٨/٣/٢٠/٥٦ ، إنذارات ب ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم ، ٨ سبتمبر ١٨٨٢م ،من المهدي إلى أحبابه في الله .

وقد أحس غوردون نفسه ، بخطأ هذه الاتفاقية الخاصة بتحريم الرق والإجراءات التي اتبعت في تنفيذها ، وأثرها في قيام الثورة المهدية . وذلك عندما عاد إلى السودان لتنفيذ مهمة الإخـــلاء (١٨٨٤-١٨٨٥م) . حيث أعلن إلغاء جميع الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق ، وأوقـــف العمـــل باتفاقية إلغاء الرق (١٨٧٧-١٨٨٩م) وهو بذلك يعترف بأخطائه ، وقد أدرك نتائجها في قيام الثورة المهدية (٢١٤).

ورابعاً : الأسباب الاجتماعية :

تتمـــثل الأسباب والعوامل الاجتماعية للثورة المهدية في التمييز الاجتماعي والطبقي الذي مارسه الحكم التركي المصري في السودان ؛ والتفرقة بين الفئات القبلية والطوائف الدينية ، وخاصة المحابـــاة لقبيلة الشايقية ، وطائفة الميرغنية ، مما أثار بقية القبائل والطرق الصوفية في السودان على الحكومة المصرية (٢١٥).

ومن المعروف أن قبيلة الشايقية كان لها الفضل في القيام بأول مقاومة مسلحة حقيقية، ضد الجيش الفاتح بقيادة إسماعيل باشا عام ١٨٢٠م . ولكنهم انهزموا أمام السلاح الناري ، ولم يحتملوا نـــتائج الهـــزيمة ، فقـــرروا التســـليم والانضـــمام إلى جيـــش إسمـــاعيل لممارسة ، حرفة الحرب والقتال(٢١٦). وربما دفعهم لهذا الموقف ، ما كانوا فيه من منافسة وعلاقة غير حميمة مع بقية القـــبائل الســـودانية المجاورة،منذ استقلالهم عن دولة الفونج عام ١٦٩٠م (٢١٧). فكانوا يخشـــون إذا تقاعسوا عن تأييد الحكم التركي ، أن تتدنى مكانتهم في الوضع الجديد . ولهذا سارعوا بالانضمام للحكومة التركية ، ليظفروا بمكانة اجتماعية تجعلهم فوق بقية القبائل التي استسلمت دون قتال (٢١٨).

وكـــان انضمام الشايقية لجيش إسماعيل ، دعماً قوياً له ، مادياً ومعنوياً ، وأصبحوا يمثلون فريقاً هاماً من جند الحكومة . ولهذا فقد ظفر الشايقية بمكانة خاصة ومميزة عن بقية القبائل ، وسائر الأهالي في العهد التركي المصري. وقربتهم الحكومة إليها وأعفتهم من دفع الضرائب (٢١٩).

---

(٢١٤) إبراهيم فوزي : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ، ج١ ، المرجع السابق ، ص ٢٧٥.

(٢١٥) نعوم شقير : تاريخ السودان ،المرجع السابق ، ص ٣١٨.

(٢١٦) محمد عوض محمد : السودان الشمالي سكانه وقبائله ، المرجع السابق ، ص ١٨٧.

(٢١٧) و.نكولز : الشايقية ، ترجمة عبد المجيد عابدين ، الطبعة الأولى ، الدار السودانية ، ١٩٧٢م ،ص٢٦٠ .

(٢١٨) (218) Hill , R., Egypt in the Sudan, op. Cit ., p.9.

(٢١٩) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركيةوالمهدية ، المرجع السابق ، ص ١٣١.

ويبدو أن الحكومة التركية حرصت على الاستفادة من موقف الشايقية في التفريق بين القـــبائل السودانية ، تطبيقاً لسياسة (فرق تسد)، لتسهل عليها السيطرة على القبائل . وهذا يمثل إساءة لاستعمال السلطة الإدارية (٢٢٠). كما أنه يؤدي إلى حقد القبائل الأخرى على الحكومة التركية المصرية .

ولم يســـتخدم إسماعيل بن محمد علي الحكمة ، في معاملة القبائل السودانية الأخرى ، وخاصة قبيلة الجعليين ، أكبر قبائل السودان الأوسط ، فكان يجنح لاستخدام العنف والشدة والاســـتماع للوشـــايات والأقـــاويل ، فأساء معاملة زعيمها الملك نمر (٢٢١). وبذلك دفع إسمـــاعيل باشـــا حياتـــه ثمناً لسوء تصرفه ، كما أضاع الفرصة في الاستفادة من جهود هذه القبيلة، إذا هو تألفها وأحسن معاملتها .

وقـــد تســـبب فقدان الثقة بين قبيلة الجعليين والحكومة التركية المصرية في كثير من المشـــكلات والثورات . وكان التحامل وسوء الظن سبباً في فرض الإقامة الجبرية على الزبير باشـــا في مصر وهو أحد زعماء هذه القبيلة ، ثم اتهامه بتأييد الثورة المهدية ، والإصرار على رفض سفره إلى السودان (٢٢٢). وكان التحامل أيضاً سبباً في مقتل ابنه سليمان ، وكذلك عـــزل إلياس باشا امبرير مدير الأبيض وهو أيضاً من قبيلة الجعليين ، وتولية محمد سعيد باشا مكانه فكان ذلك من أسباب انحياز إلياس باشا للثورة المهدية (٢٢٣).

وأما تمييز طائفة الميرغنية على سائر الطرق الصوفية في السودان ، فذلك يرجع إلى أن هذه الطائفة لها جذور في مصر ، ولهذا مال إليها علية القوم من الحكام والرؤساء ، ومال إليها بالـــتالي الشـــايقية ، لتقربهم من رجال الحكومة . وقدموا لها الكثير من الإعانات ، مما جعلها تتـــباهى عـــلى بقيـــة الطرق الصوفية . وتسبب ذلك في حقد الطرق الصوفية الأخرى على الحكومة التي مكنت للطريقة الميرغنية ، ووضعتها فوق بقية الطرق الصوفية (٢٢٤).

ومـــن العوامـــل الاجـــتماعية للثورة المهدية ، الامتيازات التي كانت تتمتع بها بعض طـــبقات المجـــتمع . ومنها طبقة الأغنياء الأجانب ، الذين يشبههم ضرار صالح ضرار بطائفة

---

(٢٢٠) (220) Holt , P . M .The Mahadist State, ,op. cit . , P.33 .

(٢٢١) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ١٠٦.

(٢٢٢) (222) Shibeika , M., British Policy in the Sudan op. cit., p.87.

(٢٢٣) مكي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، المرجع السابق ، ص ٨٧.

(٢٢٤)نعوم شقير : تاريخ السودان ،المرجع السابق ، ص٣١٨.

النـبلاء في فرنســا قبل الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) . فكانت هذه الطائفة في السودان تدفع ضــرائب قليـــلة لا تتناسب مع ثروتها وأرباحها . وكانوا قادرين على التهرب منها بالرشوة لــلحكام والمديرين (٢٢٥). وهناك طبقة كبار الملاك ، وهذه الطبقة لا تدفع إلا القليل من الضــرائب على الأراضي الواسعة التي تمتلكها (٢٢٦). أما الموظفون ومعظمهم من الأتراك فكانت الأراضي التي يمتلكونها لا تجبى عليها ضرائب (٢٢٧).

وقــد تضــرر الجلابة والتجار المحليون ، من سياسات الحكومة التركية المصرية ، والمنافسة غير المتكافئة مع التجار الأجانب الذين كانت لهم الصولة ، ويحظون بالتأييد من رجــال الحكومة . ولهذا فقد كان هؤلاء الجلابة والتجار المحليون ينقمون على الحكومة مواقفها ضدهم (٢٢٨).

وخامساً : الأسباب التي ساعدت على نجاح الثورة المهدية :

مــن العوامل التي ساعدت على نجاح الثورة المهدية في السودان ، قيام الثورة العرابية في مصر في وقت متقارب مع ظهور الثورة المهدية . فبينما بدأت الثورة العرابية في ربيع الثاني عــام ١٢٩٨هــــ/ فبراير ١٨٨١م . فإن الثورة المهدية بدأت بعد شهور قليلة ، في شعبان ١٢٩٨هــ/يونيو ١٨٨١م . ولهذا فإن الحكومة المصرية لانشغالها بالثورة العرابية في مصر ، لم تــتمكن من التفرغ لمواجهة الثورة المهدية (٢٢٩). ولم تستجب الحكومة المصرية لمطالب الحكمــدار محمــد رؤوف باشا ، بإرسال إمدادات عسكرية إلى السودان ، مما عطل جهود مقاومة الثورة المهدية (٢٣٠)، ولم يساعد على القيام بأي خطط عسكرية ناجحة (٢٣١).

---

(٢٢٥)ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٢٢٦) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٧.

(٢٢٧) نفس المرجع ، ص ٧.

(٢٢٨) محمد سعيد القدال (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، (١٨٢٠-١٩٥٥م) الخرطوم ، ١٩٩٢م ، ص ١١١.

(٢٢٩) عبد الرحمن الرافعي : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، المرجع السابق ، ص ١٠١.

(٢٣٠) (230)Hill , R., Egypt in the Sudan, po. Cit ., p.146.

(٢٣١) (231) Marlowe ., Anglo Egyptions- Relations , 1800-1956 , second edition , Frank Cass and Company , LTD. , London , 1965, p.142.

وعــندما انتصــرت الثورة العرابية وأصبح لها وزير حربية في الحكومة ، وهو محمود سامي البارودي ، لم يوافق العرابيون على مشاركة الجيش المصري بإمد دات عسكرية للقضاء على ثورة المهدي في السودان وذلك للاحتفاظ بقوهم في مصر (٢٣٢).

ورغم اختلاف أسباب ثورة عرابي في مصر عن ثورة المهدي في السودان ، حيث كان الســبب المباشر لثورة عرابي، التفرقة بين المصريين والأتراك والشراكسة في نظام الترقيات ، وتخفيــض عــدد الجيش عن الحد المرسوم (٢٣٣)، إلا أن ثورة عرابي وثورة المهدي كانتا في دولة واحدة ، وكلتاهما ضد التسلط الأجنبي في مصر والسودان . لقد كانت المعركة واحدة في كــل مــن الخرطوم والقاهرة (٢٣٤). وكان الخديو توفيق والحكومة المصرية يخشون من وصول نفوذ عرابي إلى السودان (٢٣٥).

وبالفعل كان لثورة عرابي صدى في السودان . ومن ذلك ما كان من عثمان دقنة الــذي كان حانقاً على الحكومة التركية المصرية في السودان . فلما اندلعت ثورة عرابي بمصــر، وجدها عثمان دقنة فرصة ، وحاول تأليب الناس على السلطة في سواكن . غير أن محاولته لم تنجح (٢٣٦).

ولقــد كــانت الثورة المهدية تجد التأييد والعطف من بعض رجالات ومفكري الثورة العــرابية ، ومــن هــؤلاء الشيخ محمد عبده . الذي واجه الإنجليز عندما سألوه عن حركة المهدي، وأنها تهدد مصر بالخطر ، فرد عليهم قائلاً : " لا خطر على مصر من حركة المهدي ، إنما الخطر على مصر من وجودكم فيها . وإنكم إذا غادرتم مصر فالمهدي لن يرغب في الهجوم عليها ، ولن يكون في هجومه أدنى خطر ، وهو الآن محبوب من الشعب المصري ، لأنهم يرون فيه المخلص لهم من الاعتداء الأوربي"(٢٣٧).

---

(٢٣٢) مكي شبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل في القرن التاسع عشر ، المرجع السابق، ص ٥٧٥

(٢٣٣) (233) Urabi , A., The Defense Statement of Ahmad Urabi , Egypt, 1982 , p.18.

(٢٣٤) عبد الودود شلبي (الدكتور) : الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ، المرجع السابق ، ص ١٣٠.

(٢٣٥) محافظ الثورة العرابية ، محفظة أوراق تتعلق بالجيش المصري ، الثورة العرابية ، ملف ٦/ ٢ ، ١٨٨٢ ، دار الوثائق القومية ، القاهرة.

(٢٣٦) مذكرات عثمان دقنة ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٧و٨.

(٢٣٧) محمد عبده : مجلة العروة الوثقى ، ص ٢٧٧.

ولقـــد رد جمـــال الديـــن الأفغاني على الإنجليز ، عندما عرضوا عليه إرساله إلى السـودان بصفة سلطان ، للقضاء على فتنة المهدي والتمهيد لبريطانيا في السودان ؛ رد بقوله : " إن السودان ليس ملكاً لبريطانيا حتى تتصرف فيه "(٢٣٨)!

وبعـض الذيـن تم نفيهـم إلى السودان ، من زعماء الثورة العرابية ، انضموا للمهدي ، ومن هؤلاء الشيخ أحمد العوام المصري الذي كان في الخرطوم ، فأعلن تشيعه للـثورة المهدية ، وكتب رسالة بتاريخ ١٧ رمضان ١٣٠١هـ / ١١ يوليو ١٨٨٤م سماها " نصيحة العوام "، أعلن فيها تأييده للمهدي . وتعرض للسجن ، ثم اتهمه غوردون بالتآمر ضد الحكومة ونفذ فيه حكم الإعدام (٢٣٩).

وقـــد أمـــر المهدي بالإبقاء على غوردون حياً ، وغضب لما علم بمقتله (٢٤٠). وذلك لأنه كان يريد أن يفتدي به عرابي الذي كان سجيناً في جزيرة سرنديب .

ولقد كانت ثورة عرابي تجربة ماثلة أمام المهدي ، تظهر مكايد الإنجليز وخداعهم، ومآســي ضعف الخديو توفيق وركونه إليهم ، وتهاون العرابيين في التصدي لهم . ولذلك فقـــد اتبع المهدي أسلوباً حاسماً في مواجهة أعدائه والتخطيط للقضاء عليهم . مما هيأ له أسباب النصر والنجاح .

ومما ساعد على نجاح الثورة المهدية ، عدم تفهم الخديو توفيق والسلطات المصرية والـبريطانية ، لطـبيعة الثورة المهدية ، واعتقدوا أنها حركة "درويش حدث له جذب سماوي" ، ولذلك لم يولوها ما تستحق من اهتمام (٢٤١).

---

(٢٣٨) جمال الدين الأفغاني : مجلة العروة الوثقى ، ص ٣٥.

(٢٣٩) أحمد العوام :

مصري الجنسية ، حسيني الانتساب ، درس في الأزهر ، وشارك في الثورة العرابية ، وكان من خطبائها. ثم نفي إلى الخرطوم . فأعلن تشيعه للثورة المهدية ، وكتب رسالة سماها (نصيحة العوام) ، وجاهر بالعداوة لغوردون ، وتصديق المهدي . اتهم بمحاولة حرق مخازن الذخيرة ، فأمر غوردون بإعدامه فقتل.

انظر : نعوم شقير : تاريخ السودان ، ص ٤٩٦-٤٩٧.

(٢٤٠)إبراهيم فوزي : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ، المرجع السابق ، ص٤٠٥.

(٢٤١) حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٥٣.

وكان لضعف الحاميات العسكرية في السودان أثره في نجاح الثورة المهدية . فقد كـــان عـــدد الجيـــش المصري لا يزيد عن ٤٢,٥٩٩ جندياً ، موزعين على كل أقاليم السودان ، وكان يفتقر للتدريب والتنظيم (٢٤٢).

وفي المقابل كان جيش المهدي ثورياً ، بينما حارب جنود الحكومة بإيمان ضعيف، وتأثـــروا بالشـــائعات عن كرامات المهدي ومعجزاته (٢٤٣). وكان لشخصية المهدي ومقدرته السياسية البارعة ، وقدرته في اختيار الرجال ، أثرها في النصر (٢٤٤).

(٢٤٢) محفظة ١٠٢ ملف ٢/١ وثيقة ٣ ، صفر ١٣٠٠هـ/ ديسمبر ١٨٨٢م . جدول من نظارة الأقاليم السودانية وملحقاقما للمعية السنية في مصر . توجد صورة منه في دار الوثائق القومية ، الخرطوم ٤٤٢/ ١/٩٠ .

(٢٤٣) (243) Hill , R., The Sudan Memeries of Carl Christion Giegler Pasha , (1873-1883) Oxford University Press , London . p.195.

(٢٤٤) حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) ، تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٥٣.

الفصل الثالث

الحكومة المصرية والثورة المهدية

الفصل الثالث

الحكومة المصرية والثورة المهدية

(أ) الحكمدار محمد رؤوف ومواجهة الثورة

أشـــرنا من قبل إلى أن محمد أحمد المهدي بدأ دعوته في غرة شعبان عام ١٢٩٨هـــ ، الموافق ٣٠ يونيو ١٨٨١م ، بإصدار خطابات إلى أصحابه وخلصائه من العلماء ، والفقهاء ، والمتصوفة ، والأعيان ، والمشايخ ، يخبرهم بأنه المهدي المنتظر . ويصف لهم الحضرة التي نصب فيها مهدياً ، مبيناً من خلالها علامات المهدية (١). ويطلب منهم مبايعته على " الجهاد والهجرة معـــه إلى مكان يكون فيه قوام الدين وإصلاح أمر الدارين "(٢). ويبين لهم أن طاعته واجبة (٣). وأن من لم يصدق بمهديته فقد كفر (٤). ويحدد لهم شهر رمضان موعداً للحضور إليه(٥).

١- المحاولة السلمية لمواجهة الدعوة المهدية :

لم يعـــد أمـــر الدعـــوة المهدية سراً ، وكان لابد أن يصل الخبر إلى سلطات الحكومة المصـــرية في الخرطوم . وبالفعل علم الحكمدار محمد رؤوف بدعوة محمد أحمد المهدي . ومن الذيـــن أخـــبروه الشيخ محمد شريف نور الدائم ، الذي كان أستاذاً للمهدي ! وانفصل عنه نتـــيجة الخلاف الذي كان بينهما . فقد بادر محمد شريف بنقل الخبر إلى الحكمدار ، مبيناً له خطورة الأمر ، ومحذراً له من عاقبة الإهمال . ولكن الحكمدار محمد رؤوف ، حمل ذلك على أنـــه نـــوع مـــن الكيد والحسد ، لما بين الرجلين من العداء ، فلم يهتم بالأمر (٦). ولعل

---

(١) مهديـــة ٩/٤/٣٥-٢٧ ص١٠١/صـــادق ، من المهدي إلى محمد الطيب، الصير غرة شعبان ١٢٩٨هـــ/٣٠ يونيو ١٨٨١م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢) مهديـــة ٨/٣/١٧/٦ إنذارات ب ، من المهدي إلى حضرة الأحباب في الله والإخوان في دين الله ، وإلى كافة الأحباب ،١ شعبان ١٢٩٨هـــ/ ، ٣٠ يونيو ١٨٨١م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٣) مهديـــة ٩/٤/٣٥-٢٧ ص ٩٣ صادق ، من المهدي إلى أحبابه في الله المؤمنين بالله وبكتابه ، ١ شعبان سنة ١٢٩٨هـــ/ ٣٠ يونيو ١٨٨١م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٤) مهدية ٩/٤/٣٥/-٢٧ ، ص ١٠١ /صادق من المهدي إلى محمد الطيب البصير (المنشور السابق).

(٥) مهديـــة ٨/٣/١٧/٦ إنذارات ب ، من المهدي إلى حضرة الأحباب في الله والإخوان في دين الله ، وإلى كافة الأحباب ١ شعبان ١٢٩٨هـــ/ ، ٣٠ يونيو ١٨٨١م (المصدر السابق).

(٦) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، دار الجيل ، طبعة جديدة، بيروت ، ١٩٨١م ص ٣٢١.

الحكمدار محمد رؤوف استخف بالأمر، واستبعد أن يقوم درويش فقير ، ضعيف ، بمناصبة الحكومة العداء ، وتهديد نفوذها وسيطرتها(٧).

وبعـــد أن تـــأكد الخبر ، وشاع أمر المنشورات ، بدأ الحكمدار محمد رؤوف يظهر بعض الاهـــتمام للتأكد من أمر محمد أحمد ، ومدى جديته في هذه الدعوة . فأرسل وفداً من قاضي الكوة القريبة من الجزيرة أبا ، ومعه اثنان من العلماء لينظروا بأنفسهم في مدى صحة الخبر . وهناك تأكد لهـــم إصرار محمد أحمد على دعواه ، وحصلوا على بعض خطاباته المحررة بخط يده وختمه إلى بعض الناس ، بأنه المهدي المنتظر ، وأرسلوا هذه الخطابات إلى الحكمدار (٨).

كـــتب الحكمدار محمد رؤوف خطاباً إلى محمد أحمد،يسأله عما نسب إليه من توزيع تلك المنشورات،وقد انتحل له عذراً،لعل بعض الأعداء نسبوها إليه ، ودسوها للوقيعة به. فأجاب محمد أحمد رداً على هذا الخطاب:" وبعد ..فعلي مقتضى المكاتبة ، فالأمر المطلوب كشفه،أن دعائي الخلق عـــلى تقـــويم الســـنة ، والهجرة بالدين،لما عليه الطباع الزمنية ، أمر من سيد الوجود ﷺ. فمن لم يصدق طهره السيف "(٩).

ولما تيقن الحكمدار محمد رؤوف من الأمر، بما لا يدع مجالاً للشك ، سارع وعقد مجلساً في الخـــرطوم من العلماء والمسئولين ، وأطلعهم على كتاب محمد أحمد ، ومنشوراته ، وتدارس معهم الموقـــف ، وطـــلب منهم الرأي و المشورة . وقد حاول بعضهم أن يقلل من أهمية الأمر ، بأنه ربما يكـــون قد حدث لمحمد أحمد جذب سماوي ، من كثرة اعتكافه للعبادة . ولكن المجلس اتخذ قراراً ، بضرورة القبض على محمد أحمد وإخماد الفتنة في مهدها (١٠).

ويرى مكي شبيكة ، أن انعقاد المجلس ، الذي دعا له الحكمدار محمد رؤوف ، كان سابقاً لـــلخطاب الذي أرسله الحكمدار إلى محمد أحمد المهدي . وأن هذا الخطاب تم إرساله إلى محمد أحمد المهـــدي في خطـــوة لاحقـــة ، عندما أرسل الحكمدار وفداً برئاسة أبي السعود ، ومعهم خطاب ، يستدرج فيه المهدي إلى الخرطوم (١١).

---

(٧) Shibeika , M., British Policy in the Sudan , 1882-1902 , ph.D., (London) , Oxford University press , London New York Toranto ,London , 1952 , p.23.

(٨) مكي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، مطبعة الجبلاوي ، القاهرة ، ١٩٧٢م ، ص ٦١ .

(٩) مهديـــة ٩/٤/٣٥-٢٧/ ص ١١٠ صادق ، من المهدي إلى الحكمدارية (الحكمدار محمد رؤوف باشا) ١٠ رمضان ١٢٩٨هـــ/٩ يوليو ١٨٨١م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٠) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، المرجع السابق ، ص ٣٣٦.

(١١) مكي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، المرجع السابق ، ص ٦١.

ويرى الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، أن الخطاب أرسل إلى المهدي في نفس الوقت الـــذي ذهـــب فيه وفد أبي السعود إلى المهدي . ولكنه غير متأكد ، إن كان هذا الخطاب قد حمله أبو السعود معه ، أم أنه أرسل بطريقة أخرى (١٢).

ويـــبدو لـــنا أن الحكمـــدار محمد رؤوف ، عقد هذا المجلس الاستشاري من العلماء والأعيان، بعد أن استنفذ كل الخطوات في استقصاء الحقائق ، وبعد أن تسلم رداً مكتوباً من محمـــد أحمـــد المهـــدي يؤكد فيه أنه المهدي المنتظر . ولعل العبارات التي وردت في خطاب المهـــدي، تشير إلى أن الحكمدار محمد رؤوف ، كان يطلب في رسالته للمهدي كشف حقيقة الأمـــر ، والـــتأكد من صحة ما نسب إليه من إدعاء. وليس هناك ما يشير إلى أنه طلب منه الحضور إلى الخرطوم .

كما أن رد المهدي ، لا يشير إلى أبي السعود والوفد الذي أرسل معه . فقد جاء في رد المهـــدي قوـــله : (على مقتضى المكاتبة ، فالأمر المطلوب كشفه أن دعائي الخلق على تقويم السنة، أمر من سيد الوجود ﷺ، والإعلام بأني المهدي المنتظر) (١٣).

ومـــنطق الأحداث يشير إلى أن ، الوفد الذي أرسل بقيادة أبي السعود ، وكان هدفه اســـتدراج المهدي وإقناعه بتسليم نفسه ، والحضور إلى الخرطوم ، وهذا ما أدى إلى المناقشة الحـــادة بـــين المهدي وأبي السعود ، وما فيها من إغلاظ في القول ، يجعلنا نستبعد أن يكون المهدي قد أرسل رداً مكتوباً في ذلك الوقت .

ويؤيد هولت ما ذهبنا إليه ، بأن الحكمدار دعا لانعقاد مجلس العلماء والأعيان ، بعد تسلمه رد المهدي على خطابه ، بأنه المهدي المنتظر (١٤).

صـــدر قرار المجلس كما رأينا بضرورة القبض على محمد أحمد المهدي ، والقضاء على الفتـــنة ، ولـــهذا ، رأى الحكمدار محمد رؤوف إرسال محمد بك أبي السعود ، وكان معاوناً للحكمدارية ، وهو من الذين خبروا منطقة النيل الأبيض ، وله معرفة بأخوة الشيخ محمد أحمد

---

(١٢) محمـــد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، الطبعة الثالثة ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، مطبعة جامعة الخرطوم ، ١٩٨٩م ، ص ٣٤.

(١٣) مهدية/٩/٤/٣٥-٢٧/ ص١١٠ صادق ، من المهدي إلى الحكمدارية (الحكمدار محمد رؤوف باشا) ١٠ رمضان ١٢٩٨هـــ/ ٩ يوليو ١٨٨١م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٤) (14)Holt , P.M. The Mahadist State in The Sudan , (1881-1898) , Second Edition , Clarendon Press . Oxford , 1970, P.55.

المهـــدي . وتم تكـــليفه بالذهـــاب إلى الجزيرة أبا ، ومعه بعض أقرباء المهدي في الخرطوم ، والفشاشـــوية . وذلك لمراجعة محمد أحمد المهدي ، وإقناعه بالعدول عن دعوته ، والاستجابة لطلب الحكمدار بالحضور إليه في الخرطوم (١٥).

ولما وصل أبو السعود ومن معه إلى الجزيرة أبا ، في يوم الأحد ١١رمضان عام ١٢٩٨هـــ الموافق ٧أغسطس ١٨٨١م ، التقى بمحمد أحمد المهدي ، وحوله تلاميذه وأتباعه. وكان محمد أحمد مصراً على رأيه ، متمسكاً بدعوته ، فلم تفلح كل محاولات أبي السعود ومن معه في إقناعه بالعدول عن دعوته ، والامتثال لأمر الله سبحانه ، بضرورة طاعة " أولى الأمر ". وقد استشهد أبو السعود بالآيـــة الكريمة { يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول و أولى الأمر منكم } (١٦). فرد عليه المهدي قائلاً : "أنا ولى الأمر فيكم ، الذي تجب طاعته على جميع الأمة المحمدية " (١٧)! وكان المهدي يتحدث وهو يمسك بقائم سيف كان معه (١٨).

لقد كان رد المهدي حاسماً ، وفاصلاً . فهو بذلك لا يعلن العصيان أو الثورة فحسب، وإنمـــا يضع نفسه فوق الحكمدار وحكومته ، مما أثار دهشة الحاضرين ومفاجأتهم ! ودفع أبا الســـعود إلى الحـــدة والـــتهديد، وإغلاظ القول ، فخاطب المهدي قائلاً : " ارجع عن هذه الدعـــوى ، فإنك لا تطيق حرب الحكومة ، ولا نرى معك من يقاتلها "! فأجابه المهدي وهو يبتسم : " أنا أقاتلكم بهؤلاء " . ثم التفت إلى أصحابه وقال متسائلاً : " أنتم راضون بالموت في سبيل الله ؟ " فأجابوا كلهم : "نعم . راضون بالموت في سبيل الله " . فالتفت المهدي إلى أبي الســـعود وقـــال له : " قـــد سمعت ما أجابوا به " (١٩). ثم قال : "فارجع إلى ولى أمرك في الخرطوم وأخبره بما رأيت وسمعت "(٢٠)!

وموقـــف المهدي في هذه المواجهة مع أبي السعود ، إنما ينطلق فيه من مبادئه ودعوته الـــتي أعلنها في خطاباته لأصحابه وخلصائه و أحبابه ، يعلن فيها مهديته حاثاً لهم على الهجرة

---

(١٥) محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، المرجع السابق ، ص ٣٤.

(١٦) سورة النساء ، الآية رقم ٥٩.

(١٧) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٢م ، ص ١١٨.

(١٨) نفس المرجع ، ص ١١٩.

(١٩) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، المرجع السابق ، ص ١١٨.

(٢٠) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ،المرجع السابق ، ص ٣٣٧.

والجهاد (٢١). وما جاء في رسائله ومنشوراته من بعد ، ومنها رسالته إلى موسى محمد الأحمر في ١٦شعبان ١٢٩٩هـ الموافق ٣يوليو ١٨٨٢م ، والتي يقرر فيها أن طاعة الترك بعد ظهوره كفر وضلال (٢٢). ومنشوره إلى أحبابه في الله كافة ، بتاريخ ٢١ذى الحجة سنة ١٢٩٩هـ الموافق ٣نوفمبر ١٨٨٢م ، يأمرهم فيه بأن يقاطعوا كل من أطاع الترك ، وأن يحاربوا الترك أينما وجدوهم، وأن يتبعوا الشرع (٢٣). وكذلك منشورة إلى عمد ، وعلماء، وتجار ، وفقرا ، الأبيض بتاريخ ١٦شوال سنة ١٢٩٩هـ الموافق ٣١أغسطس سنة ١٨٨٢م ، وقد جاء في مطلعه قوله : "أنه قد أيدني الله تعالى بالخلافة الكبرى"(٢٤).

ويؤكد في خطابه إلى يوسف حسن الشلالي بتاريخ ٤رجب عام ١٢٩٩هـ الموافق ٢٢مايو ١٨٨٢م ، "أنه ولى الأمر فلا يأمره أحد "(٢٥).

ولا ريب أن موقف المهدي هذا أكد لأبي السعود ، إصرار المهدي وأصحابه على دعوتهم ، واستعدادهم لقتال الحكومة. فما كان من أبي السعود ، إلا أن تجرع مرارة الفشل وعاد مسرعاً إلى الخرطوم ، هو ومن معه ليقص على الحكمدار محمد رؤوف ، ما رآه وسمعه، بعد أن أبرق إليه بالنتيجة من الكوة (٢٦).

لم يكتب لهذه المحاولة السلمية النجاح في إقناع محمد أحمد المهدي ، بالتخلي عن دعوته، وتسليم نفسه للحكومة في الخرطوم . ويفهم من رد محمد أحمد المهدي أنه واثق من نفسه ، وعزيمة أتباعه ، وأنه شديد التمسك بمهديته ، وأنه عازم على القضاء على "الترك " بحد السيف (٢٧).

---

(٢١) مهدية ٩/٤/٣٥-٢٧ / ص ٩٥ صادق / من المهدي إلى حضرة الأحباب في الله والإخوان في دين الله، وإلى كافة الأحباب، ١ شعبان ١٢٩٨هـ/ ، ٣٠ يونيو ١٨٨١م.

(٢٢) مهدية ٨/٣/٢٠ ، ٢٦ إنذارات ب ، من المهدي إلى موسى محمد الأحمر ، ١٦ شعبان سنة ١٢٩٩هـ/ ٣ يوليو ١٨٨٢م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢٣) مهدية ٨/١/٥ ٢١ بيل ، من المهدي إلى أحبابه في الله كافة بتاريخ ٢١ذي الحجة ١٢٩٩هـ/ ، ٣نوفمبر ١٨٨٢م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢٤) مهدية ٨/٣/٢٠ ، ٣٨ إنذارات ب ، من المهدي إلى عمد وعلماء وتجار وفقرا الأبيض بتاريخ ١٦ شوال سنة ١٢٩٩هـ/٣١ أغسطس ١٨٨٢م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢٥) مهدية ٨/٣/٢٠ ، ١٨ إنذارات ب ، من المهدي إلى يوسف حسن الشلالي ٤ رجب سنة ١٢٩٩هـ/٢٢ مايو ١٨٨٢م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢٦) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ،المرجع السابق ، ص ٢٥٦.

(٢٧) مهدية ١٣ / إنذارات ب ، من المهدي إلى الحكمدارية (محمد رؤوف باشا) . بتاريخ ١٠ رمضان ١٢٩٨ هـ/ يوليو ١٨٨١م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

وبهـذا التحدي أدرك الحكمدار محمد رؤوف ، خطورة الموقف ، فقرر إرسال حملة عسكرية إلى الجزيرة أبا، للقبض على محمد أحمد المهدي بالقوة ، وإحضاره إلى الخرطوم . وبهـذا فقـد دخلت المواجهة بين محمد أحمد المهدي والحكومة التركية المصرية في السودان ، طوراً جديداً ، وهو طور الصدام المسلح .

٢- واقعة الجزيرة أبا (١٦ رمضان ١٢٩٨هـ/١٢ أغسطس ١٨٨١م):

أعـد الحكمدار محمد رؤوف حملة عسكرية تتكون من بلوكين من الجنود ، على رأس كـل (بـلك) ضابط برتبة صاغ ، وعهد إلى محمد بك أبي السعود بقيادة الحملة . وتم نقل الجنود على باخرة إلى الجزيرة أبا ، للقبض على محمد أحمد المهدي، وإحضاره إلى الخرطوم . وفي نفس الوقت أرسل الحكمدار محمد رؤوف ، برقية إلى الخديو توفيق في القاهرة ، يخبره بأمر المهدي، ويبين له الإجراءات والخطوات التي اتخذها للقضاء عليه (٢٨).

ومـع أن هـذه الإجراءات التي اتخذها الحكمدار محمد رؤوف كانت أكثر جدية من موقفه السابق من الدعوة المهدية (٢٩). إلا أنه يبدو لنا أن الحكمدار محمد رؤوف ، ما زال عـلى قناعة تامة بسهولة القضاء على حركة المهدي ، وإمكانية القبض عليه ، وإحضاره إلى الخرطوم "بدون زعزعة " وإذا لزم الأمر ، " إحضاره بالقوة الجبرية " (٣٠).

وتختـلف الروايات حول عدد جنود الحملة العسكرية التي أرسلها محمد رؤوف إلى الجزيرة أبا ، فبعضهم يرى أن عددهم حوالي مائتين من الجنود (٣١). بينما يرى آخرون أن عددهم يتراوح بين ٦٥٠- ٨٥٠ جندياً (٣٢).

---

(٢٨) دار الوثـائق القوميـة ، القاهـرة ، دفتر ، ٤ ، وارد تلغرافات عن سنة ١٨٨١م .بتاريخ ١٤ أغسطس ١٨٨١م.

(29)Theobald , A.B., The Mahadiya ,(Ahistory of the Anglo Egyptions Sudan 1881- 1899) Longmans Green and co , New York Toranto London, 1949 , P.34. (٢٩)

(٣٠) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر ٤ وارد تلغرافات عن سنة ١٨٨١م ،بتاريخ ١٤أغسطس ١٨٨١م.

(٣١) بشـير كوكـو حميـدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ، دار الإرشاد الخرطوم ، مطابع معتوق إخوان ، لبنان ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ١٤٥.

وانظـر :عـبد الرحمن الرافعي: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، مصر ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م ، ص ١٠٤.

(٣٢) محمد سعيد القدال (الدكتور) : الإمام المهدي ، مطبعة جامعة الخرطوم ، ١٩٨٥م ، ص ٨٨ .

ويبدو لنا أن التقدير الأخير مبالغ فيه ، حيث أن الوثائق الرسمية تشير إلى أن عدد القتلى من جند الحكومة (مائة وعشرون عسكرياً وستة ضباط) ، وهم معظم من اشترك في الحملة (٣٣). مما يجعلنا نرجح الرواية التي تشير إلى أن عدد جنود الحكومة الذين أرسلوا إلى الجزيرة أبا في هذه الحملة لا يزيد على المائتين .

أما محمد أحمد المهدي ، فقد تيقن أن الحكومة التركية في الخرطوم ، سترسل إليه قوة عسكرية ، فجمع أنصاره وخطب فيهم قائلاً : " أيها الناس ، إن الترك رجعوا لطلب مدد ، وسيعودون لحربنا فمن كان منكم خائفاً على أولاده ، وأمواله، فليخرج منا ، فنحن سامحون له، وبيعتنا التي في أعناقكم ليس عليكم فيها حرج . فإن سَلمنا فعودوا إلينا". فأجابوا جميعاً بأنهم بايعوه على الموت ، وراضون به ، ومطيعون لخليفة رسول الله (٣٤).

ويتضح من ذلك أن المهدي كان فطناً ذكياً ، بعيد النظر ، وهو يهيئ اتباعه للقتال والمواجهة ، ويعدهم للجهاد والصبر وتحمل المشاق ، عن رضا وطواعية .

ولم يلبث أن علم المهدي ، بنبأ الحملة العسكرية التي أعدها محمد رؤوف ، حكمدار الخرطوم ، وهي في طريقها إلى الجزيرة أبا . وقد أخبر المهدي بنبأ هذه الحملة ، الدناقلة الذين كانوا يعملون في صناعة المراكب بقرية الفاشاشوية ، وشاهدوا الوابور الذي كان يحمل الجنود عندما مر بقريتهم ، متجهاً نحو الجزيرة أبا (٣٥).

استنفر المهدي القبائل المجاورة ، من دغيم ، والحسنات ، والحسانية ، ودويح ، وغيرهم ونظم رجاله استعداداً للحرب. واستشار أصحابه ، فأشار بعضهم بالخروج من الجزيرة أبا إلى جهة الغوب ، ولكن المهدي اتخذ قراره بالبقاء في الجزيرة . والقتال من داخلها، وبشر أصحابه بالنصر ، ووعدهم ببعض المعجزات(٣٦).

وفي ليلة الجمعة السادس عشر من رمضان ١٢٩٨هـ /١٢أغسطس ١٨٨١م ، وبعد صلاة التراويح أمر بتجهيز الجيش والاستعداد للحرب (٣٧). وأمر بخروج الجيش من الحلة التي

---

(٣٣)دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر قيد التلغرافات ، الشفرة الواردة ابتداءً من ٢٧ يونية سنة ١٨٧٩هـ/ ١٥ أغسطس ١٨٨١م/١٩ رمضان ١٢٩٩هـ .

(٣٤) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، المرجع السابق ، ص ١٢٢.

(٣٥) مكي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، المرجع السابق ، ص ٦.

(٣٦) رواية الدكتور أحمد شمس الدين الشيخ ، عن والده وأجداده الذين شاركوا في هذه الموقعة . (مقابلة بتاريخ ٢٦/٨/٢٠٠٠م).

(٣٧) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ،المرجع السابق ، ص ١٢٥.

أقام فيها النساء والصبيان ، ليكون بالجهة الشرقية (٣٨). كما أمر بحمل الرايات ، ومشى خلفها الأنصار وغرزوها أمام القرية ، وجلسوا وراءها متوارين عن الأنظار استعداداً للقاء العدو (٣٩).

وفي هـــذه الأثناء ، وصلت الباخرة التي كانت تقل عساكر الحكومة قبيل الفجر من يـــوم الجمعة ١٦ رمضان ١٢٩٩هــ ١٢أغسطس ١٨٨١م . ونزل جنود الحكومة التركية إلى أرض الجزيـــرة أبـــا ، في ارتـــباك وســـوء نظـــام ، واخـــتلاف على القيادة ، وعصيان للأوامـــر(٤٠). ويشـــير إلى ذلك سلاطين باشا ، الذي عاصر هذه الأحداث ،قائلاً " كان الضابطان كلاهما يجهلان المكان ، وكلاهما يرغب في الحصول على رتبة بكباشي ، إذا هو نجح في القبض على محمد أحمد المهدي . فسارا في طريقين مختلفين على الشواطئ المتوحلة "(٤١). وقد أدى الارتباك إلى أن تطلق كل من الكتيبتين النار على بعضهما البعض ، دون أن تدري ، مما أدى إلى خسائر كبيرة بين الطرفين من جند الحكومة (٤٢).

ولمـــا توغل عساكر الحكومة داخل الجزيرة أبا ، فاجأهم أنصار المهدي الذين كانوا مختبئين وراء الأشجار ، وحملوا عليهم حملة رجل واحد ، بالسيوف ، والحراب ، والعصي . ولم يتمكن جند الحكومـــة ، من استخدام السلاح الناري ، وتخبطوا في السير في الأرض الموحلة، مما أدى إلى مقتل معظمهـــم ، ولم يـــنج منهم إلا القليل ، الذين لحقوا بأبي السعود في الباخرة . وعادت بهم الباخرة بأقصى سرعتها ، حاملة هذه الأخبار المثيرة (٤٣)!

ولقـــد كـــان ذلـــك نصراً كبيراً للمهدي وأنصاره ، فبينما فقدت الحكومة مائة وعشرين جندياً، وستة ضباط (٤٤). لم يفقد المهدي إلا عدداً قليلاً من رجاله ، قُدِّر باثني عشر رجلاً فقط ، وغـــنم مجموعة من الأسلحة النارية ، مما جعل الناس يعتبرون هذا النصر كرامة من كرامات

---

(٣٨) نفس المرجع ، ص ١٢٦.

(٣٩) مكي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، المرجع السابق ، ص ٦.

(٤٠) المخابـــرات المصرية ، ١١٩/١١ ، مذكرة بتاريخ ١٣ جمادى الآخرة ١٣٠١هــ/ ١٥ إبريل ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٤١) ســـلاطين باشـــا : السيف والنارفي السودان تعريب جريدة البلاغ ، مكتبة الحرية ، أم درمان ، الخرطوم ، ١٩٢٠م ، ص ٥٠.

(٤٢) نفس المرجع السابق ، ص ٥٠.

(٤٣) (34)Theobald , A.B., The Mahadiya ,op . cit . ,p.34.

(٤٤) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهرة ، دفتر قيد التلغرافات الواردة ، الشفرة الواردة ابتداءً من ٢٧ يونية سنة ١٨٧٩م ، بتاريخ ١٩ رمضان ١٢٩٩هــ/ ٥ أغسطس ١٨٨١م.

المهدي ، ودليلاً على صدق مهديته (٤٥). كما أن بعض أنصار المهدي شبَّه واقعة أبا ، بغزوة بدر الكبرى ، التي حدثت في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، إذ انتصرت الفئة القليلة المؤمنة ، بقيادة الرسول ﷺ ، على الفئة الكثيرة المشركة من قبيلة قريش (٤٦).

ويـــروي إسماعيل عبد القادر الكردفاني ، رواية أخرى لدخول الحملة العسكرية إلى الجزيـــرة أبـــا ، واصفاً الحملة بالانضباط والنظام التام ، إذ يقول : " ثم إن الترك خرجوا من الطـــابور وترتبوا على حسب قوانينهم الحربية ، مشكلين قلعتهم بأوضاع هندسية ، مترتبين صفوفاً ، على طبق قواعدهم العسكرية)(٤٧).

ويـــبدو لـــنا أن الكـــردفاني ، وهو يهدف إلى إظهار كرامات المهدي ، يصور جند الحكومـــة بـــأنهم كـــانوا في غاية الانضباط والنظام ، وأن انتصار المهدى عليهم ليس بسبب الفوضـــى والارتـــباك ، وإنما بسبب التأييد الرباني للمهدي ، وذلك ليرفع من قدر النصر ، ويرقى به إلى مستوى المعجزة .

وممـــا يؤكـــد ما ذهبنا إليه من سوء تنظيم الحملة ، التقرير الذي أشرنا إليه من قبل ، والـــذي أوردته المخابرات المصرية في مذكرة بتاريخ ١٣جمادي الآخرة ، ١٣٠١هـــ/ إبريل ١٨٨٣م ، تؤكـــد بـــأن جند الحكومة ، كانوا في غاية الارتباك وسوء النظام(٤٨). وهذا ما رواه أيضـــاً ســـلاطين باشـــا ، وهو من العناصر المشاركة في الحكومة التركية في السودان آنذاك(٤٩).

وهـــذا الـــرأي الذي أوردناه لا يقلل من فعالية نصر المهدي ، ولا يجرد المهدي من عبقريته الحربية ، إذ أن ارتباك الحملة ، لم يكن وحده العنصر الحاسم في انتصار المهدي وهزيمة الحملة التركية في الجزيرة أبا ، وإنما كانت هناك عوامل أخرى ساعدت على النصر ، مثل دقة الـــتخطيط ، والتنظـــيم ، وصدق العزيمة ، واستغلال ظروف الجزيرة أبا في فصل الخريف ، واســـتخدام عنصر المفاجأة . كل ذلك كان له أثره الواضح في تحقيق النصر للمهدي . وقد

---

(٤٥) محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ،المرجع السابق ، ص ٣٥.

(٤٦) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ،المرجع السابق ، ص ١٣٤.

(٤٧) نفس المرجع ، ص ١٢٦.

(٤٨) المخابـــرات المصرية ، ١١٩/١١ ، مذكرة بتاريخ ١٣ جمادى الآخرة / ١٥ إبريل ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية ، القاهرة.

(٤٩) سلاطين باشا : السيف والنارفي السودان المرجع السابق ، ص ٥٠.

رؤوف أسباب هزيمة جند الحكومة ، معللاً ذلك بعدم امتثالهم للأوامر بإطلاق النار على أنصار المهدي ، بحجة " أنهم دراويش فقراء لا يصح ضربهم "(٥٧)!

ومحمد رؤوف باشا ، بهذا التعليل لهزيمة جنده ، يحاول أن يحافظ على منصبه ، وأن يداري ضعفه ، وأن يقلل من نصر المهدي(٥٨).

ولا ريب أن هناك أسباباً متعددة أدت إلى هزيمة جند الحكومة . أهمها الأخطاء الحربية، التي ارتكبتها سلطات الحكومة التركية في الخرطوم (٥٩). ولعل أول هذه الأخطاء الحربية التي ارتكبت ، اختيار أبي السعود ليكون قائداً على هذه الحملة . فهو إلى جانب ضعف خبرته العسكرية ، كان متأثراً بصلاح محمد أحمد المهدي ، و استقامته ، وحسن سيرته(٦٠). وأنه ربما كان مصاباً بالرعب ، منذ لقائه السابق لمحمد أحمد المهدي ، حيث أعلن له محمد أحمد ، أنه ولى أمر البلاد الذي تجب طاعته (٦١)!

وقد أثر ذلك على دور أبي السعود في قيادة الحملة . فهو لم يباشر أي دور إيجابي ، وإنما " وقف بالباخرة في وسط النهر ، ومعه مدفعه" (٦٢). وقد وصف هولت موقفه هذا ، بأنه بقى في السفينة ، كما لو كان حكماً بين فريقين(٦٣)!

ولعل من أكبر الأخطاء الحربية ، اختيار ضابطين برتبة واحدة لقيادة البلوكين اللذين تكونت منهما الحملة ، وإذكاء روح المنافسة بينهما ، للظفر برتبة بكباشي لمن يسبق بالقبض على المهدي . مما جعل كلاً منهما يتصرف بخلاف القواعد المرعية في الانضباط العسكري ، وإطلاق كل منهما الرصاص على الآخر دون أن يدري !

وعليه فقد كان الخلل يكمن في سوء الإدارة ، وتعدد القيادة و اختلافها ، كما تشير الإفادة غير الرسمية ، من سعادة الناظر بديوان نظارة حكمدارية الأقاليم السودانية وملحقاتها ،

---

(٥٧) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، دفتر قيد التلغرافات ، الشفرة الواردة ابتداءً من ٢٧ يونيه سنة ١٨٧٩م بتاريخ ١٩ رمضان ١٢٩٩هـ/ ١٥ أغسطس ١٨٨١م .

(٥٨) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ، المرجع السابق ، ص ١٤٥.

(٥٩) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ،المرجع السابق ، ص ٢٥٩.

(٦٠) نفس المرجع ، ص ٢٥٥.

(٦١) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٥٠.

(٦٢) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٥٠.

(٦٣) (63) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.56.

بتاريخ غرة شوال ١٢٩٩هـ/ ٢٥ أغسطس ١٨٨١م والتي جاء فيها : "العساكر لم تنجح أمام الشقي محمد أحمد لسوء إدارة رؤسائهم " (٦٤). وتعدد هؤلاء الرؤساء "واختلاف الأفكار ، وتوجه جماعة كل بلوك في جهتها بدون انتظام "(٦٥).

ومما زاد من حرج الحكومة ، الضيق الذي أصاب البلاد ، بسبب انخفاض فيضان نهر النيل ، واحتباس الأمطار آنذاك ، وانتشار التذمر ضد الحكومة ، وتحفز الناس للثورة ، وانشغال الحكومة المصرية بثورة عرابي في مصر (١٨٨١م)، مما جعل إرسال أي إمدادات عسكرية للسودان ، أمراً بعيد المنال (٦٦).

على أن الحكومة المصرية في السودان ، كان لابد لها أن تتحرك سريعاً للقضاء على المهدي . وبات واضحاً أن الحكومة المصرية في السودان لن تبقى سلبية ، وأنها سترسل قوة أكبر للقضاء على المهدي (٦٧).

وبالفعل فقد اهتم الحكمدار محمد رؤوف ، بإرسال قوة جديدة بقيادة القائمقام علي بك لطفي إلى الكوة ، قوامها خمسمائة رجل من العساكر المنظمة والباشبوزق . وأرسل محمد رؤوف برقية إلى محمد سعيد باشا ، مدير كردفان ، فوافاه بالكوة، على رأس ألف من العساكر المنظمة وثلاثمائة من الباشبوزق فأمره محمد رؤوف بالذهاب إلى الجزيرة أبا ، ليتحقق من خلوها من المهدي وأنصاره ، وليقف على تفاصيل الواقعة وآثارها (٦٨).

٣- هجرة المهدي إلى قدير:

لقد أيقن محمد أحمد المهدي أن الحكومة سترسل إليه حملة عسكرية أخرى في الجزيرة أبا للقضاء عليه . ورأى أن الجزيرة أبا لا تصلح لمواجهة حملة كبيرة . وكان من رأى عبد الله التعايشي، وأخوة المهدي ، ضرورة الابتعاد عن الجزيرة أبا إلى مكان يصعب على الحكومة التركية

---

(٦٤) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، ديوان نظارة وحكمدارية الأقاليم السودانية ، وملحقاتها ، إفادة غير رسمية من سعادة الناظر بتاريخ غرة شوال ١٢٩٩هـ/٢١ أغسطس ١٨٨١م .

(٦٥)دار الوثائق القومية ، القاهرة ، ديوان نظارة وحكمدارية الأقاليم السودانية ، نفس الوثيقة بتاريخ غرة شوال ١٢٩٩هـ/٢١ أغسطس ١٨٨١م .

(٦٦) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص ٢٤٦.

(٦٧) (67) Theobald , A.B., The Mahadiya , op. cit ., p.35

(٦٨) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، المرجع السابق ، ص ٣٤٠-٣٤١.

الوصول إليه (٦٩). وبذلك فقد أعلن المهدي لأنصاره أمره بالهجرة قائلا : " إن سيد الوجود صلى الله عليه وسلم أمرنا بالهجرة إلى جبل ماسا بلصق قدير"(٧٠).

ولم يكن التفكير في الهجرة أمراً طارئاً أو جديداً على الأنصار ، فقد سبق أن أشار المهدي في خطاباته ، إلى ضرورة الهجرة إلى مكان يكون فيه (قوام الدين) ومن ذلك خطابه إلى حضرة الأحباب الذي يقول فيه : "أشار لنا صلى الله عليه وسلم إلى محل يكون فيه قوام الدين وإصلاح أمر الدارين . وذكر لنا الارتحال إليه بالغرب "(٧١). وأيضاً خطابه إلى العقلاء الكرام بتاريخ رمضان ١٢٩٨هـ / يوليو ١٨٨١م ، والذي جاء فيه: "أشار لنا صلى الله عليه وسلم إلى محل يكون فيه قوام الدين وصلاح أمر الدارين "(٧٢).

وفي خطاب آخر بنفس التاريخ تقريباً ورد قوله: "أمرني سيد الوجود ﷺ ، بمكاتبة المسلمين ودعوتهم إلى الهجرة معنا ، إلى محل يكون فيه قوام الدين وإصلاح أمر الدارين"(٧٣).

والمهدي في هجرته إلى قدير يتشبه بالنبي ﷺالذي هاجر من مكة إلى المدينة المنورة عندما ضيق عليه الكفار الخناق (٧٤). وقد جاء في خطابات المهدي ما يشير إلى الربط بين هجرته وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ذلك قول المهدي في أحد خطاباته : "ونبينا محمد ﷺ، لما خرج من أهله وهاجر من دياره عوضه الله ما لا يخفى " (٧٥).

وقد خطط المهدي لهجرته قبل إعلان الدعوة المهدية ، من خلال زياراته ورحلاته إلى كردفان ، كما أنه اختار فصل الأمطار لإشهار دعوته ، حتى يصعب على الحكومة ملاحقته،كما أنه اختار جبال النوبة مكاناً للهجرة ، لتكون ملاذاً حصيناً يعتصم به هو و أنصاره ، بعيداً عن سطوة

---

(٦٩) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٥١.

(٧٠) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، المرجع السابق ، ص ١٢٩.

(٧١) مهدية /٦/١٧/٣/٨ إنذارات ب ، من المهدي إلى حضرة الأحباب في الله والإخوان في دين الله ، شعبان ١٢٩٨هـ/٣٠ يونيو ١٨٨١م،دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٧٢) مهدية ٧/١٧/٣/٨ إنذارات ب ، من المهدي إلى العقلاء الكرام ، بتاريخ شعبان ١٢٩٨هـ/ ٣٠ يونيو ١٨٨١م ،دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٧٣) مهدية ٤/١٦/٣/٨ منشورات ، من المهدي إلى أحبابه في الله المؤمنين بالله وكتابه ، بتاريخ شعبان ١٢٩٨ هـ/ ٣٠ يونيو ١٨٨١م –٢٨ يوليو ١٨٨١م.

(٧٤)حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٥٤.

(٧٥) مهدية ٤/١٦/٣/٨ منشورات ،من المهدي إلى أحبابه في الله المؤمنين بالله وكتابه،بتاريخ شعبان ١٢٩٨هـ/ ٣٠ يونيو ١٨٨١م؛دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

الحكومة . ويرى بعضهم ،أن الهجرة كانت تخطيطاً عظيماً وحركة هامة بالنسبة لمسيرة الدعوة المهدية ،فلا غرو فقد قام بها المهدي مستغلاً مناخ المنطقة السياسي والقبلي والطبيعي(٧٦).

عـــبر المهدي وأنصاره نهر النيل الأبيض إلى الغرب ، وانضمت إليه بعض قبائل دغيم وكنانة والحسنات ، وساروا إلى جهة الغرب . وعند مرورهم بديار الجمع ، رفض عساكر أبو كـــلام شيخ قبيلة الجمع ، مرور المهدي وأصحابه بمنطقته ، لأنه كان موظفاً من قبل الحكومة الـــتركية ويخشى عقابها ، ولهذا فقد اضطر المهدي وأنصاره إلى المرور من منطقة دار الأحامدة الذيـــن قابلوا المهدي بالإكرام والترحاب (٧٧). وكتب المهدي ، فيما بعد ، إلى عساكر أبو كلام ، يوبخه على " ركونه إلى الترك "، ويطلب منه اللحاق به سريعاً (٧٨).

ولما وصل المهدي حدود جبال تقلى ، استأذن ملكها ، الملك آدم أم دبالو ، في المرور بأرضه ، فرحب به ، وعرض عليه الإنتقال إلى مكان حصين في الجبال يسمى (بطن أمك) وهو مكان حصين يحتمي به أهل تقلى من الحكومة ، فلا تنالهم جيوشها مهما حاولت (٧٩).

٤- مطاردة الحكومة للمهدي :

وضـــحنا من قبل أن الحكمدار محمد رؤوف ، طلب من محمد سعيد باشا مدير كردفان أن يوافيـــه بـــالكوة . ثم أمـــره بالذهـــاب إلى الجزيرة أبا ، في ألف من العساكر المنظمة وثلاثمائة من الباشيوزق ، ليتأكد من خلوها من المهدي وأنصاره ، ويقف على تفاصيل الواقعة (٨٠).

و هناك رواية أخرى تبدو مختلفة عما ذهبنا إليه ، أوردها مكي شبيكة . وهي أن الحكمدار محمد رؤوف ، بعد واقعة الجزيرة أبا ، " أبرق لمدير كردفان ليسد الطرق المؤدية لجبال النوبة ، لأنه علم بأن المهدي ينوي الهجرة بأتباعه إليها "(٨١). ويفهم من هذه الرواية لمكي شبيكة ، أن يتوجه مدير كردفان فورا لقطع الطريق على المهدي وأتباعه ، قبل دخولهم منطقة جبال النوبة القريبة من الأبيض والتابعة لإدارة محمد سعيد باشا . وهذا أمر ، فيما يبدو لنا ، لم يحدث .

---

(٧٦) محمد سعيد القدال (الدكتور) : الإمام المهدي ، المرجع السابق ، ص ٩٤.

(٧٧) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ،المرجع السابق ، ص ٢٦٠.

(٧٨) مهديـــة ، ٧٤ ، فيوضـــات ، ٤ ، من المهدي إلى عساكر أبو الكلام غرة جماد أول سنة ١٢٩٩هـــ/٢١ مارس ١٨٨٢م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٧٩) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ، المرجع السابق ، ص ١٤٦.

(٨٠) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ،المرجع السابق ، ص ٣٣٩.

(٨١) مكي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ،المرجع السابق ، ص ٦٤.

هذا وقد استقر المهدي أخيراً في جبل قدير ، بعد القضاء على منافسه الفكي المختار ، الذي كان يحتكر منطقة جبل الجرادة ، بالقرب من جبل قدير ، كمرشد وشيخ طريقة . وقد رحب الملك ناصر ، حاكم جبل قدير ، بالمهدي وبايعه وأحاطه بالحفاوة والإكرام ، كما بايعه سكان الجبال والعربان . وبدأت الوفود تتقاطر على المهدي لمبايعته من مختلف أنحاء السودان. وأمر ببناء مسجد هناك (٨٧).

وهكذا خسرت الحكومة معركة المطاردة ، لمنع المهدي من الوصول إلى قدير ، وتمكن المهـــدي من الوصول إلى قدير في ٧ ذي الحجة ١٢٩٨هـــ / ٣١ أكتوبر ١٨٨١م ، ليبدأ مرحلة جديدة من الصراع ضد الحكومة التركية في السودان (٨٨).

وفي قديــــر أعلن المهدي لأصحابه عن تغيير اسمه من محمد أحمد بن عبد الله إلى "محمد المهدي " بن عبد الله – بأمر من النبي ﷺ. في حضرة نبوية (٨٩).

وكان من نتائج هذه الهجرة انتقال مسرح الأحداث من النيل إلى غرب السودان ، وبروز شخصيات لها ارتباط بالغرب كالخليفة عبد الله التعايشي ، وضعف تأثير الطرق الصوفية التي كان مســـرحها مـــنطقة الجزيرة ، كالسمانية ، مما عجل بإلغائها . كما حقق المهدي أهدافاً إستراتيجية وسياســـية ، فضلاً عن تأكيد ظهوره من جبل ماسا بالقرب من جبل قدير . وصار الغرب ، المنطقة التقليدية والثقل الرئيسي لأنصار المهدي (٩٠). حيث أصبحت الهجرة إلى قدير ، في هذه المرحلة، أمراً أساسياً مطلوباً من " جميع المكلفين " كما أشار المهدي في منشوراته (٩١).

٥- حملة راشـــد(١٦ محرم ١٢٩٩هـــ / ٩ديسمبر ١٨٨١م) :

عـــلم راشـــد بك أيمن ، حاكم فشودة ، باستقرار المهدي في قدير ، التي كانت تتبع لـــلمديرية التي يحكمها . وتقع على مسيرة خمسة أيام من فشودة . فراودته الفكرة في تحقيق نصـــر حربي ، بالقضاء على المهدي مستفيداً من عنصر المفاجأة . ورغم أن الحكمدار محمد رؤوف

---

(٨٧) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ،المرجع السابق ، ص ١٤٨.

(٨٨) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , (1881-1898), op. cit . , p.56

(٨٩) دار الوثـــائق القومية ، الخرطوم ، مهدية ٨ ، باريس . من محمد المهدي إلى أصحابه بتاريخ ٣٠ ذي الحجة ١٢٩٩هـــ/٢٣ نوفمبر ١٨٨٢م.

(٩٠) محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، المرجع السابق ، ص ٣٤-٣٥.

(٩١) مهدية ، ٢٤/١٧/٣/٨ إنذارات (أ) ، من المهدي إلى كافة من يرغب في الله من أهالي خور الطير وغيرهم، جماد الآخرة ١٢٩٩هـــ/٢٠ إبريل ١٩ مايو ١٨٨٢م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم.

رفض السماح له بمهاجمة المهدي ، إلا أن راشد بك قرر الدخول في مغامرة منفردة ، لما علم أن أنصار المهدي يعانون من الحمى والضعف . ومن ثم جهز نحو ٤٠٠ (أربعمائة) جندي من العساكر النظامية ، وألفاً من قبيلة الشلك بقيادة ملكهم كيكون ، وزحف بهم إلى قدير ، متوخياً السرية والكتمان ، والسرعة ، لمباغتة المهدي (٩٢).

بيد أن محمد المهدي ، علم بأمر الحملة من مصدرين . أولهما ، إمرأة من قبيلة كنانة ، تدعى رابحة ، أسرعت سائرة النهار بأكمله ، وثلثي الليل ، لتخبر المهدي بنبأ الحملة . وأما المصدر الثاني فهو الملك ناصر ، ملك قدير ، الذي أخبر المهدي بوصول "نضيرة" ، وهي إشارة حربية ، اعتاد عليها سكان الجبال منذ القدم ، عندما يهاجمهم جيش أجنبي ، وتتمثل في إشعال نار على رأس الجبل . وعندما يراها أصحاب الجبال المجاورة يشعلون ناراً مثلها . وهكذا إلى أن تصل مقر الملك ، فيستعد للحرب (٩٣) !

استعد محمد المهدي ونظم جيشه الذي بلغ نحو ثمانية آلاف جندي ، وكمن في غابة قريبة من جبل قدير على الطريق الوحيد ، في صباح يوم الجمعة ١٦ محرم ١٢٩٩هـ / ٩ ديسمبر ١٨٨١م . ولقد استفاد محمد المهدي من حالة الضعف والأعياء التي أصابت جنود راشد ، وما كانوا فيه من " التعب و الظمأ " ، لبعد الشقة وطول المسير (٩٤).

وهكذا أطبق الأنصار على جيش راشد من جميع الجهات ، فانفرط عقد العسكر وشتت الله شملهم ، وانتهت المعركة بنصر حاسم للمهدي وأنصاره ، وقتل معظم جيش راشد، بمن فيهم راشد نفسه ، وكيكون ملك الشلك (٩٥)!وبلغ عدد قتلى جيش راشد نحو ألف وأربعمائة جندي (٩٦). وأسر من جيش راشد مائة وأحد عشر جندياً . بينما لم يفقد أنصار المهدي، إلا حوالي ثلاثين جندياً، فضلاً عن حصول المهدي على الغنائم المتمثلة في المال ، والأسلحة النارية ، والذخائر (٩٧)!

---

(٩٢)شقير (نعوم) : تاريخ السودان ،تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٣٨١.

(٩٣) مكي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، المرجع السابق، ص٦٧.

(٩٤) دار الوثائق القومية ، الخرطوم ، المخابرات المصرية ١١ ، ١١٩ ، ١٨٨٢م مذكرة بتاريخ ١٣ جمادي الآخرة ١٣٠١هـ/ ١٥ إبريل ١٨٨٣م .

(٩٥) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق، ص ١٣٦.

(٩٦) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٥٢.

(٩٧) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، تحقيق د. محمد إبراهيم أبو سليم، المرجع السابق ، ص ١٥.

وتشـــير الوثـــائق إلى أن المباغتة وسرعة الهجوم ، التي استخدمها المهدي وأنصاره ، كانت سبباً هاماً في تحقيق النصر للمهدي (٩٨). ولهذا فإن المهدي استفاد من عنصر المفاجأة بدلاً من أن يستفيد منه راشد ، الذي بنى مغامرته على ذلك (٩٩).

وبهـــذا النصر المبين ارتفعت مكانة المهدي . ويعتبر هذا النصر ، أول انتصار له على جيـــش نظامي حكومي في منطقة الجبال (١٠٠). ومن ثم بدأت أخبار النصر تنتشر في معظم القـــرى والمـــدن المجـــاورة ، كما أن الطرق المؤدية إلى قدير تزاحمت بوفود المؤيدين ، تريد الانضمام للقائد المنتصر (١٠١).

ولقـــد كان وقع الخبر مؤلماً ومروعاً للحكمدار محمد رؤوف في الخرطوم ، فهو ، وإن كان غير مسئول عن الفاجعة ، لمخالفة راشد للأوامر ، وخروجه دون استئذان ، إلا أن الهزيمة كـــانت محسوبة عليه . فقد أدت الهزيمة إلى تفاقم الوضع ، وتطور الأحداث . ولهذا فقد بدأ الحكمدار محمد رؤوف ، في تجنيد العساكر الباشبوزق من الشايقية والدناقلة ، وبعث في طلب المدد من مصر (١٠٢).

ولم تكـــن حالـــة مصر في ذلك الوقت (ديسمبر ١٨٨١م) ، وما بعدها تساعد على القيام بترتيبات عسكرية ناجحة في السودان (١٠٣). وذلك بسبب الاضطراب الذي كانت تعيشه مصر آنذاك نتيجة لقيام الثورة العرابية (١٠٤).

ولقـــد كـــان من رأي وزارة البارودي الموالية للعرابيين (فبراير ١٨٨٢م) ، ضرورة الاحـــتفاظ بقوة الجيش المصري في مصر لمواجهة الإنجليز والأخطار الداخلية المتوقعة . وكان

---

(٩٨) دار الوثـــائق القومية ، الخرطوم ، المخابرات المصرية ، ١١ ، ١١٩ ، ١٨٨٢ن مذكرة بتاريخ ١٣ جمادى الآخرة ١٣٠١هــ/١٥ إبريل ١٨٨٣م .(الوثيقة السابقة).

(٩٩) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٥٢.

(١٠٠) محمد سعيد القدال(الدكتور):تاريخ السودان الحديث ، ١٨٢٠-١٩٥٥،الخرطوم، ١٩٩٢م،ص ١٢١

(١٠١) (101)Theobald , A.B., The Mahadiya ,op . cit . , p.36.

(١٠٢) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، تحقيق دكتور أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٣٤٢.

(١٠٣) (103) Marlowe .J, Anglo Egyption Relations , 1800-1956 , second Edition , Frank Cass and Company , LTD. , London , 1965, p.142.

(١٠٤) (104) Hill ,R.,Egypt in the Sudan , Oxford University press , London , New York , Toranto ,London 1959, p.164

عـــرابي نفسه يرى أن إرسال قوات إلى السودان ، إنما يخدم مصالح الخديو توفيق ، بإضعاف الجيش في مصر (١٠٥).

ولهذا فقد رفض العرابيون إرسال أي مدد من القوات إلى السودان . وكانوا يرون أن الحالـــة في السودان لا تستدعي ذلك . بل لم يصدقوا أن قوات الجيش والحاميات المصرية في السودان وأقاليمه ، عاجزة عن القضاء على المهدي وأنصاره ، الذين لا يملكون أسلحة نارية وينقصهم التنظيم والتدريب !

وبـــناءً على ذلك أرجع العرابيون التقصير إلى ضعف الحكمدار محمد رؤوف باشا . فقرروا عـــزله واســـتدعاءه إلى مصر ، وتعيين عبد القادر باشا حلمي ، ناظراً وحكمداراً على السودان في أوائل مارس ١٨٨٢م (١٠٦)، في الوقت الذي أصبح المهدي يكاد يسيطر على جميع كردفان.

(ب) عبد القادر باشا حلمي (حكمدارا على السودان)

تم تشكيل نظارة جديدة سميت نظارة الأقاليم السودانية وملحقاتها ، مركزها بالقاهرة في ٣ ربيع الثاني ١٢٩٩هـ/٢١ فبراير ١٨٨٢م (١٠٧). كما وضحنا من قبل . ولقد اختار العرابيون عـــبد القادر باشا حلمي ، لكفاءته العسكرية ، ومقدرته الحربية ، ليكون ناظراً لنظارة السودان ، وحكمداراً له في آن واحد ، بعد استدعاء محمد رؤوف في أوائل مارس ١٨٨٢م (١٠٨).

١- جيقلر الألماني يتولى الحكم نيابة عن الحكمدار :

تأخـــر وصـــول عبد القادر باشا حلمي ، إلى الخرطوم ، نحو شهرين حيث وصلها في ٢٣ جمـــادي الـــثانية ١٢٩٩هـــــ/ ١١ مايو ١٨٨٢م . وكان لهذا التأخير تأثيره على الأوضاع في

---

(١٠٥) (105) Ahmad Urabi , The Defense Statement of Ahmad Urabi , translated and Edited By Trevor Legassied , Egypt, Cairo, 1982 , p.32.

(١٠٦) عبد القادر باشا حلمي :

مصـــري الجنسية ، تعلم في أوربا ، واشتهر بالكفاءة والمقدرة الحربية ، ولهذا اختاره العرابيون ناظراً لنظارة الأقاالـــيم الســـودانية ، وحكمداراً على السودان ، بذل جهده في مقاومة الثورة المهدية وحقق كثيراً من النجاح ، ولكنه عزل من منصبه بسبب التدخل الأجنبي والوشايات . ومما يؤخذ عليه اشتراكه في حكومة نوبار باشا ، التي أوكل لها تنفيذ سياسة إخلاء السودان .

انظر : مكي شبيكة ، السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٦٠.

(١٠٧) دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، المحفظة ٤٣ ، مجلس الوزراء ، صورة أمر عال من الخديو توفيق بخصوص تقسيم مديريات السودان بتاريخ ٣ ربيع الثاني ١٢٩٩هـ/٢١ فبراير ١٨٨٢م.

(١٠٨) (108) Shibeika , M., British Policy in the Sudan , 1882-1902 , op.cit.,p.33.

السـودان . إذ تولى جيقلر باشا الألماني ، الذي كان مديراً لمصلحة التلغرافات في السودان ، وتـرقى لمدير إدارة مكافحة الرق ، وكيلاً للحكمدارية ، تولى مقاليد الحكم في السودان نيابة عن الحكمدار ، ريثما يصل الحكمدار الجديد إلى البلاد (١٠٩).

وما من ريب أن تولي جيقلر باشا ، وهو مسيحي ، السلطة في السودان ، في مواجهة ثورة دينية ، يزيد من اشتعال الثورة ، ويضاعف من مشكلات الحكومة المصرية . هذا فضلاً عن ضعف خبرات جيقلر ، في المجالين العسكري والسياسي . يضاف إلى ذلك أن جيقلر عمل زمـناً في تنفيذ معاهدة الرقيق ، على الصورة القاسية التي رسمها غوردون باشا ، وأدت إلى الثورات ضد الحكومة المصرية (١١٠).

ومما يذكر أن جيقلر ، كان متهماً في أهدافه ونواياه وإخلاصه للحكومة المصرية . فقد أعطـى معلومات خاطئة عندما ورد تلغراف من القاهرة ، يستفسر عن الحالة في السودان . فقـد أجاب بأن الحالة في تحسن عما سبق ، وأن العساكر الموجودة بالسودان يمكن لها إطفاء هذه الحركة . ولا لزوم لتكليف مصر بمصاريف باهظة (١١١). ويؤكد أن الحالة في السودان لا تستدعي إرسال إمدادات جديدة .

ويصف الدكتور أحمد شلبي موقف جيقلر هذا ، بالخيانة والغدر (١١٢)، لأنه ساعد على استهانة الحكومة بالموقف في السودان ، مما أدى إلى استفحال الثورة المهدية .

ومـا يدعو للعجب أن جيقلر ، لما سئل فيما بعد ، عن أسباب إرساله هذه المعلومات غير الصحيحة ، بينما الحالة تزداد سوءاً في السودان . أجاب : " إنه لا حق عليّ في ذلك ، والحق على الحكومـة نفسـها كونهـا سمعـت قولي ، لأني لست (جهادي) أي عسكري ، حتى أعطي قول حقيقي"(١١٣)! فهو بذلك يلقي اللوم على حكومة القاهرة التي وثقت به وصدقته !

---

(١٠٩) (109) Ibid , p.33.

(١١٠) الشاطر بصيلي عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل ،الجزء الثاني ، الطبعة الثانية مكتبة العرب ، القاهرة ، ١٩٦٧.

(١١١) رأفـت غنـيمي الشـيخ (الدكتور) : مصر والسودان ، في العلاقات الدولية ، عالم الكتب ، القاهرة، ١٩٧٧م ، ص ١٦٤.

(١١٢) أحمـد شلبي (الدكتور) : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ،ج٦ ، الطبعة الرابعة، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٣م ، ص ٣٦٢ .

(١١٣) يوميات عباس بك ، معاون حكمدار عموم السودان ، تحقيق القائمقام عباس زكي ، ص ١١. نقلاً عن دكتور رأفت غنيمي ، مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ١٦٤.

لكـــل هذه الأسباب كانت فترة وكالة جيقلر خطأً فادحاً وقعت فيه الحكومة المصرية في القاهـــرة ، لأنه أدى إلى تصعيد الأحداث بأخطائه ، والخطوات غير المدروسة التي اتبعها ، ومنها حملة الشلالي ، مما أدى إلى انتشار الثورة المهدية في السودان .

٢- **واقعـة الشـلالي**(٢٠ رجب ١٢٩٩هـ/٧ يونيو ١٨٨٢م):

في الفـــترة التي تولى فيها جيقلر باشا حكم السودان بالإنابة ، رأى أن يقوم بمحاولة للقضاء على المهدي في قدير . فأرسل برقية يطلب فيها من الحكومة المصرية ، الأذن بالسماح له بتجهيز حملة ، لسحق محمد المهدي قبل أن يستفحل أمره (١١٤). وكانت الفكرة أن يتم تجميع هذه الحملة من القوات المصرية الموجودة بالسودان ، في الخرطوم ، وسنار ، والأبيض .

ولقـــد راقـــت هذه الفكرة للحكومة المصرية ، فوافقت على الفور ، رغم أن عبد القادر باشا حلمي ، الذي تم تعيينه ناظراً وحكمداراً على السودان ، وهو لا يزال في مصر ، كان من رأيه ، عدم الدخول في أي مواجهة عسكرية جديدة مع محمد المهدي ، حتى وصوله إلى الخـــرطوم ، ليـــنظر الأمر بنفسه . فلم تستمع الحكومة المصرية لرأيه ، وهو المشهود له بالكفـــاءة العسكرية ، ووافقت لجيقلر بإعداد الحملة (١١٥). ولعل انتشار الثورة في منطقة الجزيرة ، وما حولها دفع للتعجيل بقيام هذه الحملة (١١٦).

حشـــد جيقـــلر قـــوات الحملة في الكوة ، حيث تكونت من ثلاثة عشر بلوكاً من العســـاكر النظامية ، وألف وخمسمائة رجل من الباشبوزق والخطرية . وبلغ عددهم جميعاً نحو ستة آلاف جندي .وكان منهم ألفان قدموا من الأبيض بقيادة الضابط أحمد دفع الله (١١٧).

اخـــتار جيقلر لقيادة الحملة ، يوسف باشا الشلالي الذي كان يعمل تاجراً في جنوب الســـودان ، ثم دخـــل في خدمة الحكومة المصرية ، واشتهر بالبطولة والمغامرة ، وترقى حتى أصبح مديراً لسنار (١١٨).

---

(١١٤) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركيةوالمهدية ، المرجع السابق ص ١٤٨.

(١١٥) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، تحقيق دكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٣٤٢.

(١١٦) مكـــي شبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل ، مصر والسودان ، في القرن التاسع عشر ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠، ص٦٥٩.

(١١٧) (117) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , op . cit ., p.37 .

(١١٨) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق، ص ٢٦٧

بـدأت الحملة زحفها نحو قدير ، في شهر جمادى الآخرة ١٢٩٩هـ / منتصف مايو ١٨٨٢م (١١٩). وكانت استراتيجية الشلالي تختلف عن استراتيجية راشد بك أيمن . فبينما اعتمد راشد على التزام السرية والكتمان لتحقيق عنصر المفاجأة ، كانت خطة الشلالي تقوم علـى الدعاية والإعلان التفاخري ، وإظهار الثقة المطلقة في تحقيق النصر (١٢٠). وبلغ من ثقته في تحقيق النصر ، أنه كان ينوي أن يؤسس مديرية في جبال النوبة عاصمتها جبل الجرادة. وأخذ معه بذوراً (تقاوي) لزراعة الخضروات والمحاصيل هناك (١٢١)!

اتجهـت الحملة من الكوة إلى فشودة ، ثم اتجهت غرباً إلى جبل فنقر ، حيث عسكر الجيـش هناك ، وبقي مدة طويلة بسبب الجفاف وشح المياه . وقد أثار ذلك نقد عبد القادر باشا حلمي عند وصوله السودان (١٢٢).

وكان محمد المهدي وأنصاره يتابعون الحملة عن طريق العيون والطلائع ، الذين أقاموا بجـبل فنقر مع تيفرا زعيم الجبل . غير أن تيفرا خان العهد ، وسلم أربعة من طلائع المهدي ، لجيش الشلالي . فحكم عليهم الشلالي بالإعدام بطريقة وحشية (١٢٣). وقد كان لبسالتهم وشجاعتهم وثباتهم نتائج عكسية على جيش الشلالي ، أضعفت من الروح المعنوية للجنود.

ولقـد دارت المكاتبات بين محمد المهدي والشلالي ، إلا أن بعض الرسائل التي دارت بينهما مفقودة ، ومن ذلك رسالة الشلالي ، وهو مقيم في جبل فنقر ، إلى محمد المهدي . وقد دل عـليها رد المهدي في خطاب طويل إلى يوسف حسن الشلالي ، بتاريخ ٤ رجب ١٢٩٩ هـ/ ٢٢ مايو ١٨٨٢م (١٢٤).

ويـبدو مـن رد محمـد المهدي إلى الشلالي ؛ أن رسالة الشلالي المفقودة ، كان فيها اسـتعلاء واسـتكبار واسـتخفاف بأمر المهدي . وقد وصف أتباع المهدي بأنهم الجهلاء ،

---

(١١٩) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٥٤.

(١٢٠) محمد سعيد القدال (الدكتور) : الإمام المهدي ، المرجع السابق ، ص ١٠٢.

(١٢١) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(١٢٢) نفس المرجع ، ص ٢٦٨.

(١٢٣) الكـردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، تحقيق دكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ١٥٩.

(١٢٤) مهديـة ١٧/٣/٨ ، إنذارات أ ، من المهدي إلى يوسف حسن الشلالي بتاريخ ٤ رجب ١٢٩٩هـ/٢٢ مايو ١٨٨٢م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

والأعـــراب ، والمجوس. واتهم المهدي بأنه قتل الأبرياء في الجزيرة أبا وموقعة راشد . كما أنه استنكر على المهدي إرساله الطلائع والجواسيس مع ادعائه المهدية (١٢٥)!

ولقـــد رد محمــــد المهـــدي على الشلالي في خطابه الذي أشرنا إليه ، وفند الاتهامات السابقة بقوله : " أما قولكم أنا قتلنا العسكر غدراً في الواقعتين (أبا وراشد) قبل أن يحاربونا فهـــذا كـــذب صريح ، لأنهم في الواقعتين ابتدرونا بالمحاربة .. وقولكم أن الحكومة أرسلتهم ليقفـــوا عـــلى مـــا عندنا من الأدلة ، باطل أيضاً ضرورةً ، لأن الحكومة لو أرادت المراجعة والاطـــلاع عـــلى مـــا عـــندنا مـــن البراهين ، لأرسلت الصلحاء والعلماء ، أهل المذاكرة والدراية"(١٢٦).

ويرد المهدي على الشلالي في استنكاره إرسال الطلائع ، مع ادعائه المهدية . قائلاً : " وقولكـــم أن الطـــليعة تـــنافي المهدية ، لأن المهدي ضرورة يعلم الغيب ، جهلاً منكم بسيرة الرسول ، فإن النبي ﷺ كان يرسل الطلائع "(١٢٧).

ويـــبدو لنا أن محمد المهدي كان قد بادر وسبق بالكتابة إلى الشلالي . لأنه ورد في رد محمـــد المهـــدي الســـابق على الشلالي عبارة : "وما ذكرتم فيه من وقوفكم على مكاتبتنا ، وإنكاركم صار معلوماً لدينا "(١٢٨).

وممـــا يؤيـــد ما ذهبنا إليه ، ما أورده أبو سليم أيضاً " بأن محمد المهدي هو الذي بدأ المراســـلة والمطارحـــة لا الشلالي كما كان يعتقد . ورسالة المهدي الأولى ، ورسالة الشلالي مفقودتان"(١٢٩).

ويتضح من لهجة الاستعلاء والاستخفاف ، واتهام الشلالي للمهدي بأنه قتل الأبرياء ، وغير ذلك مما ورد في رسالة الشلالي المفقودة ، يتضح من ذلك أن يوسف الشلالي كان يكتب متأثراً بما ورد في رسالة المهدي الأولى المفقودة ، والتي ربما يكون فيها دعوة للإيمان بالمهدية ،

---

(١٢٥) مهدية ١٧/٣/٨ ، إنذارات أ ، من المهدي إلى يوسف حسن الشلالي (نفس الوثيقة).

(١٢٦) مهدية ١٧/٣/٨ ، إنذارات أ ، من المهدي إلى يوسف حسن الشلالي (نفس الوثيقة).

(١٢٧) مهديـــة ١٧/٣/٨ ، إنذارات أ ، من المهدي إلى يوسف حسن الشلالي بتاريخ ٤ رجب ١٢٩٩هـــ/٢٢ مايو ١٨٨٢م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٢٨) مهدية ١٧/٣/٨ ، إنذارات أ ، من المهدي إلى يوسف حسن الشلالي (نفس الوثيقة).

(١٢٩) منشورات المهدية ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيـم أبو سليم ، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت،١٩٦٩م ص ٣١٠ (الحاشية) .

وتهديـــد ، وإنذار، وتخويف ، بأن مصيره سيكون مصير قتلى الجزيرة أبا ، وجيش راشد . مما أثار حفيظة الشلالي ، وإنكاره ، ودفعه لأسلوب الاستعلاء والاستخفاف .

وبعد هطول الأمطار تحرك الشلالي بجيشه ، ونزل بجبل الجرادة ، وهناك تحصن داخل زريبة من الشوك ، ظل هو وجماعته يعملون طوال الليل في بنائها ، حتى أدركهم التعب والنوم في آخـــر الـــليل . وعند الفجر طوق المهدي الزريبة بجيشه . وبعد صلاة الفجر ، أشار محمد المهدي على أنصاره بالهجوم ، مستفيداً من عنصر المبادأة . والتفوق في العدد (١٣٠).

ولقـــد كـــانت الموقعة حامية ، استبسل فيها الفريقان . وما هي إلا أن انجلت بهزيمة ســـاحقة للشـــلالي وجيشـــه . وقتل فيها معظم جند الحكومة ، وجميع قادة الحملة بمن فيهم الشـــلالى نفســـه(١٣١) ! بيـــنما فقد أصحاب محمد المهدي نحو المائتين فقط ، منهم شقيق المهـــدي، حامد . وغنم المهدي وأنصاره الكثير من الأموال ، والذخائر ، والآلات الحربية ، والمؤن (١٣٢).

وهناك اختلاف في تاريخ حدوث الموقعة بين الشلالى و المهدي . فقد ذهب بعضهم إلى أن تـــاريخ الموقعـــة هو ١١رجب ١٢٩٩هـــ / ٢٩مايو سنة ١٨٨٢م (١٣٣). بينما أشار سلاطين باشا إلى أن هذه الموقعة حدثت في ٧يونيو ١٨٨٢م(٢٠رجب ١٢٩٩هـــ)(١٣٤). وتـــبعه في ذلـــك كل من ونستون تشرشل (١٣٥). وثيوبولد (١٣٦). وأما الدكتور مكي شبيكة فقد ذهب إلى تاريخ متأخر وهو ١٧يونيو ١٨٨٢م (١٣٧).

وبالـــنظر في هـــذه الروايات المختلفة ، نلاحظ أن الحملة كانت تعسكر في جبل فنقر حتى ٤رجب ١٢٩٩هـــ / (٢٢مايو /١٨٨٢م) عندما وصلتها رسالة المهدي المؤرخة بنفس

---

(١٣٠) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق، ص ٣٧٠.

(١٣١) دار الوثـــائق القوميـــة ، الخـــرطوم ، المخابـــرات المصرية ١٨٨٢/١١٩/١١٠ ، برقيات وحقائق عن السودان، مذكرة بتاريخ ١٣ جمادي الثانية ١٣٠١هـــ /١٨٨٣/٤/١٩م .

(١٣٢) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، المرجع السابق ،ص ١٧٥.

(١٣٣) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٣٤٧ .

وانظر : الدكتور حسن أحمد إبراهيم ، تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٥٦.

(١٣٤) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٥٤.

(١٣٥) (135) Churchill, W., The River War , op. cit . , p.37

(١٣٦) (136) Theobald , A.B., The Mahadiya , op. cit ., p37 .

(١٣٧) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق، ص ٢٧٠.

الـــتاريخ إلى الشلالي قائد الحملة(١٣٨). ومن المستبعد حدوث الموقعة في التاريخ الذي أشار إليه بعضهم (١١رجب ١٢٩٩هـــ/٢٩مايو ١٨٨٢م) ، لأن الفارق بين التاريخين جد قصير. ولم تكن العجلة والإسراع من طابع خطة الشلالي ، كما أن الرواية التي أشار إليها الكردفاني بـــأن حملة الشلالى بعد مغادرتها جبل فنقر ، وصلت إلى مكان يسمى شق الحجر ، يبعد عن قديـــر بســـت ساعات تقريباً ، وأقامت هناك ثمانية عشر يوماً للاستراحة (١٣٩). تؤكد أن حدوث المعركة ، متأخر عن تاريخ رسالة المهدي (٤رجب ١٢٩٩هـــ /٢٢مايو ١٨٨٢) بما يقرب من ثمانية عشر يوماً .

وعليه فيمكننا أن نرجح ، أن تاريخ المعركة بين الشلالي ومحمد المهدي ، كان في وقت قريب مما أورده سلاطين باشا ، وهو معاصر لتلك الأحداث . وهو يوم ٢٠رجب ١٢٩٩هـــ / ٧يونيو ١٨٨٢م .

ويعتـــبر هذا النصر الذي حققه محمد المهدي ، الثالث من نوعه على الحكومة ، وهو إضافة جديدة لما تحقق من انتصارات سابقة ، مما أدى إلى مزيد من انتشار الثورة(١٤٠). فقد أدهش الناس وحط من كرامة الحكومة المصرية ، وألحق بها المزيد من الخسائر . ورفع من قدر المهدي ، مما جعل الوفود تتزاحم إلى قدير تأييداً للمهدي . وبدأت نيران الثورة تندلع في كل من دار فور ، وسنار ، والجزيرة (١٤١).

وكـــان جيش الشلالى آخر جيش نظامي في السودان ، يمكنه مواجهة المهدي ، إذ لم يبق إلا الحاميات في المدن الرئيسية . وذلك في الوقت الذي أصبحت فيه أوضاع مصر الأمنية أكـــثر حـــرجاً ، بسبب المواجهة المتزايدة بين العرابيين والتدخل الأجنبي في مصر . مما أتاح لـــلمهدي مهـــلة مـــن الوقت لتنظيم مجتمع المهدية ، والعمل على البدء في تطبيق أحكامه وتنظيماته (١٤٢).

---

(١٣٨) مهديـــة ١٧/٣/٨ ، ٣ إنذارات أ ، من المهدي إلى يوسف حسن الشلالي ،بتاريخ ٤ رجب ١٢٩٩هـــ/ ٢٢ مايو ١٨٨٢م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٣٩) الكـــردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص١٦٠.

(١٤٠) (140) Theobald , A.B., The Mahadiya , op . cit . , p.37 .

(١٤١) حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ،المرجع السابق ، ص٥٦.

(١٤٢) محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، المرجع السابق ، ص ٣٦.

ولما كانت الحكومة في مثل هذه الحالات ، تعاقب هؤلاء المهاجرين بالتنكيل بأقاربهم، فقد ألقت القبض على عامر المكاشفي شقيق أحمد المكاشفي ، وفرضت عليه السجن والتعذيب . ولكن عامراً تمكن من الخلاص بدفع فدية مالية . ولم يلبث أن أعلن الثورة على الحكومة ، وألب قبائل رفاعة الهوى ، جنوبي سنار ، فانضموا إليه لأنهم كانوا حانقين على الحكومة ، بسبب إرهاقهم بالضرائب المفروضة عليهم ، وزحف بهم إلى سنار(١٤٧).

ولم يتمكن حسين بك شكري ، مدير سنار من الصمود ، فدخلت جموع الثوار إلى المدينة ، ولكنهم سرعان ما انسحبوا عنها ، عندما أصيب عامر المكاشفي بجرح ، وكان ذلك في ١٦إبريل ١٨٨٢م . ثم عادوا لحصارها مرة أخرى، وقطعوا خطوط التلغراف .إلا أن صالح الملك ، الذي كان بالكوة أسرع إلى سنار بأمر من جيقلر ، وتمكن من فك الحصار بعد جهد كبير في ١٣إبريل ١٨٨٢م (١٤٨). ومن ثم تراجع عامر المكاشفي إلى بركة تيقو .

وكانت رسائل المهدي تصل إلى عامر المكاشفي ، تحمد له جهاده في إقامة الدين ، كما كان يطلب إليه النظر في بعض القضايا ، ومن ذلك رسالة محمد المهدي التي يطلب فيها من عامر المكاشفي النظر في قضية أحمد البلة (١٤٩). وفي رسالة أخرى من محمد المهدي إلى كافة أحبابه وأصفيائه . يشيد بجهاد عامر المكاشفي وما قاساه من شدائد في الله ، ويأمر بإعطائه ما كان الترك قد غنموه منه (١٥٠).

٤- حركة الشريف أحمد طه (٢٧جمادي الثانية ١٢٩٩هـ–٤مايو ١٨٨٢):

وفي شرق النيل الأزرق ، بين رفاعة وأبي حراز ، أعلن الشريف أحمد طه الثورة ، ودعا للمهدية ، ولقد كان من مشايخ الطريقة السمانية . فتبعه عدد كبير من البطاحين ، والشكرية ، والجعليين ، والدناقلة وغيرهم . وتمكن من الانتصار على الملك يوسف ، من

---

(١٤٧) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ،المرجع السابق ، ص ٢٧٣.

(١٤٨) (148) Hill , R ., The Sudan Memories of Carl Chrislian ,Gieglor Pasha 1873-1883 ,Oxford University Press, London , p.192

(١٤٩) الآثار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المجلد الخامس ، المرجع السابق ، ص ٣٨٩ . وثيقة رقم ٩٥١ ، من المهدي إلى عامر بن عمر المكاشفي (بدون تاريخ).

(١٥٠) الآثار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المجلد الأول المرجع السابق، ص ٣٦٢ ، وثيقة رقم ٦٥٨ ، من المهدي إلى كافة أحبابه وأصفيائه من الخلفاء والأمراء والأنصار ، بتاريخ ٢١ جمادى الأولى ١٣٠٢هـ/ بعد ٩ مارس ١٨٨٥م .

ســـناجق الشـــايقية ، وعلى نجدة أخرى من القلابات ، قوامها ٧٠٠ (سبعمائة) من الجنود الـــنظامية والباشبوزق . فاهتم جيقلو بالأمر ، واستعان بالشيخ عوض الكريم أبي سن ، زعيم الشـــكرية . وتمكـــن من القضاء على حركة الشريف أحمد طه ، حيث انتهت بمقتله في ٢٩ جمادى الثانية ١٢٩٩هـــ/ ٦ مايو سنة ١٨٨٢م (١٥١).

ثم واصـــل جيقلو جهوده ، لتطهير المناطق المجاورة لسنار من جموع الثائرين ، دون أن يفقـــد عـــدداً كـــبيراً من رجاله . ولكن على الرغم من نجاحه ، كانت الأخبار المزعجة عن الكوارث التي تقع بجيوش الحكومة ، ترد كل يوم من عدة أنحاء من السودان (١٥٢).

٥- الجهود العسكرية للحكمدار عبد القادر في الخرطوم :

وصل عبد القادر باشا حلمي إلى الخرطوم في ٢٢ جمادى الثانية ١٢٩٩هـــ/١١ مايو سنة ١٨٨٢م . بعد حوالي شهرين من تعيينه ناظراً وحكمداراً على السودان . فوجد الخرطوم تعيـــش في حالة هلع وذعر شديدين ، سادا الأوساط المدنية والعسكرية على السواء . فأعاد إليهـــم الـــثقة والأمـــل ، وكـــان من رأيه أن الفن الحربي الحديث ، وحده هو الذي يحقق النصر(١٥٣).

قام عبد القادر باشا بعدة ترتيبات عسكرية تدل على المقدرة الحربية ، والكفاءة التي اشتهر بها . وكانت هذه الترتيبات على النحو التالي :

أولاً : بدأ بتحصين الخرطوم . وإقامة المتاريس والحصون . ومد الخندق من النيل الأبيض إلى النيل الأزرق ، وأقام عليه الأبراج ، ووضع على هذه الأبراج المدافع والحراس .

ثانيـــاً : اهـــتم بزيادة عدة الجيش . فقد كان عدد الجيش في الخرطوم نحو ٥٠٠ (خمسمائة) جـــندي فقط . فقام باستدعاء ست أورط من الجنود المنظمة من السودان الشرقي . وأمـــر بتجـــنيد ثـــلاث أورط من السود وغيرهم ، وباشر تمرينهم على التدريبات العسكرية بنفسه(١٥٤).

---

(١٥١) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ،تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٣٥٤.

(١٥٢) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٥٧-٥٨.

(١٥٣) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ،المرجع السابق ، ص ٣٦٦.

(١٥٤) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ،تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٣٥٥.

وثالثاً : عمل عل تأمين دور الحكومة ، ومرافقها ، كمخازن الذخيرة ، والمؤن ، وغيرها ، من جميع المخاطر والطوارئ (١٥٥).

ورابعاً : أشـــرف بنفسه على التدريب العسكري ، وفقاً لأحدث الأساليب . وأعد كراسة طـــبعت فيهـــا التدريبات العسكرية والحربية ، ووزعها على الضباط للاهتداء بها ، كما كان يـــدرب الضـــباط ، عـــلى الـــدروس الضرورية في أساليب الهجوم ، والدفاع ، والتحصين وغيرها(١٥٦).

وخامساً : طـــلب المـــدد من الجند والأسلحة من القاهرة ، فضلاً عن زيادة الأسلحة بخمسة آلاف بندقية أحضرها معه من مصر (١٥٧).

وكان من نتائج هذه الجهود ، أن أصبح للحكومة بنهاية يوليو ١٨٨٢م ، جيش يـــتكون من إثنى عشر ألفاً من الجنود ، فضلاً عن جودة النوعية والإعداد . ولقد أرسل منهم ألفاً إلى الأبيض عاصمة كردفان لأنها أصبحت مهددة بالخطر (١٥٨)

ومـــا لا ريب فيه أن هذه الترتيبات العسكرية ، كان لها أثر كبير في رفع الروح المعنوية لأهل الخرطوم ، وبعث الأمن والسكينة في نفوسهم ، رغم أنها نبهت الأذهان إلى خطورة الموقف ودقته (١٥٩).

ولقـــد عـــلا بذلك شأن عبد القادر باشا ، وأصبحت له مكانة كبيرة في نفوس الأهالي بالخرطوم. ومما يدل على هذه المكانة ، ذلك الحديث الذي أوردته جريدة الأهرام القاهـــرية ، لـــتاجر عربي ، عاد من السودان إلى القاهرة . فقد سأل بشارة تقلا ، مدير الجـــريدة ، ذلك التاجر العربي ، عن مكانة عبد القادر باشا حلمي في الخرطوم . فأجاب

---

(١٥٥) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٥٨ .

(١٥٦) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ،المرجع السابق ، ص ٢٦٦.

(١٥٧) الرافعي (عبد الرحمن): مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، المرجع السابق ، ص ١٠٨.

(١٥٨) (158) Theobald , A.B., The Mahadiya , op. cit . , p.38

(١٥٩) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٥٨.

قائلاً : " إنه يلقب هناك (بالشاهين) ، ولـــه مكانة وحيثية ، يعز على سواه منالها ، وهو ذو الفضل بما أجراه مدة ولايته . وقد كان معززاً محبوباً من الجميع " (١٦٠).

٦- الحكمدار عبد القادر باشا ومواجهة الثورة في الجزيرة :

واصـــل عبد القادر باشا جهوده في مواجهة الثورة في الجزيرة . فأمر صالح الملك على رأس مجموعـــة مـــن العساكر المنظمة والباشبوزق في سنار ، لمواجهة عامر المكاشفي وأنصاره الذيـــن لجأوا إلى بركة تيقو . وبعد موقعة شديدة الهزم عامر المكاشفي ، واضطر إلى اللحاق بالمهدي في قدير .

أمـــر عـــبد القادر باشا بتحصين مدينة سنار ، ببناء سور لحمايتها . كما حفر خندقاً حولها ، زيادة في التحصين (١٦١). حتى يمنع أنصار المهدي من مهاجمتها .

وعـــلى إثر هزيمة الشلالي بث محمد المهدي دعاته في الشرق والغرب ، وحثهم على الثورة ضد الحكومة التركية . ومن هؤلاء الشيخ المضوي عبد الرحمن وهو من علماء سنار ، وتـــلقى تعلـــيمه بالأزهر . وكان معه ود الصليحابي ، من فقهاء عربان رفاعة الهوى . وود برجوب ، من فقهاء اللحويين . غير أن الشيخ المضوي عبد الرحمن تقاعس و "نكث بعهده" ، كمـــا أشـــار المهدي في خطابه إلى عطا المنان الصليحابي،بتاريخ ذي الحجة١٣٠٠هـــ/ نوفمبر ١٨٨٣م(١٦٢).

أما الشيخ ود الصليحابي ، وود برجوب ، فقد أعلنا الثورة ، وتبعهما جماعة من قبائل رفاعـــة الهوى ، وحققا انتصاراً كبيراً على حملة عبد القادر باشا بقيادة السعيد بك ، في واقعة الجبلين بتاريخ أواخر شعبان ١٢٩٩هـــ/أواسط يوليو ١٨٨٢م (١٦٣). وقد كتب المهدي إلى ود الصـــليحابي ، رداً على خطاب أرسله ود الصليحابي للمهدي يطلب فيه بيان تقسيم

---

(١٦٠) جـــريدة الأهـــرام ، يـــناير ١٨٨٤م ، القاهـــرة – دراسة أعدها الدكتور إبرهيم عبده ، مؤسسة سجل العرب، ١٩٦٤م ، القاهرة ، ص ١٨٧ .

(١٦١) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ،تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٢٥٦.

(١٦٢) الآثـــار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المجلد الأول ، الوثيقة رقم ١٦٤ ، من المهدي إلى عطا المنان الصليحابي وآخرين ، بتاريخ ذي الحجة ١٣٠٠هـــ/نوفمبر ١٨٨٢م.

(١٦٣) شـــــقير (نعوم) : تاريخ الســـودان ،تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجـــع الســـابق ، ص ٢٥٧-٢٥٨.

الغنائم فأشار المهدي بتقسيمها على خمسة أقسام ، بما يطابق الشريعة الإسلامية ، وأن يرسل الخمس إلى بيت المال ، والأربعة أخماس الباقية تقسم على الجيش كافة (١٦٤).

وتــولى أحمد المكاشفي الثورة في منطقة الدويم . وجعله محمد المهدي قائداً للثورة في الجزيرة ، كما قبل وصية المكاشفي بأن يكون محمد المهدي من بعده وصياً على أبنائه(١٦٥).

ولقد تمكن أحمد المكاشفي من إبادة حامية شات في ٨ أغسطس سنة ١٨٨٢م . ولكنه لم يــتمكن من دخول مدينة الدويم ، فسار نحو سنار . غير أن أنصار المهدي حاصروا الدويم للمرة الثانية بقيادة عبد الباسط الحاج رابح الجمر . ولكنهم هزموا ، عندما هاجمهم جيش عبد القــادر باشا بقيادة جيقلر ، وبذلك فك الحصار عن الدويم ، ووقع عبد الباسط الحاج رابح الجمر أسيراً في يد الحكومة ، ونقل إلى الخرطوم ، وحكم عليه بالإعدام (١٦٦).

هــذا ، وقد قاد فضل الله ود الكريف ، حركة أخرى في غرب الجزيرة ، وتمكن من قطع خطوط التلغراف بين الكوة والمسلمية . وهزم جند الحكومة في أم سنيطة في ديسمبر ١٨٨٢م.

وفي هــذه الأثــناء ، اشتد أمر أحمد المكاشفي ، فقد جمع نحو عشرة آلاف من المقاتلة لمهاجمــة ســنار ، فوجدهــا محصنة ، فنزل في مشروع الداعي شمال سنار ، وحاصرها وقطع خطوط التلغراف والبريد بينها وبين الخرطوم (١٦٧).

أخيراً قرر عبد القادر باشا أن يقوم بنفسه لمواجهة الثورة في الجزيرة . فغادر الخرطوم في ٢ يــناير سنة ١٨٨٣م إلى المسلمية ، ومنها إلى منطقة عبود ، وتمكن من الانتصار على ود كريف في قرية معتوق ، وقتل حوالي ٦٠٠(ستمائة)من الأنصار في واقعة معتوق في ١٩ربيع الأول١٣٠٠هــ / ٢٧ يــناير ١٨٨٣م (١٦٨). ثم تقــدم صوب سنار لمواجهة أحمد المكاشفي في ١٦ ربيع الثاني

---

(١٦٤) مهدية ٩٦ فيوضات ٤ ، من المهدي إلى عطا المنان الصليحابي ، سنة١٣٠٠هــ/ ١٢ نوفمبر ١٨٨٣م .

(١٦٥) مهديــة ١٨ فيوضــات ٣ ، من المهدي إلى أحمد المكاشفي ١٠ ذو الحجة سنة ١٣٠٠هــ/١٢ أكتوبر ١٨٨٣م.

(١٦٦) مقابلة شخصية مع الدكتور أحمد شمس الدين الشيخ ،بتاريخ ٢٦/٨/٢٠٠٠م ، وقد روى الدكتور أحمد شمــس الديــن أن جدهم الشيخ عبد الباسط الحاج رابح الجمر ، كان زميلاً للمهدي في الدراسة ، ومن أوائــل الذيــن بشــروا المهدي بالمهدية ، فلما أعلن المهدي دعوته سارع وبايعه في قدير . ثم عاد لمهاجمة الدويم، وحاصرها ، ولكنه وقع أسيراً في يد الحكومة وتم إعدامه في الخرطوم . وقبره موجود الآن في وسط مدينة الخرطوم في الميدان الذي نسب إليه وهو المشهور بأبي جنزير .

(١٦٧) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ،تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٣٦١.

(١٦٨) Theobald , A.B., The Mahadiya , op. cit . , p.42.

١٣٠٠هـ/٢٤ فبراير ١٨٨٣م . فما كان من المكاشفي إلا أن انسحب إلى جبل سقدي موية . فدخل عبد القادر باشا سنار ، ووجه حملة بقيادة صالح الملك لمطاردة أحمد المكاشفي . فتمكن صالح الملك من هزيمة المكاشفي ، واضطره للإنسحاب إلى الجبلين ، حيث انضم المكاشفي إلى ود برجوب هناك . بينما واصل عبد القادر باشا سيره جنوباً ، وتمكن من القضاء على ثورة الشيخ أحمد عبد الغفار في منطقة التبنة قرب الرصيرص، وفرق جموعه ، ورجع للخرطوم منتصراً (١٦٩).

وهكذا كانت انتفاضات الجزيرة حركات تمرد متفرقة . ورغم أن هذا التفرق ساعد على مهمة مواجهتها والقضاء على أكثرها ، إلا أنها أضعفت من هيبة الحكومة ، وشتت طاقاتها العسكرية ، وهيأت المنطقة لثورة عارمة ، فضلاً عن أنها شغلت الحكومة عن مواجهة الثورة في غرب السودان .

٧- حرب الدعاية :

كانت خطابات محمد المهدي ومنشوراته ، ذات تأثير كبير في الناس بما تثيره من حماس. ليس ذلك في السودان فحسب ، وإنما في جميع أنحاء العالم الإسلامي ! حيث أحدثت حركة المهدي السوداني صدى عميقاً ، في بلاد الهند ، والتركستان ، وبخارى وطشقند ، وغيرها من البلاد الإسلامية ! (١٧٠).

ولقد خشى السلطان عبد الحميد الثاني من امتداد التأثير الديني لثورة المهدي إلى بعض أجزاء الدولة العثمانية، فاهتم بأمر محمد المهدي ، فأصدر منشوراً رسمياً كذب فيه دعوى المهدي ، ونشره في جميع البلاد الإسلامية . كما أن الحكومة المصرية استصدرت فتوى من علماء الأزهر في شأن المهدي ، فأفتوا بتكذيبه (١٧١).

وإمعاناً في تسفيه دعوة محمد المهدي ، أطلقت الحكومة المصرية على أنصار ، المهدي لقب الدراويش . وقد رد المهدي على ذلك بإصدار منشور يمنع فيه تسمية أنصاره بالدراويش(١٧٢).

---

(١٦٩) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ،المرجع السابق ، ص ٢٧٥.

(١٧٠) عبد الودود إبراهيم شلبي (الدكتور) : الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ودعوته ، الطبعة الأولى، المكتبة الأفريقية ، دار المعارف – القاهرة ، مصر ، ص٢٦٠ .

(١٧١) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ،تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٦٢٠.

(١٧٢) دار الوثائق القومية ، الخرطوم ، قائمة المتنوعات ١١٠٩/٦٢ من الإمام المهدي إلى أنصاره يدعوهم إلى ترك تسمية الأنصار بالدراويش بتاريخ ٢٠جماد آخر ١٣٠١هـ/١٧ إبريل ١٨٨٤م.

ولقد رأى عبد القادر باشا حلمي ، حكمدار السودان ، ضرورة إصدار رسائل ومنشورات، وفتاوي ، تنشر بين الناس في السودان ، لتكون دليلاً على بطلان دعوة المهدي. وقد نهض بهذا الأمر بتكليف من الحكمدار عبد القادر باشا ، بعض العلماء أمثال أحمد الأزهري (١٧٣). والمفتي شاكر الغزي (١٧٤). ومحمد خوجلي قاضي عموم السودان ، وغيرهم .فألفوا الرسائل في تكذيب المهدي . كما أصدر الشيخ محمد شريف نور الدائم قصيدة في تكذيب المهدي .

ولقد كتب محمد المهدي منشوراً إلى العلماء الذين يقفون ضد الدعوة المهدية ، واصفاً إياهم بقوله : " يا علماء السوء ، أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم " (١٧٥)!

هذا وقد فكر عبد القادر باشا حلمي في وسيلة أخرى ، للقضاء على محمد المهدي . وهي محاولة اغتيال المهدي ، بواسطة مأجورين . أو بإرسال رسائل تحوي متفجرات . أو عن طريق إرسال هدية تتكون من عجوة مسمومة للمهدي . غير أنه لم يتبين لنا إن كانت هذه المحاولات قد نفذت جميعاً أم لا . إلا أن هناك محاولة اغتيال بمسدس قام بها رجل يدعى عبد الله ود إبراهيم ، قيل إنها لم تنجح ، حيث لم ينطلق الرصاص (١٧٦)!

ويبدو أن أثر الدعاية التي قام بها عبد القادر باشا حلمي حكمدار السودان ، كان محدوداً . لأنها كانت تجهل مشاعر الناس ، الحقيقية التي دفعتهم للخروج على الحكم التركي، فاعتمدت على الدفاع عن شرعية الحكم التركي رغم أن الناس كانوا ساخطين عليه ، كما أنها اتخذت منهجاً ظاهرياً يختلف عن منهج المهدي الباطني ، فعجزت عن النفاذ إلى الجماهير(١٧٧).

---

(١٧٣) هو السيد أحمد ، المعروف بالأزهري ، بن الشيخ إسماعيل الولي الكردفاني . كتب رسالته في شعبان ١٢٩٩هـ/يوليو ١٨٨٢م وجمع فيها أحد عشر صفة في تكذيب المهدي . بناءً على الاستشهاد ببعض الأحاديث النبوية ،والآيات القرآنية ،التي تناقض ما عليه حال المهدي . ومن ذلك الحديث الذي رواه أحمد بن حنبل " المهدي من أهل البيت يصلحه الله في ليلة" ،وهذا يخالف ما درج عليه المهدي من التنقل بين الشيوخ وطلب العلم .

(١٧٤) هو شاكر الغزي ، مفتي مجلس استئناف السودان في عهده ، كتب رسالة في تكذيب المهدي عالمها بقوله : " لما كان ما ادعاه محمد أحمد من المهدية بعيداً عن الصدق بالكلية ، وصدقه جهلة العوام والأوباش الغام . جمعت هذه الرسالة في نصحهم وإرشادهم ".

(١٧٥) مهدية ، منتوعات ، ١١١٧/٦٢/١ ، ١٠٦٩ ، ٢٧ مجذوب ، من المهدي إلى علماء السوء بتاريخ ، ذي الحجة ١٣٠٠هـ/أكتوبر – نوفمبر ١٨٨٣م. دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٧٦) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ،المرجع السابق ، ص ٢٧٨.

(١٧٧) محمد سعيد القدال (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ،المرجع السابق ، ص

ومع ذلك فإن هذه الدعاية والأساليب التي اتبعها عبد القادر باشا ، تعتبر نهجاً جديداً في ممارسات الحكم التركي المصري في السودان ، حيث أن السلطات التركية في السودان ، بدأت تعمل على الاستفادة من التأثير الديني في سياساتها ، وهو ما أهملته في معالجة كثير من المشكلات السابقة ، مثل تجارة الرقيق .

وربما تكون هذه السلطات التركية ، قد لجأت لهذا الأسلوب في مواجهة محمد المهدي، من منطلق الضعف الذي أحست به . فقد أشار إلى ذلك أحمد العوام (١٧٨). في نصيحته المشهورة ، إذ يقول عن الفتوى التي أصدرتها الحكومة المصرية عن المهدي : " إن الحكومة لم تستفت علماء الأزهر ، في أمر المهدي ، إلا في شهر محرم سنة ١٣٠١هـ ، أي بعد مباشرتها الحرب سنتين وأربعة أشهر ، وعجزها عن القيام باستمرار الحرب فكان رجوعها بعد ذلك إلا الاستفتاء ، رجوع فرعون للإيمان " (١٧٩)!

٨-الثورة في كردفان :

بدأت الثورة في كردفان مبكرة ، حيث قاد المكي ود إبراهيم ، من مشايخ حمر ، قومه للثورة في ١٠ جمادى الأولى ١٢٩٩هـ/٣٠مارس ١٨٨٢م ، وتمكن من طرد جند الحكومة من دار حمر ، كما أشعل حامد ود السنجق الثورة في أبي حراز ، واجتمعت إليه قبائل الحوازمة ، والغديات ، حتى بلغ جيشه عشرين ألفاً ، ونزلوا منهل البركة . إلا أنهم هزموا أمام سرية من عساكر الحكومة التركية بقيادة نظيم أفندي (١٨٠).

وبعد هزيمة الشلالي في ٢٠ رجب ١٢٩٩هـ/٧ يونيو ١٨٨٢م ، أرسل محمد المهدي دعاته لمضايقة الحاميات الحكومية في كردفان ودار فور ، وكتب عدة رسائل ، وجهها إلى المشايخ والقبائل في دار فور وكردفان . ومن ذلك رسالته بتاريخ ٢٠ رجب ١٢٩٩هـ/ ٧ يونيو ١٨٨٢م ، إلى القبائل الضاربة في شمال دار فور ، يطلب منهم الانخراط في أمر الثورة المهدية ، والهجرة إليه ، والجهاد في سبيل الله ، وأن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار (١٨١). وخطابه إلى عمد وتجار وفقرا الأبيض،بتاريخ ١٦ شوال ١٢٩٩هـ/٣١ أغسطس ١٨٨٢م.

---

(١٧٨) مهدية ، ١٦/٩/٣٨ ، ٤٨ إنذارات ، رسالة العوام . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٧٩) نفس المصدر .

(١٨٠) شقير (نعوم):تاريخ السودان،تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٣٦٤-٣٦٥.

(١٨١) مهدية ، ١٢٧ فيوضات ٣،من المهدي إلى القبائل بشمال دارفور خصوصاً الشيخ علي ولد طاهر ، بتاريخ بعد٢٠رجب وقبل ١٦ شعبان ١٢٩٩هـ/ بعد ٧ يونيو وقبل ٣ يوليو ١٨٨٢م.

يخـــبرهم بـــأن الله أيـــده بالخلافة الكبرى ، ويطلب منهم أن ينصروا المهدية ولا يغتروا بـــتكذيب علماء السوء لمهديته ، من أمثال ، أحمد بن إسماعيل الولي ، وحسين مجدي ، والمفتي شاكر، وغيرهم(١٨٢).

وهكـــذا بدأت الحاميات في كردفان ودار فور ، تسقط الواحدة تلو الأخرى . ومن هـــذه الحاميات ، حامية بلدة التيارة التي شهدت مجزرة بشرية هائلة على يد المنا إسماعيل في ٢١ رمضـــان ١٢٩٩هـــ/١٦ أغسطس ١٨٨٢م ، إذ قتل فيها معظم جنود حاميتها المكونة من ١٣٥٠ (ثلاثمائة وخمسون وألف) رجلاً ، وفي دار فور قاد الثورة الشيخ مادبو ، زعيم الرزيقات ، وكانت له انتصارات كبيرة رغم تصدي سلاطين باشا له (١٨٣).

وكـــان محمد المهدي يتطلع لمهاجمة الأبيض ، وقد انحاز إليه إلياس باشا أم برير ، أحد الجعليين النفيعاب ، ومن كبار تجار الأبيض وأعيانها . فلما انتصر على الشلالي ، بعث إلياس باشـــا إلى المهـــدي سراً ، يستحثه على فتح الأبيض ، ويمهد له السبيل لدخولها . فبدأ محمد المهـــدي زحفه نحو الأبيض في ١٢ رمضان ١٢٩٩هـــ/٢٨ يوليو ١٨٨٢م . في جيش يبلغ ٢٠,٠٠٠ (عشرين ألف) مقاتل . ولم يلبث أن انضم إليه عشرة آلاف آخرين ، بقيادة عبد الله ود النور في منطقة البركة . وواصل محمد المهدي زحفه إلى منهل كابا على بعد ستة أميال من الأبيض . وطلب من المنا إسماعيل في بلدة التيارة ، أن يوافيه بجيشه هناك (١٨٤).

وكـــانت الأبيض بعد سقوط بلدة التيارة ، تعيش حالة من القلق ، فقد هبطت الروح المعنوية للسكان ، وأصبحت الأبيض فريسة لدعايات محمد المهدي (١٨٥). ولهذا فإن زحف محمـــد المهدي، سيضاعف من حالة القلق ، والترقب ، والرعب ، في وقت ازداد فيه ضعف الحكومـــة الـــتركية في الســـودان ، بسبب مشكلات مصر الداخلية المتمثلة في الثورة العرابية، ثم الاحتلال البريطاني لمصر في سبتمبر ١٨٨٢م .

---

(١٨٢) مهديـــة ، ٢٠/٣/٨ ، ٣٨ إنذارات ب ، من المهدي إلى عمد وعلماء وتجار وفقرا الأبيض ، ١٦ شوال ١٢٩٩هـــ/٣١ أغسطس ١٨٨٢م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٨٣) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٧٠-٧١.

(١٨٤) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ،تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٢٦٩.

(١٨٥) (185) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , op . cit ., p.62 .

٩-سقوط الأبيض(١٠ ربيع الأول ١٣٠٠هـ/١٩ يناير ١٨٨٣م):

تجمعت جيوش محمد المهدي في معسكره بمنهل كابا ، استعداداً للهجوم على الأبيض ، التي أصبح موقفها حرجاً بعد سقوط بلدة التيارة ، وانقطاع الطريق بين الأبيض والخرطوم(١٨٦).

ولقد كتب محمد المهدي عدة رسائل إلى أهل الأبيض ، يدعوهم إلى المهدية ، ويحرضهم على الجهاد ضد الترك . ومن ذلك رسالته إلى حضرة الأحباب ، الشيخ برير وإلى أعيان الأبيض بتاريخ ١٦ شوال ١٢٩٩هـ/ ٣١ أغسطس ١٨٨٢م (١٨٧). وأيضاً رسالة محمد المهدي إلى حضرة الأحباب ، أهل الأبيض وغيرهم ، وهي تحمل نفس تاريخ الرسالة السابقة . وفيها يخاطب أهل الأبيض ، ويأخذ عليهم عدم قيامهم لنصرته ، ويطلب منهم مهاجمة الترك ، أو الهجرة إليه (١٨٨).

وكانت أهم رسائل محمد المهدي إلى أهل الأبيض تلك الرسالة التي وجهها إلى العلماء قاطبة ، والتجار ، والعمد ، والفقراء ، والمساكين ، القاطنين بالأبيض ، بتاريخ ١٦ شوال ١٢٩٩هـ/٣١ أغسطس ١٨٨٢م ، وهي تعتبر إنذاراً ، ودعوة لأهل الأبيض للدخول في سلك المهدية وفي هذه الرسالة يخاطبهم بقوله : " فاتركوا جميع أولادكم ، وعائلاتكم ، واخرجوا لملاقاتنا خارج البندر من غير سلاح ، وكونوا من جملة الأنصار"(١٨٩).

أرسل محمد المهدي رسولين إلى محمد سعيد مدير الأبيض ، وأعيانها ، يطلب منهم التسليم. ولكنهم رفضوا التسليم ، بل أمر محمد سعيد مدير الأبيض بإعدام الرسولين فوقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه الشلالي من قبل ، بإعدام الجواسيس (١٩٠)!

---

(١٨٦) زلفو (عصمت) شيكان ، تحليل عسكري لحملة هكس ، أبو ظبي ، ١٩٧٦م ، ص ٤.

(١٨٧) مهدية ، متنوعات ١/٦٢/١١١٧/ ، ١٠٩٦ ، ١٩ مجذوب ، من المهدي إلى حضرة الأحباب وإلى الشيخ برير ، وإلى أعيان الأبيض ، بتاريخ ١٦ شوال ١٢٩٩هـ/ ٣١ أغسطس ١٨٨٢م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٨٨) الآثار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المجلد الأول ، وثيقة رقم ٥١ ، من المهدي إلى حضرة الأحباب أهل الأبيض وغيرهم ، ص ١٧٤.

(١٨٩) مهدية ، ٢٠/٣/٨ ، ٣٨ إنذارات ب ، من المهدي إلى عمد وعلماء وتجار وفقرا الأبيض ، ١٦ شوال ١٢٩٩هـ/ ٣١ أغسطس ١٨٨٢م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٩٠) مكي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ،المرجع السابق ، ص ٧٧.

ولقـــد اشـــتد الخـــوف والذعـــر بسكان الأبيض ، فبدأوا يتسللون خفية للإنضمام لـــلمهدي(١٩١). وفر معظم التجار المسيحيين إلى الخرطوم ، كما تسلل معظم القادمين من ضفاف النيل إلى مواطنهم القديمة (١٩٢).

وتمكـــن إليـــاس باشـــا أم برير وجماعة من قومه ، والحاج خالد العمرابي وغيرهم من التسلل خفية إلى معسكر المهدي (١٩٣).

وفي فجر يوم الجمعة ٢٤ شوال ١٢٩٩هـــ/٨ سبتمبر ١٨٨٢م ، قرر محمد المهدي الهجوم على مدينة الأبيض . ولقد كان جيش محمد المهدي ، يقدر بنحو خمسين ألف مقاتل ، يحدوهـــم الحماس لدخول الأبيض ، غير أن عساكر الحكومة تصدوا لهم ، فلم يتمكن أنصار المهـــدي مـــن الصمود أمام السلاح الناري ، وقتل منهم عدد كبير يزيد على العشرة آلاف رجل، من بينهم ، شقيقا المهدي ، وابنه أحمد ، والقاضي أحمد جبارة (١٩٤).

ولقـــد كان وقع الهزيمة على محمد المهدي وأنصاره شاقاً . وذلك لأنها تمثل أول هزيمة كبيرة لهم . وقد أحدثت بعض الاضطراب في صفوف محمد المهدي . إلا أن محمد المهدي فسر هذه الهزيمة بأنها ، نتيجة ثلاث مخالفات ، رواها في إخبار عن الرسول ﷺ ، حيث قال : " لولا مخالفة أصحابك ، وعدم دخولهم مترتبين من الجهة الشرقية كما أمرتهم ، ولولا أخذهم الغنائم عند دخولهم في الخندق ، واشتغالهم بها ، ولولا إعجابهم بكثرتهم ، لحصل النصر " (١٩٥).

قرر محمد المهدي بعد ذلك محاصرة الأبيض ، عملاً بنصيحة إلياس باشا ، وبعض الجلابـــة ، كما أمر بإحضار الأسلحة النارية ، والمدافع ، التي كان قد تركها في قدير . وكان محمد المهدي قد أعلن لأصحابه أن النصر يكون بالسيف وليس بالأسلحة النارية ، ولكنه لاحظ أنهم صاروا يفضلون الأسلحة النارية ، فوافق على إحضارها(١٩٦).

---

(١٩١) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ،المرجع السابق ،ص ٢٠١.

(١٩٢) (192) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , op . cit ., p.61 .

(١٩٣) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ،تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٣٥٣.

(١٩٤) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ،المرجع السابق ،ص ٢٠٩.

(١٩٥) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ،المرجع السابق ،ص ١٨٩.

(١٩٦) الآثار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق محمد إبراهيم أبو سليم ، المجلد الأول ، الوثيقة رقم ١٠٠ من المهدي إلى كافة الخلفاء والأمراء ، بتاريخ ١٣ جماد الآخرة ١٣٠٠هـــ/٢١ إبريل ١٨٨٣م ، ص ٢٨٨.

هذا ، وقد أدى حصار الأبيض إلى تحرج موقف أهلها . واشتد بهم الجوع ، وانخفضت روحهم المعنوية . ومما زاد الأمر سوءاً ، تسليم حامية الدلنج ، لأنصار المهدي : في ٣٠ شوال ١٢٩٩هـ/١٤ سبتمبر ١٨٨٢م . وأخيراً استسلمت بارا ، التي اشتد عليها الحصار أيضاً ، حيث سلمت حاميتها لعبد الرحمن النجومي في ٢٥ صفر ١٣٠٠هـ/٥ يناير ١٨٨٣م . مما دفع محمد سعيد مدير الأبيض ومن معه إلى تسليم مدينة الأبيض للمهدي ، بعد أن وافق محمد المهـــدي على ضمان حياتهم . وبالفعل تم التسليم في ١٠ ربيع الأول ١٣٠٠هـ/١٩ يناير ١٨٨٣م . ودخل محمد المهدي الأبيض ظافراً (١٩٧).

بيـــد أن محمـــد سعيد ورفاقه ، كان مصيرهم القتل بعد أن عفا عنهم محمد المهدي . ولعل السبب في ذلك هو تعنت محمد سعيد ، وإظهار عداوته للمهدي ، رغم تسليمه والعفو عـــنه ، فضلاً عن عدم إيمان محمد سعيد بالمهدية ، وتفكيره المستمر في التخلص من مصيره . وقد ثبت أنه أخفى أمواله ، وكذب لما سأله محمد المهدي عن ذلك (١٩٨).

وكـــان لسقوط الأبيض نتائج هامة ، فبالسيطرة عليها ، أصبح محمد المهدي يسيطر عـــلى كـــردفان جميعهـــا . وأصبحت الأبيض عاصمة المهدي ، حيث بدأ يضع أسس الدولة المهدية ، كما أن دار فور أصبحت في عزلة عن الخرطوم (١٩٩).مما يزيد من حرج موقفها .

١٠- استدعاء عبد القادر باشا حلمي :

كان لجهود عبد القادر باشا حلمي ، حكمدار السودان ، أثر كبير في مواجهة الثورة المهديـــة في الجزيرة ، وسنار ، والخرطوم . فقد أقام التحصينات وزاد ، عدد الجند ، وأشرف بنفســـه على تدريبهم ، وخرج بنفسه لمواجهة الثوار في ، سنار، والجزيرة ، كما وضحنا فيما تقدم . واستطاع أن يقاوم الثورة سنة كاملة (٢٠٠). مما أدى إلى إشاعة الأمن والسكينة في الخرطوم وما حولها . كما بذل جهده في تهدئة الخواطر ، باستخدام أسلوب الدعاية والتكذيب للثورة المهدية ، بما نشره من رسائل العلماء المعادين للمهدية (٢٠١)

---

(١٩٧) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٦٧.

(١٩٨) نفس المرجع ، ص ٦٩.

(١٩٩) محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، المرجع السابق ، ص ٣٧.

(٢٠٠) عبد الرحمن الرافعي: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ،المرجع السابق ، ص ١٠٩.

(٢٠١) (201) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , op . cit ., p.67 .

وكان عبد القادر باشا ، يلح على حكومته في مصر بإرسال مدد من الجنود إلى السودان ، وخاصة بعد حصار الأبيض . وكانت الحكومة المصرية لا تزال ترى أن الحالة العسكرية في السودان لا تستدعي ذلك . وأن الحكمدار يبالغ في وصف الحالة في السودان(٢٠٢).

ولما بلغ اليأس من عبد القادر باشا حكمدار السودان مبلغه ، عقد العزم على طلب الاستقالة . فكتب في ١٤ ديسمبر ١٨٨٢م ، يطلب من الخديو توفيق أن يعفيه من الخدمة في السودان ، متعللاً بالمرض . ولكن الخديو توفيق ، رفض إعفاءه ، راجياً أن يكون النصر العظيم على يديه (٢٠٣). وتقديراً لثقة الخديو فيه ، ظل عبد القادر باشا ، يقوم بدوره في السودان بإخلاص وجدارة .

ومما يدعو للعجب أن الخديو توفيق ، رغم رفضه إعفاء عبد القادر باشا ، وتأكيد ثقته فيه ، عاد فأصدر قراراً سرياً ، في ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢م ، بإعفاء عبد القادر باشا من منصبه، وتعيين علاء الدين باشا حكمداراً على السودان ، وسليمان نيازي باشا قمندانا للعسكر بالسودان ، والضابط البريطاني هكس باشا رئيساً للأركان (٢٠٤)! فما هي الأسباب التي جعلت الخديو توفيق يغير رأيه ، ويسحب ثقته من عبد القادر باشا ، خلال عشرة أيام فقط ، ما بين ١٤ ديسمبر و٢٤ ديسمبر ١٨٨٢م؟!

من الراجح أن بريطانيا مارست ضغطاً على الخديو توفيق ، ليعفي عبد القادر باشا من منصبه ، كحكمدار للسودان . فقد أثبت عبد القادر باشا كفاءته ، ومقدرته الحربية والإدارية، وبدأ يطبق خطة عسكرية ناجحة في الدفاع عن السودان . ونجاح عبد القادر باشا يهدم خطط الإنجليز ، في السيطرة على وادي النيل شماله وجنوبه (٢٠٥).

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه ، ما أورده عبد الرحمن الرافعي بقوله : " خشيت الحكومة البريطانية إذا تُرك عبد القادر باشا وشأنه في السودان ، أن يتغلب على الثورة المهدية ويخمدها ، ويثبت سلطة مصر في الأقطار السودانية ، وهذا يخالف أطماعها . لأنها إنما تريد إكراه الحكومة المصرية ، على إخلاء السودان ، بحجة عجزها عن الاحتفاظ به ، ثم إعادة فتحه من جديد لحسابها بالاشتراك مع مصر ، والاستئثار بحكمه . وقد وجدت السياسة

---

(٢٠٢) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ،المرجع السابق ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤.

(٢٠٣) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ،المرجع السابق ، ص ١٨٣.

(٢٠٤) رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور) : مصر والسودان ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص ١٦٥.

(٢٠٥) أحمد حسين : موسوعة تاريخ مصر ، ج٣ ، مطبعة الشعب ، القاهرة ، ص ١١٢٦.

الإنجـــليزية في همة عبد القادر باشا وكفايته ، ما يحبط خططها ، فأوعزت للخديو توفيق ، أن يأمر باستدعائه" (٢٠٦).

هـــذا ، ولقد ظل قرار استدعاء عبد القادر باشا سرياً ، حتى تم إعلانه رسمياً في ٢٤ مـــارس ١٨٨٣م ، حيـــث أصبح علاء الدين باشا حكمداراً على السودان ، بدلاً عن عبد القـــادر باشا حلمي ، وغادر عبد القادر باشا الخرطوم إلى القاهرة ، في وقت متأخر من شهر مارس ١٨٨٣م (٢٠٧).

ويشـــير بعضـــهم إلى أن جماعة من الأجانب ، وشوا به عند الخديو توفيق ، وألقوا في روعـــه أن الحكمـــدار عـــبد القادر ، وهو المشهود له بالكفاءة ، لا يستبعد أن تحدثه نفسه بالاستقلال بالبلاد السودانية في غفلة من الحكومة المصرية (٢٠٨).

ولعل من أسباب عزل عبد القادر باشا عن حكمدارية السودان ، اتجاه الخديو توفيق ، والحكومتين البريطانية والمصرية ، لتعيين قائد عسكري بريطاني ، ليتولى قيادة القوات المصرية في الخـــرطوم ، ضـــد الثورة المهدية . ولم يكن منتظراً أن يرضى عبد القادر باشا بالعمل تحت قيادة قائد آخر (٢٠٩).

نخـــلص من ذلك إلى ترجيح ما ذهبنا إليه من وجود الضغط الأجنبي ، والتأثير على الخديـــو توفيق ، لإعفاء عبد القادر باشا من منصبه ، خاصة وأن الخديو توفيق أصبح خاضعاً لسلطة الاحتلال البريطاني منذ هزيمة عرابي في موقعة التل الكبير في ١١ سبتمبر ١٨٨٢م .

هـــذا ، وقـــد قوبل نبأ استدعاء عبد القادر باشا ، بالاستياء الشديد ، والجزع ، في الخـــرطوم، ووقـــع نبأ إعفائه من منصبه ، أسوأ وقعٍ عند أهالي الخرطوم ، وسائر مستخدمي الحكومـــة المصـــرية في الســـودان ، والأهـــالي الموالـــين للحكومة ، والنزلاء من الأوربيين وقناصلهم(٢١٠).

---

(٢٠٦) عبد الرحمن الرافعي: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ،المرجع السابق ، ص ١١١.

(٢٠٧) (207) Theobald , A.B., The Mahadiya , op. cit . , p.42 .

(٢٠٨) أحمد شفيق باشا : مذكراتي في نصف قرن ، ج١ ، ص ١٣١ .
نقلاً عن الدكتور رأفت غنيمي الشيخ ، مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ١٦٥.

(٢٠٩) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ،المرجع السابق ، ص ٢٧٢.

(٢١٠) عبد الرحمن الرافعي: مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ،المرجع السابق ، ص ١١١.

الفصل الرابع

حملة هكس ونتائجها

(واقعة شيكان)

الفصل الرابع

حملة هكس باشا ونتائجها

(واقعة شيكان)

كـــان الاحتلال البريطاني لمصر ، عقب موقعة التل الكبير في ٢٩ شوال ١٢٩٩هـ/ ١٣ سبتمبر ١٨٨٢م(١)، إيذانـا بمرحلة جديدة من التطورات الخطيرة في مصر والسودان.وخاصة فيما يتعلق بمواجهة الثورة المهدية ،والدور الذي يمكن أن تلعبه بريطانيا،وسلطات الاحتلال البريطاني بمصر في هذه المواجهة .ولعل حملة هكس باشا(٢)،كانت إحدى هذه التطورات،التي كان لبريطانيا وسلطات الاحتلال البريطاني في مصر،دور كبير في التأثير فيها والتخطيط لأحداثها، ونتائجها.

(أ) الاحتلال البريطاني لمصر وسياسة عدم التدخل

١ - أهداف سياسة عدم التدخل في شئون السودان :

بدأت بريطانيا ، بعد احتلال مصر ، ترتب لإحكام سيطرتها على هذه البلاد ، باتباع سياسة استعمارية ماكرة ، إذ أعلنت أن احتلالها لمصر مؤقت ، هدفه تدعيم سلطة الخديو توفيق ، والقضاء على المشكلات التي تهدد عرشه . كما اعترفت بالسيادة العثمانية على مصر، لتتفادى معارضة الدولة العثمانية ، والدول الأوروبية ، وعلى رأسها فرنسا (٣).

(١) Urabi , A . , The Defence Statement of Ahmed Urabi , Translated and Edited by Trever Gassieli , Cairo , 1982 .

تقريـر عن الأحداث التي وقعت بمصر من يناير ١٨٨١م إلى أكتوبر سنة ١٨٨٢م ،كتبه أحمد عرابي باشا باللغة العربية في كولومبو عام ١٨٨٢م .

(٢) هكس باشا William Hicks:

الكولونيل وليم هكس باشا بريطاني الجنسية ، التحق بالجيش البريطاني في بومبي عام ١٨٤٩م ، وشارك في عـدة عمليات عسكرية في الهند . كما عمل في الحبشة بين عامي (١٨٦٧–١٨٦٨م) وفي عام ١٨٨٠م نال لقب كولونيل . وتم اختياره قائداً للحملة المصرية للقضاء على الثورة المهدية في السودان عام١٨٨٣م قتل في شيكان في ٤ نوفمبر ١٨٨٣م .

انظر : Shibeika , M., British Policy in the Sudan , Oxford University press , London 1952 , p.79.

(٣) الرافعي(عبد الرحمن):مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ،دار المعارف،مصر، ١٩٨٣م، ص ١٩

وتأكيداً لإحكام قبضتها ، عمدت بريطانيا ، إلى تصفية الثورة العرابية ، كما تم إلغاء الجيـــش المصري وتسريحه ، لأنه وقف خلف عرابي وأيد ثورته . وبذلك فقدت مصر جيشها الوطني بأكمله (٤)!

ولمـــا شـــرعت ســـلطات الاحتلال في تأسيس جيش مصري جديد ، أوكلت قيادته وتدريبه ، إلى ضباط إنجليز ! حيث أصبح ايفيلين وود **Evelyn Wood**، قائداً عاماً للجيش الجديـــد . وفالنتين بيكر **Baker**، مدرباً لهذا الجيش . وكانت عدة الجيش الجديد محدودة ، فقـــد تكون من ٦,٠٠٠ (ستة آلاف) جندي فقط . مهمتهم ، حماية مصر من أخطار الثورة المهدية . وفق ما أعلنت سلطات الاحتلال البريطاني في مصر (٥).

ولقـــد تـــرتب عـــلى هذه التطورات الجديدة في مصر عدة نتائج ، تتصل بالأوضاع السياسية ، والعسكرية ، والاقتصادية في السودان . وهذه النتائج هي :

أولاً : ازدادت ســـلطة الخديو توفيق ، ضعفاً على ضعف . فقد أصبحت السلطة الحقيقية في أيـــدي الإنجليز . وأضحى الخديو توفيق ووزراؤه ، يديرون أعمالهم في مصر ، كما لو كانوا دمىً تحركها قوى الاحتلال (٦)!

وثانياً : في المجـــال العسكري ، أصبحت مصر ، بعد حل الجيش المصري وتسريح جنوده ، دولة بلا جيش وطني . وأما الجيش المصري الجديد ، الذي كان في طور التكوين والبناء ، فقد كـــان تحت إدارة قيادات بريطانية . فضلاً عن أن عدده كان محدوداً جداً ، ولا تريد سلطات الاحـــتلال الـــبريطاني ، الزج به في تجربة غير مضمونة (٧). مما يؤدي إلى المزيد من تدهور الأوضاع وعجز الحكومة المصرية عن إخماد الثورة المهدية .

---

(٤) محمـــد محمـــود الســـروجي (الدكـــتور) : الجيش المصري في القرن ١٩ ،دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٧م، ص ٥٩٥.

(٥) رأفـــت غنـــيمي الشـــيخ (الدكتور) : مصر والسودان في العلاقات الدولية ، الطبعة الأولى ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص ١٦٥.

(٦) Holt , P.M. The Mahadist State in The Sudan ,1881-1898,Second Edition ,clarendon press,Oxford , London , 1970 , p.69.

(٧) محمـــد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ،تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص١٦٩.

وثالثاً : أعلـــنت بـــريطانيا ، عقب الاحتلال ، سياسة عدم التدخل في مشكلة السودان ، واعتبار أحداث السودان ، ثورة داخلية ، من شأن الخديو وحكومته أن يعملا على مواجهتها. وأن مهمـــة بريطانيا هي القضاء على المشكلات التي تواجه الخديو ، وتهدد عرشه ، ثم الجلاء عن مصر .

وفي حقيقـــة الأمر ، كانت بريطانيا تهدف من إعلان هذه السياسة ، في هذه المرحلة ، إلى أن تـــتفادى ، تحمل أية مسؤوليات إدارية ، أو مالية أو عسكرية في السودان (٨). ولا تريد أن تضيف إلى مسئولياتها في مصر مسئوليات خاصة بالسودان (٩).

غـــير أن هذا الإعلان للسياسة البريطانية ، بعدم التدخل في شئون السودان ، لم يمنع بـــريطانيا مـــن العمـــل من وراء الستار ، لتحقيق أهدافها ومصالحها ، بالتأثير في القرارات والأحداث ، من خلال التوجيهات والنصائح الإجبارية، التي لا يملك الخديو توفيق وحكومته رفضها (١٠).

وعلى الرغم من هذه السياسة التي أعلنتها سلطات الاحتلال البريطاني في مصر ، بعدم التدخل ، أو التورط في أي أعباء مالية ، أو عسكرية ، أو إدارية في السودان ، بدأت سلطات الاحـــتلال الـــبريطاني ، تظهر الاهتمام بمشكلة السودان . فتقدمت ، في هذه المرحلة بحلول لعلاج مشكلة السودان ، وردت في رسالة السير إدوارد مالت **Edward Malet**، القنصل البريطاني العام في مصر ، إلى وزير خارجية بريطانيا اللورد جرانفيل **Granville** في ٢ أكتوبر ١٨٨٢م . ومرفق معها مذكرة عن السودان ، من وضع المستشار العسكري في مصر السير شارلس ولسون **Wilson** يقترح فيها : " أن تتخلى مصر عن بو غوص والقلابات للحبشة ، وجعل مصوع ميناءً حراً ، وأن تتخلى عن دار فور وكردفان ، وأن يعين ضباط بريطانيون في المناصـــب الهامـــة ، كمنصـــب الحكمدار ، وقومندان العسكر . وأن توفد بعثة من ضباط بريطانيين إلى السودان ، لوضع تقرير عن الموقف " (١١).

---

(٨) (8) P.R.O . , G/D, 29/166, Dufferin to Granville , 22 , Jan. 1883.

(٩) (9) Marlowe .J, Anglo Egyption Relations , 1800-1956 , second edition , Frank Cass and company , LTD . , London ,1965 , p.143.

(١٠) الرافعي (عبد الرحمن) : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(١١) رسالة السير إدوارد مالت ، إلى وزير خارجية بريطانيا جرانفيل ، ٢٢ أكتوبر ١٨٨٢م .
نقلاً عن محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٢٧٣.

وقـــد اقـــترح شارلس ولسون Wilson، المستشار العسكري البريطاني ، في مصر ، استخدام جنود بريطانيين ، أو هنود ، أو عثمانيين ، بالسودان إذا تطلب الأمر ذلك . غير أن الحكومـــة البريطانية رفضت هذا الاقتراح في ٣٠ أكتوبر ١٨٨٢م ، ووافقت على استخدام قوة مصرية تحت قيادة أركان حرب بريطانيين (١٢).

ولكـــن عـــندما طلب محمد شريف باشا رئيس وزراء مصر من الحكومة البريطانية ، أعارته ضباطاً من الإنجليز ، العاملين في الجيش الإنجليزي ، لمرافقة حملة ، تريد مصر إرسالها إلى السودان ، رفضت الحكومة البريطانية طلبه . غير أنها لا تمانع في استخدام الحكومة المصرية ، ضباطاً بريطانيين في المعاش (١٣).

ولقد أورد اللورد دوفرين Dofferin، سفير انجلترا في الآستانة ، في رسالته إلى وزير الخارجيـــة الـــبريطاني المستر جرانفيل ، بتاريخ ١٨ نوفمبر سنة ١٨٨٢م ما نصه : " إنه من المستحسن ، لو أن مصر تخلت عن السودان بأسره . وهذا أمر يصعب إقناع الحكومة المصرية به . ولذلك فهو يشير بالتخلي عن دار فور لأنها عبء ثقيل لا فائدة منه . ولا يمانع في إرسال جـــنود مصريين إلى السودان ، لأن ذلك يساعد على التخلص من عناصر الفتنة ، من الجنود والضـــباط الذين ساندوا عرابي " (١٤). وهذا الرأي يتفق إلى حد كبير مع اقتراح شارلس ولسون الذي أشرنا إليه . بالتخلي عن بعض أقاليم السودان . كما أنه يتفق مع رأي الحكومة البريطانية ، بإرسال جنود مصريين إلى السودان .

في ضـــوء هـــذه التوجهات ، والاقتراحات التي قدمها الساسة البريطانيون ، بدأت الحكومة المصرية ، الإعداد لإرسال حملة عسكرية إلى السودان ، قوامها عشرة آلاف جندي مصـــري ، مـــن جـــنود عرابي الذين تم تسريحهم بعد موقعة التل الكبير . جمعوا وأرسلوا إلى السودان ، عن طريق سواكن ، وكان بعضهم مقيداً بالسلاسل (١٥)! وكانوا في حالة نفسية ســـيئة ، لأنهـــم كانوا لا يرغبون في السفر إلى السودان ، ويرون أن الهدف من إرسالهم هو

---

(١٢) الرافعي (عبد الرحمن): مصر والسودان منذ أوائل عهد الاحتلال ، المرجع السابق ، ص ٣٥ .

(١٣) مكـــي شـــبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل ، مصر والسودان ، في القرن التاسع عشر، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠ ،ص٦٦٠.

(١٤) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ،المرجع السابق ، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(15) Marlowe .J, Anglo Egyption Relations , 1800-1956 ,op. cit ., p.143. (١٥)

التخــلص مــنهم . كمــا أنهــم كانوا ، غير راضين عن مشاركتهم في القضاء على الثورة المهدية(١٦).

وبيــنما كــانت أصابع الاتهام تشير إلى بريطانيا ، بالتخلص من جنود عرابي الذين تم تسريحهم ، بجمعهم وإرسالهم لمواجهة الثورة في السودان ، فإن بريطانيا أيضاً لعبت دوراً كبيراً في إسناد قيادة الحملة للجنرال هكس Hicks. وقد تمخضت الأحداث عن عزل عبد القادر باشــا حكمدار السودان ، في ظروف مريبة ، كما أوضحنا في الفصل السابق ، وتعيين علاء الدين باشا حكمداراً للسودان ، بدلاً عنه ، وتعيين سليمان باشا نيازي ، وهو شركسي طاعن في الســن ، قــائداً عامــاً للحملة العسكرية ، على أن يساعده الأميرلاي وليم هكس باشا الــبريطاني رئيساً للأركان . ثم لم يلبث أن تدخلت بريطانيا ، فعملت على نقل سليمان باشا نيــازي ، القائد الأعلى للحملة، ليصبح هكس مفوضاً بسلطات كاملة ، كقائد عام للحملة وتم ذلك في أغسطس ١٨٨٢م (١٧).

وبهذا تحقق بريطانيا أهدافها ، وتستكمل حلقة من حلقات التدخل غير المباشر ، دون أن تتورط في أعباء إدارية أو عسكرية ، أو مالية في السودان ، وذلك بوصول هكس باشا إلى قمــة القيــادة العسكرية في السودان . إذ أن الحكمدار الجديد علاء الدين باشا ، انحصرت سلطته في الإدارة الحكومية فقط ، بينما أصبحت السلطة العسكرية في يد هكس باشا (١٨)، الذي أصبح الوريث الحقيقي ، للمشكلات التي ظلت باقية بعد مغادرة عبد القادر باشا حلمي للسودان (١٩).

ومع ذلك يؤكد اللورد جرانفيل Granville، وزير خارجية بريطانيا ، للسير إدوارد مالت Malet، القنصل العام البريطاني في مصر ، أن الحكومة البريطانية " ليست مسئولة بأي

---

(١٦) جــلال يحيى (الدكتور) : مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية ، في القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، مصر ١٩٨٤ ، ص ٣٢٧.

(١٧) (17) Holt , P.M. The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.69.

(١٨) شــقير (نعــوم) : تاريخ السودان ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، طبعة جديدة ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨١م ، ص ٣٩١.

(١٩) (19) Holt , P.M. The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.70.

شكل من الأشكال ، عن العمليات التي تقوم بها الحكومة المصرية في السودان ، ولا عن تعيين الجنرال هكس أو أفعاله (٢٠)!

وفي هذه الأثناء كانت بريطانيا ، قد لجأت إلى إرسال لجنة لبحث الحالة في السودان ، وتقـــديم تقرير عنها . وتقتضينا هذه الدراسة أن نتتبع هذه البعثة التي أرسلتها بريطانيا ، دون استشـــارة الحكومة المصرية أو الخديو توفيق ، مما يجعلنا ننظر إليها كحلقة من حلقات التغلغل البريطاني في السودان .

٢- بعثة الكولونيل ستيوارت :

قــــررت الحكومـــة البريطانية إرسال بعثة من البريطانيين ، لوضع تقرير عن الحالة في السودان . وتم اختيار الكولونيل ستيوارت Stewart، لهذه المهمة ، على أن يرافقه ميسيداليا Messdaglia الإيطـــالي الـــذي كـــان يعمـــل في دار فـــور ، ويعرف لغة أهل السودان ، وعـــاداهم(٢١). وكـــان إرسال هذه البعثة ، في ديسمبر ١٨٨٢م ، مفاجأة للخديو توفيق والحكومة المصرية ، حيث لم يتم إخطارهم بها (٢٢)!

وكانت الإدارة المصرية في السودان ، برئاسة الحكمدار عبد القادر باشا حلمي ، تجهل كل شيء عن بعثة ستيوارت وميسيداليا !فلما وصلت البعثة إلى سواكن في ديسمبر١٨٨٢م، وبدأت مهمتها ، أبرق مدير سواكن ، وأيضاً مدير بربر ، الحكمدار عبد القادر باشا ، يبلغانه بأمر البعثة . وأنها تركز أسئلتها ، حول القوات العسكرية في موانئ البحر الأحمر ، وأجناسها، وعـــدد الأســـلحة ، وأنواعها . وطلب ستيوارت بياناً بالقبائل ، وعددها ، وأسماء المشايخ ، ومقدار الأموال والضرائب ، وعدد السواقي ، وغير ذلك (٢٣).

ولهـــذا فقد اهتم عبد القادر باشا ، حكمدار السودان بالأمر ، وبعث في ١٥ ديسمبر ١٨٨٢م ، بـــرقية إلى الخديـــو محمد توفيق ، يخطره ببعثة ستيوارت وتحركاته ، وأنه " يريد الوقوف على جميع أحوال هذه الجهات ، سواءً أكانت ، إدارية ، أو عسكرية ، أو مالية ، أو

---

(٢٠) رأفت غنيمي الشيخ(الدكتور): مصر والسودان في العلاقات الدولية ، المرجع السابق ،ص ١٦٧.

(٢١) (21) P.R.O., F.O., No. 836,16 Nov.1882, 78 , 3444. Malet to Granville .

(٢٢) رأفت غنيمي الشيخ(الدكتور): مصر والسودان في العلاقات الدولية، المرجع السابق ، ص ١٦٧.

(٢٣) (23) Shibeika , M., British Policy in the Sudan , op. cit ., p.54.

جغـــرافية، أو سياسية "(٢٤). ثم يمضي فيقول : " ومن اختبار أحوال المومأ إليه تبين لنا ، أنه يـــريد إظهـــار ســـطوهم بهذه الجهات . وبناءً عليه ، قد نصحناه بالمحسوس ، بتعريفه ، أن الحـــركات الحاصلة هي تحركات دينية ، وأن ذلك يفتح للشقي باباً ، لتأييد ما يوهم به على العربان ويوجههم للثبات على تصديقه واتباعه . ولذلك عدل عن تلك الطريقة ، فأخذ يظهر اتفاق حكومته مع الحكومة الخديوية ، على إطفاء هذه الحركات . وقد أبدى لنا غاية الممنونية عما رآه من الاهتمام اليومي بتعليم العساكر والضباط"(٢٥).

ولقـــد كـــان هـــذا الاهتمام البالغ ، برصد جميع الأحوال السياسية ، والعسكرية ، والاقتصـــادية ، والجغرافية في السودان ، مما يزيد تشكك الخديو توفيق والحكومة المصرية ، وعـــدم اطمئنانهم لبعثة ستيوارت ، والسرية التي أحيطت بها . ولأنها أيضاً ضمت ميسيداليا المشـــكوك في ولائه للخديوية . ولهذا كان الخديو توفيق ، يخشى أن تكون هذه البعثة ، بدايةً للـــتدخل الـــبريطاني في السودان ، علماً بأن بريطانيا ، لم تكن راضية عن التوسع المصري في أفريقيا (٢٦).

ومـــا يقـــوي هذا التشكك والريبة ، لدى الخديو توفيق ، والحكومة المصرية ، تحفظ الحكومـــة الـــبريطانية ، وزعمها ، بأن مهمة البعثة هي فقط ، لجمع المعلومات عن الحالة في الســـودان ، ولا تعني أنها تمهيد للتدخل البريطاني في شئون السودان ، مما يتبعه تحمل الحكومة البريطانية مسئولية ما يجري فيه من أحداث (٢٧).

ولعل تصرفات ستيوارت ، بالتدخل في شئون الإدارة في السودان ، وإصدار الأوامر والنصـــائح للمسئولين ، مما أشار إليه عبد القادر باشا ، في برقيته للخديو توفيق بقوله بأن : "ســـتيوارت ، يريد إظهار سطوهم بهذه الجهات "(٢٨). يظهر الأهداف المريبة لهذه البعثة . ولعل من هذه التصرفات المريبة ، أن ستيوارت لما علم بوجود جنود كثيرين من السودانيين في

---

(٢٤) دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، محفظة رقم ١/١/-٢ ،بتاريخ صفر ١٣٠٠هـــ/ ١٥ ديسمبر ١٨٨٢م .

(٢٥) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، محفظة رقم ١/١/-٢ ، (نفس الوثيقة).

(٢٦) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، الخرطوم ، ١٩٦٤ ، ص ١٢٨.

(٢٧) Shiberka , M., British Policy in the Sudan , op. cit . , p.53.

(٢٨) دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، محفظة رقم ١/١/-١ ،بتاريخ صفر ١٣٠٠هـــ/ ١٥ ديسمبر ١٨٨٢م.

مصـــوع ، نصـــح بإرسالهم إلى السودان ، ليحل محلهم جنود من مصر . وأشار بطرد مدير سـواكن ، ونصح بإرسال الجنود السودانيين في حاميات البحر الأحمر ، إلى الخرطوم للقتال ضد المهدي (٢٩)!

ولقد أبرق الخديو توفيق إلى الحكمدار عبد القادر باشا،في يوم ١٦ ديسمبر ١٨٨٢م، مظهـراً تشككه في بعثة ستيوارت ، ويطلب وضع ستيوارت ورفيقه تحت المراقبة ، دون أن يشعرا بذلك ، وأن يبلغ القاهرة بتحركاتهما (٣٠).

غـير أن الخديـو توفيق باشا ، أظهر تحولاً سريعاً في موقفه من بعثة ستيوارت ، من التشكك إلى الاطمئنان . فبعد ثلاثة أيام فقط ، وفي ١٩ ديسمبر ١٨٨٢م كتب الخديو توفيق لـلحكمدار عـبد القادر باشا ، مؤكداً أن مهمة ستيوارت هي للتجسس على المهدي وليس على الحكومة ، وأن ميسيداليا هو مجرد "رفيق سفرية" . وطلب من عبد القادر باشا الاطمئنان مـن ناحيـة ستيوارت، ولا داعي للتجسس عليهما (٣١)! بل طلب من عبد القادر باشا ، حـرق الـبرقية السابقة التي احتوت على تكليف الخديو لعبد القدر باشا ، بمراقبة ستيوارت ورفيقه (٣٢)!!

وأغلب الظن أن الخديو توفيق أجبر على موقفه هذا بإظهار الاطمئنان والثقة بالبعثة ، وتيسـير مهمتها . وكان يخشى ، بسبب موقفه الضعيف ، إذا أغضب سلطات الاحتلال أن تقـدم عـلى إجباره باتباع سياسة مخالفة ، تحد من سلطته وتقلص نفوذه في السودان (٣٣). كما أنه لا يملك إلا أن يتصرف بما تمليه عليه سلطات الاحتلال .

ولعـل مسـألة إعفاء عبد القادر باشا ، عن نظارة السودان وحكمداريته ، في هذه الفترة بـالذات ، في ٢٤ ديسـمبر ١٨٨٢م ، تشير إلى تكامل خيوط المؤامرة وعناصرها . فقد وجدت السياسـة الـبريطانية في همة عبد القادر باشا ، وكفايته ما يحبط خطتها فأوعزت إلى الخديو توفيق بإعفائه (٣٤). ورغم أن ستيوارت ، نجح في ظاهر الأمر في إقامة علاقات ودية مع عبد القادر باشا،

---

(٢٩) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ،المرجع السابق ، ص ٢٨٠.

(٣٠) رأفت غنيمي الشيخ(الدكتور): مصر والسودان في العلاقات الدولية ، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٣١) نفس المرجع ، ص ١٦٩.

(٣٢) (32) Shibeika , M., British Policy in the Sudan , op. cit . , p.55.

(٣٣) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ١٢٩.

(٣٤) الرافعي (عبد الرحمن): مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ،المرجع السابق ، ص ١٢٩.

وأظهر معارضته في استدعائه (٣٥)، إلا أن عبد القادر باشا ، لم يكن الشخص المرغوب فيه ، فهو لا يخفي رصده لتحركات ستيوارت ، ويجاهر بالنصح والنقد لممارسات ستيوارت ، كما ورد ذلــك في بــرقية عــبد القادر باشا للخديو توفيق بقوله : " قد نصحناه بالمحسوس أن الحركات الحاصلة هي حركات دينية "(٣٦).

ولقــد قرر الخديو توفيق ، إرسال ياوره الخاص أحمد حمدي بك إلى الخرطوم ، فغادر القاهــرة في ٢٤ ديســمبر ١٨٨٢م ، في مهمة لإبلاغ عبد القادر باشا بالقرارات الجديدة ، بإعفائــه ، رغــم أنــه أمــر بــأن يظل تعيين علاء الدين باشا حكمداراً للسودان ، سراً لا يذيعه(٣٧).

كمــا أرسل الخديو توفيق برقية إلى ياوره أحمد حمدي ، وهو في طريقه إلى السودان ، يأمــره بمقابلة الكولونيل ستيوارت ، وتبليغه السلام، والسؤال عن صحته ، وتقديم المساعدة له. وهذا لا يمنع ضرورة مراقبة أحوال ستيوارت وتحركاته سراً (٣٨)!

قــام أحمد حمدي بمهمته في السودان ، وكتب تقريراً أشار فيه إلى ما قام به ستيوارت مدة وجوده ، قائلاً عن ستيوارت : " أجرى تفحصات واستفهامات . ولهذه الغاية كان يحضر طــرفه العــلماء ، والــتجار ، والأعيــان ، وغيرهم . ويسألهم عن الأموال وكيفية تقريرها وتأديــتها، وســير الحكام معهم ، وأسئلة أخرى ، فضلاً عن كونه كان يرسل مخصوصين من طرفه للجهات ، وعن استفهاماته عن دواوين الحكومة "(٣٩)!

كتب ستيوارت تقريرين .أحدهما بعث به من الخرطوم في ٣٠ ربيع الأول ١٣٠٠هـــ/ ٩ فبراير ١٨٨٣م ، إلى السير إدوارد مالت **Edward Malet**، المعتمد البريطاني في مصر ، ليقوم بإبلاغه لوزارة الخارجية البريطانية ، والثاني بعث به بعد مغادرته الخرطوم، وهو في ميناء

---

(٣٥) (35) Holt , P.M. The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.69.

(٣٦) دار الوثــائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، محفظة رقم ١/١/-١ ،بتاريخ صفر ١٣٠٠هـــ/ ١٥ ديسمبر ١٨٨٢م.

(٣٧) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٨٧.

(٣٨) دار الوثــائق القوميــة ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، محفظة رقم ١/١/-٢ ، بتاريخ ص٢٤ ديسمبر ١٨٨٢م.

(٣٩) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، محفظة رقم ١/١/-٨ .

مصوع ، في طريقه إلى القاهرة ، في ٨ جمادى الثانية ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م ، إلى السير إدوارد مالت أيضاً (٤٠).

وقد تضمن التقريران توصيات ستيوارت عن الحالة في السودان ، والتوصيات والمقترحات الخاصة بأوضاع الثورة المهدية . وتتضمن هذه التوصيات والمقترحات أمرين هامين هما :

أولاً : يصعب على الحكومة المصرية القيام بحملات ناجحة ضد محمد المهدي في كردفان ودارفور . ويمكنها الدفاع عن الخرطوم والسودان الأوسط فقط . وعليه يرى أن تتخلى الحكومة المصرية عن مديريات فشودة وكردفان ودارفور .

وثانياً : عدم إرساله أية حملات ضد محمد المهدي في كردفان بعد سقوط الأبيض . ويرى ضرورة الوقوف في موقف الدفاع على نهر النيل (٤١).

ولعل ما ورد في هذه التوصيات يتفق مع ما أشار إليه اللورد دوفرين ، سفير إنجلترا في الآستانة في ٦ فبراير ١٨٨٣م بقوله : " أرى أن تتخلى مصر عن دار فور ، وربما عن قسم كبير من كردفان ، وتكتفي بحفظ سلطتها في إقليمي الخرطوم وسنار "(٤٢).

هذا وكان من مقترحات ستيوارت ، استخدام ضباط من الأوربيين ، بالسودان لهم معرفة باللغة العربية . ونلاحظ أنه في نفس الوقت الذي كان ستيوارت يقترح فيه تعيين هؤلاء الضباط في الخرطوم،تقرر في القاهرة تعيين هكس باشا،رئيساً لأركان حرب جيش السودان.وهو في طريقه من إنجلترا إلى مصر،وله الحق في تعيين من يرى من الضباط الإنجليز (٤٣).

مما تقدم يبدو لنا أن الحكومة البريطانية ، وهي تحرص في هذه المرحلة على جمع المعلومات والتقارير عن السودان ، والثورة المهدية ، وتهتم بجميع الأحوال الإدارية ، والسياسية، والعسكرية ، والاقتصادية ، والجغرافية ، كانت تخطط لسياسة استعمارية بعيدة المدى في السودان . وتمهد السبيل للسيطرة عليه . وهذا ما ستبديه الأيام فيما بعد .

---

(٤٠) رأفت غنيمي الشيخ(الدكتور): مصر والسودان في العلاقات الدولية ، المرجع السابق، ص ١٧٠.

(٤١) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ،المرجع السابق ، ص ٢٨٣.

(٤٢) جريدة الوقائع المصرية ، العدد ١٦٤٧ ، بتاريخ ٦ فبراير ١٨٨٣م ، تقرير من اللورد دوفرين إلى وزير الخارجية البريطاني جرانفيل .

(٤٣) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

(ب) حملة هكس باشا (واقعة شيكان)

(٤ محرم سنة ١٣٠١هـ/٥ نوفمبر ١٨٨٣م)

١- إعداد الحملة وتجهيزها :

عندما بدأ الاحتلال البريطاني ، السيطرة على مصر في ١ ذي القعدة ١٢٩٩هـ/١٤ سبتمبر ١٨٨٢م ، كان الموقف في السودان يزداد تأزماً ، والثورة المهدية تزداد انتشاراً . فقد أحكـم المهـدي حصـار الأبيض ، بعد أن أنذر أهلها وقادها طالباً منهم الدخول في سلك المهدية(٤٤). كما أن الثورة انتشرت في الجزيرة ، على أيدي أنصار المهدي ، من أمثال أحمد المكاشفي الذي جعله المهدي قائداً للثورة في الجزيرة وقبل وصيته (٤٥). كما أن الثورة أيضاً اشتعلت في كردفان ودارفور ، بعد أن وجه المهدي رسائله إلى المشايخ والقبائل ، يطلب منهم الانخـراط في أمـر المهديـة ، والهجرة إليه والجهاد في سبيل الله . وأن يقاتلوا من يلوهم من الكفار(٤٦).

وهكذا بدأت الحاميات المصرية في السودان ، في معظم المناطق والجهات ، تواجه خطر مهاجمة أنصار المهدي لها ، كما بدأت بعض المواقع . تسقط في يد المهدي ، منها بلدة التيارة ، وحامية الدلنج في ٣٠ شوال ١٢٩٩هـ/١٤ سبتمبر ١٨٨٢م ، وهذا التاريخ يوافق تاريخ الاحتلال البريطاني لمصر ، وسقوط بارا في ٢٥ صفر ١٣٠٠هـ/٥ يناير ١٨٨٣م . وأخيراً سقوط الأبيض في ١٠ ربيع الأول ١٣٠٠هـ/١٩ يناير ١٨٨٣م (٤٧).

ورغم جهود عبد القادر باشا حلمي في مواجهة الثورة المهدية ، إلا أنه أشار إلى حرج الموقف . فكتب أول تقرير له بعد الاحتلال البريطاني لمصر، بتاريخ ٩ ذي الحجة ١٢٩٩هـ/

---

(٤٤) مهديـة ، متنوعات ١/١٢/١١٢ ، ١٠٩٦ ، مجذوب ، من المهدي إلى حضرة الأحباب وإلى الشيخ برير وإلى أعيـان الأبيـض ، بـتاريخ ١٦ شوال ١٢٩٩هـ/٣١ أغسطس ١٨٨٢م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٤٥) مهديـة ، ١٨ فيوضـات ٣ ، مـن المهـدي إلى أحمد المكاشفي ، ١٠ ذو الحجة ١٣٠٠هـ/١٢ أكتوبر ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٤٦) مهديـة ، ١٢٧ ، فيوضات ٣ ، من المهدي إلى القبائل بشمال دار فور خصوصاً الشيخ علي ولد طاهر ، بتاريخ ٢٠ رجب ١٢٩٩هـ/٧ يونيو ١٨٨٢م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٤٧) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٦٧.

٢٤ أكتوبر ١٨٨٢م . يشير إلى انحطاط الروح المعنوية للجنود غير النظاميين (الباشبوزق)،كما أنـــه يشير إلى أن الجنود النظاميين ، لا يمكن الوثوق بهم . وأما الجنود السود فهم غير مدربين ، وغير قادرين على القتال . ولهذا فهو يطلب المدد ، ويحذر من سوء العاقبة(٤٨).

ولم تكـــن الحكومـــة الـــبريطانية ، وسلطات الاحتلال في مصر ، ترغب في التدخل العســـكري ، أو الإداري في السودان ، حتى لا تتورط في أعباء مالية ، أو عسكرية أو إدارية في الســـودان ، كمـــا وضحنا من قبل ، لأنها لا تريد أن تضيف إلى مسئولياتها في مصر ، أي مسئوليات خاصة بالسودان (٤٩). وهي بذلك تتخذ من سياسة عدم التدخل استراتيجية لها. ولا تمـــانع في أن تتخلى مصر عن السودان بأكمله ، أو بعض أقاليمه ، والدفاع عن الخرطوم والسودان الأوسط (٥٠).

بيـــد أن بـــريطانيا تعلم جيداً ، أن مصر لن تتخلى عن أي جزء من السودان ، وأنها شـــديدة الحرص على الحفاظ على نفوذها فيه . وأن الخديو محمد توفيق وحكومته ، سيبذلون كل جهد لإحراز أي انتصار على المهدي ، يردُّ عليهم كرامتهم واعتبارهم (٥١).

في ظـــل هـــذه الظروف المحيطة بالأوضاع في السودان ، والسياسة المعلنة من الحكومة الـــبريطانية ، وسلطات الاحتلال في مصر ، وافقت الحكومة البريطانية لمصر ، باتخاذ الإجراءات الضـــرورية الـــتي تراها لإخماد الثورة المهدية في السودان ، دون تدخل الحكومة البريطانية ، أو تورطها في عمليات ، عسكرية ، أو إدارية ، في السودان (٥٢).

وهكذا بدأت الحكومة المصرية ، الإعداد لتكوين حملة يتم إرسالها إلى السودان للقضاء عـــلى الـــثورة المهدية وتم اختيار الجنود لهذه الحملة من جيش عرابي المهزوم ، والذي تم إلغاؤه وتســـريحه ، وكان معظم الجنود في حالة نفسية سيئة (٥٣). ولقد تم اختيار هكس باشا ليكون رئيساً لهيئة الأركان ، يساعده مجموعة من الضباط الإنجليز (٥٤).

---

(٤٨) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ،المرجع السابق ، ص ٢٧٠.

(٤٩) (49) Marlowe .J, Anglo Egyption Relations , 1800-56. op . cit ., p.143.

(٥٠) (50) Shibeika , M., British Policy in the Sudan op. cit . , p.58.

(٥١) (51) Holt , P.M. , The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.69.

(٥٢) رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور) : مصر والسودان في العلاقات الدولية ، المرجع السابق ، ص ١٦٦.

(٥٣) جـــلال يحـــيى (الدكتور):مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية،في القرن التاسع عشر ، المرجع السابق ، ص ٣٣٧.

(٥٤) مكي شبيكة(الدكتور): تاريخ شعوب وادي النيل ، مصر والسودان ،المرجع السابق ،ص٦٦٠.

ورغم أن مهمة هكس ، كانت تنفيذاً لسياسة الحكومة المصرية ، إلا أنه كان يرى أنه يقـوم بمهمـة تتصـل بسياسة بلاده . فقد كان لبريطانيا ، يد في تعيينه ، كما أن الحكومة الـبريطانية طلـبت منه ، استعادة دفتر الشفرة من ستيوارت ، للاستعانة به في إرسال الأنباء والأخبار المطلوبة للقنصل البريطاني في مصر(٥٥).

ولما وصل هكس باشا الخرطوم في ٧ مارس ١٨٨٣م ، راح يشكو للمعتمد البريطاني في مصـر ، إدوارد مـالت ، من الصعوبات التي يلقاها ، خاصة عن الجيش وحالته السيئة ، ونقـص المؤن والذخائر . ويشكو من مؤامرات ، ودسائس موظفي الحكومة ومعارضتهم له . مما جعله عاجزاً عن تنفيذ الأوامر التي يصدرها على حد قوله .

فمـا كـان من إدوارد مالت ، إلا أن كتب إليه في ٢٨ مايو ١٨٨٣م بأن الحكومة المصـرية أصـدرت أوامرها للخرطوم ، بعدم اتخاذ أي تحركات عسكرية إلا بمشورة هكس باشـا. وهذا يجعل هكس باشا في موضع القيادة . وأخبره بأن الحكومة المصرية تعترض على تعيينه قائداً عاماً للحملة ، لأن ثورة المهدي ثورة دينية . وتعيين مسيحي في قيادة الحملة ، يثير العصبية الدينية (٥٦).

ومـع ذلـك كـان هكس يحس بالضيق الشديد ، من وضعه كنائب للقائد التركي سـليمان باشـا نيـازي الطاعن في السن ، في الوقت الذي يشعر فيه بأنه ينتمي إلى الدولة البريطانية العظمى (٥٧)!

وظـل هكـس يرسـل الشكوى تلو الشكوى ، غير أن سلطات الاحتلال تجاهلت شكواه، ولم يجد أذناً صاغية . فهدد بالاستقالة في ٢٨ يونيو ١٨٨٣م ، إذا لم يتدخل القنصل البريطاني ماليت ، لدى الحكومة المصرية ، بإصدار أوامر قاطعة ، بأن كل التوصيات التي يأمر بها يجب إطاعتها . وخصوصاً ما يتعلق بتنظيم القوات ، والترتيبات الخاصة بالحملة (٥٨).

وبـالفعل قدم هكس باشا استقالته في ٢٣ يوليو ١٨٨٣م ، إلى وزارة الحربية . تحت تـأثير هذه الظروف النفسية التي أحاطت به . فلم يجد مالت بداً من التدخل لدى الحكومة المصـرية . وانتهى الأمر ، بنقل سليمان باشا نيازي ، محافظاً للبحر الأحمر ، وتم تخويل هكس

---

(٥٥) (55) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.69.

(٥٦) (56) P.R.O. (F.O.) , No. 216 ,78/3867/Malet to Hicks,28 May 1883.

(٥٧) (57) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.70.

(٥٨) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ،المرجع السابق ، ص ٢٨٧.

باشـــا جميع سلطات القيادة على الجيش في أغسطس ١٨٨٣م ، إذ صدر أمر الخديو ، بتعيينه رئيساً على تجريدة السودان والإحسان عليه برتبه "العرفية"(٥٩).

ومـــا مـــن ريب ، أن تعيين هكس باشا ، على رأس جيش للقضاء على الثورة المهدية في الســـودان ، بعيـــد عن الحكمة والصواب ، لأن ثورة المهدي ، ذات طابع ديني ، وتعيين مسيحي أجنبي ، على رأس جيش لإخمادها ، مجرد هذا التعيين ، يثير روح التعصب الديني في نفوس الثوار .

وقـــد نـــددت الصـــحف المصرية ، في ذلك الوقت ، وعلى رأسها جريدة الأهرام القاهـــرية، بهـــذا الاختيار لهكس ، ومن معه من الضباط الإنجليز ، في قيادة المعارك الحربية ، وتقديمهم على المصريين الأكفاء ، في قيادة العمليات الحربية في السودان . ومن ذلك ما كتبه بشارة تقلا ، مدير جريدة الأهرام قائلاً : " يسوؤني والله أن أقول ، أنا لم نتخذ أسباب الحيطة في جميع أدوار المسألة السودانية . أو بالأحرى ، من يوم تقلد هكس قيادة الجيش ، واستبدلنا سعادة عبد القادر باشا "(٦٠).

ولقـــد كـــان الخديو توفيق ، منذ البداية ، يحس بخطورة تعيين قائد مسيحي في قيادة الحملة ، فحاول تجنب إثارة الشعور العدائي الديني ، باختيار سليمان باشا نيازي ، قائداً أعلى للحملة. بالاسم فقط ، بينما كان هكس باشا رئيس هيئة الأركان ، هو القائد الفعلي للحملة. ومع ذلك ، فإن هذا الوضع في ترتيب القيادة لم يستمر ، وقد رأينا كيف تدخل السير إدوارد مـــالت، فأصبح هكس القائد الأعلى للحملة ، وتم نقل سليمان باشا نيازي ، محافظاً لمديرية البحر الأحمر(٦١).

ومع أن اللورد دوفرين ، في ٦ فبراير ١٨٨٣م ، ينفي سياسة التدخل ، ويشير إلى أن هكـــس وأصـــحابه مـــن الضباط الإنجليز والأوربيين ، دخلوا خدمة الحكومة المصرية على مسئولياتهم الشخصية (٦٢)، وأن الحكومة البريطانية لا تتحمل أية مسئولية عن أية ترتيبات

---

(٥٩) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهـــرة،محفظة ١٠٢ملف١/٣وثيقة رقم(١)بتاريخ ١٣ شوال ١٣٠٠هـــ/٢٣ أغســـطس ١٨٨٣م – توجد منها بصورة بدار الوثائق القومية ، الخرطوم ، برقم ٤٤٢/٩٠/١. تلغراف من الخديو إلى هكس بتعيينه رئيساً على تجريدة السودان .

(٦٠) جريدة الأهرام ، ١٨٨٤م ، دراسة أعدها إبراهيم عبده ، القاهرة ١٩٦٤م.

(٦١) (61)Theobald , A.B., The Mahadiya ,(Ahistory of Anglo Egyption Sudan 1881-1899) Longman Green and co , London , 1949 , P.53

(٦٢) جـــلال يحـــيى (الدكـــتور):مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية ، في القرن التاسع عشر ،المرجع السابق، ص ٣٥٥.

خاصـــة بالسودان (٦٣)، إلا أننا لا يمكن أن نعفي بريطانيا من مسئولية اختيارهم والموافقة على مهمتهم ، لقيادة حملة عسكرية ضد الثورة المهدية في السودان .

ومهمـــا يكـــن من أمر ، فإن بريطانيا مسئولة عن موافقتها ، لاستخدام ضباط بريطانيين مسيحيين ، للوقوف أمام ثورة ذات طابع ديني وطني ، كما أن بريطانيا مسئولة أيضاً ، عن الموافقة عـــلى إرســـال حملة إلى كردفان ، بينما تقارير الساسة البريطانيين ، وتقارير بعثة ستيوارت ، التي وافقت عليها الحكومة البريطانية ، كل هذه التقارير ، تشير وتنصح بعدم قيام تلك الحملة(٦٤)!

لقد كان اختيار هكس ورفاقه الأوربيين ، لقيادة حملة لمواجهة الثورة المهدية ذات الطابع الديني ، خطأً فادحاً ، شاركت فيه الحكومة المصرية والحكومة البريطانية على السواء ، فضلاً عن جهل هكس ، وقلة خبرته بشئون السودان ، مما كان أيضاً من أهم عوامل فشله(٦٥).

وكان لغرور هكس ، وثقته المطلقة بالنصر ، أثر كبير في كثير من التصرفات الخاطئة التي ارتكبها . فقد كان يعتقد أنه بمهمته هذه في السودان ، إنما يحقق مجداً عسكرياً . فقد جاء في تقريـــر أحمـــد حمدي بك ، ياور الخديو توفيق ، والذي بعث به من الخرطوم في ٢٦ فبراير ١٨٨٣م ، أن هكـــس كان يسأل المسافرين عن الأحوال ، ولما يخبروه بتحسين الحالة ، كان يُرى عليه علامات الكدر . ولقد قال ذات يوم عندما بلغه تحسن الأحوال : " إذا كان الأمر كما ذكر ، فلا فائدة من حضوري من لوندرة"(٦٦)!!

ويشير أحمد حمدي بك ، أيضاً في تقرير له ، أن هكس يتدخل في شئون الحكومة بحجة بث العدل ورفع الظلم ، وجذب قلوب الأهالي وميلهم للدولة الإنجليزية ، التي هو من رجالها العظام (٦٧)!

ويشير أحمد حمدي بك في تقرير آخر ، إلى أن هكس باشا يختلف في نهجه عن غيره من أبـــناء جنســـه " ممـــا يوجب عدم الثقة "(٦٨). وكان هكس يعتقد أنه رسول العناية الآلهية

---

(٦٣) (63)P.R.O, G/D.29/166, Dufferin to Granville, 22 Jan.1883.

(٦٤) رأفت غنيمي الشيخ(الدكتور):مصر والسودان في العلاقات الدولية ، المرجع السابق ، ص ١٧٢.

(٦٥) (65) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.70.

(٦٦) دار الوثـــائق المصرية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، محفظة رقم ١/١-٣ تقرير أحمد حمدي بك بتاريخ ٢٦ فبراير ١٨٨٣م.

(٦٧) دار الوثائق المصرية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، محفظة رقم ١/١-٩،بتاريخ٢٤ مارس ١٨٨٣م.

(٦٨) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان محفظة رقم ١/١-٧ ، تقرير أحمد حمدي بك ، مارس ١٨٨٣م.

للسودانيين ، وأنه كالمسيح بين اليهود ، لما هو فيه من موقف مشابه (٦٩)! بل كان من فرط غروره وعنجهيته ، يتباهى قائلاً : " أنا هكس سلاحي من حديد ، وجيشي يحمل في جوفه جيشاً آخر ، إذا سقطت السماء رفعتها بحرابي ، وإذا زُلزلت الأرض ثبتها بحذائي "(٧٠)! ويبدو أن هذا التباهي والغرور هو الذي دفعه للمغامرة ، رغم عوامل الفشل التي كانت تحيط به .

وهكذا بدأت الحملة استعداداتها ، وأعلن هكس عزمه ، على السير بطريق النيل الأبيض ، وذلك في مكاتبة من ناظر الحربية إلى الخديو في ٦ جمادى الثاني ١٣٠٠هـ/١٤ إبريل ١٨٨٣م ، بناءً على إفادة من هكس باشا (٧١). وأشار هكس في إفادته لناظر الحربية بأنه " يأسف لقلة المؤن ، وتأخير استحقاق العساكر ، وعطب الوابورات ، ويلتمس عرض ذلك على المسامع الخديوية "(٧٢).

ويبدو أن الحكومة المصرية أصدرت أوامرها بناءً على ذلك ، بالمضي في بذل المزيد من الجهد في تجهيز الحملة بما يلزم من المؤن والدواب . فقد وصلت برقية من رئاسة مجلس النظار ، لسعادة حكمدار عموم السودان ، بتاريخ ٢٤ رجب ١٣٠٠هـ/٣١ مايو ١٨٨٣م ، للقيام بشراء الجمال اللازمة للترحيلات ، " ولا بأس بشراء خمسة آلاف جمل من جهات الشكرية والكبابيش" (٧٣).

ورغم ذلك فإن الجنرال هكس ، كان يشكو من قلة العسكر قبل أن تبدأ الحملة مسيرها . فقد أفاد تلغراف باللغة الفرنسية من الجنرال هكس ، إلى جناب السير إدوارد مالت، القنصل البريطاني في مصر ، بتاريخ ٣ يونيو ١٨٨٣م ، ومعه ترجمة باللغة العربية تفيد بأن القوة التي معه تبلغ ٦ آلاف جندي ، وأنه مضطر إلى أن يترك ألفين منهم ، لحفظ خطوط

---

(٦٩) رأفت غنيمي الشيخ(الدكتور): مصر والسودان في العلاقات الدولية ،المرجع السابق ، ص ١٧٩.

(٧٠) (70) Sudan Notes and Records .vol 8, (1926) p.119.

(٧١) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محفظة ١٠٢ ، ملف ٣/١ وثيقة رقم ٧ ، بتاريخ ٦ جماد الثاني ١٣٠٠هـ/ ١٤ إبريل ١٨٨٣م ، من ناظر الحربية إلى مهردار خديو . توجد منها صورة بدار الوثائق القومية ، الخرطوم تحت رقم ٤٤٢/٩٠/١.

(٧٢) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محفظة ١٠٢ ، ملف ٣/١ وثيقة رقم ٧ ، بتاريخ ٦ جماد الثاني ١٣٠٠ هـ/١٤ إبريل ١٨٨٣م ، (الوثيقة السابقة) .

(٧٣) دار الوثائق القومية ، الخرطوم ، المخابرات المصرية ١٨٨٢/١٩/١١ ، برقيت ووثائق عن السودان ، صورة تلغراف محرر من رئاسة مجلس النظار لسعادة حكمدار عموم السودان بتاريخ٢٤رجب١٣٠٠هـ/ ١٣ مايو ١٨٨٣م.

المواصـــلات ، فيكون الباقي معه لا يكفي لمقاومة المهدي الذي لا يزال نفوذه كبيراً ، ويذكر أنـــه لابد من عشرة آلاف عسكري للهجوم ، وإلا فالهزيمة محققة ولا تكون قاصرة فقط على ضياع كردفان ، ودارفور ، بل سنار والخرطوم (٧٤).

ومما شجع على الاستمرار في تجهيزات الحملة والإعداد لإرسالها إلى كردفان ، تحقيق الحملة بعـــض الانتصارات ، حيث صدت هجوماً للثوار في منطقة المرابيع جنوب الجزيرة أبا ، على النيل الأبيض في ١٩ إبريل ١٨٨٣م . كما انتصرت على الثوار في منطقة الجزيرة(٧٥).

وفي واقـــع الأمر ، ورغم تلك النجاحات التي حققتها الحملة ، فإن مسير الحملة إلى كردفان ، كان يعتبر مخاطرةً كبيرةً . فقد كانت عوامل الفشل تحيط بها من كل جانب .

وتشـــير التقارير إلى أن قوة المهدي تتعاظم يوماً بعد يوم ، وأن " لديه عدداً وافراً من المال والرجال "(٧٦). وأن الحاميات المصرية في كثير من أنحاء السودان يزداد موقفها حرجاً. فقد ورد في برقية من حكمدار السودان لسعادة مهردار خديو بتاريخ ٢ رجب ١٣٠٠هـــ/ ١٠ مـــايو ١٨٨٣م ، أن بكباشي أورطة فشودة ، أرسل مكاتبة للحكمدار ، بأن المهدي ، وجه أنصاره للهجوم على المديرية ، ولهذا فإن البكباشي يطلب من الحكمدار إرسال أورطتين جهادية ، وبعض الخيالة لتقوية المديرية (٧٧).

كما تشير الوثائق أيضاً ، إلى أن سلطات الخرطوم ضبطت بعض الخطابات التي أرسلها أنصار المهدي إلى ضباط الحكومة بالخرطوم ، يطلبون منهم الدخول في المهدية ، ومن ذلك ، تقريـــر مـــن القائمقـــام محمد بك وهبي ، أركان حرب بفرقة السفرية ، بتاريخ ٢٣ رمضان ١٣٠٠هـــــ/٢٨ يوليـــو ١٨٨٣م ، عن بعض حوادث وإجراءات تتعلق بالجيش الموجود بكـــردفان، مـــرفوع لـــلخديو ، ومعه صورة من خطاب مرسل من الشيخ يوسف منصور ،

---

(٧٤)دار الوثـــائق القومية ،القاهرة ،محفظة١٠٢ ملف ٣/١ وثيقة رقم ٦بتاريخ ٢٩ رجب ١٣٠٠هـــ/٥ يونيو ١٨٨٣م ، يوجد منها صورة بدار الوثائق القومية ، الخرطوم تحت رقم ٤٤٢/٩٠/١.

(٧٥) (75) P.R.O.(F.O.),No.347,78/3550., Hicks to Malet , 7 Aug.1883.

(٧٦) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهرة محفظة ١٠٢ ، ملف ٣/١/ وثيقة ٦ تلغراف من الجنرال هكس إلى جناب الســـير إدوارد مالت بتاريخ ٢٩ رجب ١٣٠٠هــ/٥ يونيو ١٨٨٣م ، توجد نسخة بدار الوثائق القومية بالخرطوم رقم ٤٤٢/٩٠/١ .

(٧٧) دار الوثـــائق القومية ، الخرطوم ، المخابرات المصرية ، ١٨٨٢/١١٩/١١ ، برقيات ووثائق عن السودان، من حكمدار السودان إلى مهردار خديو ، بتاريخ ٢ رجب ١٣٠٠هـــ/١٠ مايو ١٨٨٣م.

والشيخ محمد اسكندر ، وهما من أتباع المهدي ، إلى الضباط الموجودين بالخرطوم ، يدعوهم إلى الإيمان بالمهدي ، ويصف لهم بعض صفاته وأحواله (٧٨). وهذا مما يؤكد مدى انتشار أمر المهدي وقوة اندفاع الثورة المهدية .

وممـا يصور مدى المخاطرة التي تنتظر حملة هكس ، ما أشار إليه سلاطين باشا ، الذي كان مديراً لدار فور آنذاك ، فقد أشار إلى أن حكومة القاهرة ، خاطرت بحياة الألوف لجهلها بالحالة في كردفان ، حيث أصبح المهدي الحاكم المطلق ، وأنه أصبح يملك من البنادق ، أكثر مما يملك هكس في تجريدته ، وأن هذه البنادق صارت في أيدي البازنجر المهرة ، الذين انضموا، مع آلاف من الجنود النظاميين ، إلى جيش المهدي (٧٩).

وممـا يـزيد من صعوبات الوضع في السودان عموماً ، قبيل مسير الحملة ، أن جميع العسـاكر الموجودة بجهات مديرية دنقلا ، وبربر ، والخرطوم ، وسنار ، وبحر الغزال ، وخط الاستواء ، وفشودة ، والكوة ، وفازوغلي ، والدويم ، لا يزيد عددهم عن ١٣,٤٠٨ (ثلاثة عشر ألفاً وأربعمائة وثمانية)جندياً، كما ورد في يومية بيان العساكر الموجودين بتلك الجهات بتاريخ ٩ جماد أول ١٣٠٠هـ/١٨ مارس ١٨٨٣م (٨٠).

وكـانت سلطات الاحتلال البريطاني في مصر ، والحكومة البريطانية ، على قناعة تامة بخطـورة العمليات الحربية في كردفان ، إلا أنها لم تتدخل لدى الحكومة المصرية ، لمنع إرسال الحمـلة إلى كردفان . رغم أن قياداتها بريطانية (٨١)، انطلاقاً من سياسة عدم التدخل التي أشرنا لها إليها من قبل . وكذلك علم بريطانيا ، بأن الحكومة المصرية عاقدة العزم ، على إنفاذ حملة هكس .

---

(٧٨) دار الوثـائق القومية ، القاهرة ، محفظة ١٠٢ ملف ٢/١ وثيقة ١٧ ، بتاريخ ٢٣ رمضان ١٣٠٠هـ/٢٨ يوليـو ١٨٨٣م ، تقريـر من القائمقام محمد بك وهبي أركان حرب بقرقة السفرية المرجع السابق ، ص مرفوع للخديو ، توجد صورة منه بدار الوثائق القومية بالخرطوم .

(٧٩) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٩٨.

(٨٠) دار الوثائق القومية ، القاهرة ، محفظة ١٠٢ ملف ٢/١ وثيقة رقم ١ ، بتاريخ ٩ جمادى أول ١٣٠٠هـ/ ١٨ مـارس ١٨٨٣م بومية العساكر الموجودة بجهات مديريات السودان (توجد صورة منه بدار الوثائق القومية بالخرطوم ، تحت رقم ٤٤٢/٩٠/١).

(٨١) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ،المرجع السابق ، ص ٢٩٠.

بـــلغت عـــدة الحملة نحو ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف) جندي ، منهم سبعة آلاف من الجنود المشاة النظاميين ، وخمسمائة من الجنود الفرسان ، وخمسمائة من الفرسان الباشبوزق . وكـــانت الحمـــلة تمتـــلك عشـــرين مدفعاً (٨٢). وكان على هذا الجيش أن يواجه حوالي ٧٠,٠٠٠ (سبعين ألفاً) من جيش المهدي (٨٣).

وكانت حملة هكس تضم مجموعة من الضباط الإنجليز في قيادة الحملة ، ومجموعة من مراسلي الصحف البريطانية ، وكلهم من الإنجليز (٨٤).

هذا وقد طلب هكس باشا من الخديو توفيق ، الموافقة على تعيين الكولونيل فاركوهار Farquhar، رئيســاً لأركـــان حـــرب الحمـــلة ، ويلتمس التصديق على هذا التعيين مع المرتب(٨٥).

٢- زحف الحملة وهزيمتها في شيكان :

غادر هكس باشا الخرطوم في ٩ سبتمبر ١٨٨٣م ، إلى مدينة الدويم ، حيث اكتملت استعدادات الحملة وتمكنت الحملة من الاستيلاء على شاث في طريقها إلى الجنوب ، كما ورد في بـــرقية مـــن هكـــس باشا ، إلى ناظر الحربية والبحرية في مصر ، بتاريخ ٢٨ ذي القعدة ١٣٠٠هـــ/٢٣ سبتمبر ١٨٨٣م (٨٦).

بيـــد أن الخلافـــات بين هكس باشا وعلاء الدين حكمدار السودان ، قد بدأت منذ الـــبداية ، فقـــد اختلفا على الطريق الذي يمكن أن تسلكه الحملة إلى كردفان . هذا وقد تم الاتفاق أخيراً على رأي علاء الدين ، بتفضيل الطريق الجنوبي لوفرة المياه فيه رغم بعده ، على الطريق الذي يمر ببارا ، وهو طرق قصير (٨٧).

---

(٨٢) (82)Theobald ; A.B., The Mahadiya op.cit., p.54.

(٨٣) (83)Ibid

(٨٤) شقير(نعوم): تاريخ السودان، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٣٩٣-٣٩٤.

(٨٥) دار الوثائق القومية ، القاهرة،محفظة ١٠٢ملف ٣/١ وثيقة رقم ٢،بدون تاريخ، من هكس باشا إلى الخديو توفيق – توجد صورة منه بدار الوثائق القومية بالخرطوم ، تحت رقم ٤٤٢/٩٠/١.

(٨٦) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهرة ، محفظة ١٠٢ ملف ٣/١ وثيقة رقم ٤ ، بتاريخ ٢٨ ذي القعدة ١٣٠٠ هـــ/٢٣ سبتمبر ١٨٨٣م . من هكس باشا إلى ناظر الحربية والبحرية (ترجمة التلغراف) – توجد صورة منه بدار الوثائق القومية بالخرطوم – ٤٤٢/٩٠/١.

(٨٧)شقير(نعوم): تاريخ السودان، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٣٩٥.

وقــد أشــار ســلاطين باشا فيما بعد ، إلى أن الطريق الشمالي الذي يمر ببارا ، كان أفضــل. فهــو إلى جانب أنه قصير ، تتوفر فيه المياه في عدة أماكن ، ويمكن استخدام وسائل حديــثة لــتوفير الميــاه ، كما يمكن الاستعانة بقبائل الكبابيش . وهو طريق مكشوف أمام الحملة(٨٨).

وكانت الحكومة المصرية تتابع حملة هكس منذ قيامها ، وتطلب من حكمدارية عموم الســودان ، أن تمدهــا بالأخبار والمعلومات . ومن ذلك رسالة إلى سعادة وكيل حكمدارية عموم السودان ، بتاريخ ٢٥ ذي القعدة ١٣٠٠هـــ/٢٠ سبتمبر ١٨٨٣م ، تسأل عن قيام الحمـــلة، وتـــاريخ قيامها ، ومكان وصولها ، والنقط التي بلغتها ، وهل توفرت المواصلات التلغرافية بين الحملة والحكمدارية ، وتطلب الإفادة عن حركات الحملة ، وأخبارها الحقيقية ، وكذا عن سائر الأحوال العمومية (٨٩).

تركت الحملة حامية صغيرة في بلدة شات ، ثم توجهت نحو كردفان . وكان من رأي الجنرال هكس ، ترك حاميات صغيرة في مناهل الماء ، على طول الطريق ، لحفظ خط الاتصال مـــع النيل . غير أن علاء الدين باشا ، اعترض خوفاً على هذه الحاميات إذا هاجمها العربان ، كمـــا أنها تنقص من جيش الحملة وتضعفه (٩٠). وحسماً للخلاف عرض الأمر على مجلس الضباط ، فأيد رأي علاء الدين .

ولم تكن صورة الموقف واضحة في أذهان قادة الحملة ! هكس وعلاء الدين . فقد كتبا رســـائل إلى المـــلك آدم أم دبالو ، ملك جبال تقلي ، وإلياس باشا أم برير ، لكسب ولائهم للحمـــلة . وهـــذا يدل على أن الحقائق كانت محجوبة عن قادة الحملة ، إذ أن هؤلاء الذين كتبوا إليهم ، هم الذين مكنوا للمهدي في كردفان ، كما أن القبائل والعربان في هذه المنطقة، كقبائل الغديات كانت من أكثر القبائل مناصرة للمهدي (٩١).

---

(٨٨) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٩٩.

(٨٩) دار الوثائق القومية ، الخرطوم المخابرات المصرية ١١/١١٩/١٨٨٢ بريقيات ووثائق عن السودان، برقية لسعادة وكيل حكمدار عموم السودان ، بتاريخ ٢٥ ذي القعدة ١٣٠٠هـــ/٢٠ سبتمبر ١٨٨٣م.

(٩٠)شقير(نعوم): تاريخ السودان، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ،ص ٣٩٥.

(٩١) مكي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، المرجع السابق ، ص ٨١.

وكانت الحملة تسير في هيئة مربع في وسطه ستة آلاف من الجمال ، في وسط أعشاب ونـــبات طويل . فلم يكن في مقدور الجنود ، أن يروا أكثر من مائتي ياردة . وكانت الجمال تشكل عائقاً كبيراً في استخدام الجنود لأسلحتهم (٩٢).

وواجهـــت الحملة في طريقها كثيراً من المشكلات . فالسكان على طول الطريق كـــانوا يهجرون القرى ، ويتركونها أكواماً من الرماد ، ويطمرون الآبار . ولا يوجد من يحمل رسالة إلى الخرطوم . ولو رضي واحد منهم بذلك ، ربما يتجه بالرسالة إلى المهدي بدلاً عن الخرطوم(٩٣)!

وقـــد أرســـل هكس باشا ، برقية إلى ناظر الحربية بالقاهرة ، يشكو من الصعوبة التي يعانيها الجيش من الزحف في طريقه إلى كردفان ، وذلك لقلة المياه (٩٤).

من جهة أخرى فقد فرض محمد المهدي وأنصاره على الحملة ، الرقابة والتجسس من كـــل جانب . وطلب محمد المهدي من الخليفة عبد الله ، إرسال طلائع لمراقبة الكفرة (هكس وصـــحبه) . وأن تكون إحدى الرايات ، راية عمر إلياس ، ويرجو أن يشددوا عليهم ، ولا يدخلوا معهم في قتال لحين وصول الجيش (٩٥).

وقـــد اســـتعان هكس ببعض المرشدين ، والأدلاء ليدلوه ، على الطريق ، وقد اتضح أخـــيراً أن معظمهم عيون وجواسيس للمهدي ، ينقلون إليه تحركات الجيش المصري ، بينما كان المهدي يرقب هذه التحركات ، ويستدرج الجيش للوقوع في شباكه وحبائله (٩٦)!

ولقـــد اســـتخدم محمد المهدي أسلوب المناوشة ، وحرب العصابات ، دون الالتحام بالحمـــلة . فـــبعث مجموعة من المقاتلين من أنصاره ، على رأسهم أبو قرجة ، وعمر إلياس ، ورحمـــة منوفل ، وعبد الحليم مساعد ، وأحمد الشامي ، وبدوي أبو صفية ، وغيرهم ، يطلب

---

(٩٢) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٩٩.

(٩٣) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٩٤.

(٩٤) دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، محفظة ١٠٢ ملف ٣/١ وثيقة رقم ٥،بتاريخ ١٥ذي الحجة ١٣٠٠هـــ/ ١٧ أكـــتوبر ١٨٨٣م . مـــن هكـــس باشـــا إلى ناظر الحربية – توجد صورة منه بدار الوثائق القومية بالخرطوم برقم ٤٤٢/٩٠/١.

(٩٥) مهديـــة ، ٣٥/٤/٩ – ٢٧ ٣١٥ صادق ، من المهدي إلى الخليفة عبد الله بتاريخ ذي الحجة ١٣٠٠هـــ/ أكتوبر ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٩٦) الرافعي (عبد الرحمن): مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، المرجع السابق ، ص ١١٧.

منهم ألا يدخلوا مع العدو في معركة كبيرة وأن يناوشوهم ويهاجموهم (٩٧).وكان من ضمن مهمتهم عرقلة مسيرة الحملة ، وقطع خطوط مواصلاتها (٩٨).

أما هكس فقد كان يأمل في انضمام قوة جديدة إلى جيشه . فقد أبلغته الحكومة ، قبل مغادرتـــه الدويم ، أنه سينضم إليه ، ستة آلاف مقاتل ، من جبل تاج الله ، وبضع مئات من عـــرب الحســـانية . وكان يترقب هذه القوة ، لترفع من الروح المعنوية لجنوده ، ولكن دون فائدة(٩٩).

أخـــيراً قرر محمد المهدي ، الخروج من الأبيض استعداداً للمعركة الكبرى . وكانت جيـــوش محمـــد المهـــدي تعرض كل يوم ، وتقرع الطبول وتطلق المدافع ، وتدرب الجنود والخيول(١٠٠).

وكـــانت الحملة تسير بطيئة ، وقد أضناها طول المسير والتعب ، وحرب العصابات . حـــتى وصـــلت إلى منهل الرهد في ٢٠ أكتوبر ١٨٨٣م . وما إن استقرت هناك قليلاً حتى أرســـل محمد المهدي إليهم منشوراً بتاريخ ١٩ ذي الحجة سنة ١٣٠٠هـــ/٢١ أكتوبر سنة ١٨٨٣م ، موجه لجميع أفراد الحملة ، قائلاً : " وبعد ، فمن العبد الفقير المعتصم بمولاه محمد المهـــدي بـــن السيد عبد الله ، إلى من يسمع من أهل الجردة ممن له عقل "(١٠١). ومع أن الخطاب يستفاد منه أنه لجميع أهل الجردة ، إلا أن محمد المهدي أرسل نسخاً منه لقادة الحملة (هكس ورفاقه)(١٠٢). وفي هذا المنشور توعدهم محمد المهدي بالهلاك ، وألا يغتروا بقوهم وطلب إليهم التسليم (١٠٣).

---

(٩٧) مهديـــة ، ٢٠/٣/٨ ، ١/٩ إنذارات ب ، من المهدي إلى أحبابه أنصار الدين المذكورين / أبو قرجه وعمر إلياس الخ بتاريخ ١٩ ذي الحجة ١٣٠٠هــ/٢١ أكتوبر ١٨٨٣م،دار الوثائق القومية،الخرطوم .

(٩٨) (98)Theobald , A.B., The Mahadiya op., cit ., p.72.

(٩٩) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ١٠١.

(١٠٠) نفس المرجع ، ص ١٠٠.

(١٠١) مهديـــة ، ١٧/٣/٨ ، ١/٤ إنذارات أ ، من المهدي إلى أهل الجردة بتاريخ ١٩ ذي الحجة ١٣٠٠هــ/ ٢١ أكتوبر ١٨٨٣م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٠٢) منشـــورات المهديـــة ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت، ص ٣١٧ .

(١٠٣) مهديـــة ، ١٧/٣/٨ ، ٧٤ إنذارات أ ، من المهدي إلى أهل الجردة ، بتاريخ ١٩ ذي الحجة ١٣٠٠هــ/ ٢١ أكتوبر ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

ولقـــد كـــتب محمـــد المهدي من الإنذار نحو سبعة آلاف نسخة ، وضعت في طريق الحملة، وعلى فروع الأشجار ، ليلتقطها الجنود ، فلما علم هكس بها أمر بجمعها فأحرقت . ولكنها فعلت فعلها ، في التأثير على الجنود ، وخفض روحهم المعنوية (١٠٤).

ونلاحـــظ على منشور محمد المهدي إلى هكس وجنوده ، اختلافاً في الأسلوب الذي اتبعه محمد المهدي في مخاطبة أعدائه في رسائله السابقة . فالمنشور الذي أرسله محمد المهدي إلى الشـــلالي مثلاً ، كان موجهاً إلى قائد الحملة مباشرة ، قائلاً : " من المهدي إلى يوسف حسن الشلالي "(١٠٥). وأما خطاب المهدي لحملة هكس فقد كان موجهاً "إلى جميع أهل الجردة" دون أن يخص قائدها بالخطاب (١٠٦). ونلاحظ على خطاب محمد المهدي إلى حملة هكس ، أنـــه مختصر ، وقد قصد منه الإنذار أكثر من الشرح والبيان . وربما يكون لشخصية هكس وغروره ، أثر في صرف المهدي عن توجيه الرسالة إليه مباشرة . كما صرفه أيضاً عن التطويل فيها . هذا ولم يرد هكس على الرسالة (١٠٧).

وصل هكس وجيشه إلى منهل علوبة ، يوم الإثنين ٢٩ أكتوبر ١٨٨٣م ، في طريقه إلى منهل البركة ، لأنه أغزر ماءً . فلما علم محمد المهدي بذلك ، سارع بأصحابه وسبق جيش هكس واحـــتل منهل البركة في ٢ محرم ١٣٠٠هـــ/٣ نوفمبر ١٨٨٣م ، فاضطر هكس إلى تعديل خطته فاتجـــه نحو الأبيض ، واختار الطريق الذي يمر بشيكان . غير أن المهدي سبق هكس واحتل شيكان أيضاً (١٠٨).

وكـــانت خطـــة محمد المهدي أن يحرم هكس ورفاقه من الاستيلاء على موارد المياه ، وأن يفـــرض عليه الحصار في منطقة غابة شيكان المليئة بالأشجار ، حيث كمن جنود الجهادية ، بقيادة حمـــدان أبي عنجه ، وأصلوا حملة هكس ناراً حامية ، من رصاص بنادقهم ، دون أن يتمكن جنود هكس من الرد عليهم بأسلحتهم النارية ، لاختبائهم وراء الأشجار في الظلام الحالك (١٠٩).

---

(١٠٤) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ١٠١.

(١٠٥) مهديـــة ، ١٧/٣/٨ ، ٣ إنـــذارات أ ، من المهدي إلى يوسف حسن الشلالي ، بتاريخ ٤ رجب ١٢٩٩ هــ/ ٢٢ مايو ١٨٨٢م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٠٦) مهديـــة ، ١٧/٣/٨ ، ٣ إنـــذارات أ ، مـــن المهدي إلى يوسف حسن الشلالي ، بتاريخ١٩ ذي الحجة ١٣٠٠هـــ/ ٢١ أكتوبر ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٠٧) منشورات المهدية ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٣١٧.

(١٠٨)الكردفاني(إسماعيل عبد القادر):سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي، المرجع السابق،ص ٢٣٢.

(١٠٩) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٩٧.

وسار جيش هكس في ثلاثة مربعات ، على شكل مثلث متساوي الأضلاع ، وفي وسط كـــل مربع مهماته وذخائره ، وسار هكس وأركان حربه في مقدمة الجيش . ودخل الجيش وادياً مفتوحاً تحيط به الغابات الكثيفة من الجانبين . بينما كان المهدي وجنوده ، يترصدون له من كل جـــانب . حـــتى إذا حانت ساعة الصفر ، أعطى المهدي الإشارة بالهجوم في ضحى يوم الاثنين الـــرابع من محرم سنة ١٣٠٠هـــ/٥ نوفمبر ١٨٨٣م . وكانت الموقعة حاسمة، حيث أبيد جيش هكـــس عن آخره ، ولم ينج إلا القليل ، وقتل في الموقعة ، جميع قادة الحملة ، بمن فيهم هكس وعلاء الدين (١١٠)! ولم يفقد المهدي إلا حوالي مائتين من جنوده . وغنم الكثير من الأسلحة والذخائر (١١١).

وتشـــير الـــروايات ، إلى أن المعركة لم تستمر إلا وقتاً قصيراً لا يزيد على الساعتين . فقد انتهت المعركة قبل انحسار الضحى (١١٢)!

٢- أسباب هزيمة حملة هكس :

وبالـــنظر في أســـباب هزيمة هكس وجيشه ، يتضح لنا أن عوامل الفشل كانت تحيط بالحملة منذ بداية تكوينها ، وحتى نهايتها المحتومة . فقد كانت تقارير الخبراء تشير إلى خطورة القيـــام بحملة إلى كردفان . ومنها تقرير ستيوارت الذي أشرنا إليه من قبل . ولهذا فقد كانت تسير في حالة حصار وتضييق (١١٣).

ويرى ثيوبولد : " أن حملة هكس محكوم عليها بالفشل منذ البداية وحتى النهاية . فما كان لحكومـــة القاهرة ، أن ترسل هذه الحملة ، وما كان لسلطات الاحتلال ، وحكومة بريطانيا ، أن تسمح بها . فضلاً عن أن الجنود كانوا غير مدربين ، كما أن الخطط الحربية لم تكن مدروسة ، وإنما كـــانت وقـــتية وســـريعة الـــتغير . ولم تكـــن الظروف الجغرافية ، وعوامل الطقس ، في صالح الحملة"(١١٤).

---

(١١٠)الكردفاني(إسماعيل عبد القادر):سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي،المرجع السابق، ص ٢٣٤.

(١١١) مهديـــة ، متـــنوعات ١/٦٢/١١١٧ ، ١٠٩٦ ، ٦٣ مجـــذوب ،من المهدي إلى كافة الأمراء والمقاديم وأتباعهم ، بتاريخ ٥ محرم ١٣٠٠هـــ/٦ نوفمبر ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١١٢) رواية الشيخ عبد الرحمن بن الحاج رابح ، والشيخ إدريس آدم هباني ، اللذين شاركا في معركة شيكان . وقد نقل لي هذه الرواية الدكتور أحمد شمس الدين الشيخ ، عن والده الذي ينتمي إلى أسرة الحاج رابح . وكان ذلك في مقابلة شخصية بتاريخ٢٦ أغسطس ٢٠٠٠م.

(١١٣)الكردفاني(إسماعيل عبد القادر):سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي،المرجع السابق، ص ٢٢٥.

(١١٤) (114)Theobold , A.B., The Mahadiya op.cit ., p.62.

ووصـــف تشرشـــل حالـــة جيـــش هكـــس بقولـــه : " لعله كان أسوأ جيش سار لحرب"(١١٥)!

لقـــد كان هكس ، يجهل طبائع جنوده ولغتهم ، وهو مسيحي يختلف عنهم في دينه ، فضـــلاً عن اختلاف العادات والتقاليد . يضاف إلى ذلك ، التنافر وعدم الانسجام بين قادة الحملة أنفسهم ، ونفور الأهلين عن مساعدتهم . بينما كان أنصار المهدي في القمة من الإيمان وحب الاستشهاد (١١٦).

وفوق ذلك كله كان للمهدي ومقدرته الحربية ، أثر كبير في تحقيق النصر . فقد اتخذ المهـــدي ، خططـــاً حربية تنم عن العبقرية العسكرية (١١٧). كما كان له مقدرة عظيمة في التأثير على جنوده . ولقد استثمر عوامل الطقس ، والمناخ ، والظروف الجغرافية . وصبر حتى حانت اللحظة المناسبة للوثوب على الحملة (١١٨).

وأشار آلان مورهيد ، إلى أن حملة هكس ، كانت قوية من حيث العتاد ، ولكن هناك عوامل ضعف كانت تنذر بالشر ، وعلى رأسها الجنود الذين أجبروا على القتال (١١٩).

ولقـــد حصـــل سلاطين باشا ، على مذكرات بعض قادة الحملة من أمثال فاركوهار Farquhar، وأودنفان ODonovan، وكتب عن ذلك فقال : " قرأت ما كتباه وما أعظم مقـــدار مـــا قاســـيته من الحزن من هذه القراءة ! فقد كتب كلاهما شيئاً كثيراً عن الخلاف والشقاق في الجيش ، وعن الشجار بين الجنرال هكس وبين علاء الدين . وقد حمل فاركوهار على رئيسه حملة قاسية ، لأغلاطه الحربية . وقد أحس كلاهما بالنكبة قبل وقوعها . ولذلك كان فاركوهار يلوم رئيسه ، لأنه مع معرفته بالحالة المعنوية السيئة للجيش ، خرج به للقتال . ولم يحصل الضباط الأوربيون على أية معونة "(١٢٠).

---

(١١٥) (115) Churchill, W., The River War Lands borough Publication Limited , London 1949 ,p.36.

(١١٦) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ، المرجع السابق ، ص ١٥٤.

(١١٧) زلفو (عصمت) : شيكان ، أبو ظبي ، ١٩٧٦م ، ص ٢٤٨.

(١١٨) (118)Theobald , A.B., The Mahadiya op. cit ., p.62

(١١٩) مورهيـــد (آلان) : الـــنيل الأبيض ، ترجمة محمد بدر الدين خليل ، الطبعة الأولى ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٥٦ن ص ٢١٩.

(١٢٠) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ١٠٣.

ثم يمضـــي فيقــول : " وأذكـــر أني قرأت العبارة التالية بقلم الكولونيل فاركوهار : "سألت أودنفان اليوم ، عن المكان الذي سنكون به بعد ثمانية أيام . فأجابني بقوله : " في العالم الآخر "!! وكانت مذكرات أودنفان مكتوبة بهذه اللهجة أيضاً "(١٢١). فإذا كانت هذه هي الحالة النفسية لقواد الحملة ، فكيف بالجنود ؟ !

(جـ) نتائج موقعة شيكان

كان لانتصار محمد المهدي في شيكان ، في ٤ محرم ١٣٠٠هـ/٥ نوفمبر ١٨٨٣م ، أعظـــم النتائج في كل أنحاء السودان ، وفي مصر وبريطانيا (١٢٢). بل وفي معظم أنحاء العالم الإســلامي والــدول الأوربيـــة . فقد كانت موقعة شيكان ، فاصلة وحاسمة في الصراع بين الحكومــة المصـــرية والثورة المهدية في السودان ، إذ أنها رجحت بميزان القوى نهائياً لمصلحة محمــد المهدي.

١ – أثر الهزيمة على سلطات الحكم التركي المصري في السودان:

أصـــبح محمـــد المهدي بهذا النصر ، مسيطراً على كردفان ، ومعظم دار فور ، وبدأ يتطلع للسيطرة على السودان بأكمله . كما أن سلطان الحكومة التركية في الخرطوم ، ومعظم أنحـــاء السودان ، بدأ يتضعضع ويضعف ، مما جعل كثيراً من الذين كانوا في حيرة من أمرهم تجـــاه المهـــدي ، والمـــترددين في اتـــباعه ، يفقـــدون الأمل في الحكومة ، فأيدوه طوعاً أو كرهاً(١٢٣).

أمـــا في الخرطوم فقد تلقت سلطات الحكومة ، الخبر بكثير من القلق والاضطراب . وأول خبر موثوق به وصل إلى الحكمدارية بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٨٨٣م من الدويم . وسرعان مـــا أبرق به وكيل الحكمدارية حسين سري باشا إلى سلطات الحكومة المصرية في القاهرة في ٢٠ نوفمبر ١٨٨٣م(١٢٤). وصور وكيل الحكمدارية الحالة في ختام برقيته بقوله : "وحيث

---

(١٢١) نفس المرجع والمكان .

(١٢٢)رأفت غنيمي الشيخ(الدكتور): مصر والسودان في العلاقات الدولية، المرجع السابق ،ص ١٨٢.

(١٢٣) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ، المرجع السابق ، ص ١٥٦.

(١٢٤) صادر تلغرافات ، صحيفة ١/٤ ، عابدين ، بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية ، القاهرة نقلاً عن ، مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، ص ٢٩٨ ، ٢٩٩.

أنـــه بهـــذه الحالة ، فقد صارت الخرطوم ، وخلافها ، في حالة خطر كلي ، لعدم وجود عساكر كفاية "(١٢٥).

وبعــد يــوم واحد من هذه البرقية ، أي في ٢١ نوفمبر ١٨٨٣م ، أبرق حسين ســري باشـــا وكيل الحكمدارية في الخرطوم ، أبرق القاهرة أيضاً بتفاصيل الخبر الذي وصـــله مـــن أسير تمكن من الفرار في زي أنصاري . وأشار بأن الأفضل هو انسحاب العساكر من نقاط النيل الأبيض : الكوة ، والدويم ، وشات ، وود الزاكي ، وجمعها في الخـــرطوم . وفي حالـــة عدم وصول نجدات من مصر ، فالأفضل سحب حامية الخرطوم نفسها إلى بربر (١٢٦).

وكانت التقارير تشير إلى أن عدد العساكر ، في الخرطوم ، وبربر ، بعد واقعة شيكان، قليل بصورة لا تسمح بالدفاع عن الخرطوم ، فقد وصل تلغراف من ٣ جي لوا بيادة سفرية بالخرطوم ، إلى مهردار خديو بتاريخ ٢١ ديسمبر ١٨٨٣م ببيان العساكر الموجودين بالخرطوم وبربر وعددهم ٤,١٩٨ (ثمانية وتسعون ومائة وأربعة آلاف) جندياً (١٢٧).

وممـــا يدل على خطورة الموقف ، أن حسين سري باشا وكيل الحكمدارية نفسه ، وإبراهيم حيدر باشا قومندان ألآلاي الثالث ، كلاهما طلب النزول إلى مصر ، متعللين بالمرض(١٢٨). كما أن عـــدداً كبيراً ، من الأوربيين ، والمصريين المقيمين في المدن ، بدأوا في الخروج من السودان ، أو إرسال أمتعتهم ، ومنقولاتهم إلى مصر تحسباً لخطورة الموقف(١٢٩).

ولقد تلقت الحكومة المصرية في القاهرة ، أنباء الكارثة بالحزن العميق ، ولكنها مع موافقتها عـــلى تجميع الحاميات من النيل الأبيض ، ووضعها في الخرطوم ،كانت لا تزال على رأيها السابق ، بضـــرورة الحفـــاظ عـــلى الســـودان . لأن التخـــلي عن السودان ، يضر بمصالح مصر سياسياً واقتصادياً(١٣٠) فضلاً عن أنه يظهر عجز الخديو توفيق والحكومة المصرية على السواء.

---

(١٢٥) صادر تلغرافات ، صحيفة ١/٤ ، عابدين ، المرجع السابق .

(١٢٦) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٩٩.

(١٢٧) دار الوثـــائق القومية ، القاهرة ، محفظة ١٠٢ ملف ٢/١ وثيقة رقم ١٤ ، بتاريخ ٢ صفر ١٣٠١هـــ/ ٢١ ديسمبر ١٨٨٣م ، برقية من ٣ جي لوابيادة سفرية بالخرطوم إلى مهردار خديو.

(١٢٨) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٢٩٩.

(١٢٩) نفس المرجع ، ص ٢٩٩.

(١٣٠) الرافعي (عبد الرحمن): مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ،المرجع السابق ، ص ١١.

ومما زاد الأمر خطورة في الخرطوم ، أن محمد المهدي أرسل أنباء انتصاراته ، إلى أهـالي الخرطوم ، مهللاً بالنصر والقضاء على هكس وجنوده . ويدعوهم إلى " الجهاد ومحاصرة الخرطوم " وأن يقطعوا السكك ويخربوها (١٣١).

وبذلـك أصـبحت الخـرطوم ذاتها، فضلاً عن بقية أقاليم السودان ، تغلي بالثورة والعصـيان . فقد بث محمد المهدي دعاته في معظم أقاليم السودان ، وكتب رسائل إلى بعض المشـايخ والأعيـان يطـلب منهم الجهاد والهجرة إليه ، أو الانضمام إلى قادة المجاهدين في الأقاليم. ومن ذلك خطابه إلى محمد عثمان الميرغني ، بتاريخ ١٤ صفر سنة ١٣٠١هـ/١٥ ديسمبر ١٨٨٣م يخيره بين الهجرة إليه ، وبين الانضمام إلى الطاهر المجذوب ، وعثمان دقنة ، والجهاد معهما (١٣٢). وخطاب آخر من المهدي إلى عوض الكريم أبو سن وأهله ، والطيب محمد وآخرين بتاريخ ربيع أول ١٣٠١هـ/٣١ديسمبر ١٨٨٣م، يطلب فيه خروجهم عن طاعـة الـترك ، ورفـع لـواء العصيان عليهم . ويطلب منهم الانضمام إلى محمد الطيب البصير(١٣٣). كما أرسل محمد المهدي خطاباً إلى صالح الملك، بتاريخ ربيع أول سنة ١٣٠١ هـــ/٣١ ديســمبر ١٨٨٣م، يطلب منه الخروج على الترك ، ويخيره بين الهجرة إليه ، أو الانضمام إلى محمد الطيب البصير(١٣٤).

وهكذا كانت أعظم النتائج المباشرة خطورة بعد واقعة شيكان ، هي انهيار أركان الإدارة المصـرية في معظم الأقاليم في السودان . وخاصة دارفور ، وبحر الغزال ، وشرق السودان ، وغيرها (١٣٥)، حيث أصبحت الحاميات المصرية في كل المواقع ، تعيش في حالة من الذعر والهلع والتهديد المستمر ، مما دفع بعضها للتسليم .

---

(١٣١) مهديـة متنوعات ١/٦٢/١١١٧ ، ١٠٩٦ ، ٦١ مجذوب من المهدي إلى أحبابه في الله / أهالي الخرطوم بتاريخ ١٠ محرم ١٣٠١هـ/١١ نوفمبر ١٨٨٣م.

(١٣٢) مهديـة / رقم ٨ ، ٣٩ باريس ٣ ، من المهدي إلى محمد عثمان الميرغني ، بتاريخ ١٤ صفر ١٣٠١هـ/ ١٥ ديسمبر ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٣٣) مهديـة ، ٨/٣/١٧ ، ٤٢ إنذارات أ ، من المهدي إلى عوض الكريم أبو سن وأهله الطيبين والطيب محمد وآخرين ، بتاريخ ربع أول ١٣٠١هـ/٣١ ديسمبر ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية، الخرطوم .

(١٣٤) الآثار الكاملة للإمام المهدي ، المجلد الثاني ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، من المهدي إلى آل صالح الملك ، بتاريخ ربيع الأول ١٣٠١هـ/٣١ ديسمبر ١٨٨٣م . رقم ٢٠٩/٢٢٤ .

(١٣٥) (135) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.73.

٢- تسليم دار فور(٢١ صفر ١٣٠١هـ/٢٣ ديسمبر ١٨٨٣م):

كـانت دارفور تحت إدارة سلاطين باشا النمساوي ، عندما ظهرت الثورة المهدية . ورغم أنه بذل جهده في مقاومة حركات الثورة والتمرد التي قادها ، مادبو زعيم الرزيقات ، إلا أن سـقوط الأبيـض في يد المهدي في ٩ ربيع الأول ١٣٠٠هـ/١٩ يناير ١٨٨٣م ، ضاعف من متاعب سلاطين ، وأدى إلى تمرد جنوده في دارة ، بحجة أن سلاطين نصراني . فلم يتمكن سلاطين من كسب ولائهم وطاعتهم ، إلا بإعلان إسلامه (١٣٦).

ومـع ذلك كان سلاطين ، يواجه موقفاً صعباً . فالثورة تزداد اشتعالاً يوماً بعد يوم ، فضـلاً عن نقص ما كان معه من ذخائر . كما أنه لم يتسلم رسالة من الخرطوم منذ ما يقرب من عام . ولهذا كانت آماله معلقة بنجاح جيش هكس باشا (١٣٧).

وبعد هزيمة هكس في شيكان ، بعث محمد المهدي قريبه محمد خالد زقل ، الذي كان مديـراً لدارة وانضم للمهدي ، بعثه المهدي أميراً على دار فور (١٣٨). وبايعه على الكتاب والسـنة وتطـبيق الإسلام (١٣٩). وطلب إلى أهالي دارفور الانضمام إليه ، والجهاد معه ، والتعاون فيما بينهم (١٤٠).

ولم يكـن سلاطين يعلم بهزيمة هكس باشا ، حتى وصله خطاب من محمد خالد زقل بتاريخ ١٨ صفر ١٣٠١هـ/٢٠ ديسمبر ١٨٨٣م ، يخبره بهزيمة هكس ، ويطلب إليه التسليم . ولكي يثـبت إليه الهزيمة ، أرسل إليه بعض تقارير الضباط ، ومذكرات فاركوهار وأودنفان ، الذين كانوا مع هكس (١٤١).

وهكـذا قضـت كارثـة شيكان ، على كل آمال سلاطين في الدفاع عن دار فور والاسـتمرار في المقاومـة ، فلم يجد بداً من التسليم . يقول سلاطين نفسه موضحاً موقفه :

---

(١٣٦) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ٨٩.

(١٣٧) نفس المرجع ص ١٠٥-١٠٧.

(١٣٨) مهديـة ، متـنوعات ١/٦٢/١١١٧ ، ١٠٩٦ ، ٦٠ مجذوب من المهدي إلى أهالي دار فور ، ١٠ محرم ١٣٠١هـ/١١ نوفمبر ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٣٩) مهديـة ، ١٤٧ فيوضـات ٢ ، من المهدي إلى محمد خالد رقل بتاريخ ١٠محرم (١٣٠هـ /١١نوفمبر ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٤٠) مهدية ، متنوعات ١/٦٢/١١١٧ ، ١٠٩٦ ، ٦٠ مجذوب (الوثيقة السابقة).

(١٤١) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ١٠٨.

" وبعد أن عرضت الموقف من جميع جوانبه ، تبين لي أن التسليم ليس فقط أسلم السبل ، بل هو السبيل الذي لا مفر منه "(١٤٢)!

وتم تسليم دار فور لمحمد خالد زقل في ٢١ صفر ١٣٠١هـ/٢٣ ديسمبر ١٨٨٣م . غير أن عاصمة المديرية ، مدينة الفاشر ظلت تقاوم تحت إدارة الضابط المصري السيد بك جمعة ، حتى تمكنت قوات المهدية من حصارها . ثم استسلمت في ١٦ ربيع الأول ١٣٠١ هـ/ ١٥ يناير ١٨٨٤م (١٤٣).

٢-**تسليم بحر الغزال**(٢٥ جمادى الثاني ١٣٠١هـ/٢٢ إبريل ١٨٨٤م):

انضمت قبائل الجنوب للثورة المهدية . ومن هذه القبائل قبيلة الشكك . وقد أشاد محمد المهدي بانضمامهم ، فكتب خطاباً إلى كافة السياق ، بتاريخ ٢٣ صفر ١٣٠١هـ/٢٤ ديسمبر ١٨٨٣م ، يطلب معاملتهم بالرفق ، وإرشادهم في الدين (١٤٤).

أما قبائل الدنيكا في بحر الغزال ، فقد انضمت للثورة المهدية منذ عام ١٨٨٢م ، فبايعهم محمد المهدي ، وأمرهم بمقاومة الحكم التركي ، ووعدهم بالاستقلال ، وأن تكون السلطة في نهاية المطاف لهم ، ولم يكن دافعهم دينياً (١٤٥).

ورغم مقاومة لبتون **Lipton**، الإنجليزي مدير بحر الغزال ، للثورة ضد الحكومة، إلا أن هزيمة هكس ، جعلت موقفه ضعيفاً . فقد انضم دناقلة بحر الغزال الذين تعاطفوا مع المهدي ، للثوار، كما فر بعض الجنود إلى معسكر الثوار ، هذا فضلاً عن نقص الإمدادات(١٤٦).

ولقد حاول لبتون تقوية موقفه ، فأعلن إسلامه ، كما فعل سلاطين باشا من قبل، ولكن دون جدوى ، فاقتنع بعدم قدرته على المقاومة ، وقرر تسليم المديرية إلى كرم الله الشيخ كركساوي في ٢٥ جمادي الثاني ١٣٠١هـ/٢٢ إبريل ١٨٨٤م . وبذلك انضمت بحر الغزال إلى الثورة المهدية (١٤٧).

---

(١٤٢) نفس المرجع ، ص ١٠٩.

(١٤٣) (143) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.75.

(١٤٤) الآثار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المجلد الثاني ،وثيقة رقم ٢٠١ ، ص ٦٢ ، من المهدي إلى كافة السياق ، بتاريخ ٢٣صفر ١٣٠١هـ /٢٤ديسمبر ١٨٨٣م .

(١٤٥) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ، المرجع السابق ، ص ١٧١.

(١٤٦) (146) Holt , P.M. The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.76.

(١٤٧)شقير(نعوم): تاريخ السودان، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم،المرجع السابق ، ص ٤١٥.

٤- تسليم مديرية خط الاستواء:

كان أمين بك (دكتور شنيتزر سابقاً)، مديراً على مديرية خط الاستواء منذ عام ١٨٧٩م وبقيـــام الـــثورة المهديــــة ، ظل يأمل في نجاح الحكومة المصرية في القضاء عليها . ولكن بعد هزيمة هكـــس، وامـــتداد الـــثورة إلى بحر الغزال ، واستسلام لبتون مدير بحر الغزال ، ومهاجمة كرم الله كركســـاوي لخـــط الاستواء ، أصبح موقف أمين حرجاً ، وأصبحت مديرية خط الاستواء سهلة المنال(١٤٨). ومما زاد من حرج موقفه ، قلة عساكره ، وضعف تدريبها، وقلة الأسلحة والذخائر .

وحـــاول أمـــين التســـليم بشروط ، بأن تبقى البلاد على ما هي عليه ، ولكن كرم الله كركساوي رفض شروط التسليم (١٤٩). فاستمر أمين يقاوم حتى أرسل إليه نوبار باشا رئيس وزراء مصر ، يأمره بالانسحاب ، تنفيذاً لسياسة الإخلاء التي تم اتخاذها . غير أن جنوده رفضوا الإذعان لسياسة الإخلاء . وأصروا على موقفهم بالاستمرار في الصمود والمقاومة .

وفي أكتوبر عام ١٨٨٨م،زحف أنصار المهدي ، بقيادة عمر صالح إلى خط الاستواء . ولم تـــنجح مقاومـــة أمين وجنوده ، فوافقوا على الانسحاب قبيل ديسمبر ١٨٨٩م . وبذلك أصبحت مديرية خط الاستواء في أيدي الأنصار (١٥٠).

٥-الثورة المهدية في شرق السودان:

ارتبطت الثورة المهدية في شرق السودان بشخصية عثمان دقنة (١٥١). فقـــد كان ناقماً على الحكم التركي في السودان ، بسبب تعرضه هو وإخوته للسجن ، لاتهامهم بممارسة تجارة الرقيق مع بلاد الحجاز .

---

(١٤٨) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ١٢٤.

(١٤٩)شقير(نعوم): تاريخ السودان،تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم، المرجع السابق ، ص ٧٥٩.

(١٥٠) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ١٣٥.

(١٥١) **عثمان دقنة** : هو عثمان أبو بكر دقنة ، ولد في سواكن سنة ١٢٥٥هـــ /١٨٤٠م . يتصل نسبه بأسرة الدقناي الشـــهيرة . وقيـــل إنـــه ينتسب إلى أصل كردي من أكراد بكر ، الذين هاجروا إلى سواكن ، مع السلطان سليم الأول، واختـــلطوا بالهدندوه بالزواج – حفظ القرآن الكريم وتعلم علوم الدين واللغة العربية وعمل بالتجارة مع أسرته ، وتعرض للسجن بسبب إتهامهم بتجارة الرقيق مع الحجاز . هاجر للمهدي في كردفان وبايعه ، فعينه أميراً عـــلى شرق السودان وتعاون مع الشيخ الطاهر المجذوب ، فحقق انتصارات عظيمة . اشترك في واقعة كرري وأم دبيكرات – ثم فر قاصداً الحجاز ولكنه أسر عام ١٩٠٠م وسجن في مصر، ثم نفي إلى حلفا ١٩٠٨م ، ومات بها سنة ١٩٢٦م . ونقلت رفاته إلى أركويت أخيراً وقد كان أبعد أمراء المهدية شهرة في الداخل والخارج .

– مذكرات عثمان دقنة ،تحقيق ادكتور أبو سليم،دار الجيل، بيروت ١٤١١هـــ /١٩٩١م المقدمة ص ٨

– شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، المرجع السابق ، ص ٤٣٠ وما بعدها .

وقـــد حـــاول عثمان دقنة تأليب الناس على السلطة التركية في سواكن ، عندما سمع بثورة عرابي . إلا أن محاولته لم تنجح ، مما أدى إلى طرده عن سواكن ، فاستقر في مدينة بربر لبعض الوقت . وظل متحفزاً للثورة (١٥٢).

ومـــا هي إلا أن سمع عثمان دقنة ، بقيام الثورة المهدية ، وما حققته من انتصارات ، حـــتى سارع بعد سقوط الأبيض ، وهاجر إلى المهدي وبايعه ، فعينه المهدي أميراً على شرق السودان وعموم اليجة في غرة رجب ١٣٠٠هـ/٨ مايو ١٨٨٣م (١٥٣). وكتب محمد المهدي خطابات في نفس التاريخ إلى أحبابه في الله المؤمنين بالله (البشاريين والشوديناب) ومشايخ هدندوة الـــتاكا ، والـــبيرناب ، وخلافهـــم . يحضـــهم عـــلى الثورة ، ويخطرهم بتأمير عثمان دقنة أميراً عليهم(١٥٤). كما كتب رسالة أخرى بنفس التاريخ ، إلى أحبابه في الله (أهالي سواكن) ، يبلغهم بأنه وجه عثمان دقنة ، ليكون أميراً وعاملاً عليهم ، وطلب منهم أن يطيعوه ويجاهدوا معه (١٥٥). وكتب رسالة مماثلة إلى أهالي برور سواكن ، يخبرهم أيضاً بأنه وجه إليهم عثمان دقنة ويطلب منهم الجهاد معه ، ومحاربة ومحاصرة أهل سواكن (١٥٦). ومن الذين كتب إليهم أيضاً في هذا التاريخ ، الطيـــب محمد الطيب المجذوب ، وجميع قبائل الجعليين ، يطلب منهم ، طاعة أميرهم ، والجهاد معه ضد أهل الكفر والطغيان (١٥٧).

ونلاحظ أن حدود إمارة عثمان دقنة واسعة ، تمتد من سواكن إلى نهر عطبرة . وهي منطقة اســـتراتيجية ، من حيث أنها تسيطر على طريق البحر الأحمر بين سواكن وبربر . فضلاً عن أهميتها الدينية لنشر الدعوة فيها (١٥٨).

---

(١٥٢) مذكرات عثمان دقنة ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٥ . .

(١٥٣)الكردفاني(إسماعيل عبد القادر):سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي،المرجع السابق ،ص ٢٤٩.

(١٥٤) مهديـــة ، ٥/١/٨ ، ٤٤٠ بيـــل من المهدي إلى أحبابه في المؤمنين بالله وبكتابة (البشاريين والشوديناب ومشايخ هدندوة التاكا والبيرناب وخلافهم) أول رجب سنة ١٣٠٠هـ / ٨مايو ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٥٥) مهديـــة ٦١/٧/٨ ، ٣ دقنة ، من المهدي إلى أحبابه في الله(أهالي سواكن)أول رجب١٣٠٠هـ/٨ مايو ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٥٦) مهديـــة ٦١/٧/٨٢ ، ٤ دقـــنة ، من المهدي إلى أحبابه في الله فلان وفلان وجميع من تبعه من أهالي برور سواكن – أول رجب ١٣٠٠هـ ٨مايو ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٥٧) مهديـــة ١٩٨ فيوضات ٣ ، من المهدي إلى الفقيه الطيب محمد الطيب المجذوب ، وكافة الفقراء المجاذيب وأبناء الولى حمد المجذوب ، وجميع قبائل الجعليين ، أول رجب ١٣٠٠هـ / ٨ مايو ١٨٨٣م .

(١٥٨) مذكرات عثمان دقنة ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ١٢ .

وهكـــذا بدأ عثمان دقنة جهاداً مقدساً ضد السلطات المصرية التركية ، وبدأ بمهاجمة سنكات ، فاستعصت عليه ، ففرض عليها حصاراً في ٢٣ ذي الحجة ١٣٠٠هـ/٢٥ أكتوبر ١٨٨٣م ، في نفـس الوقـت الذي كانت فيه حملة هكس باشا تتوغل في كردفان ، وقطع عثمان دقنة خطوط التلغراف بين سواكن وكسلا (١٥٩).

كمـا حاصر عثمان دقنة وأتباعه مدينة طوكر . وتمكن من الانتصار على حملة مكونة مـن ٥٥٠ (خمسـمائة وخمسين) رجلاً ، بقيادة محمود باشا طاهر ، جاء لفك الحصار عن طوكر. حيث كمن لهم أنصار المهدي وأوقعوا بهم هزيمة نكراء . وكان من بين قتلى الحكومة الكابتن الإنجليزي مونكريف Moncrieff . وتصادف أن تاريخ هذه الواقعة كان نفس تاريخ هزيمة هكس باشا في شيكان (٤ محرم ١٣٠١هـ/٥ نوفمبر ١٨٨٣م)(١٦٠).

وكـان من نتائج هزيمة هكس باشا في شيكان ، ومقتل مونكريف ، في نفس الوقت ، مضاعفة عثمان دقنة وأنصاره جهودهم للسيطرة على شرق السودان ، ففرضوا حصاراً برياً على سواكن (١٦١).

وتعـد واقعـة الـتيب الثانية ، من أكبر المعارك التي خاضها عثمان دقنة ضد قوات الحكومـة التركية المصرية . فقد حقق فيها انتصاراً رائعاً على قوات الحكومة ، بقيادة فالنتين بيكـر Baker، في ٦ ربيع الثاني ١٣٠١هـ/ ٤ فبراير ١٨٨٤م . وكان هدف هذه الحملة فك الحصار عن طوكر وسواكن . وقد قتل من جيش بيكر ٩٣ (ثلاثة وتسعون) ضابطاً ، و ٢,٣٠٠ (ألفـان وثلاثمائة) جندي. وعادت فلول الجيش المنهزم إلى سواكن . وكان صدى الهزيمة أليماً في كل من بريطانيا ومصر . وكانت شبيهة بكارثة هكس باشا ، فقد كانت قيادة الحملة بريطانية ، وضباطها معظمهم من البريطانيين (١٦٢).

وكـان من نتائج هزيمة بيكر ، سقوط سنكات في يد عثمان دقنة في ١٠ ربيع الثاني ١٣٠١هـ/٨ فبراير ١٨٨٤م (١٦٣).

---

(١٥٩) نفس المصدر ، ص ٥٢.

(١٦٠) (160)Theobald , A.B., The Mahadiya op. cit . p.66.

(١٦١) الرافعي (عبد الرحمن): مصر والسودان منذ أوائل عهد الاحتلال ،المرجع السابق ، ص ١١.

(١٦٢) (62) P.R.O.(F.O.),37/12 No. 8 1/12, 16, From sir W.H at Swakin to Admirality ,5 Fabrurary, 1884.

(١٦٣) مذكرات عثمان دقنة ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق .

ويبدو أن عثمان دقنة ، قد انشغل بأمر الجهاد في الشرق ، فلم يكتب للمهدي بأخباره ، منذ تعيينه أميراً ، وحتى رجب ١٣٠١هـ/مايو ١٨٨٤م ، مما جعل محمد المهدي يكتب إليه معاتباً، وملحاً في طلب المراسلة . ومن ذلك خطاب محمد المهدي لعثمان دقنة بتاريخ ٢٠ جماد أول ١٣٠١هـ/ ١٨ مارس ١٨٨٤م ، يشير فيه إلى ما بلغه من انتصاراته ، مثنياً عليه ، وطالباً المزيد . ويعاتبه على عدم مكاتبته له بالأخبار (١٦٤). وخطاب آخر بنفس التاريخ السابق ، من المهدي إلى عثمان دقنة ، يشكو فيه من قلة مكاتباته ، ويطلب أن يمده بالأخبار عن القضاء على الجردات الأربعة ، والعجائب التي وقعت فيها (١٦٥).

ونتيجة لهذه الخطابات ، كتب عثمان دقنة إلى المهدي خطاباً مفصلاً ، قبيل رمضان ١٣٠١ هـ/١٨٨٤م . يروي فيه أخبار جهاده ، والوقائع التي خاضها ضد الترك والإنجليز(١٦٦).

وكان المهدي يتابع أخبار شرق السودان باهتمام بالغ ، فما أن وصله خطاب عثمان دقنة ، وأخبار جهاده وانتصاراته ، حتى سر سروراً عظيماً بذلك ، وكتب رداً لعثمان دقنة ، بتاريخ ٢٠ رمضان ١٣٠١هـ/١٤ يوليو ١٨٨٤م ، في رسالة مطلعها : " إن أجوبتكم وردت إلينا". ويعبر فيها عن فرحته بالنصر ، ويوصيه بحسن معاملة الختمية والشنقيطية إذا وقعوا في قبضته (١٦٧). وكتب المهدي أيضاً إلى محمد الطاهر بن الطيب المجذوب في ٢٥ رمضان ١٣٠١هـ/١٩ يوليو ١٨٨٤م ، يحمد له اتحاده مع عثمان دقنة . ويثني عليه(١٦٨). ويكتب مرة أخرى إلى عثمان دقنة بتاريخ ٢٥ رمضان ١٣٠١هـ/١٩ يوليو ١٨٨٤م ، يعزيه في وفاة أخيه عمر أبي ، بكر الذي استشهد في حرب الدائر (١٦٩).

---

(١٦٤) مهدية ، ٦١/٧/٨ ، ١٧ دقنة ، من المهدي إلى عثمان دقنة ، بتاريخ ٢٠ جماد أول سنة ١٣٠١هـ/١٨ مارس ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٦٥) مهدية ، ٦١/٧/٨ ، ١٧ دقنة ، من المهدي إلى عثمان دقنة ، بتاريخ ٢٠ جماد أول سنة ١٣٠١هـ/١٨ مارس ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٦٦) مذكرات عثمان دقنة ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق .

(١٦٧) مهدية ، ٦١/٧/٨ ، ٢٥ دقنة ، من المهدي إلى عثمان دقنة ، بتاريخ ٢٠ رمضان ١٣٠١هـ/١٤ يوليو ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٦٨) مهدية ، ٥٧ فيوضات ٣ ، من المهدي إلى محمد الطاهر بن الطيب قمر الدين المجذوب ، ٢٥ رمضان ١٣٠١هـ/١٩ يوليو ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٦٩) مهدية ، ٦١/٧/٨ ، ٢٢ دقنة ، من المهدي إلى عثمان دقنة ، بتاريخ٢٥ رمضان ١٣٠١هـ/١٩ يوليو ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

وكــان لهزائم الحكومة التركية ، وخاصة مقتل مونكريف القنصل البريطاني في جدة ، وهزيمة بيكر ، أكبر الأثر في موقف الحكومة البريطانية ، التي اعتبرت هذه الهزائم وصمة عار لهــا . ولذلك قررت في فبراير ١٨٨٤م ، على أثر هزيمة بيكر ، احتلال سواكن من منطلق حمايــة موانئ البحر الأحمر (١٧٠). دون موافقة الخديو توفيق ، أو الدولة العثمانية ، ورغم الاتجاه لإقرار سياسة إخلاء السودان .

ولمــا احــتجت الدولة العثمانية على هذا الاحتلال لسواكن أجاب اللورد دوفرين ، ســفير إنجلــترا في الآستانة ، بتاريخ ٦ جمادى الأولى ١٣٠١هــ/٦ مارس ١٨٨٤م ، بأن حــوادث السودان ، اضطرت الحكومة البريطانية ، إلى اتخاذ بعض الوسائل الوقتية ، لحماية ثغــور البحر الأحمر . ولكنها عازمة ، عندما تعود السكينة ، على ألا تفعل شيئاً بغير مشورة الباب العالي (١٧١).

ورغم معارضة بعض الساسة البريطانيين ، لإرسال حملة إلى سواكن ، إلا أن هذا الأمر كــان محل اهتمام الملكة فكتوريا ، ملكة بريطانيا . ولهذا صدر الأمر بإرسال هذه الحملة في ١١ فبراير ١٨٨٤م بقيادة جراهام ، لإنقاذ مدينة طوكر التي كانت محاصرة (١٧٢).

غــير أن جراهام عندما وصل إلى سواكن،علم بنبأ سقوط طوكر في يد عثمان دقنة. ومــع ذلــك صمم،بموافقة حكومته،على توجيه ضربة قاصمة لنفوذ عثمان دقنة.وكان ذلك يــتعارض مــع سياســة إخــلاء الســودان المعلــنة ، والمهمة السلمية التي اختير غوردون لتنفيذها(١٧٣).

وكانت حملة جراهام تتكون من ٤,٠٠٠ (أربعة آلاف) جندي ، تصحبهم أورطة من الفرســان ، وبعــض الضباط الإنجليز الذين كانوا يعملون في الجيش المصري الجديد . الذي بذلت سلطات الاحتلال عناية كبيرة في تدريبه وإعداده . ولقد تمكن جراهام من تحقيق بعض الانتصارات على عثمان دقنة في واقعة التيب الثالثة بتاريخ ٢ جمادى الأولى عام ١٣٠١هــ/ ٢٩ فــبراير ١٨٨٤م (١٧٤). وواقعة تماي الثانية ، في ١٦ جمادى الأولى ١٣٠١هــ/ ١٣

---

(170) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.85 .

افعي(عبد الرحمن): مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال،المرجع السابق، ص ١٣٠-١٣١.

ات عثمان دقنة، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم،المرجع السابق صفحات ٦٢-٦٣.

(173) Holt , P.M. The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.85.

عثمان دقنة ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ص ٦٣.

مــارس ١٨٨٤م (١٧٥). وكــانت نتيجة هذه الانتصارات ، إخلاء عثمان دقنة وجنوده ، مدينة طوكر (١٧٦).

بيــد أن جراهام لم يستطع أن يتقدم أكثر ، فقفل راجعاً إلى سواكن . ولم يلبث أن تم اســتدعاؤه وجيشه إلى مصر ، حيث كانت سياسة الإخلاء قد تقررت ووصل غوردون منذ ١٨ فــبراير ١٨٨٤م إلى الخرطوم (١٧٧). وكان رحيل الحملة (الجردة الإنجليزية) ، دون أن تحقق أهدافها ، مبعث فرح وابتهاج ، لدى عثمان دقنة وجيشه واعتبروا ذلك نصراً لهم .

ولقد كتب عثمان دقنة خطابين آخرين إلى المهدي . ومن الراجح ، أنهما كتبا في وقت واحد ، وكانت كتابتهما في أول محرم ١٣٠٢هـــ/ ٢١ أكتوبر ١٨٨٤م يوضح فيها أخباره وأخــبار المعــارك ضد الحكومة التركية والإنجليز (١٧٨). فرد عليه محمد المهدي في خطابه بتاريخ ٢٦ ربيع الأول ١٣٠٢هـــ/١٤ يناير ١٨٨٥م ، من محمد المهدي إلى عثمان دقنة ، يفيده بوصول خطابيه ، الأول والثاني ، ويوصيه بالمسامحة مع المنكرين والمنافقين ، ويرسل إليه، منشــوره بمحاصرة الخرطوم للعمل بمقتضاه . ويخبره أيضاً بسقوط أم درمان ، وقرب سقوط الخرطوم ، ويخبره بوصول الإنجليز لدنقلا ، وإرسال قوات من الأنصار لصدهم (١٧٩).

وفي الواقــع ، لم ينجح التدخل البريطاني ضد عثمان دقنة ، ولم يحقق أهدافه ، رغم ما حققــه جــراهام من انتصارات . فقد ااحتفظ عثمان دقنة بكلٍ من طوكر وسنكات . وظل طريق سواكن بربر ، خاضعاً لسيطرة الأنصار . فلم تعد الحكومة تفكر في استخدامه للتوغل داخــل الســودان . وكــانت ســواكن وحدها ، هي التي بقيت في أيدي الحكومة المصرية والبريطانية (١٨٠). بينما ظل عثمان دقنة حراً طليق اليد (١٨١)!

---

(١٧٥) مذكرات عثمان دقنة ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ص٧١.

(١٧٦)شقير(نعوم):تاريخ السودان،تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٤٣٢.

(١٧٧) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ،المرجع السابق ، ص ٢٩٩.

(١٧٨) مذكرات عثمان دقنة ، تحقيق من إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ص٢٦.

(١٧٩) مهدية ، ٦١/٧/٨ ، ٢٦ دقنة ، من المهدي إلى عثمان دقنة ، بتاريخ٢٦ ربيع أول سنة ١٣٠٢هـــ/١٤ يناير ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٨٠) مذكرات عثمان دقنة ، تحقيق من إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ص ٧٩.

(181) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.86.(١٨١)

وكان رحيل الحملة البريطانية ، مدعاة لاستخفاف عثمان دقنة بقوة الحكومة ، فشدد الحصار على سواكن (١٨٢).

ولقد برهن عثمان دقنة ، من خلال هذه المعارك التي خاضها ضد الحكومة ، " على بطولة نـــادرة ، ومهـــارة حـــربية فائقـــة ، أعيت منازليه ، من جند الحكومتين المصرية والإنجليزية على السواء"(١٨٣).

(د)تبلور السياسة البريطانية تجاه السودان

لعـــل أعظـــم النتائج التي ترتبت على هزيمة هكس في ٤ محرم ١٣٠١هـــ/٥ نوفمبر ١٨٨٣م ، تمثل في ذلك التأثير على موقف الحكومة البريطانية تجاه الوضع في السودان . فقد بدأت بريطانيا تغير موقفها من سياسة عدم التدخل ، التي اتبعتها قبل هزيمة هكس ، إلى سياسة جديـــدة ، هي سياسة التدخل المباشر في شئون السودان . والاتجاه إلى إلزام الحكومة المصرية باتباع النصيحة البريطانية الإجبارية بإخلاء السودان (١٨٤).

بهـــزيمة هكـــس ، استنفدت سياسة عدم التدخل التي اتبعتها بريطانيا في السودان ، أهدافهـــا كامـــلة . فلم تتورط بريطانيا في تحمل أية أعباء مالية ، أو إدارية ، أو عسكرية في السودان ، وتجنبت تحمل أيةَ مسئولية عن قرارات الحكومة المصرية الخاصة بالسودان(١٨٥). كما أن بريطانيا اتخذت من انتصارات المهدي ، ذريعة لإطالة أمد الاحتلال البريطاني في مصر، بحجـــة الدفـــاع عن أمن مصر ، وحماية حدودها . حتى ولو كان ذلك على حساب التضحية بمصير هكس ورفاقه الإنجليز (١٨٦).

لقد كان مسير حملة هكس إلى كردفان ، ضرباً من الجنون كما أشار ونجت (١٨٧). لأن كـــل التقارير كما وضحنا من قبل ، كانت تنصح بعدم إرسالها . ولكن بريطانيا في ذلك

---

(١٨٢) مذكرات عثمان دقنة ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ص ٩٧.

(١٨٣) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ، المرجع السابق ، ص ١٦٧.

(١٨٤) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ،المرجع السابق ، ص ٣٠٠.

(١٨٥) الرافعي (عبد الرحمن): مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ،المرجع السابق ، ص ١١.

(١٨٦) (186) Marlowe , J. , Mission to Khartum , Victor . Gollanis . LTD., London 1969,p.106.

(١٨٧) الرافعي (عبد الرحمن): مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ،المرجع السابق ، ص ١١.

الوقـــت ، لم تكـــن لتســـتمع إلى أي انـــتقادات ، تحمـــلها عـــلى الـــتراجع عن سياستها المرسومة(١٨٨).

وبذلـــك فـــإن هـــزيمة هكس في السودان ، كانت بداية لمرحلة جديدة . وحلقة من حلقات السياسة البريطانية في السودان . ولقد أشار ألان مورهيد ، إلى أن الوضع في السودان في نهايـــة عام ١٨٨٣م ، يمثل حلقة من حلقات " الصراع بين الإسلام والمسيحية "(١٨٩)! وأن ما حدث من خسارة في السودان ، كان مما يسر المستر غلادستون أن يبقي الأمر عليه . وأن كل ما حدث كان " مجرد تمهيد لصراع أشد على النيل "(١٩٠)!

وقد يكون لتعيين السير ايفلن بارنج Evelyn Baring، (اللورد كرومر فيما بعد)، في ١١ ســـبتمبر ١٨٨٣م ، قنصـــلاً عاماً في مصر ، بدلاً عن إدوارد مالت (١٩١)، ارتباط ببدء هذه المرحلة الجديدة . فقد كان بارنج يميل إلى سياسة التدخل في السودان ، وكان ينتقد المسئولين البريطانيين في مصر (١٩٢). وكان يتمتع بحنكة سياسية بارعة ، ومقدرة دبلماسية كبيرة ، وخبرة واسعة بشئون مصر (١٩٣).

ولقـــد كـــانت أول خطوة اتخذها بارنج (كرومر) ، بشأن السودان في ١٩ نوفمبر ١٨٨٣م ، أنـــه أبرق إلى اللورد جرانفيل وزير خارجية بريطانيا ، مشيراً إلى الغموض الذي كـــان يكتـــنف مصير حملة هكس . وهو يرجح ضياع السودان كله إذا تحققت الهزيمة . وفي حالـــة تحقق الهزيمة ، فهو يرى أن تنسحب الحكومة المصرية في السودان ، إلى أية نقطة على النيل يمكن الدفاع عنها (١٩٤).

وفي ٢٠ نوفمـــبر ١٨٨٣م ، رد اللورد جرانفيل على اقتراح بارنج بالبرقية التالية : "ليس في إمكاننا إعارة مصر قوات إنجليزية أو هندية ، ولا من المصلحة دعوة جنود من تركيا

---

(١٨٨) رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور) : مصر والسودان في العلاقات الدولية ، المرجع السابق ، ص ١٨١.

(١٨٩) مورهيد (آلان) : النيل الأبيض ، المرجع السابق ، ص ٢٢٠.

(١٩٠) نفس المرجع ، ص ٢٢٠.

(١٩١) (191) Shibeika , M., British Policy in the Sudan ,(1882-1902), op. cit ., p.110.

(١٩٢) كرومـــر (الـــلورد) : بريطانيا في السودان ، ترجمة عبد العزيز أحمد عرابي ، الشركة العربية للطباعة ، مصر، ١٩٦٠م ، ص ٢٢.

(١٩٣) (193) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , op. cit . , p.69.

(١٩٤)كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ، المرجع السابق ، ص ٢٢.

سلطات الاحتلال البريطاني في مصر ، تمشياً مع سياسة التدخل المباشر في السودان ، بدأت تهيئ لإلزام الحكومة المصرية باتباع نصائحها . وفي ما يتعلق بذلك ، كتب بارنج (كرومر) في ١٠ ديسمبر ١٨٨٣م إلى جرانفيل ، يطلب منه أن يوافيه بتعليمات حكومة جلالة الملكة ، التي ينبغي أن يقدمها للحكومة المصرية ، ويشير إلى أن هذه الحكومة المصرية ، تسير في الوقت الحاضر ، بلا خطة عملية مفهومة تنتهجها (٢٠٣).

وفي ١٣ ديسمبر ١٨٨٣م كتب جرانفيل إلى بارنج ، بأن الحكومة البريطانية لا تنوي استخدام قوات بريطانية ، أو هندية ، وتشترط شروطاً لاستخدام قوات عثمانية . كما أن الحكومة البريطانية لا توافق على " زيادة أعباء الخزينة بما ينفق بإسراف في عمليات حربية لا تفيد مصر ، بفرض نجاحها "(٢٠٤).

ومن منطلق سياسة التدخل في السودان ، فإن بريطانيا ترفض استخدام الجيش الجديد، الذي يجري إعداده في مصر ، لإخماد ثورة السودان (٢٠٥). ولا تشجع تطوع ضباط ، أو مسئولين بريطانيين في السودان (٢٠٦). وتمنع أيضاً استخدام جنود إنجليز أو هنود . كما تضع شروطاً تجعل من العسير استخدام جنود عثمانيين . بل إن بارنج يشير إلى أن بريطانيا " ضد استخدام قوات تركية "(٢٠٧). وهذا يعني أن بريطانيا ، مع إقرارها سياسة التدخل ، لا تريد التورط في أية مسئولية في السودان .

وأخيراً ، أقدمت بريطانيا على إصدار أوامرها للحكومة المصرية بالإنسحاب من السودان . فقد أرسل قرانفيل برقية إلى بارنج (كرومر) بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٨٨٣م يقول فيها :" إن حكومة جلالة الملكة ترى أن على وزراء الخديو أن يقرروا سريعاً ، ترك جميع المناطق جنوب مدينة أسوان ، أو وادي حلفا على الأكثر . وأن يهيئوا أنفسهم للمحافظة على مصر والدفاع عنها ، وعن موانئ البحر الأحمر "(٢٠٨).

---

(٢٠٣)كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ، المرجع السابق ، ص ٢٧.

(٢٠٤) (204) P.R.O . , G/D, 29/199, Granville to Baring, private , 13 . Dec . 1883.

(٢٠٥) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٣٠٠.

(٢٠٦) (206)Theobald , A.B., The Mahadiya op. cit . p.70.

(٢٠٧)كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ، المرجع السابق ، ص ٢٤.

(٢٠٨) (208) P.R.O . , G/D, 29/166, Granville to Baring , private , 13 Dec. 1883.

ومما يثير العجب أن المبشرين المسيحيين في السودان ، انسحبوا من إرسالية الخرطوم ، إلى الشـــلال ثم القاهـــرة . قـــبل يومين فقط من تاريخ البرقية السابقة ، أي في ١١ ديسمبر ١٨٨٣م ، ولعل ذلك يشير إلى العلاقة الوثيقة بين التبشير والاستعمار (٢٠٩)!

أمـــا محمد شريف باشا ، رئيس وزراء مصر ، فقد تلقى تعليمات الحكومة البريطانية بـــإخلاء الســـودان ، بالـــرفض . ورأى أن الانســـحاب من السودان يفتح الباب للأطماع الاستعمارية ، ويمهد الطريق لاستيلاء بريطانيا على السودان (٢١٠).

وفي ٢٢ ديسمبر ١٨٨٣م ، تقدم شريف باشا بمذكرة حكومته لبارنج ، مؤكداً رفضه لإخـــلاء السودان من منطلق الروابط الوثيقة بين مصر والسودان (٢١١). وجاء في المذكرة قـــوـــله : " إن الحكومة المصرية لا تستطيع الموافقة على التخلي عن بلاد تعتبرها ضرورية ، ضـــرورة كاملة ، لسلامة مصر ، بل لوجودها "(٢١٢). وأشار إلى أن التخلي عن السودان يـــتعارض مع فرمان أغسطس ١٨٧٩م ، الذي يمنع الخديو توفيق رسمياً عن التنازل عن أي إقليم تابع للدولة العثمانية (٢١٣). وأشار إلى أن سياسة الإخلاء ، تنطوي على أخطار كثيرة على استقلال بلاده ، وتعرض مصر لهجوم المهدي ، مما يتطلب الدفاع عن حدود مصر .وهذا يعني استمرار الاحتلال ليصبح باقياً في مصر إلى أجل غير مسمى (٢١٤).

وفي ٤ يـــناير ١٨٨٤م ، كـــتب جرانفيل ، وزير خارجية بريطانيا ، إلى بارنج (كرومـــر)، بـــأن حكومـــة بريطانيا ، تصر على سياسة إخلاء السودان ، لأن مصر لا تستطيع الدفاع عن الخرطوم (٢١٥). وفي نفس الوقت تسلم بارنج رسالة سرية ، تنفذ عند الضرورة، وهي تحتوي على النصيحة الإجبارية . وجاء فيها : " طالما كان الاحتلال

---

(٢٠٩)إبراهيم عكاشة(الدكتور) التبشير النصراني في جنوب سودان وادي النيل،المرجع السابق،ص ١٨٥.

(٢١٠)رأفت غنيمي الشيخ(الدكتور): مصر والسودان في العلاقات الدولية ،المرجع السابق ،ص ١٨٥.

(٢١١) (211) Shibeika , M., British Policy in the Sudan , op.cit, p.140.

(٢١٢)كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ، المرجع السابق ، ص ٥٠.

(٢١٣) (213)Theobald , A.B., The Mahadiya . op. cit . p.72.

(٢١٤) الرافعي (عبد الرحمن): مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ،المرجع السابق ، ص ١١.

(٢١٥)كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ، المرجع السابق ، ص ٣٠.

لخطـــته هـــذه ، إلا أن ســـارع بقبول استقالة محمد شريف باشا، واستدعاء نوبار باشا الأرمني المسيحي لتأليف الوزارة (٢٢٣)!

تم تكويـــن وزارة نوبـــار باشا الجديدة في ١٢ربيع الأول ١٣٠١هـ/١٠يناير ١٨٨٤م، وانـــتخب لهـــا رجـــال من الحكومة المصرية ممن يعتمد عليهم في تنفيذ المهام المختلفة (٢٢٤).

وكـــان مفهومـــاً أن قيام هذه الوزارة الجديدة ، تم على أساس فكرة الجلاء عن الســـودان ووضع سياسة الإخلاء موضع التنفيذ ، وبذلك تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ السودان في عهد الخديو توفيق .

---

(٢٢٣)كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ، المرجع السابق ، ص ٣١.

(٢٢٤) الـــنظارات والـــوزارات المصرية ، مجموعة وثائق ، منذ إنشاء أول هيئة نظارة في ٢٨ أغسطس ١٨٧٨م وحـــتى ١٨/٦/١٩٥٢م ، جمـــع وترتيب فؤاد كرم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية، مصر ١٩٩٤م ، الجزء الأول – ص ١٢٧.

الفصل الخامس

سياسة إخلاء السودان

الفصل الخامس

سياسة إخــــلاء الســـودان

بقيــــام وزارة نوبار باشا ، في ١٢ ربيع الأول ١٣٠١هـ/١٠ يناير ١٨٨٤م (١)، بـــدأت السلطات المصرية والبريطانية في مصر ، تخطط لوضع سياسة إخلاء السودان موضع التـــنفيذ . فقـــد أصدر نوبار باشا رئيس وزراء مصر ، تعليماته بإخلاء السودان ، وترحيل الموظفـــين والجاليـــات المصرية والأوربية ، إلى مصر . كما قرر سحب الحاميات المصرية من السودان ، وكان عددها يبلغ ، نحو خمسة وعشرين ألف مقاتل (٢). منهم ١٤,٢٣٣ (أربعة عشر ألفاً ومئتان وثلاثة وثلاثون) جندياً في الخرطوم وحدها (٣).

وصـــدر مرســـوم مـــن الخديـــو توفيق في ١٥ يناير ١٨٨٤م ، بأن تتبع إدارة السودان، وملحقاته ، إلى وزارة الحربية ، بعد أن كانت تابعة لرئاسة مجلس الوزراء(٤).

وهكـــذا بـــدأت المشاورات ، في بريطانيا ، ومصر ، لاختيار الشخص المناسب للقيام بمهمة إخلاء السودان .وكان من الطبيعي أن يظهر اسم غوردون Gordon، على مســـرح الأحـــداث باعتباره ، من وجهة النظر البريطانية ، أحد الإنجليز القلائل الذين يتمتعون بخبرة كبيرة في شئون السودان (٥).

---

(١) الـــنظارات والـــوزارات المصرية ، مجموعة وثائق ، جمع وترتيب فؤاد كرم الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، مصر ، ١٩٦٤م ، ص ١٢٧ .

(٢) الـــرافعي (عـــبد الرحمن): مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، مصر ١٩٨٣م ، ص ١٢٣ .

(٣) دار الوثائق القومية القاهرة ، محفظة ١٠٢ ، ملف ٢/١ وثيقة ١٠ ، بتاريخ ٢١ ربيع الثاني عام ١٣٠١هـ/ ١٨ فبراير ١٨٨٤م.

(٤) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهرة ، مجموعة الأوامر العالية ، بتاريخ ١٨٨٤م ص ٥ (نقلاً عن ، عبد الرحمن الرافعي ، مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ١٢٢).

(٥) Shibeika , M., British Policy in the Sudan ,(1882-1902),Oxford University press London , 1959, p.146.

(أ)مهمة غوردون وإخلاء السودان

١-اختيار غوردون لتنفيذ سياسة الإخلاء :

كـــان اسم غوردون يتردد من حين إلى آخر ، للقيام بمهمة في السودان ، وكان ذلك قـــبل هـــزيمة هكس . ففي نوفمبر سنة ١٨٨٢م ، اقترح اللورد قرانفيل **Granville**، وزير خارجيـــة بـــريطانيا ، إرســـال غوردون ، لإعادة الأمن والنظام في السودان . ولم يعمل بهذا الاقتراح ، لأن الحكومة المصرية آنذاك ، عارضت استخدام غوردون مرة ثانية (٦).

وفي منتصـــف أكتوبر عام ١٨٨٣م ، عاد اسم غوردون للظهور مرة أخرى ، عندما تقـــدم بطـــلب لـــوزارة الحربية البريطانية ، للسماح له بالقيام بمهمة للملك ليوبولد ، ملك بـــلجيكا، تتعلق بالعمل في الكونغو . فقد ظهرت بعض الاقتراحات للاستفادة من خدماته في السودان ، بدلاً عن الكونغو (٧).

وعـــندما كـــانت الاقـــتراحات والآراء ، تدور على الصعيد الرسمي ، بدأت بعض التطورات في الرأي العام الإنجليزي . ففي اليوم الذي ظهرت فيه أخبار هزيمة هكس ، اقترح ضابط من سلاح المهندسين الملكي في لندن على رئيسه ، بعث غوردون لإخماد ثورة المهدي في الســـودان ، مشـــيداً بجـــرأة غوردون وشجاعته ، لأنه ربما نجح في هذه المهمة مثلما نجح في الصين(٨).

ومـــا أن بلغ هذا الاقتراح ، اللورد جرانفيل **Granville**، وزير الخارجية البريطانية، حتى سارع بأخذ موافقة غلادستون **Gladstone**، رئيس الحكومة البريطانية . ثم كتب برقية إلى بـــارنج (كرومـــر) **Baring**، المعتمد البريطاني في مصر ، بتاريخ الأول من ديسمبر سنة ١٨٨٣م ، قـــائلاً : " إذا صمم الجنرال غوردون على الذهاب إلى مصر ، فهل يكون مفيداً لك أو للحكومة المصرية ؟ وإذا كان كذلك ففي أي النواحي ينفعك "(٩)؟

---

(٦) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٦٣م ، ص٣١٣-٣١٤.

(٧) (7) Marlowe , J. , Mission to Khartuom , Victor gollanis, L.T.D.,London, 1969, p.109.

(٨) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٧م ص ٣٠٢.

(٩) كرومـــر (اللورد) : بريطانيا في السودان ، ترجمة عبد العزيز أحمد عرابي ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، مصر ١٩٦٠م ، ص ٦١.

تـــلقى بـــارنج (كرومر)، فكرة استخدام غوردون بالاعتراض . لأنه كان على قناعة تامـــة، بنقصان كفاية غوردون الشخصية . ولكنه علل اعتراضه بأسباب أخرى عندما كتب برقية إلى جرانفيل ، في ٢ ديسمبر ١٨٨٣م قائلاً : " تعارض حكومة مصر بشدة في استخدام غـــوردون ، وتقوم معارضتها بصفة رئيسية ، على أنه ما دامت ثورة السودان دينية ، فإسناد القيادة إلى مسيحي ، يؤدي إلى تغيير نفوس القبائل الباقية على ولائها"(١٠).

ولما اتجهت الحكومة البريطانية ، إلى سياسة الإخلاء ، بعد هزيمة هكس في السودان ، بـــدأ الاتجـــاه لاستخدام غوردون في السودان يزداد قوة . ولعل وصول الأخبار بالهزائم التي حدثـــت لجيوش الحكومة في شرق السودان ، وحصار سواكن ، دفع المسئولين البريطانيين في مصـــر ، إلى الإسراع في تنفيذ سياسة إخلاء السودان ، فقد كتب بارنج (كرومر) برقية إلى الـــلورد جرانفيل ، وزير الخارجية البريطاني ، يقول فيها : " من الضروري إرسال ضابط ذي ســـلطة رفيعـــة إلى الخرطوم ، تكون لديه سلطة لسحب الحاميات وإعداد أفضل التنظيمات اللازمة لمستقبل السودان "(١١).

وفي يـــناير سنة ١٨٨٤م ، انتقلت فكرة استخدام غوردون إلى الصحف البريطانية . حيـــث كتب صمويل بيكر Baker، الذي كان البريطانيون يعتبرونه حجة في شئون السودان والـــنيل ، كـــتب مقـــالاً لجريدة التايمز اللندنية في أول يناير ١٨٨٤م ، يقترح فيه إرسال غوردون، على رأس حملة من الجنود البريطانيين والهنود ، لمحاربة المهدي في السودان (١٢).

ولقـــد وجـــد هذا الموضوع صدى لدى الصحف البريطانية الأخرى ، حيث تناولته صـــحيفة (بـــال مـــال جـــازيت) (Pall Mall Gazette) ودعـــت إلى مزيد من الحزم في السودان(١٣). وأجرى محرر هذه الصحيفة وليم توماس ستيد Wiliam Tomass staid، حديـــثاً صـــحفياً مـــع غـــوردون في ٨ يناير ١٨٨٤م ، باعتبار غوردون خبيراً بمشكلات الســـودان(١٤). وكـــان هذا الحديث الصحفي مثيراً ، إذ أن وليم توماس ستيد ، كان يُعتبر

---

(١٠) (10) P.R.O.(F.O.), No. 576, 78/350, Baring to Granville , 2 Dec. 1883.

(١١) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ، المرجع السابق ، ص ٦٢.

(١٢) مورهيـــد (آلان) : الـــنيل الأبيض ،ترجمة محمد بدر الدين خليل ، الطبعة الأولى ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٥٦م ، ص ٢٢٣.

(١٣) نفس المرجع ، ص ٢٢٣.

(١٤) (14) Shibeika , M., British Policy in the Sudan ,(1882-1902), op. cit ., p.158.

أقـــوى صـــحفي بريطاني في عهده ، كما أن موضوع السودان كان يشغل الساحة السياسية والإعلاميـــة في لندن ، فضلاً عن إثارته للمشاعر الدينية بين المسيحيين ، الذين ينظرون لثورة المهـــدي كمنطـــلق لحركة إسلامية جديدة ، تهدف إلى إحياء الأمة الإسلامية ، ونهضتها ، في مواجهـــة الاستعمار والخطر الصليبي . وبالفعل جعل وليم توماس ستيد محور اللقاء الصحفي هو "السودان والصراع بين الإسلام والمسيحية في الشرق الأدنى "(١٥)!!

وكـــانت آراء غوردون أكثر إثارة ، لأنها تخالف فكرة الإنسحاب من السودان ، فهو يعتـــبر المهدي مجرد متمرد عربي آخر ، يمكن معاملته كما عومل الزبير باشا ، وابنه سليمان ! وأن خطر المهدي يتمثل في قيام دولة إسلامية مظفرة ، سرعان ما ينتقل أثرها إلى مصر ، وبقية البلاد الإسلامية الأخرى . مما يؤدي إلى إثارة المسألة الشرقية بأسرها من جديد . وعليه فمن الضروري الدفاع عن الخرطوم مهما كلف الأمر (١٦).

وإمعانـــاً في الإثـــارة ، أصدرت جريدة (بال مال جازيت) مقالاً افتتاحياً بعنوان ، (غوردون الصيني للسودان) ، اقترحت فيه ضرورة استخدام غوردون بسلطات قوية ، ليضع حداً لمشكلة السودان ، ومواجهة الثورة المهدية (١٧).

وقـــد بـــدا غوردون في نظر الصحافة ، والرأي العام البريطاني ، الذي أعاد للأذهان ذكرى كفاحه في الصين والسودان ، بطلاً مغواراً (١٨).

واشـــتد الحمـــاس في بريطانيا لاستخدام غوردون في السودان . وبلغ الأمر أن ملكة بريطانيا شخصياً اهتمت بهذا الموضوع . فقد كتبت الملكة فكتوريا **Victoria**، في ١٠ يناير ١٨٨٤م ، رســـالة إلى الـــلورد جـــرانفيل ، وزير الخارجية البريطاني ، تأسف لعدم اهتمام الحكومة البريطانية بشأن استخدام الضباط الإنجليز ، حسب طلب السير ايفلن بارنج (١٩) !

وتحـــت ضـــغط هذه الظروف ، من الرأي العام البريطاني ، والاهتمام الشخصي من الملكة فكتوريا ، وبعض الوزراء ، أبرق جرانفيل في نفس اليوم ١٠ يناير ١٨٨٤م ، إلى بارنج

---

(١٥) مورهيد (آلان) : النيل الأبيض ،ترجمة محمد بدر الدين خليل ، المرجع السابق ، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(١٦) نفس المرجع ص٢٢٤.

(١٧) (17) Marlowe , J. , Mission to Khartoum , op.cit., p.121.

(١٨) (18) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , 1881-1898,second Edition , clarendon press , oxford , London , 1970 , p.69.

(١٩) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ، ص ٣١١.

ولقـــد تـــلقى جـــرانفيل موافقة بارنج على اختيار غوردون لمهمة الإخلاء بالفرح والســـرور ورد عليه في نفس اليوم قائلاً : " سررت كثيراً لموافقتك على غوردون ، وسوف يكون تعيينه ذا فائدة ، ويرضي جميع الطبقات هنا "(٢٧).

وتشـــير عبارات هذه البرقية ، وخاصة (إرضاء جميع الطبقات) إلى تأثير الرأي العام والصـــحف البريطانية . وتوجيهات الملكة فكتوريا ، وجهات أخرى . ولعل من هذه الجهات الكنيســـة البريطانية الإنجليكانية . حيث احتل اسم غوردون ، مكانة مرموقة لدى الأوساط الإكليروسية . وكانت له علاقة حميمة بجمعية تبشير الكنيسة البريطانية (٢٨).

ويـــبدو أن بـــارنج ، تراجع عن موقفه برفض غوردون ، مجبراً ، حتى لا يكرر رفضه للمرة الثالثة ، بعد أن رفض غوردون مرتين من قبل (٢٩). فقد ظل بارنج على رأيه السابق عـــن غوردون ، بأنه تنقصه الكفاية الشخصية ، كما أنه شديد التسرع . وإذا كان لابد من إرسال أي إنجليزي إلى الخرطوم ، فليس هو الجنرال غوردون (٣٠)! وظل بارنج يشعر بالندم على موافقته لإيفاد غوردون للخرطوم (٣١).

وأمـــا الذيـــن قابلوا اختيار غوردون لمهمة إخلاء السودان ، بالحماس والتأييد ، فقد كـــانوا يجهـــلون خطـــورة الموقف في السودان . إذ أن خبرة وشجاعة غوردون ، وعواطفه الشخصية ، لا تستطيع أن توقف تيار الثورة في السودان (٣٢).

٢- تكليف غوردون بمهمة إخلاء السودان :

في ١٥ يناير ١٨٨٤م ، بدأت الحكومة البريطانية ، في إجراءات تكليف غوردون بمهمته في الخـــرطوم ، حيـــث استقبله اللورد ولسلي Woseley، في وزارة الحربية . وطلب منه الذهاب إلى

---

(٢٧) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ،المرجع السابق ، ص ٦٢..

(٢٨) إبراهـــيم عكاشـــة (الدكـــتور) : التبشير النصراني في جنوب سودان وادي النيل ،دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ٥٢.

(٢٩) (29)Theobald , A.B., The Mahadiya 1881-1899, Longmans , Green and co.,London , 1949... p.78.

(٣٠) (30) Marlowe .J, Anglo Egyption Relations , 1800-1956 , Second Edition , Frank cass and Company, L.TD. , London ., 1965 , p.245.

(٣١) مورهيد (آلان) النيل الأبيض ،ترجمة محمد بدر الدين خليل ، المرجع السابق ، ص٢٢٧.

(٣٢) ســـلاطين باشا : السيف والنار في السودان ،تعريب جريدة البلاغ ، مكتبة الحرية ، أم درمان ، السودان، ١٩٣٠م ، ص ١١٨.

ومـــن المعـــروف أن الدوافع الدينية ، كان لها أثر كبير على سلوك غوردون وتصرفاته ، فقد كان معروفاً بترعته الدينية (٥٠).

٣-غوردون في القاهرة(٢٥ ربيع الأول ١٣٠١هـ/٢٤ يناير ١٨٨٤م):

عـــندما غـــادر غوردون لندن في مساء ١٨ يناير ١٨٨٤م ، كان هدفه أن يبحر إلى ســـواكن رأساً عن طريق قناة السويس . فلم يرغب في رؤية الخديو توفيق ، لأنه كان ينتقد سلوك الخديو علناً . غير أن بارنج (كرومر) القنصل البريطاني في مصر ، أبرق إلى جرانفيل في ١٩ يـــناير ملحاً في ضرورة مجيء غوردون إلى القاهرة ، حيث أن طريق سواكن – بربر كان مغلقاً (٥١).

وكان بارنج يحس بالقلق من تصريحات غوردون السابقة ، لصحيفة بال مال جازيت (Pall Mall G.) بشأن السودان والثورة المهدية ، وإمكانية القضاء عليها . ولهذا كان بارنج يـــرى ، من الضروري أن يحضر غوردون إلى القاهرة ، ليناقش خططه عن مهمته مع الحكومة المصرية(٥٢).

وفي ٢٠ يـــناير أرسل جرانفيل برقية خاصة إلى بارنج ، يظهر فيها موافقته على آراء بـــارنج عـــن غـــوردون ، ويشاركه الإحساس بالقلق ، ويؤكد على ضرورة تنفيذ غوردون للتعلـــيمات الرسمية ، والتخلي عن أفكاره الخاصة التي وردت في صحيفة بال مال جازيت، بشـــأن السودان . ولهذا أصدر جرانفيل تعليماته إلى غوردون ، وهو في بور سعيد ، بضرورة التوجه إلى القاهرة فوراً (٥٣).

وربما يشير هذا التصرف من غوردون ،بالتفكير في الذهاب إلى سواكن رأساً ، دون المرور بالقاهرة ، إلى بعد جديد في فهم غوردون لمهمته . وهو اعتقاده بأن بريطانيا هي صاحبة الشـــأن الأول في الســـودان . وأنـــه ليس بحاجة إلى تعليمات من الخديو توفيق أو الحكومة المصرية.

---

(٥٠) مكـــي شـــبيكة (الدكـــتور) : تاريخ شعوب وادي النيل ، في القرن ١٩ ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة ، بيروت، لبنان ، ١٩٨٠م ، ص ٦٦٧.

(٥١) (51) P.R.O., G/D,No., 29/162,Baring to Granville 19 Jan.1884.

(٥٢) (52) Shibeika , M., British Policy in the Sudan ,(1882-1902), op.cit.,p.159.

(٥٣) (53)P.R.O., G/D, 29/200, Granville to Baring 20 Jan.1884.

ولمـــا وصل غوردون إلى القاهرة ، التقى بالسير افلن بارنج في ٢٥ يناير ١٨٨٤م . وتـــلقى مـــنه تعليمات جديدة ، تتمثل في تأمين سلامة الحاميات المصرية ، وسلامة السكان الأوربيين ، وتدبير خير الوسائل لتنفيذ إخلاء السودان بسلام (٥٤).

وفي يوم ٢٦ يناير ، التقى غوردون بالخديو توفيق ، فأصدر الخديو توفيق فرماناً بتولية غوردون حاكماً عاماً مفوضاً على السودان . كما أصدر أمراً آخر يتضمن التعليمات الجديدة الـــتي كـــلف بها غوردون باشا . والتي تتمثل في : " إرجاع الجنود والموظفين ، الملكيين ، والـــتجار، إلى مصـــر ، وذلـــك مع حفظ النظام في البلاد ، بإعادتها إلى سلالة الملوك الذين حكموها قبل الفتح المصري"(٥٥).

وهـــذه التعليمات الجديدة من الخديو توفيق لغوردون ، بسحب الجنود والمدنيين ، وإقامة حكومـــات وطنية في السودان ، أدخلت تعديلاً جوهرياً وحاسماً على مهمة غوردون . وليس هناك مـــن شـــك في أن مهمة غوردون أصبحت مهمة تنفيذية . كما أن الاستجابة لتعيينه حاكماً عاماً مفوضاً في السودان ، ينطوي أيضاً على تعديل في جوهر مهمته ، يؤكد هذه الصفة التنفيذية (٥٦).

وأثناء وجوده بالقاهرة ، التقى غوردون بالزبير باشا . وعلى الرغم من المناقشة الحادة التي دارت بينهما ، بسبب مقتل سليمان بن الزبير باشا ، إلا أن غوردون تحول تحولاً غريباً . فقـــد أصـــبح يثق في الزبير بعد العداء الشديد بينهما . وبات يرى أن الزبير باشا هو الأمل الوحيد لمنع الحرب الأهلية في السودان (٥٧)!!

وممـــا يدل على سرعة هذا التحول وغرابته ، أن غوردون ، وهو في طريقه إلى مصر لتسلم أعـــباء مهمته ، طلب وضع الزبير باشا تحت المراقبة الدقيقة ، بل طلب إبعاده ، ومنعه من الاتصال بالســـودان (٥٨)! وهـــا هو بعد اجتماعه مع الزبير باشا الذي أشرنا إليه سابقاً ، عاد يثني عليه ،

---

(٥٤) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٣٢٢ .

(٥٥) جـــلال يحـــيى (الدكتور) : مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٤م ، ص ٣٨٢.

(٥٦) (56) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan , op.cit., p.90.

(٥٧) الـــزبير باشـــا يـــروي ســـيرته في منفاه بجبل طارق ، الكاتبة فلورانشو ، مقالات بمجلة مراجعات معاصرة Contemporary Review عـــام ١٨٨٧م – تعـــريب وإعداد خليفة عباس العبيد ، مركز الدراسات السودانية ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، ص ١٠٧ .

(٥٨) (58) Shibeika , M., British Policy in the Sudan ,(1882-1902), op.cit., p.164.

ويطلب أن يصحبه إلى السودان ، قائلاً عنه : " هو أقدر رجال السودان ، لأنه قائد لا يداني ، وأراني أعجب به إعجاباً شديداً "(٥٩)!

ولم يوافق كل من بارنج ونوبار باشا ، على استخدام الزبير باشا في السودان ، خوفاً من حدوث ما يعرقل خطط غوردون في السودان ، إذ أن الهوة ما زالت سحيقة بين الرجلين في الآراء . ولكـــن تخفيفاً للرفض وإرضاءً لمشاعر غوردون ، وعده بارنج بأن ينظر في الأمر مرة ثانية (٦٠).

مـــن جهة أخرى كانت الحكومة البريطانية ، تصر على رفض الزبير باشا ، ولا تسمح لغـــوردون بالاســـتعانة بـــه في السودان ، بحجة أن الزبير باشا من كبار تجار الرقيق ، مما يثير اعتراض جمعيات منع الاتجار بالرقيق في إنجلترا . وفي حقيقة الأمر كانت قوة شخصية الزبير ، والخوف من استقلاله بحكم السودان ، وراء رفض عودته إلى السودان (٦١).

وهكذا بدأ غوردون يستعد للسفر إلى السودان ، بعد أن تسلم فرمان توليته ، حاكماً عامـــاً مفوضاً للسودان . كما أصدر الخديو ندائين لأهالي السودان . أحدهما بتعيين غوردون حاكماً عاماً عليهم ، ودعوتهم لإطاعة أمره . والآخر بعزم الحكومة المصرية على الانسحاب ، وتسليم الحكم إلى " عائلات السلاطين " السابقين . وتم تخويل غوردون سلطة إصدار الندائين في الوقـــت الـــذي يختاره . كما أنه مُنح سلطات أوسع ، فيما يتعلق بتنفيذ الخطة ، وطريقة نشرها ، وأنسب الأوقات لذلك (٦٢).

٤-رحلة غوردون إلى الخرطوم :

غادر غوردون القاهرة بالقطار في ٢٧ ربيع الأول ١٣٠١هـ/٢٦ يناير ١٨٨٤م . وكـــان يصـــحبه ســـتيوارت Stewart وياوره إبراهيم فوزي . ومن غرائب المصادفات أن غوردون لقى حتفه في فجر نفس اليوم (٢٦ يناير) من السنة المقبلة (١٨٨٥م)(٦٣)!

---

(٥٩) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ،المرجع السابق ، ص ٥٨.

(٦٠) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ص ٢٢٠.

(٦١) الـــزبير باشا ، يروي سيرته في منفاه بجبل طارق ، (فلورا شو) ، مقالات ، تعريب خليفة عباس ، المرجع السابق ، ص ، ٩٣.

(٦٢) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ،المرجع السابق ، ص ٧٨.

(٦٣) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ص ٢٢٠.

ولم يكن غوردون حريصاً على اصطحاب قوة من الجند ، للاستعانة بها في تنفيذ مهمة الإخــلاء . وكـــان ذلك من الأخطاء الكبيرة ، التي عملت على فشل مهمته . وهو ناتج من خطـئه في فهـــم حقيقة الثورة المهدية في السودان ، وعدم تقديره لقوتها . وإفراطه في الثقة بنفسه، واعتماده على أثر سمعته وشهرته ، وحسن أعماله السابقة في السودان (٦٤).

وكـــان عدم اصطحاب غوردون لقوة معه ، مفاجأة للكثيرين في السودان ، من الذين كانوا على ولائهم للحكومة المصرية ، وظنوا فرحين أن غوردون ، لابد أن يكون قادماً بعناية كبرى من الحكومتين ، البريطانية والمصرية ، وأنهما لا يتخليان عن مساعدته ، بجنود يتمكن بها من إرغام المهدي وهزيمته (٦٥).

ولقـــد أشـــار سلاطين باشا ، إلى خطأ غوردون في عدم اصطحاب قوة من الجنود ، قائلاً: " مجرد أن غوردون جاء من غير أن تأتي معه قوة تسنده ، نهض دليلاً عند هؤلاء الناس، عـــلى أنـــه إنما يعتمد على نفوذه الشخصي في تأدية مهمته . بينما كان واضحاً ، أن النفوذ الشخصي في هذه المرحلة ليس إلا نقطة في محيط "(٦٦)!

وتـــنفيذاً لسياسة الإخلاء بإقامة حكومات وطنية ، وإعادة البلاد إلى الحكام السابقين قبل الفتح التركي المصري في السودان ، اصطحب غوردون معه في رحلته الأمير عبد الشكور ابن المرحوم السلطان عبد الرحمن ، سلطان دار فور السابق . وكان عبد الشكور مقيماً بمصر. وأراد غوردون أن يسلمه عرش دار فور (٦٧). غير أن هذا الأمير لم يكن راغباً في السلطة ، ولم يكن مؤهلاً ، لها بسبب سوء تصرفاته ، وانغماسه في شرب الخمر . فآثر الرجوع إلى مصر وهـــو في مديـــنة دنقـــلا ، فكـــان ذلـــك بدايـــة غير موفقة لسياسة ، تنصيب السلاطين السابقين(٦٨).

وكـــانت تـــراود غـــوردون أفكار غريبة ، ومن ذلك أنه كان يفكر في الذهاب إلى المهـــدي، حـــتى ولو أدى الأمر إلى احتجازه كرهينة ! فما كان من بارنج إلا أن أرسل إليه

---

(٦٤) دار الوثائق المصرية ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، محفظة رقم ٣/١ .

نقلاً عن د. رأفت غنيمي الشيخ ، مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ١٦٧.

(٦٥) فوزي (إبراهيم): السودان بين يدي غوردون وكتشنر ،الجزء الأول ،القاهرة ، ١٣١٩هـ،ص ٢٦٨.

(٦٦) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ١٢٨.

(٦٧) (67)Theobald , A.B., The Mahadiya op. cit., p.86.

(٦٨) (68)Ibid .

بـــرقية، يحـــذره من ذلك ، ويطلب منه توكيداً بألا يجازف ، بوضع نفسه تحت سلطة المهدي بمحـــض اختياره . ويبدو أنها فكرة ، لمعت كالبرق الخاطف ، في ذهن غوردون ، ثم تلاشت . فقد رد موافقاً بأنه لا يعتزم زيارة المهدي (٦٩).

وفي أول فـــبراير ١٨٨٤م أرســـل غوردون رسالة إلى بارنج ، ضمنها كتاباً إلى ملك البـــلجيك ، عارضـــاً فيه أنه بصدد الذهاب صعوداً إلى النيل الأبيض ، والاستيلاء على بحر الغزال والمديريات الاستوائية ، وتسليمها بعد ذلك إلى ملك البلجيك . مما اضطر بارنج ، إلى إصدار أمر ، بمنعه من الصعود إلى النيل الأبيض (٧٠).

وكانت هذه الأفكار الغريبة ، دليلاً على سوء الفهم والتقدير الذي أظهره غوردون ، ممـــا تـــرتب عـــليه كـــثير من الأخطاء ، ومن ذلك القرارات التي أعلنها وهو في طريقه إلى السودان، والتي بنيت على الحكم المتغير والمتسرع ، والسطحي (٧١).

ومـــن أخطاء غوردون الشنيعة ، عندما وصل أسيوط ، أرسل برقية إلى حسين باشا خليفة ، ليبلغ عمد البلاد وأعيانها ، أنه أصبح والياً مفوضاً على السودان ، وأنه عند وصوله ســـيعزل جميع الموظفين الأتراك والمصريين ، ويولي حكاماً من أهل البلاد ، ليعيد الحكم إلى ما كـــان عـــليه قـــبل الفتح التركي المصري للسودان . ويعلن أيضاً أنه أعفى الأهالي من دفع الضـــرائب المـــتأخرة ، كما أعفاهم من دفع الضرائب لمدة سنتين في المستقبل . كما أنه ألغى الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق (٧٢).

وفي ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٠١هـــ/٩ فبراير ١٨٨٤م ، أرسل غوردون خطاباً إلى محمـــد المهدي ، مصحوباً بهدية ، وطلب من حسين باشا خليفة ، مدير بربر ، تسليم الخطاب والهدية إلى المهدي . وفي هذا الخطاب اعترف غوردون بالمهدي سلطاناً على كردفان (٧٣).

ونلاحـــظ أن غـــوردون باشـــا في خطابه هذا ، يحاول أن يظهر نفسه بمظهر الحادب الشـــفيق على مصالح المسلمين ، بالتعبير عن حزنه وأسفه على قطع طريق السودان الشرقي ،

---

(٦٩)كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ،المرجع السابق ، ص ٩٢-٩٣.

(٧٠) نفس المرجع ، ص ٩٣.

(71) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan ,1881-1898,po.cit., p.92.(٧١)

(٧٢) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ، المرجع السابق ، ص ٢٦٧.

(٧٣) مهدية /١٥١ فيوضات /١ ، من غوردون إلى المهدي ، بتاريخ ٢ربيع الثاني ١٣٠١هـــ/٩فبراير ١٨٨٤م دار الوثائق القومية ، الخرطوم.

الــذي جاء حائلاً بين المسلمين ومكة المكرمة ، التي يقصدونها كل عام لأداء فريضة الحج ، وأدى إلى منعهم من زيارة قبر الرسول ﷺ (٧٤)!!

وهــذا العرض الذي عرضه غوردون على المهدي ، بأن يكون سلطاناً على كردفان ، يتصــف بالســذاجة والجهــل بحقيقة الأمور ، وسوء التصرف . ومما يؤكد ذلك ، ما أورده ســلاطين باشا تعليقاً على ذلك بقوله : " لاشك أن المهدي تعجب من غوردون كيف يمنحه بالكلام ما حصل عليه هو بحد السيف ، وما لا يمكن لغوردون أن يسترده منه "(٧٥)!

ولمــا وصل غوردون إلى أبي حمد ، استقبله حسين باشا خليفة مدير بربر ، ومعه أعيان المديرية . فألقى عليهم غوردون خطبة أكد فيها ما ورد في البرقية السابقة التي أرسلها لحسين باشا خليفة من أسيوط . وحذرهم من الركون للمهدي ، ورماه بالكذب . ثم أرسل برقية إلى السير ايفلن بارنج ، يخبره بأن مقابلته لأهل أبي حمد ، تبشر بنجاح مهمته (٧٦).

وأخــبر غــوردون حســين باشا خليفة قبل وصوله إلى بربر ، بأن السودان لا يريد الاســتقلال ، ولكــن يــريد التخــلص من الترك . وهو بذلك ينقل السيادة من الترك إلى بريطانيا(٧٧).

وفي تقديــري أن هــذا التصــريح يعتبر من التصريحات الخطيرة ، لأنه يشير إلى أن غــوردون يتصــرف ، وكأن هناك تعليمات سرية تكتنف مهمته ، وترتبط بأهداف بريطانيا الاســتعمارية في السودان . ومما يؤكد ذلك ما ورد في خطابه السابق في أول فبراير ١٨٨٤م إلى محمــد المهدي ، بأن تعيينه حاكماً على السودان ،كان من حكومة بريطانيا ، وأن الخديو توفيق صدق فقط على هذا التعيين (٧٨).

ونلاحــظ هنا ، أن هذه الصيغة ، التي وردت في الخطاب ، تشبه تلك التي جاءت في اتفاقيــة الحكــم الثــنائي (١٨٩٩م) بأن الحاكم العام للسودان ، تختاره حكومة بريطانيا ، ويصادق عليه خديو مصر .

---

(٧٤) مهدية /١٥١ فيوضات /١ ، من غوردون إلى المهدي ، بتاريخ ٢ ربيع الثاني ١٣٠١هـ/٩فبراير١٨٨٤م (نفس الوثيقة السابقة)

(٧٥) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ١١٩.

(٧٦) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ،الجزء الأول ، المرجع السابق ، ص ٢٧٠.

(٧٧) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ص ٤٦٧.

(٧٨) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ،المرجع السابق ، ص ٢٧٠.

وفي بربـــر عقـــد غـــوردون اجتماعاً سرياً حضره حسين باشا خليفة مدير المديرية ، والعمـــد ، والأعيـــان ، والمسئولون ، في ١٢ فبراير سنة ١٨٨٤م ، أعلن فيه عزم الحكومة المصرية على إخلاء السودان . وأطلعهم على خطاب الخديو توفيق الخاص بإخلاء السودان . وأنه قادم بقصد إرجاع العساكر إلى مصر. وأن الحكومة سوف تتحمل نفقات الذين يريدون السـفر إلى مصـــر. كمـــا قـــرر عزل الحكام الأتراك ، وشكل مجلساً من الوطنيين للحكم بالشـــورى، وأعـــلن أن المديـــرية من الآن فصاعداً ، مستقلة عن القاهرة ، وتخضع لسلطانه شخصياً (٧٩).

كمـــا أن غوردون وهو في بربر ، أرسل برقية إلى نوبار باشا ، وسعادة قنصل بريطانيا بمصـــر ، يقـــترح فيها تخفيض عدد المستخدمين ، والكتبة التابعين لوزارة الحربية بمصر ، لأن عددهم كثير ، ولا لزوم لهم في حكم السودان ، كما أن إيرادات السودان صارت قليلة ، لا تغطي تكاليفهم . ويقترح الإبقاء على ثمانية منهم فقط (٨٠).

وكـــانت هذه الإجراءات التي أعلنها غوردون في بربر ، من الخطورة بمكان عظيم . فـــإطلاع أهل بربر على الفرمان السري ، خطأ يدل على قصر النظر وسوء التقدير . كما أن بعض التعليمات التي أعلنها فيها غموض وتضارب ، بل انطوت على أخطاء شنيعة (٨١).

وقـــد أشـــار ستيوارت في مذكراته إلى هذه التصريحات فوصفها بعدم الحكمة . وأن غوردون تسرع في إذاعتها ، لأنها مثيرة للغموض ، وأنها أشبه بقفزة في الظلام (٨٢)!

كما وصفها الأب أوهر والدر ، أحد أعضاء بعثة الكنيسة النمساوية في الدلنج ، بأنها الخطأ الذي سدد به غوردون ضربة الموت إلى نفسه ، وقضى على مهمته (٨٣).

وقـــد أشـــار ونجـــت إلى بيان غوردون في بربر ، ووصفه بالبيان المهلك ، الذي تسبب في ضياع السودان (٨٤). أما سلاطين باشا فقد انتقده بقوله : " إن إذاعة ذلك

---

(٧٩) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٣٢٦.

(٨٠) المخابـــرات المصـــرية ١٢/٤/١ تلغراف نمرة ١٦٠ من غوردون باشا ببربر إلى نوبار باشا وسعادة قنصل الإنجليز بمصر بتاريخ ١٢ فبراير ١٨٨٤م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(81) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan ,1881-1898,op.cit., p.88.(٨١)

(٨٢) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ،المرجع السابق ص ١٨٥.

(٨٣)رأفت غنيمي الشيخ(الدكتور):مصر والسودان في العلاقات الدولية ،عالم الكتب،مصر،١٩٧٧م ص ٢٠١

(٨٤) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ،المرجع السابق ، ص ٩٨.

المنشـــور بـــإخلاء الســـودان ، قد قلبت الحالة ، وكانت سبباً غير مباشر ، في سقوط بربر"(٨٥).

ولعـــل مكمن الخطأ في إذاعة هذا المنشور بإخلاء السودان ، أنه كشف ضعف موقف الحكومة المصرية في السودان . فقد كان الأمل الوحيد في نجاح مهمة غوردون ، هو أن يقوم بتنفيذ الجلاء ، قبل أن يقدر العدو ضعفه . فبإذاعة سياسة الإخلاء والانسحاب من السودان، أزال غوردون أي شبهة ، وأرشد المترددين إلى أن مصلحتهم في الاتفاق مع المهدي (٨٦).

وقد حاول حسين باشا خليفة ، تنبيه غوردون إلى مدى زعزعة الثقة في نفوس الناس . وأنـــه كان من الأفضل ، التأكيد على المرسوم الخاص بتعيينه حاكماً على السودان ، وإرجاء إذاعـــة الفـــرمان السري بالإخلاء . وقد وافق غوردون على هذه النصيحة . ولكن بعد أن تركت أثرها في الناس . فقد وجد حسين باشا خليفة عند عودته لبربر ، صعوبة بالغة في إقناع أهل بربر ، عندما تلا عليهم أمر التعيين وحده ، دون الفرمان السري بإخلاء السودان . فقد اعتبروا ذلك مخالفاً لما أعلنه غوردون (٨٧).

ورغـــم نصيحة ، وتحذير حسين باشا خليفة ، لغوردون ، بعدم إعلان الفرمان السري مـــرة أخرى ، كرر غوردون نفس الخطأ ، في المتمة ، حيث أطلع علي ودسعد وأهل المتمة ، على الفرمان السري بإخلاء السودان . وقد كان ذلك سبباً في تخلي علي ودسعد ، عن تأييد الحكومة ، والانضمام إلى المهدي (٨٨).

وقـــد أثار تصرف غوردون بإعلان الفرمان السري مرة أخرى ، حفيظة حسين باشا خـــليفة . وعبر عن ذلك بقوله : " لقد منعته في بربر من اتخاذ مثل هذه الخطوة القاتلة . ولا أدري مالذي حرضه على نبذ نصيحتي بعد ذلك مباشرة "(٨٩)!

ومهمـــا قيـــل من أن غوردون ، كان يهدف من إذاعة الفرمان السري ، إلى تسهيل عمـــلية الانسحاب ، كما أشار شقيقه السير هنري غوردون (٩٠)، فإن هذا الإعلان ، كان

---

(٨٥) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ١٣٧.

(٨٦) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan ,1881-1898 , op.cit., p.95.

(٨٧) Ibid ., P.94.

(٨٨) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٣٢٩.

(٨٩) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ١٣٧.

(٩٠) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ،المرجع السابق ص ١٨٦.

خطـــأً يمـــثل ضربة قاضية ، على مهمة غوردون ، لأنه كشف عن ضعف جوهري للحاكم الجديد (٩١).

ومـــا مـــن ريـــب ، أن مـــن أعجب أخطاء غوردون وتصرفاته التي أثارت الدهشة والأســـف، وقـــف العمل بمعاهدة إلغاء الرق (١٨٧٧-١٨٨٩م) بين بريطانيا ومصر . وقد أشـــار بارنج (كرومر) إلى ذلك بقوله : " إن هذا البيان أثار دهشةً وفزعاً في إنجلترا ، لأنه مما يدعـــو لـــلعجب ، أن يســـارع رجل ، اعتبر حتى تلك الآونة ، بطلاً من أبطال محاربة تجارة الـــرقيق، إلى الموافقة على هذا القرار ، ومخالفة تقاليد ، آمن بها في سابق أيامه بمجرد وصوله الخرطوم"(٩٢)!!

وقـــد أثـــار هذا القرار عاصفة من السخط والاحتجاج على غوردون في بريطانيا . واعتـــبروا ذلك انتكاسة للمجد الذي بناه غوردون في محاربة تجارة الرقيق (٩٣). وانتقدت الصـــحف الـــبريطانية هذا القرار ، وأرسلت عدداً من البرقيات تستفسر عن حقيقة موقف غـــوردون . ولكـــن غوردون كان مصراً على قراره ، بأنه لا يقوم بتنفيذ المعاهدة (٩٤). مما أدى إلى المزيد من نشاط أنصار حركة محاربة الرق في نقد هذا القرار . وكذلك نشاط زعماء الأحـــزاب المعارضـــة ، حيـــث وجدوا في ذلك فرصة لمهاجمة الحكومة . ومن هؤلاء السير ســـتافورد نورثكوث الذي وقف في مجلس العموم البريطاني متسائلاً ، وسط هتافات أعوانه ، عما إذا كانت سلطات غوردون تتسع إلى حد إصدار مثل ذلك البيان (٩٥)!

وقـــد حاول بعضهم الدفاع عن موقف غوردون ، بأنه كان أعجز من أن يفعل شيئاً لإيقـــاف تجـــارة الـــرقيق (٩٦). أو أن منطقه في ذلك ، هو أنه لا جدوى من الاستمرار في الضغط على تجار الرقيق ، ما دام السودان سيُخلى (٩٧).

---

(91) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan ,1881-1898,op.cit., p.95.(٩١)

(٩٢) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ،المرجع السابق ، ص ٩٩.

(٩٣) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ،المرجع السابق ، ص ١٨٦.

(٩٤) الشـــاطر بصـــيلي عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل ، الطبعة الثانية ، مكتبة العرب ، القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص ١٨٠.

(٩٥) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ،المرجع السابق ، ص ١٠٠.

(٩٦) مورهيد (آلان): النيل الأبيض ،ترجمة محمد بدر الدين خليل ، المرجع السابق ، ص ٢٣٣.

(٩٧) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ،المرجع السابق ، ص ١٨٦.

ويرى بارنج (كرومر) أن غوردون وزن الأمر ، ووجد أن الواجب ، يقتضيه العمل في سـبيل هدفه الرئيسي ، وهو الجلاء عن السودان . ويعتقد بارنج أن غوردون في هذه القضية نجح نجاحاً يدعو للإعجاب . ويرى أن من الواجب إطلاق يده ، وإعطاؤه الحرية الكاملة لإتمام مشروعاته العامة (٩٨).

ويـبدو لنا أن بارنج (كرومر) ، في رأيه هذا ، أُخذ بمقدرة غوردون على التحول من موقفه السابق ، وهو التمسك بإلغاء الرق ، إلى موقفه الجديد ، وهو التخلي عن محاربة الرق ، في سـبيل بلوغ أهدافه في إخلاء السودان . ولكنه لم يدرك أن موقف غوردون هذا ، كشف عن عجزه وضعف حكومته ، فكانت النتائج على النقيض في الواقع (٩٩).

٥- غوردون في الخرطوم:

وصل غوردون الخرطوم في ٢٠ ربيع الثاني ١٣٠١هـ/١٨ فبراير ١٨٨٤م ، رغم المشـاق والصـعوبات التي واجهته . وهناك استقبله الناس استقبالاً حافلاً . ولكنهم دهشوا عندما علموا أنه حضر دون قوة تسنده (١٠٠)!

وفي الخرطوم أعلن غوردون فرمان توليته على الناس ، ثم ألقى خطبة على الناس ، أعلن فيهـا اجراءاته قائلاً : " انتدبت من قبل حكومة جلالة الملكة لأكون والياً على السودان . وقد صار فصل السودان عن مصر فصلاً تاماً . وفُوض إليَّ الحكم المطلق "(١٠١).

ولقـد كانت إجراءات غوردون التي أعلنها أشبه بتلك التي أعلنها في بربر . فقد أعلن اعترافه بالمهدي سلطاناً على السودان الغربي بأكمله . كما أعلن إلغاء جميع الأوامر الصادرة بمنع تجـارة الرقيق . وتجاوز عن متأخرات الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣م . وتجاوز أيضاً عن ضرائب ثلاث سنين منذ أول ١٨٨٤م . وأمر بإحراق دفاتر المتأخرات ، وأمر بإطلاق جميع المسجونين . وأعـلن عزمه على تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه . وأعلن اختيار عوض الكريم أبي سن مديراً للخرطوم . كما أمر بفتح الحصون وإتلافها ، وسحب الجنود منها(١٠٢).

---

(٩٨) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ،المرجع السابق ، ص ١٠٠-١٠١.

(٩٩) مورهيد (آلان) : النيل الأبيض ،ترجمة محمد بدر الدين خليل ، المرجع السابق ، ص ٢٣٣.

(١٠٠) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ١١٩.

(١٠١) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ،المرجع السابق ، ص ٢٧٤.

(١٠٢) نفس المرجع ، ص ٢٧٤.

أصاب الناس اضطراب شديد عندما أعلن غوردون أنه معين من قبل دولة بريطانيا . فقد أحسوا بأنهم أصبحوا خاضعين لسيطرة دولة استعمارية . ولم يقتصر هذا الاضطراب على أهل الخرطوم وحدهم ، بل شمل بعض الأقاليم الأخرى كإقليم دنقلا (١٠٣).

وكـــان أهالي الخرطوم ، يستمعون إلى خطبة غوردون ودموعهم تنهمر من الحزن ، إذ كـــانوا موقـــنين بأن هذه سياسة خرقاء ، وأن المهدي سوف يتقدم نحوهم ويقهرهم (١٠٤). وعـــلى أثـــر ذلـــك هجر المدينة كثير من الناس قاصدين مصر ، واستقال كثير من الموظفين الحكوميين ومنهم الكولونيل دي كوتلجن De Coetlogon(١٠٥).

ولقد شرع غوردون بعد ذلك ، في تنفيذ الإجراءات التي أعلنها ، فقام بفرز عدد من العســـاكر المصـــرية ، وأرســـلهم إلى أم درمان بغية إرسالهم إلى مصر ، والاكتفاء بالعساكر السودانيين . كما شرع في تسفير العجزة والمرضى وأبناء القتلى في شيكان ، ومن أراد السفر إلى مصر من التجار المصريين وغيرهم (١٠٦).

وأرســـل غـــوردون في ١٨ فبراير ١٨٨٤م إلى حكومته ، يلح في إرسال الزبير باشا ليخـــلفه في الحكم بالسودان ، بينما كانت الحكومة البريطانية ترفض استخدام الزبير لارتباطه بتجارة الرقيق (١٠٧).

وبدأ غوردون يعمل على إبعاد المصريين والأتراك عن السلطة ، مما أدى إلى مزيد من الإثارة والقلق ، بين الضباط المصريين . وخاصة عندما أشار إلى تعيين ستيوارت نائباً له ، وطلب من الناس طاعته (١٠٨).

ورغـــم أن غوردون خاطب المهدي ،بتاريخ ١٢ربيع الثاني ١٣٠١هــ/٩فبراير ١٨٨٤م ، بأسلوب يقوم على المصالحة ، والتفاوض ، والاعتراف بمكانة المهدي ، قائلاً: " فخـــر الأمراء، وقدوة الأولياء والصالحين . حضرة سيدنا ومولانا السيد محمد أحمد بن

---

(١٠٣) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهـــرة ، محافظ أبحاث السودان ، محفظة رقم ٣/٣/-٤ ، من مدير دنقلا إلى مهرداد خديو ، بتاريخ ٣١ ديسمبر ١٨٨٤م.

(١٠٤) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ،المرجع السابق ، ص ٢٧٥.

(١٠٥) نفس المرجع ، ص ٢٧٦.

(١٠٦) شقير (نعوم): تاريخ السودان ، تحقيق دكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، ص ٤٣٨.

(١٠٧) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ص ٦٧٤.

(١٠٨) الرافعي (عبد الرحمن): مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ،المرجع السابق ، ص ١٢٦

عــبد الله حفظه الله"(١٠٩)! وطالبه " بخلوص النية ، وحسن الطوية "(١١٠)، إلا أن غوردون لم يلبث أن عاد إلى أسلوب العداوة والتشكيك في المهدي ، قبل أن يتسلم من المهــدي رداً على رسالته. فقد صرح غوردون عند وصوله الخرطوم ، للعلماء ، أنه من المخــزي أن يتخلى الناس عن دياناهم ، ويتبعوا مدعي المهدية ، فقط ليحموا ممتلكاهم ، وينقذوا أرواحهم(١١١) !!

ولقد بدأ أهل السودان ، وخاصة رجال الدين منهم ، يشعرون بأن الانضمام إلى محمد المهدي أسلم وأضمن لحياقم . ولذلك فقد اتجه الكثيرون منهم إلى إعلان تأييدهم للمهدى ، والإســراع إلى مبايعــته ، والتخلص من مساندة الحكومة المصرية . ومن هؤلاء الشيخ عبد القــادر ود أم مريوم ، الذي كان غوردون قد عينه قاضياً لقضاة السودان (١١٢)، فنقض عهــده بــالولاء لــلحكومة ، والــتحق بالمهدي ، وكتب خطاباً لغوردون ينصحه بالتسليم للمهدي(١١٣).

فيما تقدم رأينا أن محمد المهدي ، كان على اتصال بأهالي الخرطوم بعد هزيمة هكس ، يدعوهم للانخراط في الثورة المهدية ، ويحرضهم على الجهاد ومحاصرة الخرطوم (١١٤).

ومن الذين كتب إليهم محمد المهدي يدعوهم للجهاد ، ويطلب منهم المجاهرة بعداوة الحكومــة ، الشــيخ العــبيد بدر ، فقد حرضه المهدي على الثورة ، والغارة على الأعداء ،

---

(١٠٩) مهديــة ، ١٥١ ، فيوضــات ١،من غوردون إلى المهدي بتاريخ ١٢ ربيع الثاني ، ١٣٠١هــ/ ٩فبراير ١٨٨٤م، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١١٠) مهديــة ، ١٥١ ، فيوضــات ١ ،من غوردون إلى المهدي بتاريخ ١٢ربيع الثاني،١٣٠١هــ/ ٩ فبراير ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١١١) (111) Journals of Gordon ,Vol.1,12th September 1884.

نقــلاً عــن ميمونة ميرغني حمزة ، حصار وسقوط الخرطوم ، رسالة ماجستير ، دار التأليف والنشر جامعة الخرطوم ، الخرطوم ١٩٧٢م ص ١٠.

(١١٢) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ،المرجع السابق ، ص ٢٦٩.

(١١٣) نفس المرجع ص ٢٦٩.

(١١٤) مهديــة ، متــنوعات ١١١٧/٦٢/١ ، مــن المهدي إلى أحبابه في الله أهالي الخرطوم ، بتاريخ ١٠ محرم ١٣٠١هــ/١١ نوفمبر ١٨٨٣م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

وطـــلب مـــنه الالتحاق بالمجاهد محمد الطيب البصير (١١٥). وفي رسالة أخرى يخير محمد المهدي العبيد بدر بين الهجرة ، والقيام بمحاصرة الخرطوم (١١٦).

غـــير أن محمد المهدي ، كلف العبيد بدر رسمياً ، بتولي أمر الهجوم على الخرطوم بعد وصول غوردون إليها . وطلب من بعض المشايخ الانضمام إليه . ومن ذلك رسالة المهدي إلى أعيـــان الحلاويين ، الشيخ عبد الرحمن القرشي ، والشيخ محمد الطيب ، والشيخ محمد إمام ، والشيخ الأغبش البصير ، والشيخ أبو سن مساعد . بتاريخ ٣٠ ربيع الأول ١٣٠١هـ/٢٧ فبراير ١٨٨٤م . يخبرهم بين قتال الترك وبين الهجرة إليه ، ويسمح لهم بالانضمام إلى العبيد بدر إن شاءوا (١١٧).

ومـــن الذين كتب إليهم محمد المهدي يخيرهم بين الجهاد والهجرة إليه أيضاً ، الشيخ محمـــد الخـــير في بربر ، وهو شيخه وأستاذه (١١٨). ولا شك أن قيام الثورة في بربر يمثل خطورة كبيرة على موقف الخرطوم .

ولقد بدأ غوردون يدرك خطأ تقديره ، بأن لقب سلطان كردفان ، الذي خلعه على محمد المهـــدي ، قد يرضي طموح محمد المهدي ، ويمنعه من الاستمرار في ثورته . وأدرك غوردون ، أن الأمـــر أخطـــر مما كان يتوقع أو يقدر . ولهذا فقد اتجه غوردون إلى إرجاع التحصينات ، وإرجاع الجنود المصريين الذين تم ترحيلهم إلى أم درمان ، إلى أماكنهم في خط النار (١١٩).

ورغـــم أن غـــوردون ، قد بدأ فعلاً في تنفيذ سياسة الإخلاء ، وسحب الحاميات ، وإرسال الرعايا من النساء والأطفال من الخرطوم إلى مصر ، إلا أنه ، بدأ يغير فكرته فجأة ، منذ ٢٧ فبراير ١٨٨٤م ، ويتجه إلى استعراض قوته ، والتحدث عن سحق المهدي (١٢٠).

---

(١١٥) مهديـــة /٢٠/٣/٨ ، ١٣٧ إنذارات ب ، من المهدي إلى العبيد بدر صفر١٣٠١هـ/ديسمبر ١٨٨٣م دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١١٦) مهديـــة /٢٠/٣/٨ ، ١٣٧ إنـــذارات ب ، من المهدي إلى العبيد بدر ربيع أول ١٣٠١هـ/٢٩ يناير ١٨٨٤م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم.

(١١٧) مهديـــة ، ١٥٨ فيوضـــات ٢ مـــن المهدي إلى أعيان الحلاويين ، الشيخ عبد الرحمن القرشي وآخرين ، بتاريخ ٢٠ ربيع الثاني ١٣٠١هـ/٢٧ فبراير ١٨٨٤م.

(١١٨) مهديـــة ، رقـــم ٨ ، ٣٧ باريس ٢ بتاريخ ربيع الثاني ١٣٠١هـ/فبراير ١٨٨٤م دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١١٩) مكي شبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل ، المرجع السابق ص ٦٧٥.

(١٢٠) (120) Marlowe , J. , Mission to Khartoum , op.cit ., p.192-193.

ويبدو أن غوردون ، ربط بين إخلاء السودان ، وإقامة حكومة أو سلطة في السودان. وأحس بأن ترك السودان ، وإخلاءه ، من غير وجود حكومة منظمة ، يؤدي إلى الفوضى . ولهذا بدأ يلح على تكوين هذه الحكومة برئاسة الزبير باشا (١٢١). وذلك بأن تعين الحكومة البريطانية الزبير مباشرة ، حاكماً عاماً ، مزوداً بهيئة بريطانية تعاونه ، إلى جانب منحه لقباً من ألقاب الشرف (١٢٢).

ولقد أدرك غوردون ، أن حركته السلمية مع المهدي ، بنيت على أسس واهية(١٢٣). وبات على يقين ، أن محمد المهدي لن يترك الخرطوم ، ولن يقف به الأمر على السودان وحده ، وإنما سيهدد مصر نفسها . وإذا وجب أن تكون مصر آمنة ، تحتَّم تحطيم المهدي ، وهو ، كما يعتقد ، أمر سهل وممكن ، إذا تم إرسال قوة إنجليزية هندية ، لفتح طريق سواكن بربر (١٢٤). وأصبح غوردون يؤمل في وصول هذه القوة الإنجليزية .

ويبدو أن غوردون كان متفائلاً ، وهو يؤمل في انتصارات جراهام على عثمان دقنة في شرق السودان ، وأن قوات جراهام قد تسعى للوصول إلى الخرطوم (١٢٥). أو أنه كان يرغب في إحداث تأثير أدبي في الجمهور ، يرفع من روحهم المعنوية (١٢٦).

ومما ساعد على تمسك غوردون بالبقاء في الخرطوم ، والتباطؤ في عملية الانسحاب والإخلاء ، أن عدداً كبيراً من أهالي الخرطوم ، لا يريدون مغادرة المدينة ، لأنهم لا يزالون يثقون في غوردون ، بسبب وجوده بينهم ، وأنه بصفته ممثل الحكومة البريطانية في السودان ، سيكون محل عناية بريطانيا . ولهذا فإن ما أشيع من وصول نجدات من الجنود البريطانية للسودان ، أمر لابد أن يكون صحيحاً . ومما قوى هذا الاعتقاد ، أن غوردون نفسه ، بدأ يعلن أن جنوداً بريطانيين في طريقهم إلى الخرطوم (١٢٧). وخاصة عندما حدث نوع من الاضطراب وإثارة الخواطر في الخرطوم ، عندما فشل ستيوارت في فبراير ١٨٨٤م ، في

---

(١٢١) حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٦٦.

(١٢٢) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ،المرجع السابق ، ص ١١٣.

(١٢٣) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ص ٣٣٠.

(١٢٤) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ،المرجع السابق ، ص ١١٢-١١٤.

(١٢٥) (125)Theobald , A.B., The Mahadiya op. cit., p.94 .

(١٢٦) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ،المرجع السابق ، ص ١١٤.

(١٢٧) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٣٣٣.

استطلاع نهر النيل الأبيض ، حيث لم يتمكن ستيوارت من التقدم بباخرته أكثر من منطقة الدويم ، بسبب هجمات الثوار وإطلاق النار عليه . مما أدى إلى إصدار غوردون نداءً يهدد فيه الذين لا يثبتون على ولائهم للحكومة ، ويتوعدهم بوصول جنود بريطانيين في طريقهم الآن إلى الخرطوم(١٢٨).

وظل غوردون يلح باستمرار على حكومته ، في إرسال الزبير باشا إلى السودان ، باعتباره الرجل الوحيد الذي يمكنه أن ينقذ الموقف في السودان (١٢٩). وبدأ غوردون يتخلى نهائياً عن فكرة الانسحاب ، مؤملاً في وصول قوة بريطانية لسحق المهدي .

وقد أثار هذا التباطؤ في تنفيذ عملية الإخلاء ، وإشاعة قرب وصول قوات بريطانية ، القلق والشكوك ، وكان مثيراً للفزع في أوساط الحكومة البريطانية . ورجح لديها ، أن غوردون خالف التعليمات الصادرة إليه . وبدأ يعمل لتنفيذ سياسة من وضعه هو ، وأنه تخلى تماماً عن جوهر مهمته (١٣٠).

ومما أثار المزيد من فزع الحكومة البريطانية ، اتجاه غوردون للحسم العسكري المسلح، لأنه يورط بريطانيا في التدخل العسكري الذي لا تريده ، كما أن إلحاح غوردون على استخدام الزبير باشا في السودان ، سبب للحكومة البريطانية كثيراً من الحرج ، لارتباط الزبير بتجارة الرقيق ، ومن المحتمل عودته لهذه التجارة (١٣١). كما أن البريطانيين كانوا حقيقة ، يخشون من انضمام الزبير للمهدي (١٣٢).

وقد وصف نورثبروك ، في رسالته للورد كرومر ، بتاريخ ٢٩ فبراير ١٨٨٤م ، وصف غوردون بالشذوذ ، وسرعة التقلب في آرائه . واستنكر إلحاح غوردون في استخدام الزبير باشا ، وشكك في ولاء الزبير لمصر ، وبريطانيا ، مدعياً أن له يداً في ثورة السودان . وإذا كان لابد من تحطيم المهدي ، لسلامة مصر ، كما يرى غوردون ، فإن الإجراء الذي يجب أن يتخذ ، ليس هو استخدام جنود بريطانيين ، وإنما هو إطلاق " مسلمين على

---

(١٢٨) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ،المرجع السابق ، ص ١١٤.

(١٢٩) (129) Churchill, W., The River War , London borough Publication Limited , London ,1965,p.45.

(١٣٠) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ،المرجع السابق ، ص ١١٥.

(١٣١) نفس المرجع ، ص ١٣١.

(١٣٢) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ، القاهرة ، ١٩٥٢م ، ص ١٣٧.

مســـلمين"، وذلـــك بـــأن تحمـــل تـــركيا عـــلى القيام بهذه المهمة . فيكون الأتراك ضد العرب(١٣٣)!!

وفي ١١ مـــارس ١٨٨٤م عقـــد مجلس الوزراء البريطاني جلسة ، رفض فيها طلب غـــوردون بإرسال الزبير باشا ، كما رفض أيضاً ، قبول الاقتراح بإرسال جنود بريطانيين إلى الســـودان (١٣٤). وهـــذا يـــتم في الوقت الذي أصبح فيه الانسحاب من الخرطوم ، شبه مستحيل. حيث أصبحت الخرطوم في حالة حصار ، منذ بداية شهر مارس ١٨٨٤م، كما أن غـــوردون لم يعد يفكر في الانسحاب ، لأنه لا يريد الفرار وحده ، ويترك الحامية والمدنيين ، فهو يشعر بالإلزام الأدبي نحوهم (١٣٥).

ولا نستبعد أن يكون غوردون ، قد بدأ يتصرف من منطلقات ذاتية ، ونزعات دفينة، مـــردها إلى الحقـــد الصليبي ضد الإسلام والمسلمين ، فقد كان شديد التمسك بمسيحيته ، مشهوراً بتعصبه الديني (١٣٦).

ونلاحـــظ أن غـــوردون خضع ، بصورة واضحة ، لهذا التأثير الديني الصليبي ، عـــندما تسلم رد محمد المهدي على رسالته السابقة ، التي أرسلها إلى المهدي في ٩ فبراير ١٨٨٤م ، قـــبل وصـــوله الخـــرطوم ، واعـــترف فيهـــا بـــالمهدي ســـلطاناً عـــلى كـــردفان(١٣٧).فقـــد كتب محمد المهدي إلى غوردون رداً في رسالته بتاريخ ١١ جماد الأول سنة ١٣٠١هـــ/٩مارس ١٨٨٤م وأرسل إليه مع الرسالة (جبة مرقعة) مما يلبسه الأنصـــار ، طالـــباً منه الدخول في الإسلام . كما رد الهدايا التي أرسلها غوردون إليه. وأخبره بأنه ، لا يريد " ملكاً ولا جاهاً ولا مالاً"(١٣٨).

---

(١٣٣) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ،المرجع السابق ، ص ١١٦ .

(134) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan ,1881-1898,op.cit., p.97. (١٣٤)

(١٣٥) مكي شبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل ، المرجع السابق ص ٦٨٥.

(١٣٦) حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، المرجع السابق ، ص ٦٦.

(١٣٧) مهديـــة ، ١٥١فيوضـــات ١ ، مـــن غوردون إلى المهدي بتاريخ ١٢ ربيع الثاني ١٣٠١هـــ/٩ فبراير ١٨٨٤م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٣٨) مهدية ، ١٧/٣/٨ ، ٤٩ إنذارات أ ، من المهدي إلى غوردون باشا بتاريخ١١ جماد الأول ١٣٠١هـــ/ ٩ مارس ١٨٨٤م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

ولا يخفي محمد المهدي تعجبه وسخريته ، من زعم غوردون بأنه يريد " صلاح المسلمين ، وفتح الطريق لزيارة قبر الرسول ﷺ "(١٣٩)! ويتساءل المهدي قائلاً : " كيف من يكون على خلاف سكة النبي ﷺ ، يفتح باب زيارة قبره .. فإن كنت شفيقاً على المسلمين ، فبالأول اشفق على نفسك ، وخلصها من سخط خالقها ، وقومها على اتباع الدين الحق"(١٤٠).

ولما وصل رد محمد المهدي إلى غوردون ، استشاط غضباً ، وأحرق جبة الأنصار ، بعد أن ركلها برجله ، وأملى خطاباً جاء فيه : " من غوردون باشا والي السودان إلى محمد المهدي: وصلني كتابك ، الركيك العبارة ، العاري من المعنى ، الدال على سوء نيتك ، وخبث طويتك . وعن قريب ستبلى بجيوش لا طاقة لك بها ، وتكون أنت المسئول عما يسفك من الدماء "(١٤١)! ثم يختم رسالته قائلاً : " وها أنا مستعد لقدومك ، ومعي رجال أقطع بهم أنفاسك ، والعاقل من تبصر . والسلام "(١٤٢)!!

وهذا الرد من غوردون ، ينم عن الحقد الدفين ، والتعصب الأعمى ، والغضب الشديد . فبينما كان محمد المهدي يخاطبه بالتلطف واللين ، ويدعوه بعزيز بريطانيا والخديوية . نجد غوردون يخاطب محمد المهدي ويصفه " بسوء النية ، وخبث الطوية وجاحد النعمة " ويهدده بقطع الأنفاس . فشتان بين الأسلوبين(١٤٣)!

ولعل مما زاد من انفعال غوردون ، وأثار حقده وغضبه ، وصول خطاب إلياس باشا أم برير إلى غوردون في نفس الوقت تقريباً . وكان غوردون قد أرسل السلام إلى إلياس باشا، ضمن خطابه السابق للمهدي ، بتاريخ ٩ فبراير ١٨٨٤م (١٤٤). وكان غوردون يأمل في أن يجد من إلياس

---

(١٣٩) مهدية ، ١٧/٣/٨ ، ٤٩ إنذارات أ ، من المهدي إلى غوردون باشا بتاريخ١١ جماد الأول ١٣٠١هـ/ ٩ مارس ١٨٨٤م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .(الوثيقة السابقة)

(١٤٠) نفس الوثيقة – الهدية ١٧/٣/٨ ، ٤٩ إنذارات أ ، من المهدي إلى غوردون باشا ، بتاريخ ١١ جماد الأول ١٣٠١هـ/٩ مارس ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .(الوثيقة السابقة)

(١٤١) الآثار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المجلد الثاني رقم ٢٦٦ ، من غوردون إلى المهدي ، بدون تاريخ ، ص ٢٥٨.

(١٤٢) نفس المصدر ص ٣٥٨ .

(١٤٣) مكي شبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل ، المرجع السابق ص ٦٧٨.

(١٤٤) مهدية ، ١٥١ فيوضات ١ ، من غوردون إلى المهدي بتاريخ ١٢ ربيع الثاني ١٣٠١هـ/٩ فبراير ١٨٨٤م . دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

باشـــا ، وأمثاله. بعض التعاون في دعم أسلوب التفاهم والمصالحة والتفاوض، الذي بدأه عند كـــتابة خطابه للمهدي . إذ أن إلياس باشا كان من أعيان الأبيض ، الذين شاركوا في الإدارة المصـــرية في عهـــد غوردون السابق ، وتم الإحسان عليه برتبة اللواء ، وعلى كل من ولده ، وابـــن أخيه ، بالرتبة الثالثة (١٤٥). وقد بين إلياس في خطابه ، اتباعه للمهدي، وهو ينصح غوردون بالمسارعة لاتباع المهدي (١٤٦).

وبهـــذه المواجهة بين غوردون ومحد المهدي ، انتقل الصراع إلى مرحلة جديدة . فقد اعتبر غوردون منذ تلك اللحظة ، أن القضية هي صراع شخصي بينه وبين محمد المهدي . فإذا كان محمد المهـــدي شديد الإيمان بإسلامه ، فهو أيضاً متمسك بمسيحيته . ومنذ ذلك التاريخ ، رمى غوردون بسياسة الجلاء والانسحاب جانباً ، وصمم على محاربة المهدي حتى النهاية (١٤٧).

وممـــا يدعونـــا للتساؤل ، موقف الحكومة البريطانية من غوردون . فهي قد اكتفت فقط بالقـــلق على تخلي غوردون عن مهمته ، دون أن تقدم شيئاً واضحاً لتصحيح أخطائه ومساره ، أو العمـــل عـــلى إلزامه بالسياسة المتفق عليها لإخلاء السودان . فكأنها تريد التضحية به ، لتتخذ من ذلك حجة ، تستند إليها في تدخلها في السودان مستقبلاً (١٤٨).

(ب) حصار الخرطوم

في أوائـــل شهر جمادى الأول ١٣٠١هـــ/أول مارس ١٨٨٤م ، بدأ الموقف في الخرطوم يـــزداد تحـــرجاً . فقد بدأ أنصار المهدي يحاصرون الخرطوم . وكان محمد المهدي قد بدأ يرتب لهذا الحصـــار ، ويخاطب أنصاره في منطقة الخرطوم ، منذ هزيمة هكس ، يدعوهم للجهاد ضد الترك ، ومحاصرة الخرطوم (١٤٩) . وقد رأينا أنه كلف العبيد بدر ، بتولي أمر الجهاد ومناوشة الخرطوم ،

---

(١٤٥) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهرة ، أمر كريم إلى حكمدار عموم السودان برقم ١٥/٣١/١٨ بتاريخ ١٤ يونيه ١٨٧٧م . – صدرت بدار الوثائق القومية ، الخرطوم ، برقم ٤٤٢/٩٠/١.

(١٤٦) الآثـــار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المجلد الثاني ، رقم ٢٦٥، من إلياس باشا أم برير إلى غوردون ، بدون تاريخ ، ص ٢٥٦–٢٥٨.

(١٤٧) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ص ٣٢٥ .

(١٤٨) رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور) : مصر والسودان في العلاقات الدولية ، المرجع السابق ، ص ١٩٨.

(١٤٩) مهديـــة متـــنوعات ١١١٧/٦٢/١ ، ١٠٩٦ ، ٦١ ، مجـــذوب ، مـــن المهدي إلى أحبابه في الله /أهالي الخرطوم ، بتاريخ ١٠ محرم ١٣٠١هـــ/١١ نوفمبر ١٨٨٣م.

وطلب من بعض المشايخ ، والحلاويين ، الانضمام إليه (١٥٠).

وفي مطلع شهر مارس ١٨٨٤م ، عين محمد المهدي محمد عثمان أبا قرجة ، أميراً على الجزيرة ونواحيها . وطلب من محمد الطيب البصير ، التعاون التام مع أبي قرجة (١٥١). ويشير محمد المهدي إلى حصار الخرطوم وبربر ، في رسالته إلى محمد خالد زقل ، بتاريخ ٤ جماد أول ١٣٠١هـ/٣ مارس ١٨٨٤م . مشيراً إلى تعيين أبي قرجة ، أميراً على البحرين ، وإرساله إلى جهات النيل (١٥٢). ويشير محمد المهدي أيضاً ، إلى أنه ولى محمد الخير عبد الله خوجلي أميراً على بربر (١٥٣).

وهكذا أصبحت الخرطوم في حالة حصار ، وبدأ غوردون يحس بصعوبة موقفه ، فأبرق إلى بارنج ، بتاريخ ٢ جمادى الأولى ١٣٠١هـ/١ مارس ١٨٨٤م ، بأنه يتعذر عليه الخروج من الخرطوم . وهو بذلك يلقي التبعة على حكومته ، التي ترفض الاستجابة لمطالبه(١٥٤).

وفي برقية أخرى بتاريخ ١٠ جمادى الأولى ١٣٠١هـ/ ٨ مارس ١٨٨٤م ، يؤكد غوردون لبارنج ، أنه إذا امتنع إرسال الزبير باشا إلى الخرطوم ، ضاعت كل فرصة في إمكان سحب الحاميات . وأردف في ٩ مارس ١٨٨٤م ، ببرقية أخرى إلى بارنج ، يعرض الاستقالة من منصبه في الجيش البريطاني ، ويهدد بأخذ جميع السفن ، والمهمات المخزونة ، إلى المديريات الاستوائية وبحر الغزال ، وضم هذه المناطق إلى حكم ملك البلجيك . مما اضطر بارنج إلى أن يكرر له ، رفض الحكومة البريطانية لهذا التصرف غير المسئول (١٥٥).

---

(١٥٠) مهدية /١٥٨ فيوضات ٢ ، من المهدي إلى أعيان الحلاويين ، بتاريخ ٢٠ ربيع الأول ١٣٠١هـ/٢٧ فبراير ١٨٨٤م .

(١٥١) مهدية / رقم ٩/٤/٣٥-٢٧ ، ٢٧٥ ، مصنف الصادق ، من المهدي إلى محمد الطيب البصير ، بتاريخ ٤ جماد أول ١٣٠١هـ/٣ مارس ١٨٨٤م.

(١٥٢) الآثار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المجلد الثاني ، رقم ٢٥٦ ، من المهدي إلى محمد خالد زقل ، بتاريخ ٤ جماد أول ١٣٠١هـ/٣ مارس ١٨٨٤م ، ص ٢٢٨-٢٣١.

(١٥٣) نفس الوثيقة .

(١٥٤) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٣٣٥.

(١٥٥) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ، المرجع السابق ، ص ٩٤.

وفي ١١ مــارس ١٨٨٤م كان غوردون في حالة من اليأس ، فكتب إلى شقيقه قــائلاً : " من المرجح جداً ، أن تكون هذه آخر رسالة أبعث بها إليك ، لأن القبائل بين الخرطوم وبربر قامت بالثورة ، وسوف تحاول قطع الطريق علينا "(١٥٦).

وبعــد يوم واحد من هذه الرسالة ، قطع الأنصار خط التلغراف بين الخرطوم وبربر ، في ١٤ جمــادى الأول /١٢ مــارس ١٨٨٤م . ومنذ ذلك التاريخ ، أصبح من العسير على غوردون ، الاتصال بالقاهرة (١٥٧).

ورغم أن أنصار المهدي ، بدأوا يحكمون الحصار على الخرطوم ، إلا أن الوضع في الخرطوم لم يكــن يدعــو لليأس المطلق ، فقد كان فيها حوالي ٨,٠٠٠ جندي (ثمانية آلاف) وعندهم ما يكفيهم ، من البنادق ، والذخيرة ، وعندهم اثنا عشر مدفعاً ، وتسع سفن ، تمكنهم من القتال على الــنهر (١٥٨). كمــا أن غــوردون ، عمل على تقوية ، الحصون والخندق الذي يصل بين النيل الأبيض والنيل الأزرق ، وجمع بمساعدة السفن ، كمية من الذرة والمواد الغذائية (١٥٩).

واستطاعت حامية الخرطوم أن تقف صامدة ، في مواجهة بعض هجمات الأنصار، إلا أن المحاصرين من أنصار المهدي ، تكاثر عددهم ، فقد تولى الشيخ العبيد ، حصار الخرطوم من جهة الشرق ، والشيخ مضوي ، وعبد القادر من جهة الجنوب ، والفقه مصطفى ولد الأمين أم حقين، من جهة الغرب (أم درمان) ، والشيخ محمد الطيب البصير ، من جهة بحر أزرق(١٦٠).

ولقــد تمكــن الشــيخ العبيد بدر ، من هزيمة جند الحكومة بالحلفاية ، في ٦ جماد أول ١٣٠١هـ/٥ مارس ١٨٨٤م . كما تمكن الأنصار من هزيمة السعيد باشا الجميعابي ، ووكيله حسين باشا إبراهيم الشلالي ، اللذين حاولا طرد الأنصار عن الحلفاية (١٦١).

---

(١٥٦) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٣٧٥.

(157) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan ,1881-1898,op. cit ., p.97. (١٥٧)

(١٥٨) مورهيد (آلان) : النيل الأبيض ،ترجمة محمد بدر الدين خليل ، المرجع السابق ، ص ٢٤٠.

(١٥٩) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ص ٣٣٠.

(١٦٠) الآثار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المجلد الثاني رقم ٢٥٦ ، من المهدي إلى محمد خالد زقل ، بتاريخ ٤ جماد الأولى ١٣٠١هـ/٣ مارس ١٨٨٤م ، ص ٢٢٩.

(١٦١) الآثــار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المجلد الثاني ، رقم ٢٥٦، مــن المهــدي إلى محمــد خالد زقل ، بتاريخ ٤ جماد الأولى ١٣٠١هـ/٣ مارس ١٨٨٤م ، ص ٢٢٩ (الوثيقة السابقة)

وبعد هذه الواقعة التي سميت بواقعة الشرق ، انضم آخرون من قواد المهدي للحصار. ومن هؤلاء الشيخ عبد القادر أم مريوم ، الذي أشرنا من قبل إلى أنه نقض عهده مع غوردون والتحق بالمهدي ، فعقد له لواءً بالإمارة على كل أهالي القرى المجاورة للخرطوم (١٦٢). ومن ناحية أخرى فقد زحف أبو قرجة ، الذي لقبه المهدي بأمير البرين والبحرين ، ماراً بالجزيرة ، فاستسلمت له حامية فداسي في ٢٧ إبريل ١٨٨٤م . ولما وصل الخرطوم عسكر في الجريف غرب، وكتب إلى غوردون ليسلم عاصمة البلاد (١٦٣).

وكان لسقوط بربر في ١٩ مايو سنة ١٨٨٤م ، تأثير كبير في تأزم الموقف ، وقوة الحصار ، فقد انقطع الأمل في إنقاذ الخرطوم ، لأن بربر تمثل حلقة الوصل بين طريق سواكن وطريق كروسكو . مما جعل الخرطوم معزولة عن العالم (١٦٤).

واستطاع غوردون ، مغتنماً فرصة فيضان النيل ، من إلحاق هزيمة بقوات أبي قرجة ، في واقعة بري في ٢٧ يوليو ١٨٨٤م ، واضطره للتراجع عن الجريف . كما تمكن غوردون أيضاً ، من إخراج الشيخ العبيد بدر من الحلفاية ، واضطره إلى الترجع إلى أم ضبان ، في أواسط أغسطس ١٨٨٤م . مما أدى إلى رفع الروح المعنوية لأهالي الخرطوم ، وإصرار غوردون على المضي قدماً في الدفاع عن الخرطوم . خاصة وأن بواخره نجحت في جلب كميات من الغلال من الجزيرة (١٦٥).

وكان محمد المهدي يتابع الحصار ، ويحث أنصاره على التشديد على الكفار(١٦٦)، وضرورة القيام بنصرة الدين ، وتشديد الحصار على الخرطوم ، ويبشرهم بأنه قادم إليهم(١٦٧).

---

(١٦٢) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ،المرجع السابق ، ص ٢٧٦.

(١٦٣) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ،المرجع السابق ص ١٩٠.

(١٦٤) (164)Theobald , A.B., The Mahadiya ,op. cit. , p.108.

(١٦٥) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ،المرجع السابق ص ١٩٠ .

(١٦٦) مهدية ، ٤٨ تجومي ، من المهدي إلى الأنصار المحاصرين الخرطوم بتاريخ أول رجب ١٣٠١هـ/٢٧ إبريل ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٦٧) مهدية ، متنوعات ١١١٧/٦٢/١ ، ١٠٩٦ ، ٩٤ مجذوب ، من المهدي إلى الفقراء المحاصرين الخرطوم، بتاريخ ١ رجب ١٣٠١هـ/٢٧ إبريل ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

ثم لم يلـبث أن بعـث محمد المهدي ، عبد الرحمن النجومي ، أميراً عاماً على الجيوش المحاصرة للخرطوم ، فوصلها في أغسطس ١٨٨٤م . ورتب قواده لإحكام الحصار بعد الهزيمة الـتي لحقت بجنود أبي قرجة . ثم كتب النجومي إنذاراً إلى غوردون ، طالباً منه حقن الدماء ويعده بالأمان . ولكن غوردون رفض التسليم ، متوعداً بقدوم الجيوش البريطانية (١٦٨).

ومـا زال محمد المهدي ، يأمل في تسليم الخرطوم دون قتال ، فكتب إلى غوردون في آخـر شـوال ١٣٠١هـ/٢٢ أغسـطس ١٨٨٤م ، يدعـوه للتسليم ، ويعده بحسن المعاملة(١٦٩).

ثم شرع محمد المهدي في الزحف إلى الخرطوم في جيش كبير من أنصاره ، وكتب عدة رسـائل إلى أنصاره يخبرهم بأنه متوجه إلى الخرطوم ، ويطلب منهم التوجه لحصار الخرطوم . ومن هذه الرسائل ،خطابه إلى أهالي رفاعة وتوابعها ، بتاريخ ١٧ذي القعدة سنة ١٣٠١هـ/ ٨ سـبتمبر ١٨٨٤م (١٧٠). وخطابـه إلى عـبد الصمد شرفي في ١٨ ذي القعدة ، سنة ١٣٠١هـ/٩ سبتمبر ١٨٨٤م ، يخطره بأنه في شات ، وجاري التوجه إلى الخرطوم طالباً مـنه ، ومن محمد خالد اللحاق به (١٧١). كما كتب إلى أحمد جمال الدين ، وأمه وخالته ، وأولاد الشـهيد محمـود ، يطلب منهم الهجرة إليه ، حيث أنه متوجه إلى الخرطوم (١٧٢). وخطاب آخر إلى عبد الصمد شرفي في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٠١هـ/٥ أكتوبر ١٨٨٤م يؤكـد له ضرورة اللحاق به في الخرطوم (١٧٣). وكتب أيضاً إلى محمد الفقه أحمد في ١٤

---

(١٦٨) مكي شبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل ، المرجع السابق ص ٦٨٠.

(١٦٩) مهدية ، ٥/٠/٨ ، ٤٧٠ بيل ، من المهدي إلى غوردون بتاريخ شوال ١٣٠١هـ/٢٢ أغسطس ١٨٨٤ م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٧٠) مهديـة ، ٢١١ فيوضات ٣ ، من المهدي إلى أهالي رفاعة وتوابعها ، بتاريخ ١٧ ذي القعدة سنة ١٣٠١ هـ/٨ سبتمبر ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٧١) الآثـار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المصدر السابق رقم ٤٠٦ المجلد الثالث ، من المهدي إلى عبد الرحمن شرف ، بتاريخ ٨ ذي القعدة ١٣٠١هـ/٩ سبتمبر ١٨٨٤م ، الخرطوم ١٩٩١م ، ص ٢٣١.

(١٧٢) مهديـة ، ١٧٢ فيوضـات ٢ ، من المهدي إلى أحمد جمال الدين ، بتاريخ ٨ ذي الحجة ١٣٠١هـ/٢٩ سبتمبر ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٧٣) الآثـار الكامـلة للإمـام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المصدر السابق ، المجلد الثالث ، رقم ٤١٥ ، من المهدي إلى عبد الرحمن شرف ، ص ٢٥٣.

ذي الحجة ١٣٠١هـ/٦ أكتوبر ١٨٨٤م . يشكره على المشاركة في حصار الخرطوم ، ويطلب منه دعوة المتخلفين للمشاركة في حصار الخرطوم (١٧٤).

وكتب محمد المهدي إنذاراً لأهل الخرطوم ، يأخذ عليهم اعتمادهم على الإنجليز ، ويحثهم على التسليم ، ويعدهم بالأمان (١٧٥).

ومن هذه الرسائل ، يتضح لنا أن محمد المهدي بنى استراتيجيته على تشديد الحصار على الخرطوم ، لإجبار أهلها على التسليم دون قتال ، أو إراقة دماء ، كما تم في حصار مدينة الأبيض من قبل (١٧٦).

وفي ٢٨ ذي الحجة عام ١٣٠١هـ/٢٣ أكتوبر ١٨٨٤م ، وصل محمد المهدي إلى أم درمان في جيش ضخم من أنصاره ، وعسكر في منطقة أبي سعد ، قريباً من أم درمان(١٧٧).

وكان لقدوم محمد المهدي إلى منطقة الخرطوم ، أثر كبير على أهالي الخرطوم . فقد استكمل الحصار حلقاته . وأحس أهل الخرطوم بخطورة وضعهم . فبدأ بعضهم يتصل سراً بالمهدي ، وجاهر بعضهم بالعداوة للحكومة ، أمثال الشيخ أحمد العوام الذي كان من خطباء الثورة العرابية ، ثم نفي إلى الخرطوم . فأعلن تأييده للثورة المهدية . واتهمه غوردون بمحاولة حرق مخازن الذخيرة ، فكان مصيره الإعدام (١٧٨).

وباستحكام الحصار أصبح موقف غوردون أشد حرجاً ، ولكنه كان يأمل في وصول حملة الإنقاذ ، فوطن نفسه على البقاء في الخرطوم ، وبذل ما يستطيع من المقاومة (١٧٩).

---

(١٧٤) الآثار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المصدر السابق ، المجلد الثالث ، رقم ٤١٦ ، من المهدي إلى محمد الفقه ، ص ٢٥٤.

(١٧٥) مهدية ، ٢٠/٣/٨ ، ٢٥٥ إنذارات ب ، من المهدي إلى أهالي الخرطوم ، بتاريخ ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٠١هـ/١٢ أكتوبر ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٧٦) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ص ٣٤٥.

(١٧٧) الكردفاني (إسماعيل) : سعادة المستهدي بسيرة المهدي ، المرجع السابق ، ص ٣٣٩.

(١٧٨) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ،المرجع السابق ، ص ٣٥٩.

(١٧٩) (179) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan ,1881-1898,op. cit ., p.99.

(جـ) حملة الإنقاذ

كان انقطاع خط التلغراف بين الخرطوم وبربر ، في ١٤ جماد أول ١٣٠١هـ/١٢ مارس ١٨٨٤م ، وتعثر الرسائل بين غوردون والقاهرة ، من العوامل التي جعلت بارنج (كرومر) وحكومته ، يدركون خطورة الموقف ، وتحرج مصير غوردون في الخرطوم ، وحذر كل من حسين باشا خليفة ، مدير بربر ، والمستر كوزي ، وكيل غوردون في بربر ، من خطورة الموقف (١٨٠). وأن هناك إرهاصات ، بأن أنصار المهدي ، يعدون لقطع الطريق بين بربر وكرسكو (١٨١).

ولقد كان غوردون ، منذ ٢٧ فبراير ١٨٨٤م ، يتحدث عن قوة بريطانية في طريقها إلى الخرطوم (١٨٢). ويؤكد لبارنج أن الخرطوم رغم الحصار ، قادرة على الصمود . وأن في الإمكان انتهاء الحصار في مدى أربعة أشهر ، بما في ذلك تحطيم المهدي ، إذا أرسلت الحكومة البريطانية ثلاثة آلاف من الجنود الفرسان ، وألفاً من المشاة العثمانيين (١٨٣).

ومع ذلك ، لم تكن الحكومة البريطانية جادة تماماً ، في إرسال حملة لإنقاذ غوردون . فقد كانت تجهل حقيقة الحال في السودان على وجه الدقة . ولم تكن تعتقد أن الموقف بلغ من الخطورة ، الدرجة التي تبرر الالتجاء إلى العمليات العسكرية ، كما أن بعض أعضاء الوزارة البريطانية ، كانوا يعتقدون أن الجنرال غوردون خالف الأوامر والتعليمات الصادرة إليه ، وأن الحكومة البريطانية لذلك لا تتحمل مسئولية إنقاذه (١٨٤).

بيد أن حصار بربر ، ثم سقوطها في يد الشيخ محمد الخير في ١٠ جمادى الثانية سنة ١٣٠١ هـ/١٨ مايو ١٨٨٤م ، واستيلاء أنصار المهدي على تلك المنطقة (١٨٥). أثار التفكير في إرسال حملة عسكرية إنجليزية لإنقاذ غوردون ، وزاد من مخاوف سقوط الخرطوم في يد أنصار المهدي .

---

(١٨٠) Shibeika , M., British Policy in the Sudan ,(1882-1902), op. cit ., p.243.

(١٨١) Ibid.

(١٨٢) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ، المرجع السابق ، ص ١١٤.

(١٨٣) Marlowe , J. , Mission to Khartum , op . cit ., p.221.

(١٨٤) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٣٤٣.

(١٨٥) مهدية ، فيوضات ٣ ، من المهدي إلى محمد الخير عبد الله خوجلي ، ٢٢ رجب سنة ١٣٠١هـ/١٨ مايو ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

وكـــانت أول إشارة ، من الحكومة البريطانية لإرسال حملة عسكرية إنجليزية إلى الخرطوم ، قد وردت في رسالة إلى بارنج ، في أول مايو ١٨٨٤م ، بضرورة الاستفسار من غوردون ، عن القوة التي يرى أنها كافية وضرورية لإنقاذه . وكذلك الاستفسار عن الطريق الذي تسلكه ، والوقت المناسب لوصولها إليه (١٨٦).

ولقد استغلت الصحافة البريطانية ، ورود أنباء سقوط بربر رسمياً ، بعد أكثر من شـــهر مـــن تـــاريخ سقوطها ، فشنت حملة ضد الحكومة البريطانية ، لتهاونها في إنقاذ غوردون . وثار الرأي العام في بريطانيا ، مطالباً الحكومة باتخاذ التدابير اللازمة ، لإرسال حمـــلة عسكرية لإنقاذ غوردون . وهدد اللورد هارتنجتون Hartington، بالاستقالة في ٣١ يوليو ١٨٨٤م ، مطالباً بالموافقة على إرسال حملة عسكرية إلى السودان (١٨٧).

وقد اهتمت الملكة فكتوريا شخصياً بمسألة غوردون ، كما اشترك في المطالبة بإرسال الحمـــلة مجموعة من الوزراء ، يطالبون بالعمل السريع لإنقاذ غوردون ، الذي وصلت بعض الرسائل ، عن طريق مصوع ، تشير إلى تحرج موقفه (١٨٨).

وفي ٢٢ شـــوال ١٣٠١هــــ/٤ أغســـطس ١٨٨٤م ، طلب اللورد غلادستون Gladistone، رئيـــس الحكومـــة البريطانية ، من البرلمان مبلغ ثلاثمائة ألف جنيه استرليني ، لتمكين الحكومة البريطانية ، من القيام بالعمليات اللازمة لإنقاذ الجنرال غوردون ، إذا اتضح أن هذه العمليات ضرورية (١٨٩).

ولعـــلها المرة الأولى التي تتحمل فيها الخزينة البريطانية عبئاً مالياً وعسكرياً ، منذ احتلالها لمصر ، بشأن عمليات داخل السودان !

وبـــدأت وزارة الحربية البريطانية ترتيب أمر الحملة ، فاختارت الجنرال ولسلي Wolseley، قائد القوات البريطانية في موقعة التل الكبير سنة ١٨٨٢م في مصر ، ليكون

---

(١٨٦) (186) Allen , Gordon and The Sudan , p.333.
نقلاً عن دكتور رأفت غنيمي الشيخ ، مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٢٠٧.

(١٨٧) (187) Marlowe , J. , Mission to Khartum , op.cit ., p.242

(١٨٨) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٣٤٣.

(١٨٩) (189) Marlowe , J. , Mission to Khartum , op.cit ., p.242 .

قائداً للحملة المزمع إرسالها للسودان . وتم الاتفاق على استخدام طريق النيل إلى وادي حلفا، ثم دنقلا ، ومن هناك إلى الخرطوم (١٩٠).

ولقد أضاعت الحكومة البريطانية ، وقتاً ثميناً ، كان من الممكن أن يساعد في إنقاذ غوردون . إذ أن الخلافات بين الوزراء ، أدت إلى تأخير الموافقة بإرسال الحملة إلى شهر أغسطس ١٨٨٤م ، كما أن غوردون نفسه ، لم يعلم بخبر إرسال الحملة ، إلا في ٢١ سبتمبر عام ١٨٨٤م ، بواسطة الجنرال كتشنر ، الذي تم تعيينه من قبل الخديو توفيق ، على رأس فرقة من الجيش البريطاني في مصر ، للمحافظة على أقاليم السودان الشمالية ، شمال دنقلا . كضابط للمخابرات في المنطقة بعد حصار بربر (١٩١).

وكان من المنتظر أن يتم الإسراع في إرسال الحملة ، إذ أن الأمور أصبحت تتأزم يوماً بعد يوم في الخرطوم .

ورأى غوردون ، إرسال رفيقه الكولونيل ستيوارت إلى مصر ، على ظهر الباخرة عباس ، وبرفقته قنصل إنجلترا المستر باور ، وقنصل فرنسا المسيو هربن ، ومعهم بعض الوثائق، لإبلاغ الحكومة المصرية والبريطانية حالة الخرطوم ، واستعجال القوة العسكرية . ولكن الباخرة عباس ، تحطمت في الطريق في منطقة المناصير . وكان أصحاب المهدي لها بالمرصاد ، حيث تم القبض على استيوارت وجميع من معه . وقتلوا جميعاً بمن فيهم ستيوارت في ٢٥ شوال ١٣٠١هـ/١٨ سبتمبر ١٨٨٤م (١٩٢). ووقعت الوثائق جميعها في يد أنصار المهدي (١٩٣)! وكان أهم ما في هذه الأوراق ، التقرير الحربي الذي يصف الحالة ، والحوادث اليومية في الخرطوم (١٩٤) !

ولقد كان وقع الكارثة عظيماً على غوردون ، عندما تأكد له النبأ في خطاب أرسله محمد المهدي ، إليه بتاريخ ١ محرم سنة ١٣٠٢هـ/٢١ أكتوبر ١٨٨٤م ، يخبره بوقوع الباخرة عباس في قبضة أنصاره ، ومقتل ستيوارت ، ومن معه من القناصل . ويذكر المهدي في

---

(١٩٠) (190)P.R.O.,(F.O), 112/20 Relief of general Gordon ,Admiral Lord John Hay ,K.G.B., printed for the use of the cabinet , May 13 , 1884,p.2.

(١٩١) رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور) : مصر والسودان في العلاقات الدولية ، المرجع السابق ، ص ٢٠٨.

(١٩٢) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ،المرجع السابق ، ص ٣٦٧.

(١٩٣) نفس المرجع ، ص ٣٦٧-٣٦٨.

(١٩٤) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ١٤٥.

خطابـه لغـوردون ، أنه وقف على كافة التفاصيل ، التي وردت في المكاتبات التي كانت مع ستيوارت ورفاقـه . ويخـبره بأنـه وصـل بجيشـه إلى أطراف أم درمان ، ويطلب منه التسليم(١٩٥).

وفي هـذه الأثـناء ، كان ولسلي مهتماً بنقل الجيش ، والمؤن ، والذخائر ، وتذليل العقبات ، وأهمها طول المسافة ، وكثرة الشلالات على النيل ، وقلة المؤن ، وحرارة الطقس ، ووعورة الطريق . ولقد رأى ضرورة إعداد مجموعة من القوارب الصغيرة ، التي تصلح لمقاومة الشـلالات . كما أمر بمد خط سكة حديد حلفا – سرس – عكاشة ، الذي اكتمل لاحقاً . كما استعان بمجموعة من الجمال والبغال والحمير (١٩٦).

غـادر ولسـلي القاهـرة في ٢٧ سبتمبر ١٨٨٤م . ووصل إلى دنقلا في ٣ نوفمبر ١٨٨٤م . ووضع خطته على أن تكون كورتي ، نقطة الانطلاق الأساسية لحملة الإنقاذ . ثم رجع إلى حلفا لاستكمال نقل الجيش (١٩٧).

وفي ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٤م ، تسلم ولسلي رسالة من غوردون ، مؤرخة بتاريخ ٤ نوفمـبر ١٨٨٤م ، تبين حرج الموقف في الخرطوم ، وأنهم قادرون على الصمود لمدة أربعين يوماً فقط (١٩٨.ولهذا كان على قائد الحملة ، أن يسرع مسابقاً الزمن قبل سقوط الخرطوم

أعـد ولسـلي عدته ، وقسم الجيش إلى قسمين في ١٦ ديسمبر١٨٨٤م . القسم الأول يسير بطريق النيل إلى منطقة المناصير ، ثم بربر . وأما القسم الثاني فهو طابور الصحراء الذي يسير إلى المتمة ، عبر الصحراء ثم الخرطوم ، متوخياً السرعة لإنقاذ غوردون (١٩٩).

وفي ٣٠ ديسـمبر ١٨٨٤م سـار الجنرال ستيوارت ، قائد طابور الصحراء ، حاملاً الذخائر والمؤن ، عبر الصحراء ، إلى منطقة آبار الجقدول . وتركها في حراسة قوة صـغيرة من الجيش ، ثم عاد بالجمال لنقل بقية الجيش . مما أدى إلى ضياع وقت طويل ،

---

(١٩٥) مهديـة ، رقم ١١٠/١٦/٨ ، ١٧٠ ، آثار ، من المهدي إلى غوردون باشا ، في ١ محرم ١٣٠٢هـ/٢١ أكتوبر ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(١٩٦) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، المرجع السابق ، ص ٥٠٢–٥٠٣.

(١٩٧) نفس المرجع ، ص ٥٠٣.

(١٩٨) (198)Theobald , A.B., The Mahadiya ,op. cit ., p.115.

(١٩٩) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٥٠٨.

إذ لم يكن باستطاعته الزحف إلى المتمة حتى ١٤ يناير عام ١٨٨٥م (٢٠٠). فضلاً عن أن تكـرار الرحـلة مـن كورتي ، والتجمع الكبير في آبار الجقدول ، لجيشه الذي بلغ ١,٨٠٠ جـندي (ألف وثمانمائة) ، نبّه محمد المهدي وأنصاره ، لما يجري من تحركات . ولهـذا أرسـل محمـد المهـدي قـوة مـن عشرة آلاف مقاتل ، لوقف زحف طابور الصحراء(٢٠١).

وتشير الوثائق إلى أن محمد المهدي ، علم بوصول طابور الصحراء في ٢١ ربيع الأول عام ١٣٠٢هـ/٩ يناير ١٨٨٥م ، قرب المتمة ، فأمر بإرسال جيش لملاقاهم (٢٠٢).

ومـع ذلـك لم يكن وصول الجيش الإنجليزي مفاجأة للمهدي وأنصاره . فقد كان المهدي يتابع أخبار الحملة الإنجليزية ، وعلم بوصولها إلى دنقلا . فقد كتب خطاباً إلى غوردون باشـا ، بـتاريخ ٢٩ محـرم سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨ نوفمبر ١٨٨٤م يخبره بوصول " الجردة الإنجـليزية لدنقلا " ويؤكد له أنه لا يبالي بها ، وأنها ستجد مصير الشلالي وهكس (٢٠٣). كمـا أنـه كـان يثني على جهاد أعوانه بالمتمة وشندي ، في خطابه بتاريخ ٣ ربيع أول سنة ١٣٠٢هـ/ ٢١ ديسـمبر ١٨٨٤م ويشـير إلى ما أفاد به علي ود سعد من أنهم أغرقوا وابوراً، وأصابوا الآخر (٢٠٤).

وهكذا استعد أنصار المهدي بقيادة أميرهم موسى ودحلو ، وقبائل الجعليين بقيادة الحاج علي ود سعد . والتقوا بطابور الصحراء في معركة من أشد المعارك ، في ٣٠ربيع الأول ١٣٠٢ هـ / ١٧ يناير ١٨٨٥م عند آبار أبي طليح ، بين آبار الجقدول والمتمة . أبلى فيها الأنصار والجعـليون بلاءً حسناً (٢٠٥). إلا أنهم تكبدوا خسائر فادحة في الأرواح ، فقد قتل أميرهم

---

(٢٠٠) (200)Theobald , A.B., The Mahadiya ,op. cit , p.116.

(٢٠١) (201) Ibid

(٢٠٢) مهدية /٦٤ فيوضات ٤ ، من المهدي إلى محمود عبد القادر ، بتاريخ ٢١ ربيع أول سنة ١٣٠٢هـ/٩ يناير ١٨٨٥م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢٠٣) الآثار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المجلد الرابع ، من المهدي إلى غوردون باشا بتاريخ ٢٩ محرم سنة ١٣٠٢هـ/١٨ نوفمبر ١٨٨٤م ، ص ٤٥.

(٢٠٤) مهدية ، ٣ صادر ١ ، من المهدي إلى أحبابه وأعوانه بالمتمة وشندي بتاريخ ٣ ربيع أول سنة ١٣٠٢هـ/ ٢١ ديسمبر ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢٠٥) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٥١١.

موســـى ودحـــلو ، وجرح على ود سعد ، و استولى الإنجليز على آبار أبي طليح ؛ وتمكنت أغلبية الحملة الإنجليزية من الوصول إلى النيل (٢٠٦).

ورغم انتصار ستيورات في واقعة أبي طليح ، إلا أن أنصار المهدي كانوا له بالمرصاد ، فقد أصيب ستيورات نفسه برصاص الأنصار وقتل في ١٩ يناير سنة ١٨٨٥م ، وتولى القيادة شارلس ولسون wilson (٢٠٧).

كما أن المقاومة العنيفة التي أبداها أنصار المهدي ، والجعليون ، في واقعة أبي طليح ، كان لها الفضل في تعطيل وتأخير مسيرة الحملة إلى الخرطوم . حيث قضى ولسون خمسة أيام في المتمة ، ليستعد للزحف إلى الخرطوم ، ولم يتمكن من ذلك إلا في ٢٤يناير ١٨٨٥م . مستغلاً البواخر التي كان قد أرسلها غوردون ، لمساعدة الجيش للوصول إلى الخرطوم (٢٠٨).

وفي هــذه الأثــناء ، كان غوردون ، ومن معه ، ينتظرون وصول الحملة الإنجليزية بفارغ الصبر ، فلم يكن لهذا التأخير من معنى . فالأمر بحاجة للسرعة والمخاطرة . وقد أنتقد ســلاطين هــذا الــتأخير قائلاً : " هل كان قواد هذا الجيش ، يجهلون أن حياة جميع من في الخــرطوم بــاتت في خطــر ؟ ! ولقد انتظرنا طويلاً لكي نسمع صفير البواخر ، يؤذن بمقدم الإنجليز ، ولكن انتظارنا كان عبثاً (٢٠٩)!!

(د) انتصار المهدي وتحرير الخرطوم

(٩ ربيع الثاني ١٣٠٢هـ / ٢٦ يناير ١٨٨٥م)

أحكــم محمــد المهدي وأنصاره حصار الخرطوم ، كما رأينا ، منذ أن عسكر في أبي سعد، جوار أم درمان ، في ٣ محرم ١٣٠٢هـ / ٢٣ أكتوبر ١٨٨٤م ، وبدأ يستعد لفتح الخرطوم بعد انقضاء الأشهر الحرم (٢١٠).

وكــان محمد المهدي حريصاً كل الحرص ، على دعوة غوردون للتسليم دون قتال . فقد كتب عدة رسائل إلى غوردون ، يعده بالأمان إذا استجاب لداعي السلام . وظل يكتب

---

(٢٠٦) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ص ٢٥١.

(٢٠٧) (207) Churchill, W., The River War op. cit., p.65.

(٢٠٨) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٣٢٦.

(٢٠٩) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ص ١٥٦.

(٢١٠) الكردفاني (إسماعيل) : سعادة المستهدي بسيرة المهدي ، المرجع السابق ، ص ٣٣٩.

إليه ، مستخدماً كافة الأساليب التي يمكن أن تقنعه بالتسليم . ومن ذلك خطابه إلى غوردون بتاريخ ٩ ربيع الأول سنة ١٣٠٢هـ/٢٧ ديسمبر ١٨٨٤م ، يحمله المسئولية ، ويخبره بأن جميع الطرق مغلقة. ويعده بالعفو التام إذا سلم (٢١١).

ورغم أن غوردون رد إلى المهدي يرفض التسليم ، ويهدد بقرب وصول الحملة الإنجليزية ، إلا أن محمد المهدي ، لم يفقد الأمل في فتح الخرطوم دون قتال .

فقد كان محمد المهدي ، راضياً عن قوة حصار الخرطوم وأم درمان ، ويتنبأ بقرب سقوط الخرطوم ، في خطابه إلى محمود عبد القادر ، بتاريخ ١٢ ربيع أول ١٣٠٢هـ/٣١ ديسمبر ١٨٨٤م (٢١٢).

وقد اشتد الجوع والضيق بأهالي الخرطوم ، وساءت حالتهم النفسية والصحية ، حتى بدأوا يموتون . ولم تكن لدى غوردون أقوات تكفي كل الناس . ولهذا فقد بعث بالرقيق والمساكين ، والعجزة ، من النساء والرجال ، إلى المهدي ، ليتولى أمر إعاشتهم (٢١٣).

وكان محمد المهدي يستقبل هؤلاء العجزة وغيرهم ، من أهالي الخرطوم ، الخارجين تحت وطأة الجوع والحاجة ، بالرفق ، ويأمر لهم بصرف الطعام من بيت المال . ويعمل على إرشادهم ، للانخراط في الصلوات ، ومجالس الذكر (٢١٤). وقد بلغ عددهم في منتصف شهر ديسمبر ١٨٨٤م ٤,٦٩٩ (أربعة آلاف وستمائة وتسعة وتسعون) فرداً (٢١٥).

واشتد الحصار لحامية أم درمان ، وأصابها الجوع بسبب نفاد الطعام . وحاولت الانسحاب إلى الخرطوم فلم تتمكن ، واشتد عليهم القتال ، وأخيراً قرّ رأيهم على التسليم ، بعد أن صار الخيار بين التسليم أو الموت . وأذن لهم غوردون في التسليم (٢١٦). ولقد تم

---

(٢١١) مهدية ، ١١٠/١٦/٨ ، ١٧٨ ، آثار ، من المهدي إلى غوردون ، بتاريخ ٩ ربيع الأول ١٣٠٢هـ/٢٧ ديسمبر ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢١٢) مهدية ٦٠ فيوضات ، من المهدي إلى محمود عبد القادر ، بتاريخ ١٢ ربيع الأول ١٣٠٢هـ/٣١ ديسمبر ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢١٣) مكي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، المرجع السابق ص ٣٤٧.

(٢١٤) مهدية ، ٢٠١ فيوضات ٣ ، من المهدي إلى أحمد سليمان بتاريخ ٢٦ صفر ١٣٠٢هـ/١٥ ديسمبر ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢١٥) مهدية ، ١٠٢ فيوضات ٣ ، من المهدي إلى أحمد سليمان بتاريخ ٢٦ صفر ١٣٠٢هـ/١٥ ديسمبر ١٨٨٤م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢١٦) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ١٥٣.

التسـليم لـلمهدي في ٥ يناير ١٨٨٤م . وكان غوردون يشاهد التسليم ، بمنظاره من سراي الخـرطوم ، فشـق عـليه ذلـك جـداً ، وأخذ يضرب الأرض بشدة ، ودموعه تنهمر على خديه(٢١٧)!!

وكان لتسليم حامية أم درمان ، أثر بالغ في نفوس أهل الخرطوم ، وصاروا يتسللون في الظـلام للانضـمام لـلمهدي . وقد أشار محمد المهدي إلى كثرة الخارجين إليه من الخرطوم ، مستبشـراً بقرب سقوطها (٢١٨). وكان بعض المتسللين قد تركوا زوجاتهم بالمدينة ، ويأملون في نجاتهن بعد الفتح (٢١٩).

وما زال محمد المهدي يكتب إلى غوردون ، راغباً في إقناعه بالتسليم دون قتال . فقد كتب إليه بعد تسليم حامية أم درمان ، بتاريخ الموافق ٢٠ ربيع أول سنة ١٣٠٢هـ/٨ يناير ١٨٨٥م . ملتمساً له العذر بأنه لم يفهم قصده . ويؤكد عزمه على مدارجته إلى النهاية ، حاثاً لـه على الدخول في الإسلام (٢٢٠). كما كتب محمد المهدي لغوردون مرة أخرى ، بتاريخ ٢٥ ربيـع أول سـنة ١٣٠٢هـ/١٣ يناير ١٨٨٥م ، يخيره بين التسليم ، وبين توصيله للحملة الإنجليزية من غير فدية (٢٢١).

وفي خطابه الأخير قبيل سقوط الخرطوم ، يستخدم محمد المهدي مع غوردون أسلوب الـتهديد ، لعله يرعوي ويتجه إلى التسليم . ويخاطبه بقوله : " إن النصائح تتابعت عليك ولم تلق لها بالاً " . ثم يخبره بأنه لا مفر من القضاء عليه حرباً أو جوعاً . وأن النجدة الإنجليزية لن تنفعه ، وأن وعوده المتكررة بشأنها لأهل الخرطوم ، لم تفدهم بشيئ (٢٢٢).

---

(٢١٧) شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، تحقيق دكتور أبو سليم ، المرجع السابق ، ص ٥٢٢.

(٢١٨) مهدية ، ٦١/٧/٨ ، ٢٦ دقنة ، من المهدي إلى عثمان دقنة ، بتاريخ ٢٦ ربيع أول سنة ١٣٠٢هـ/١٤ يناير ١٨٨٥م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢١٩) مهديـة ، ١٠٨ ، فيوضات ٣ ، من عثمان أبو قرجة إلى المهدي ، بتاريخ ٢١ ربيع أول ١٣٠٢هـ/٩ يناير ١٨٨٥م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢٢٠) مهديـة ، ٢٠/٣/٨ ، ٢٥١ إنـذارات ب ، من المهدي إلى غوردون باشا ، بتاريخ ٢٠ ربيع أول عام ١٣٠٢هـ/٨ يناير ١٨٨٥م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢٢١) مهديـة ، ٢٠/٣/٨ ، ٢٥٣ إنـذارات ب ، من المهدي إلى غوردون باشا ، بتاريخ ٢٥ ربيع أول عام ١٣٠٢هـ/١٣ يناير ١٨٨٥م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

(٢٢٢) مهديـة ، ١١٠/١٦/٨ ، ١٩٥ آثار ، من المهدي إلى غوردون باشا ، بتاريخ حوالي ١ ربيع الثانية سنة ١٣٠٢هـ/١٩ يناير ١٨٨٥م ، دار الوثائق القومية ، الخرطوم .

ولكن غوردون ، مؤملاً في وصول النجدة البريطانية ، لم يكن يعتزم التسليم إطلاقاً ، فقد كانت هذه ، مسألة لا خيار فيها ، فهي كما يرى تتعلق بشرفه القومي (٢٢٣).

وتضافرت عوامل كثيرة ، أدت إلى إضعاف المقاومة والصمود في الخرطوم . منها فقدان معظم الوابورات ، التي كان غوردون يعتمد عليها في تمويل العاصمة ، حيث غرق بعضها ، واستولى الأنصار على بعضها الآخر . ومنها أيضاً فقدان عدد من الرجال الأقوياء ، أمثال محمد علي بك ، الذي قتل في واقعة أم ضبان في سبتمبر ١٨٨٤م (٢٢٤). وكذلك سفر ستيوارت ومقتله ، مما جعل غوردون يفقد أهم مساعديه . وكان لمقتله أثر كبير في نفسية غوردون (٢٢٥). وأصبحت حامية الخرطوم في حالة من الضعف والحصار والجوع ، لا تمكنها من المقاومة .

وحاول غوردون إرسال قناصل الدول ، والنزلاء الأوربيين ، ومعهم ياوره إبراهيم فوزي ، على الباخرة الصغيرة (محمد علي) ليلتحقوا بمديرية خط الاستواء ، أو المتمة للحاق بالحملة الإنجليزية . وكان من رأي بعضهم ، إجبار غوردون نفسه على المغادرة معهم . ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك بسبب قوة الحصار ، ومراقبة النيل ، وتوقع وصول حملة الإنقاذ(٢٢٦).

ولما وردت أخبار هزيمة الأنصار في أبي طليح ، ووصول الإنجليز إلى النيل عند المتمة ، استشعر محمد المهدي خطورة الموقف ، فعقد مجلساً للشورى ، واجتمع بقواده في مساء يوم ١٩ ربيع الثاني عام ١٣٠٢هـ/٢٥ يناير ١٨٨٥م ، وقرر الهجوم على الخرطوم ، وأصدر أوامره إلى ود النجومي ، قائده العام ، ثم عاد إلى أبي سعد . حيث بدأ الهجوم النهائي قبل ساعة من الفجر (٢٢٧).

ومما ساعد على التعجيل باقتحام الخرطوم ، فرار اثنين من الباشبوزق من حامية الخرطوم ، كانا يحملان معلومات قيمة عن الخرطوم ، ودلا المهدي على ثغرة في طرف

---

(٢٢٣) مورهيد (آلان) : النيل الأبيض ،المرجع السابق ، ص ٢٥٢.

(٢٢٤) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٢٤٦.

(٢٢٥) مورهيد (آلان) : النيل الأبيض ، المرجع السابق ، ص ٢٥٦.

(٢٢٦) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ،المرجع السابق ، ص ٣٩٥.

(٢٢٧) (6) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan ,1881-1898,op. cit ., p.103.

الاســـتحكامات من جهة النيل الأبيض ، نتجت عن انحسار فيضان النيل ، استخدمها أنصار المهدي في دخول الخرطوم (٢٢٨).

وكان الجو بارداً ، وملبداً بالغيوم والسحب ، مما أثر على قوى جنود حامية الخرطوم، وتركهم كأنهم صرعى في مواقعهم على الخندق (٢٢٩).

وهكذا احتدم القتال ، وانتهت المعركة بمقتل غوردون ، وتسليم الخرطوم (٢٣٠). وكان محمد المهدي يرغب في استبقاء غوردون حياً ، ليفتدي به أحمد عرابي باشا ، الذي كان أسيراً في جزيرة سرنديب (٢٣١).

وبعـــد يومين من سقوط الخرطوم ،أي في يوم ٢٢ ربيع الثاني ١٣٠٢هـ/٢٨ يناير ١٨٨٥م وصلت الباخرتان (التلامونية) و(بردين) ، تحملان السير تشارلس ولسون ، وعدداً مـــن الضباط ، والجنود الإنجليز ، جاءوا لإنقاذ غوردون . فلما تأكدوا من سقوط الخرطوم ومقتل غوردون ، عادوا مسرعين ، بينما كان أنصار المهدي ، يطلقون النار على الباخرتين(٢٣٢).

وبذلـــك أصـــيب الإنجليز بخيبة أمل لمقتل غوردون ، وفشلهم في إنقاذه . فانسحبت قواتهـــم إلى دنقـــلا . وأصبح المهدي بهذا النصر مسيطراً على معظم السودان . وفقد الخديو توفيق ، والحكومة المصرية بلاداً عزيزة ، بذلوا كل ما في وسعهم لإبقائها جزءاً من مصر !!

(هـ) فشل مهمة غوردون

لقـــد كان فتح المهدي للخرطوم ، ومقتل غوردون في ٩ ربيع الثاني ١٣٠٢هـ/٢٦ يـــناير ١٨٨٥م وقيـــام دولة المهدية ، إعلاناً رسمياً بفشل مهمة غوردون في تحقيق أهدافها في الســـودان . ولقـــد اختلفت الآراء في تحديد أسباب هذا الفشل ، هل يرجع هذا الفشل إلى شخصية غوردون ، أم إلى سياسة الحكومة البريطانية ، أم إلى موقف الخديو توفيق و الحكومة المصرية ، أم أن الفشل يكمن في طبيعة المهمة نفسها (٢٣٣)؟

---

(٢٢٨) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ،المرجع السابق ، ص ٣٩٥.

(٢٢٩) نفس المرجع ، ص ٣٩٦.

(٢٣٠) مكـــي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان للغزو والتسلط ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، معهد البحوث والدراسات ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، ص ١٠٨.

(٢٣١) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ،المرجع السابق ، ص ٣٩٨.

(٢٣٢) سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، المرجع السابق ، ص ١٦٣.

(٢٣٣) (233) Marlowe , J. , Mission to Khartoum , op . cit ., p.215.

مـــا من ريب ، أن جانباً كبيراً من هذا الفشل ، يكمن في غموض هذه المهمة ، وعدم وضوح أهدافها . فالتعليمات التي صدرت لغوردون من حكومته ، والمهام التي كلف بها من الخديـــو توفيـــق والحكومة المصرية ، كانت مبهمة ومتناقضة ، مما أدى إلى الاختلاف في فهم وتفســـير هذه المهمة . أهي تقريرية (استشارية) هدفها كتابة تقرير وتبيين حقائق معينة ، أم تـــنفيذية ، أم هـــي تشـــملهما معـــاً ؟! فضـــلاً عـــن السلطات شبه المطلقة التي أعطيت لغوردون(٢٣٤).

ولقد ألقى بعضهم بمسئولية الفشل ، على غوردون نفسه . ومنهم بارنج (كرومر) ، الـــذي كـــان مقتـــنعاً بأن غوردون لا يصلح لهذه المهمة،لضعف كفاياته الشخصية وتسرعه الشديد (٢٣٥) !

ويـــرى كتشـــنر Kitechener، في تقريره الذي قدمه إلى وزارة الحربية البريطانية ، بتاريخ ١١ أغسطس ١٨٨٥م ، أن غوردون يتحمل مسئولية سقوط الخرطوم ، لأنه أضعف مركزه ، بإخراج خمس بواخر نيلية من الخرطوم (٢٣٦).

ولعـــل مـــن أكـــبر أخطاء غوردون ، أنه حاد عن مهمته الأساسية ، وتنكر لجوهر التعلـــيمات الـــتي أعطيت له ، تحت تأثير ثقته المفرطة في نفسه ، وتعصبه الشديد لمسيحيته ، فأعـــلن فصـــل الســـودان عـــن مصـــر فصـــلاً تاماً ، وأنه فوض تفويضاً مطلقاً في حكم السودان(٢٣٧).

ولا نـــود هنا ، أن نكرر ما ذكرناه سابقاً عن أخطاء غوردون المتعددة ، والمتمثلة في اســـتعجاله بإعلان قرار إخلاء السودان ، وإلغاء اتفاقية تحريم تجارة الرقيق ، وغيرها . ولكننا هنا نركز على اثنين من أخطائه :

أولهمـــا : أنـــه رضي القيام بمهمته وجاء إلى السودان دون قوة تصحبه .وكان لذلك أثر في إضـــعاف موقفه . وكان مثار نقد من أقرب المؤيدين للحكومة المصرية ، أمثال الشيخ عوض

---

(٢٣٤) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٣٢١.

(٢٣٥) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ، المرجع السابق ، ص ٦٨.

(٢٣٦) (236) Blue Book , Egypt , No, 2 , (1886) A. No, 42 .

نقلاً عن دكتور رأفت غنيمي الشيخ ، مصر والسودان في العلاقات الدولية ، المرجع السابق ، ص ٢١٢.

(٢٣٧)فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ،المرجع السابق ، ص ٢٧٥.

الكـــريم أبو سن ، الذي رفض منصب مدير الخرطوم ، لما علم أن غوردون جاء من غير قوة تصحبه (٢٣٨).

وثانيهما : عدم انصياع غوردون ، لصوت العقل والحكمة ، بقبول دعوة المهدي له بالتسليم وحقـــن الدمـــاء ، رغم أن المهدي بذل له الوعود بالأمان ، وكرر له العهود بضمان سلامته وسلامة من معه . ولو فعل ذلك لجنب الخرطوم الدماء التي سالت ، والأرواح التي فاضت . ورغم أن بعضهم وصف موقفه بالشهامة ، والمروءة ، والالتزام الأدبي ، نحو أهالي الخرطوم . إلا أن هذا الموقف كان على حساب الأرواح (٢٣٩).

وفي واقع الأمر ، لا يمكننا أن نلقي بتبعة الفشل ، على غوردون وحده ، إذ أن جانباً كبيراً من هذا الفشل ، يقع على عاتق حكومة المستر غلادستون البريطانية (٢٤٠). فهي وإن كانت قد أعلنت سياسة التدخل في شئون السودان بعد هزيمة هكس ، وفرضت سياسة إخلاء الســـودان ، عـــلى الخديو توفيق و الحكومة المصرية ، إلا أنها كانت تتجنب التورط الذي يكلفها أعباء عسكرية ، أو مالية في السودان (٢٤١).

ولقـــد كانت بريطانيا ، تتصرف وهي على وعي تام بأهدافها الاستعمارية ، في مصر والسودان . فحالت دون استخدام عبد القادر باشا حلمي ، لمهمة إخلاء السودان وهو المشهود له بالكفاءة ، كما أنها فرضت استخدام غوردون ، وهو مسيحي ، لمواجهة ثورة دينية إسلامية ، فضلاً عن أنه لم يكن صالحاً للمهمة ، لنقص كفاياته الشخصية كما أشار بارنج (كرومر) (٢٤٢).كما أنها رفضت استخدام الزبير باشا في السودان ، بحجة أنـــه من تجار الرقيق ، وهي في واقع الأمر تخشى من قوة شخصيته ، وانفراده بالسيطرة على السودان(٢٤٣).

---

(٢٣٨) نفس المرجع ، ص ٢٧٩.

(٢٣٩) مكي شبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل ، المرجع السابق ص ٦٨٨.

(٢٤٠) مورهيد (آلان) : النيل الأبيض ،ترجمة محمد بدر الدين خليل ، المرجع السابق ، ص ٢٧٧.

(٢٤١) كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ، المرجع السابق ، ص ٢٨.

(٢٤٢) نفس المرجع ، ص ٦٨.

(٢٤٣) رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور) : مصر والسودان في العلاقات الدولية ، المرجع السابق،ص ٢٠٤-٢٠٥.

ويشـــير أجمونـــت هيـــك ، الذي نشر جورنال غوردون ، إلى أن الحكومة البريطانية تتحمل فشل غوردون ، لأن غوردون لم يجد أية معاونة في قيامه بمهمته (٢٤٤).

وعندما وافقت الحكومة البريطانية أخيراً ، تحت ضغط الصحافة البريطانية والرأي العام الـــبريطاني ، وتوجيهـــات الملكة فكتوريا ، على إرسال حملة عسكرية لإنقاذ غوردون، اتسمت الإجـــراءات بالبطء الشديد ، حتى أن أحد أعضاء الحكومة البريطانية ، ذكر في مجلس العموم الـــبريطاني ، أن الخرطوم سقطت بسبب خديعة ، قرب وصول قوة بريطانية(٢٤٥). كما أن ولســـون أضـــاع الفرصة ، لبقائه خمسة أيام غالية ، في المتمة ، فلو هو أسرع الخطى لكان من الممكن ، أن يعمل على وقف قوات المهدي ، من دخول الخرطوم ، ولو بصفة مؤقتة(٢٤٦).

غـــير أن ولسون كان يرى ، أن وصوله الخرطوم لم يكن ليغير من النتيجة شيئاً ، لأن غـــوردون لا يرغب في النجاة فقط . وإنما كان يعلن بأنه لن يغادر السودان إلا إذا أعطى كل فرد الفرصة للنجاة ، وأقيمت حكومة وطنية في السودان (٢٤٧).

ويبدو أن هناك خطة استعمارية محكمة للتدخل البريطاني في السودان ، يجري تنفيذها ، ويعتبر فشل مهمة غوردون حلقة من حلقاتها . وهى تهدف في النهاية إلى انفراد بريطانيا بحكم السودان . ومما يؤيد ذلك ، رأى إبراهيم فوزي (ياور غوردون) حيث قال : " إن مأمورية غـــوردون ، منحصـــرة في أن حكومة جلالة الملكة ، كان غرضها أن يمهد غوردون السبيل لوقـــوع تلك البلاد في مخالب الفوضى . وبعبارة أخرى ، أن يقضي على نفوذ مصر في تلك الأرجاء(٢٤٨).

ويرى الكولونيل شايي لونج الضابط الأمريكي في الجيش المصري : أن مهمة غوردون الحقيقيـــة هي بسط الفوضى والخلل في السودان ، ليسهل على إنجلترا الاستحواذ عليه ، بعد انفصاله من مصر) (٢٤٩) !

---

(٢٤٤) محمد فؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨.

(٢٤٥) رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور) : مصر والسودان في العلاقات الدولية ، المرجع السابق ، ص ٢١٣.

(٢٤٦) (246) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan ,1881-1898,op. cit .,p.102.

(٢٤٧) (347) Ibid

(٢٤٨) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ،المرجع السابق ، ص ٢٩٥.

(٢٤٩) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ،المرجع السابق ص ١٩٨.

وقد كان أهالي الخرطوم أثناء حصارها ، يفاجأون بمنشورات تصدر باللغة العربية ، والإنجليزية ، والفرنسية ، تقول : "إنه قد استولت حكومتنا البريطانية على حكومتكم المصرية، فاطلبوا لأنفسكم الحرية " (الإمضاء رجال بريطانيا) !!

وصدر بلاغ آخر ، بأن حكومة جلالة السلطان عبد الحميد ، لم تعد قادرة على حربها مع الروسيا ، ولذلك باعت السودان المصري ، لحكومة جلالة الملكة فكتوريا " (٢٥٠) !!

ويشير بعضهم ، إلى أن بريطانيا ضحت بغوردون : تحقيقاً لمطامعها في السودان(٢٥١). كما أن غوردون نفسه كان يرى : " أن الحكومة البريطانية ، كانت تأمل أن يقتل هو وزملاؤه ، أو يأسرهم المهدي (٢٥٢).

و هناك فريق ثالث يكاد يكون منسياً ، ولكنه يتحمل جزءاً من المسئولية في فشل مهمة غوردون ، ألا وهو الخديو توفيق ، والحكومة المصرية . فقد استسلم الخديو توفيق كما رأينا ، ووافق على سياسة إخلاء السودان ، التي فرضتها بريطانيا ، رغم معارضة محمد شريف باشا واستقالته من رئاسة الحكومة المصرية ووضع الخديو توفيق ، وحكومة نوبار ، أنفسهم رهن إشارة الإنجليز (٢٥٣). وكان ضعف الخديو توفيق وحكومته ، واستسلامهم الكامل لرغبة بريطانيا أحد عوامل الفشل لمهمة غوردون .

وبالنظر إلى الوجه الآخر من المسألة ، فإن المهدي بما أوتى من مهارة حربية ، وخطط محكمة في الحصار ، ومقدرة على التأثير في أنصاره ، فضلاً عن كثرة عددهم ، كان له الأثر الكبير في تحقيق النصر ، وإفشال مهمة غوردون .

---

(٢٥٠) الجابري (محمد أحمد) في شأن الله ، ص ١٥٥.

نقلاً : عن رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور) : مصر والسودان في العلاقات الدولية ، المرجع السابق ، ص ٢١٢.

(٢٥١) الرافعي (عبد الرحمن) : مصر والسودان ، المرجع السابق ، ص ١١٩.

(٢٥٢) مورهيد (آلان) : النيل الأبيض ،ترجمة محمد بدر الدين خليل ، المرجع السابق ، ص ٢٧٨.

(٢٥٣) (253) Holt , P.M., The Mahadist State in The Sudan ,1881-1898,op. cit .,p.

خاتمـــة

خاتمـــة

أولاً: ملخص البحث :

لقـــد تولى الخديو توفيق الحكم في ٦ رجب ١٢٩٦هـــ/٢٦ يونيو ١٨٧٦م . وكان عـــليه أن يواجـــه تركة مثقلة بالمشكلات الإدارية ، والسياسية، والاقتصادية المعقدة ،جعلت البلاد في حالة من عدم الاستقرار،وهيأتها للثورة ضد الحكم التركي المصري في السودان (١).

ورغـــم مـــا أظهره ، الخديو توفيق ، من نوايا حسنة في بداية حكمه ، لتنظيم الإدارة ونظـــم الحكم ، وإصلاح الحالة العسكرية ، والاقتصادية ، في السودان فإنه لم يحقق النجاح ، بســـبب ضـــعف شخصيته ، وخضوعه لسلطات الاحتلال البريطاني في مصر . ولهذا كانت سياسته ، امتداداً لسياسة والده الخديو إسماعيل . كما أن مشكلات البلاد تضاعفت في عهده وأدت إلى قيام الثورة المهدية .

ومفجـــر الثورة المهدية ، محمد أحمد بن عبد الله ، ولد في جزيرة لبب بمنطقة دنقلا ، عام ١٨٨٤م (٢). وهو ينتسب إلى الحسين بن علي ، وقد انتقل مع أسرته إلى منطقة كرري. وتـــنقل بين الخلاوي ، وتلقى حظاً وافراً من التعليم الديني ، وسلك الطريقة السمانية وتأثر بأفكـــار محي الدين بن عربي . وتمثل فكرة المهدية ، فأعلنها في غرة شعبان ١٢٩٨هـــ/٣٠ يونيو ١٨٨١م (٣).

ولقد تضافرت عدة عوامل أدت إلى قيام الثورة المهدية . أهمها العامل الديني . وهناك أسباب ساعدت على نجاحها . أبرزها قيام الثورة العرابية في مصر (١٨٨١م) .

ولمـــا لم يكتب لمحاولة الحكمدار محمد رؤوف باشا السلمية ، النجاح في وقف الثورة المهدية ، فقد تطور الأمر إلى الصدام المسلح ،في واقعة الجزيرة أبا في ١٦رمضان ١٢٩٨هـــ/ ١٢ أغســـطس ١٨٨١م . والـــتي انتهت بهزيمة الحكومة . ثم لم يلبث أن تمكن المهدي ، بعد

---

(١)مكـــي شـــبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، معهد البحوث والدراسات العربية ، المنظمة العربية للثقافة والعلوم ، القاهرة ، ١٩٧٢م ، ص٤٨.

(٢) رواية الإمام عبد الرحمن المهدي ، نقلاً عن الشاطر بصيلي عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل ، من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي ، الطبعة الثانية ، مكتبة العرب ،١٩٦٧م ، ص ١٩٦.

(٣) مهدية ، ٩/٤/٧٥- صفحة ١٠١ ، صادق ، من المهدي إلى محمد الطيب البصير بتاريخ غرة شعبان ١٢٩٨ هـــ/٣٠ يونيو ١٨٨١م.

هجـــرته إلى قديـــر ، مـــن تحقيق نصر جديد على الحكومة بهزيمة جيش راشد في ٩ ديسمبر ١٨٨١م . فما كان من الحكومة المصرية إلا أن استدعت الحكمدار محمد رؤوف ، واختارت عـــبد القـــادر باشا حلمي الذي عرف بكفاءته ليكون ، ناظراً ، وحكمداراً على السودان في ٢١ فبراير ١٨٨٢م (٤).

ولقـــد بذل عبد القادر باشا ، جهوداً كبيرة ، لإعادة الثقة والأمل لأهالي الخرطوم ، وقام بعدة ترتيبات عسكرية ، تدل على كفاءته ، ومقدرته الحربية . ووظف أسلوب الدعاية ضـــد المهـــدي ، كما تصدى للثورة في الجزيرة ، وألحق بها كثيراً من الهزائم . ولكنه تعرض للوشايات ، والتآمر من التدخل الأجنبي ، فأصدر الخديو توفيق أمراً بإعفائه !

ولم تجـــد مصـــر بداً من الخضوع لسياسة الاحتلال البريطاني في مصر ، فوافقت على إعـــداد حملة عسكرية ، من جنود عرابي المسرحين ، بقيادة هكس باشا البريطاني المسيحي ، لمواجهة الثورة المهدية في كردفان . وهكذا كانت هذه الحملة تحمل عناصر فشلها منذ البداية وحتى النهاية ، فوجدت مصيرها المحتوم في شيكان (٥ نوفمبر ١٨٨٣م).

كانت هزيمة شيكان ، فاصلة ، وحاسمة في الصراع بين الحكومة ومحمد المهدي . حيث رجحت بميزان القوى نهائياً لمصلحة الثورة المهدية ، وأدت إلى فرض بريطانيا سياسة الإخلاء على مصر فيما يعرف بالنصيحة الإجبارية (٥).

وفـــيما يخـــتص بسياسة إخلاء السودان ، فقد وافق الخديو توفيق عليها مجبراً ، وقبل اســـتقالة محمد شريف باشا رئيس وزراء مصر ، وأصدر أمره بتعيين نوبار باشا الأرمني رئيساً للوزارة الجديدة (٦).

وقـــع اختيار الحكومة البريطانية على غوردون ، لتنفيذ مهمة الإخلاء ، التي اكتنفها الغموض ، واختلفت الأطراف المتعددة المشاركة فيها ، في تفسيرها ، كما أن غوردون نفسه فهم التعليمات الصادرة إليه فهماً مغايراً ، مما جعله يحيد عن مهمته ، ويفكر في سحق المهدي.

---

(٤) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهـــرة ، محفظة ٤٣ ، مجلس الوزراء صورة أمر عالي من الخديو توفيق ، بخصوص تقسيم مديريات السودان ، بتاريخ ٣ ربيع الثاني ١٢٩٩هـــ/٢١ فبراير ١٨٨٢م.

(٥)كرومـــر (الـــلورد) : بريطانيا في السودان ، ترجمة عبد العزيز أحمد عرابي ، الشركة العربية للطباعة ، مصر، القاهرة ، ١٩٦٠م ، ص٢٢.

(٦)النظارات والوزارات المصرية ، مجموعة وثائق ، جمع وترتيب فؤاد كرم ، الجزء الأول ، الهيئة العامة للكتاب ، الطبعة الثانية القاهرة ، مصر ، ١٩٦٤م ، ص١٢٧.

وانـــتهى الأمر بحصار المهدي للخرطوم ، ورفض غوردون كل محاولة للتسليم . مما أدى إلى سقوط الخرطوم في يد محمد المهدي ومقتل غوردون في ١٩ ربيع الثاني ١٣٠٢هـــ/ ٢٦ يناير ١٨٨٥م ، ولم تنجح حملة الإنقاذ في مهمتها ، إذ وصلت متأخرة بعد فوات الأوان ! وبذلك انطوت صفحة هامة من تاريخ السودان .

وثانياً : أهم النتائج التي توصلت إليها :

لم يكن مستغرباً أن يفكر محمد علي باشا والي مصر ، في فتح السودان ١٨٢١م، لقوة الروابط بين البلدين، إلا أننا نلمس أن أهداف محمد علي ، كانت بعيدة عن المفهوم الإسلامي في تحقيـــق الوحـــدة بين مصر والسودان ، على مبادئ العدالة والمساواة . مما أدى إلى فقدان الثقة، وشعور أهل السودان بالغضاضة والظلم .

ورغم أن هذا الفتح ، أتاح للسودان شعوراً بالوحدة الإسلامية الشاملة ، بانضمامه لـــلدولة العثمانية ، كما عمل على استكمال حدوده الحالية ، وبناء وحدته القومية ، وربطه بأســـباب الحضارة الحديثة ، إلا أن البلاد لم تنعم بالاستقرار طيلة العهد التركي ، وخاصة في عهد الخديو توفيق .

ولما اعتلى الخديو توفيق أريكة الخديوية ١٨٧٩م ، تطلع الناس في مصر والسودان ، للإصلاح والتغيير ، لما عرف عنه من إيمان بالمبادئ الحرة ، ورغبة في الإصلاح . ولكن سرعان ما خابت آمالهم ، وتبددت أحلامهم ، إذ نكص الخديو توفيق عن مبادئه ، وتنكر لمثله وقيمه، واستسلم للتدخل الأجنبي ، واتجه نحو الحكم المطلق (٧).

ولقـــد تبين للباحث أن ظروف نشأة الخديو توفيق ، وفقدانه لرعاية الوالد وعطفه ، وإبعـــاده عـــن المشاركة في أمور الحكم ، كان سبباً في ضعف شخصيته واستسلامه للتدخل الأجـــنبي ، حـــتى أصـــبح كالدمية في يد الاحتلال البريطاني في مصر (٨). ولم يفكر في أي مساومة، أو اغتنام أية فرصة للاحتفاظ بماء الوجه ، أو كسب أي موقف وطني . وكان يخشى أن يكون مصيره مصير والده ، إذا هو تصدى للتدخل الأجنبي . فأصبح يحرص على البقاء في

---

(٧)مكـــي شـــبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل مصر والسودان في القرن التاسع عشر ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م ، ص٥٦٢.

(٨) (8)Holt , P.M., The Mahdist State in The Sudan ,1881-1898,second Edition , Oxford,London , 1958 p.149.

العـرش مهمـا كـان الثمن ، ولو كان على حساب البلاد وشعبها، أو على حساب القيم والمبادئ الوطنية !

وفي تقديـري ، أن موقف الدولة العثمانية ، التي أصيبت بالضعف آنذاك ، كان أحد العوامل الهامة التي أضعفت من مركز الخديو توفيق ، وجعلته يخضع للتدخل الأجنبي في مصر.

تشـير الوثائق إلى أن الخديو توفيق ، في بداية حكمه ، اهتم بأمر السودان وترقيته ، وتحقيق الرفاهية لأهله . وذلك في الخطة السياسية ، والإدارية ، والاقتصادية ، والعسكرية ، التي كلف بها الحكمدار محمد رؤوف باشا لحكم السودان عام ١٨٨٠م(٩).

بيـد أن هذا الاهتمام لم يتحول إلى واقع ، إذ لم تظهر النتائج أي جديد ، فقد كانت سياسة الخديو توفيق في السودان امتداداً لسياسة والده الخديو إسماعيل .

إن معظـم المصـادر ، توجز الحديث عن عهد الخديو توفيق في السودان . وذلك في تقديري ، بسبب قصر المدة الزمنية ، وضآلة الإنجازات التي تمت فيها . وبقيام الثورة المهدية ، بدأت المصادر تهتم بأحداث هذه الثورة ، مما يعتبر ضمن تاريخ المهدية .

وتشـير النـتائج إلى أن الثورة المهدية ، كانت من أعظم الثورات القومية في العالم . وكـانت معلماً هاماً في تاريخ السودان (١٠). وهي ثورة دينية في المقام الأول ، هدفها تحرير العقيدة الإسلامية ، وإعادة مجد الإسلام القديم (١١). وإقامة دولة إسلامية تقوم على الكتاب والسنة ، تماماً كما في الصدر الإسلامي الأول (١٢).

ومـن الواضح أن شخصية محمد المهدي ،كان لها الدور الحاسم في قيام هذه الثورة . فقـد تمثل محمد المهدي المبادئ والقيم التي درسها ، وتأثر بها ، واستطاع بذكائه ، وعبقريته الحربية أن يحقق لها النصر المبين على أعدائه .

---

(٩) الأمـر العـالي بـتعيين محمد رؤوف باشا حكمداراً على السودان ، بتاريخ ١٥ ربيع الثاني ١٢٩٧هـ/٢٧ مارس ١٨٨٠م.

(١٠)بشـير كوكـو حميدة (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ، دار الإرشاد ، الخرطوم ، مطابع معتوق إخوان ، لبنان ، بيروت ، ١٩٦٩م ، ص١٢٦.

(١١)حسـن أحمـد إبراهـيم (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، شركة الطابع السوداني، الطبعة السابعة ، الخرطوم ، ١٩٨٨م ، ص٥٨.

(١٢)الصادق المهدي : يسألونك عن المهدية ، بيروت ، ١٩٧٥م ، ص١٦٩.

وبدراســة أســباب الــثورة المهدية تبين لنا أن أهم الدوافع التي دفعت محمد المهدي للثورة، كانت دينية ، ولكنه استفاد من المشكلات السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، في إظهــار مساوئ الحكم التركي المصري ، وتأليب الناس ضد الحكومة . مما دفع الكثيرين للانضمام للثورة . ممن كانوا ناقمين على كثرة الضرائب ، وإلغاء تجارة الرقيق ، والعنف الذي مارسه الحكام الأوربيون ، فقد كان المهدي يشير إلى الضرائب ويسميها "بالجزية" (١٣).

وتشــير النتائج إلى أن محمد المهدي ، بنى استراتيجيته في مواجهة الحكومة المصرية في السودان ، على فكرة بطلان الخلافة التركية (١٤). وأنه هو ولي الأمر الذي تجب طاعته على جميــع الأمــة المحمدية (١٥). وهذا المفهوم جديد في الثورة على الحكم التركي المصري في السودان .

وبدراسة أوضاع الجيش المصري في السودان ، في عهد الخديو توفيق ، تبين للباحث ، أن هــذا الجيش كان يعاني من سوء التدريب ، وضعف القيادة ، ونقص العدة ، والمهمات ، ولهذا فإن معظم هزائم الحكومة المصرية على يد محمد المهدي ، ترجع أسبابه إلى ما أشرنا إليه، مــن ضعف القوة العسكرية ، وسوء التخطيط ، والأخطاء الحربية (١٦). يقابلها في جانب المهدي، عبقرية في القيادة ، ودقة في التنظيم ، وقوة في الأداء الحربي (١٧).

وتشير الوثائق إلى دور التدخل البريطاني ، في إضعاف موقف مصر في التصدي للثورة المهديــة . فقــد كان الاحتلال البريطاني في ١٣ سبتمبر ١٨٨٢م ، بداية لمرحلة جديدة من الــتطورات الخطــيرة في مصــر والسودان . فلم يعد الخديو توفيق يملك قراره ، وأصبحت الســلطة الحقيقة في يد الإنجليز ، الذين اتبعوا سياسة إستعمارية ماكرة ، ظاهرها عدم التدخل في شئون السودان ، وباطنها التأثير في القرارات من وراء الستار !

---

(١٣) مهدية، ٥٦/٢٠/٣/٨ ، إنذارات، ٢٤ شوال ١٢٩٩هـ/٨ سبتمبر ١٨٨٢م.من المهدي إلى أحبابه في الله

(١٤)إبراهــيم شــحاته (الدكتور) : مصر والسودان ، مؤسسة دار الثقافة الجامعية . القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٤٨.

(١٥)الكــردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، تحقيق دكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص١١٨.

(١٦) المخابرات المصرية ، ١١٩/١١ ، مذكرة بتاريخ ١٣ جمادى الآخرة ١٣٠١هـ/١٥ إبريل ١٨٨٣م ، دار الوثائق القومية بالخرطوم .

(١٧)زلفو (عصمت حسن) : شيكان ، دراسة عسكرية ، أبو ظبي عام ١٩٧٦م ، ص٢٤٨.

ولقـــد تبين للباحث ، أن بريطانيا ، بدأت تخطط في هذه المرحلة ، لسياسة استعمارية بعيـــدة المدى في السودان . فبدأت ترسل البعثات لجمع المعلومات ، وكتابة التقارير . ومن ذلك بعثة ستيوارت في ديسمبر ١٨٨٢م ، لكتابة تقرير عن السودان في كافة المجالات(١٨).

وتشـــير النـــتائج إلى دور السياســـة البريطانية في حملة هكس . فقد تم تسريح جيش عـــرابي، فأصبحت مصر بلا جيش وطني ، ولم تسمح بريطانيا لمصر باستخدام الجيش الجديد الذي تم إعداده بقيادات بريطانية ، كما رفضت استخدام جنود أتراك أو هنود في السودان . وحملت مصر على استخدام جنود عرابي المسرحين ، ودفعت مصر لاستخدام ضباط بريطانيين لقيـــادة الحمـــلة في مواجهة ثورة دينية ، وسمحت بمسير هذه الحملة إلى كردفان رغم أن كل الـــتقارير تشير إلى خطورة التوغل في غرب السودان . ولهذا فقد كانت حملة هكس ، تحمل عناصر فشلها منذ البداية وحتى النهاية (١٩).

وقـــد تبين لنا من دراسة نتائج موقعة شيكان ٥ نوفمبر ١٨٨٣م ، أنها كانت موقعة فاصلة ، رجحت بميزان القوى نهائياً لمصلحة محمد المهدي ، فقد أدت إلى انهيار أركان الإدارة المصـــرية في معظـــم أنحاء السودان ، وأصابت الحكومة المصرية بالقلق والاضطراب ، فبدأت تفكر في سحب بعض الحاميات إلى الخرطوم وبربر ، كما أن المهدي بث دعاته في معظم أنحاء السودان ، وبدأ يفكر في حصار الخرطوم نفسها (٢٠).

وبدأت السياسة البريطانية تتبلور ، بعد موقعة شيكان ، وفق الخطة المرسومة ، لتحقيق أهدافها . فتحولت بريطانيا من سياسة عدم التدخل إلى سياسة التدخل المباشر . واتجهت إلى فرض سياسة إخلاء السودان على مصر .

وتـــبين للباحث أن سياسة إخلاء السودان كانت فصلاً جديداً من فصول المؤامرة ، وحلقة من حلقات التدخل البريطاني ، تهدف إلى القضاء على نفوذ مصر في السودان (٢١).

---

(١٨) دار الوثـــائق القوميـــة ، القاهرة ، محافظ أبحاث السودان ، محفظة رقم ١/١/٢٠٠ ، بتاريخ صفر ١٣٠٠ هـ/ ١٥ ديسمبر ١٨٨٢م.

(١٩) (19) Theobald ,A . B . , The Mahadiya , Long mans Green and co , London , Newyork , Tornato , 1949.p34.

(٢٠) مهديـــة ، متـــنوعات ١/٦٢/١١٧ ، ١٠٩٦ ، ٦١ ، مجذوب ، من المهدي إلى أهالي الخرطوم بتاريخ ١٠ محرم ١٣٠١هـــ/١١ نوفمبر ١٨٨٣م.

(٢١) فـــوزي (إبراهـــيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٣٧٩هـــ . ص ٢٣٥.

وكـــان فرض هذه السياسة على مصر ، في ما يسمى بالنصيحة الإجبارية ، واختيار غـــوردون لتـــنفيذها ، وإصدار التعليمات له من الساسة البريطانيين ، قبل تكليفه رسمياً من الخديـــو توفيق ، دليلاً ماثلاً على ارتباط هذه المهمة بأطماع وأهداف بريطانيا الاستعمارية في السودان .

وتبين النتائج أن شخصية غوردون لم تكن تصلح للقيام بمهمة الإخلاء ، فهو مسيحي مـــتطرف ، ولـــــه صلات بجماعات التبشير المسيحي ، وقد منح حق التعميد (٢٢). وكان متســـرعاً ، متقلب الآراء والأفكار ، فضلاً عن ضعف كفاياته الشخصية (٢٣). كما تشير النـــتائج ، إلى جهلـــه بالمشـــكلات التي ستواجهه في السودان ، وسوء تقديره للثورة المهدية وخطورتها .

وتظهـــر النتائج أن مهمة غوردون ، فشلت في تحقيق أهدافها . وذلك للغموض الذي اكتـــنفها ، وتـــباين وتعدد ، أوامر وتوجيهات المسؤولين البريطانيين عنها ، وكذلك اختلاف أوامر الخديو توفيق بشأنها . فضلاً عن الفهم المغاير الذي فهمه غوردون عن مهمته ، مما جعله يحيـــد عـــن جوهر هذه المهمة ، ويفكر في سحق المهدي وإرغامه (٢٤)، ويرفض كل بادرة للتسليم .

وتشير النتائج إلى أن حكومة المستر غلادستون ، تتحمل جانباً كبيراً من الفشل ، فهي تنطلق من أهداف استعمارية ، وتنفذ خطة محكمة للتدخل في السودان (٢٥). كما أن الخديو توفيق وحكومته يتحملون جانباً كبيراً من الفشل لدورهم السلبي ، واستسلامهم ، فلم يكن لهم أي موقف ، عندما بدأ غوردون يحيد عن مهمته !

وبالـــنظر للوجه الآخر من المسألة ، تبين لنا أن محمد المهدي بما كان له من مقدرة حربية، وخطط عسكرية ناجحة ، وجيش كبير من أنصاره ، كان له أكبر الأثر في فشل مهمة غوردون .

---

(٢٢) (22) C.M.S. , Inteligencer , VoL XLX , June 1900 , p.147.

نقلاً عن الدكتور إبراهيم عكاشة ، التبشير النصراني في جنوب سودان وادي النيل ، دار العلوم للطباعة والنشر الرياض ، ١٨٨٢م ، ص٥٢.

(٢٣)كرومر (اللورد) : بريطانيا في السودان ، المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(٢٤)مورهيـــد (آلان) : النيل الأبيض ، ترجمة محمد بدر الدين خليل ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، ص٢١٦.

(٢٥) فوزي (إبراهيم) : السودان بين يدي غوردون وكتشنر ، المرجع السابق ، ص٢٩٥.

وثالثاً : التوصيات والمقترحات للباحثين :

أما وقد اكتمل هذا الجهد المتواضع ، من الدراسة في عهد الخديو توفيق في السودان ، فإني أحمد الله على توفيقه لي ، بتناول معظم أطراف هذا الموضوع بالبحث والاستقصاء . ومع ذلــك ، لا أراني إلا وقــد ظفرت بالقليل مما كنت أطمح إليه وأرجوه ، فبحر العلم واسع ، وفيضه غزير . وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً . وحسبي من التوفيق ، أني بذلت جهدي لإلقاء بعض الضوء ، على هذه الفترة الهامة ، من تاريخنا الحديث .

وهــذه بعض التوصيات والمقترحات للباحثين والمهتمين بتاريخنا في هذه الفترة لتكون عوناً لهم ، ونبراساً . وهذه التوصيات هي :

١- رغــم وجــود كثير من الدراسات التاريخية عن الثورة المهدية في السودان ، فإننا مازلــنا بحاجــة ماسة ، لبعض البحوث العلمية المتخصصة ، في الكشف عن دور الــثورة المهديــة ، في بــناء الأمة وتوحيدها ، وتوبيتها على أساس المثل والقيم والمبادئ الإسلامية . وحفزها للتضحية والجهاد .

٢- نحــن بحاجــة إلى مــزيد من البحوث ، للكشف عن أهداف وأساليب التدخل البريطاني في السودان ، في عهد الخديو توفيق ، وإبراز جهود الشعب السوداني ، والثورة المهدية ، في التصدي لها .

٣- قد يكون من المفيد ، إجراء دراسة علمية ، عن الجانب الجهادي للثورة المهدية ، وعــن الأساليب والتنظيمات العسكرية ، فيها ودورها في بناء الأمة ، في مواجهة أعدائها .

٤- التبشير المسيحي والاستعمار وجهان لعملة واحدة . ولهذا فنحن بحاجة للمزيد من الكشف عن دور التبشير المسيحي ، في عهد الخديو توفيق ، أهدافه ، وأساليبه ، ونتائجه وعلاقته بالاستعمار.

٥- نحـــن بحاجـــة إلى دراســـة علمية عن مهمة غوردون في السودان ،تبين غموضها وتكشف عن أسرارها وخباياها ، وتبين أسباب اختيار غوردون لتنفيذها . وتبرز دور الاستعمار البريطاني وحركة التبشير المسيحي فيها .

٦- من الضرورة بمكان ، وجود بعض الدراسات المتخصصة ، في طبيعة العلاقات بين مصر والسودان ، في عهد الخديو توفيق ، والكشف عن عوامل الخلل والإخفاق ، الـــذي أدى إلى انفصام الرباط الوحدوي بينهما في هذه الفترة ، وتحديد الأسس والروابط المتينة ، التي ينبغي أن تقوم عليها أية وحدة لشعبي مصر والسودان ، في الحاضـــر والمستقبل ، بما يلبي متطلبات علاقة الجوار والتاريخ المشترك ، والدين الإسلامي ، والحضارة الإسلامية .

٧- إن ثمـــة مجموعـــة من البحوث والرسائل العلمية ، عن العهد التركي المصري في السودان ، وبخاصة عن الثورة المهدية . ومعظم هذه الدراسات حبيس الخزانات . كمخطوطـــات . فـــنحن بحاجة إلى طبع هذه الدراسات ، لأنها تمثل كنوزاً للعلم والمعـــرفة في تاريخنا الحديث . فمن التقصير أن تظل قابعة في "سلة" المخطوطات . ويمكـــن أن يكـــون لـــوزارة التعلـــيم العالي ، ودار الوثائق القومية ، فضلاً عن الجامعات، دور رائد في طباعتها ، والتعريف بها .

٨- إن دار الوثـــائق القوميـــة بالخرطوم ، وهي تقدم جهداً مقدراً ، مطالبة بالارتقاء بدورهـــا . في إعادة تصنيف الوثائق ، وترتيبها في موضوعات لمساعدة الباحثين . ولعلـــه من المفيد إقامة علاقات تعاون ، بينها وبين دور الوثائق القومية في القاهرة ولندن ، لتمكين الباحثين من الاطلاع على الوثائق الهامة .

وإني لأرجـــو من الله سبحانه ، أن يكلل جهودنا بالتوفيق والسداد ، وأن يتقبل أعمالنا ، ويـــنفع بهـــا ، ويجعلها خالصة لوجهه الكريم ، وأن يضاعف لنا بها الأجر والثواب . إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

قائمة

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأولية بدار الوثائق القومية بالخرطوم :

(أ) الوثائق الأصلية غير المنشورة ، والموجودة بدار الوثائق القومية بالخرطوم:

١- منشورات المهدي الجزء الأول — مهدية ١٥/٨/١٠٧-٣

٢-منشورات المهدي الجزء الثاني (الإنذارات) — مهدية٨/١٥ ، ٢ ، ٣ /١٠٧ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩

٣- منشورات المهدي الجزء الثالث (الأحكام والآداب) — مهدية ٨/١٥ ، ١٥/٣

٤-منشورات المهدي الجزء الرابع — مهدية ٨/١٥ ، ١٠٩/٣ ، ٢١

٥-مجموعة رسائل المهدي إلى الخليفة عبد الله — مهدية ٨/٥/٣٧

٦- مجموعة وثائق عن المعاملات الإدارية والاجتماعية — مهدية ٨/٦/٤٧

٧-مقطعات وبقايا وثائق (٢٩ وثيقة) — مهدية ٨/١/٢

٨-دفاتر الصادر (عددها سبعة عشر سجلاً) — مهدية دفاتر صادر الرقم ١-١٧

٩-وثائق حمدان أبي عنجه — مهدية ٨/١/٤أ

١٠-وثائق محمد خالد زقل — مهدية ٨/١/٤ب

١١-وثائق أحمد سليمان — مهدية ٨/١/٤ج

١٢-وثائق علي المهدي — مهدية ٨/١٠/٧٠

١٣-دفتر وثائق الأمير عبد الرحمن النجومي — مهدية ٨/٥/٣٦

١٤-وثائق وجدت داخل مصنف الصادق المهدي — مهدية ٨/٤/٢٥

١٥-دفتر عثمان دقنة — مهدية ٨/٧/٦٠

١٦-وثائق أحمد العجب بأم درمان (٤ أجزاء) — مهدية ٩/٢/٤
تنازل عنها لدار الوثائق القومية بالخرطوم .

١٧-دفتر الأحكام والحدود — مهدية ٨/٥/٢٨

١٨-مجموعة السيد محمد المهدي بن الخليفة عبد الله — مهدية ٩/١/٥

١٩-مجموعة السيد الصادق المهدي (ثلاثة أجزاء) — مهدية ٩/٤/٢٥-٢٨

(ب)المخطوطات الأصلية غير المنشورة والموجودة بدار الوثائق القومية بالخرطوم:

١-الآيات البينات في ظهور مهدي الزمان وغاية الغايات (مخطوط) للحسين إبراهيم الزهرة ، محفوظ بدار الوثائق القومية بالخرطوم تحت الرقم مهدية /٢٤/٣/٨.

٢-مخطوط (غوردون والسودان) ليوسف ميخائيل ، بدار الوثائق القومية تحت الرقم / مهدية ٦/٢/١.

٣-الفيوضـــات الوهبية ، تصنيف عوض الكريم المسلمي (أربعة أجزاء) مصور من المخطوط الأصلي المودع بجامعة باريس ، دار الوثائق القومية بالخرطوم .

(جـ)المصنفات :(١)

وهـــي مجموعة من الوثائق . الأصل فيها منشورات المهدي ، وقد يضاف إليها ما صدر من غيره . وتبقى المادة الرئيسية هي أدبيات المهدي .

القسم الأول من المصنفات :

المصنفات المطبوعة بمطبعة الحجر بأم درمان وهذه تعاون في طباعتها بالحجر مجموعة من الكتاب ، الذيـــن يعملون في ديوان الخليفة عبد الله . وقد اعتمدوا على أصول رسائل المهدي ، وعلى مجموعات أخرى من المنشورات جمعت بعد وفاة المهدي .

وهذه المصنفات المطبوعة بالحجر تتكون من أربعة أجزاء هي :

الجزء الأول :من المنشورات (٢٩٢ صفحة) يحمل الرقم مهدية ١٦/٣/٨

(انتهت طباعته عام ١٣٠٤هـــ)

الجزء الثاني :من المنشورات المطبوعة ويسمى ،(الإنذارات) طبع عام ١٣٠٤ ـــ

- إنذارات (أ) يحمل الرقم مهدية ١٧/٣/٨
- إنذارات (ب) يحمل الرقم مهدية ٢٠/٣/٨

الجزء الثالث من المنشورات المطبوعة

كتاب الأحكام والآداب – يرجح طبعه عام ١٣٠٤هـــ برقم مهدية ١٥/٣/٨

الجزء الرابع :مصنف المناشير الخاصة بالخليفة عبد الله – وبعضها من الخلفاء إلى المهدي.الأصل بطرف محمد السيد بن الخليفة عبد الله وتوجد صورة منه بدار الوثائق القومية بالخرطوم . تحت الرقم مهدية ٣٥/٥/٩ ، ٣٩

---

(١) اقتصـــرت هنا على المصنفات التي يوجد أصلها أو صورة منها بدار الوثائق القومية بالخرطوم . وللمزيد يمكن الرجوع إلى المرشد إلى وثائق المهدي للدكتور محمد إبراهيم أبو سليم . (نسخة منه بدار الوثائق القومية بالخرطوم) .

القسم الثاني من المصنفات : المصنفات الخطية:

١-مصـــنف آثار . الأصل بمتحف بيت الخليفة عبد الله وتوجد صورة منه بدار الوثائق القومية بالخرطوم. برقم مهدية ١١٠/١٦/٨

٢-مصـــنف بـــاريس . يوجد في دار الوثائق الفرنسية تحت الرقم ٥٠٩٦ /عـــرب و بـــدار الوثـــائق القوميـــة بالخرطوم . صورة منه (يسمة بالفيوضات الذهبية) برقم مهدية ٨ .

٣-مصـــنف جامعة بيل . الأصل بجامعة بيل بالولايات المتحدة الأمريكية ، ويوجـــد تحت الرقم ٥٤٣ وتوجد نسخة مصورة بدار الوثائق القومية بالخرطوم . برقم مهدية ٥/١/٨

٤-مصـــنف حيـــدر أباد . يتكون من ٣٦ صفحة وهو مصور من الأصل الموجـــود بحيـــدر أباد بالهند وتوجد منه نسخة مصورة ب دار الوثائق القومية بالخرطوم . برقم مهدية ٥٠/٧/٨

٥-مصنف الحدود والأحكام ورمزه حدود ، مهدية ٣٨/٥/٨

٦-مصنف بثلاث رسائل بدار الوثائق القومية بالخرطوم . تحت الرقم مهدية ٥٣/٧/٨.

٧-مصنف برسالة المهدي إلى الإمبراطور يوحنا (٤ صفحات) مهدية ٤٦/٦/٨ .

٨-مصنف ٤ ب بدار الوثائق القومية بالخرطوم برقم مهدية ٣٧/٥/٨

٩-مصنف السيد الصادق المهدي . الأصل لدى صاحبه وتوجد صورة ب دار الوثائق القومية بالخرطوم برقم مهدية ٢٥/٤/٩

١٠-مصـــنف العمدة آدم حامد ، الأصل لدى عمدة الجزيرة أبا وتوجد صورة بدار الوثائق القومية بالخرطوم برقم مهدية ١٥/٢/٨

١١-دفتر عثمان دقنة . توجد بدار الوثائق القومية بالخرطوم تحت رقم مهدية ٦١/٧/٨

١٢-مصنف العاقب ، دار الوثائق القومية بالخرطوم برقم مهدية ١٣/٢/٩

١٣-مصـــنف جامعة كمبردج : الأصل بمكتبة جامعة كمبردج ، وتوجد صورة بالمايكروفلم بدار الوثائق القومية بالخرطوم . ...

١٤-مصنف الأمير عبد الحميد (٨ صفحات) نسبة للأمير عبد الحميد بن السلطان إبراهيم – دار الوثائق القومية بالخرطوم برقم مهدية ١٤/٦/٨

١٥–مصـــنف المجذوب ، ويرمز له مجذوب . وقد عثرت عليه المخابرات المصرية في شرق السودان . ويوجد الأصل بجامعة درهام تحت رقم ٣٥ وتوجد نسخة مصورة بدار الوثائق بالخرطوم تحت الرقم — متنوعات /١/٦٣/ ١١١٧ ، ١٠٩٦

١٦–مصـــنف مآل . عثرت عليه المخابرات المصرية في منزل المجذوب أبي بكر بشرق السودان ، دار الوثائق القومية بالخرطوم برقم — مهدية ٣٨/٥/٨

١٧–مصنف النجومي ، بدار الوثائق القومية بالخرطوم برقم — مهدية رقم ٤/٨

١٨–مصنف محمد المهدي ، توجد نسخة مصورة منه بدار الوثائق القومية بالخرطوم برقم — مهدية ١٦/٩/٨

(د) قائمة المتنوعات ، بدار الوثائق القومية بالخرطوم . رقم ٦٥ متنوعات ١:

١–مجموعة أوراق السيد علي المهدي — ١٦٨٤/١٢١

٢–العـــدد الأول من جريدة الأهرام القاهرية بتاريخ ٥ أغسطس ١٧٧٦ الموافق ١٥ رجب ١٢٩٢هـ (٤ صفحات) — ١٦٩٢/١٢١

٣–رحـــلة محمد علي باشا إلى السودان – تقرير من الأصل الموجود بمركز التاريخ المعاصر بدار الوثائق القومية بالقاهرة . — ١٧٢٠/١٢١

٤–مجموعة وثائق عبارة عن مناشير للإمام المهدي للأحباب (مجموعة غير كاملة) — ١٧٨٩/١٢١

٥–خطـــاب من المهدي إلى السنوسي (وجد بداخل كتاب الجامع لأذكار القرآن ، بمكتبة آل المهدي) (ناقص غير كامل) — ٢٢٥٥/١٧٤

٦–موجز تاريخ السودان : تأليف أ.ج. أركل ، ترجمة ثابت حسن ثابت — ٢٢٩٨/١٧٤

٧–مخطوط مولد الإمام المهدي المنتظر أحضره يحيى محمد إبراهيم . — ٢٦٠٣/١٩٥

٨–منشـــور من إلياس باشا أم برير إلى غوردون باشا يدعوه إلى المهدية . وألا يغتر بأقوال العلماء . — ٢٦١٤/١٩٧

٩–منشـــور مـــن المهدي إلى عامله بجهة عطبرة محمد الفقي أحمد يدعوهم لحصار الخرطوم . — ٢٦١٥/١٩٧

١٠–من محمد المهدي إلى أحبابه في الله ، وأتباعه على سنة رسول الله — ٢٩٢١/٢٢٩

١١–وثيقة فرمان تنصيب جعفر مظهر باشا حكمداراً على السودان ٢١ شعبان ١٢٨٢هـ. ٢٦٢/٢٣

١٢–خطاب من المهدي إلى غوردون (مجموعة الشيخ محمد الأمين الدامر) ٢٦٥/٢٣

١٣–رسالة الأنوار لمحي الدين بن عربي (أصلية) . ٢٧٩/٢٤

١٤–منشور من الإمام المهدي إلى كافة الأحباب في الله يدعوهم للجهاد . ١١٠٨/٦٢

١٥–منشور من الإمام المهدي يدعوهم إلى ترك تسمية الأنصار بالدراويش لأن هذه التسمية سموا بها لتسفيههم . ١١٠٩/٦٢

١٦–رد الإمام المهدي على الشلالي ومن معه من الجموع بقدير. ١١١١/٦٢

١٧–مجموعة خطابات مصورة من المهدي إلى أتباعه . ١٢٣٧/٨١

١٨–مجموعة وثائق التركية (وثائق دار الوثائق القومية بالقاهرة) ، تتكون مـن ٢٦ كراسة سجلها الدكتور فايز . وأهداها لدار الوثائق القومية بالخرطوم وتحمل الأرقام من (١٤١٧–١٤٤٣). ١٤١٧/٨٩ ١٤٤٣/٩٠

١٩–خطاب من المهدي إلى السنوسي ٢٢٥٥/١٧٤

٢٠–رسالة من الإمام المهدي إلى كافة الأحباب . إهداء محمد صالح عمر. ٢٩٩٨/٢٢٩

٢١–رسالة من المهدي إلى الشلالي . ٢٩٣٧/٢٢٩

٢٢–رسالة من المهدي إلى كافة عباد الله المؤمنين . ١٩٣٨/٢٢٩

٢٣–رسالة من المهدي إلى أصحابه وأحبابه . ١٩٣٩/٢٢٩

٢٤–رسالة من المهدي إلى العبيد بدر . ٢٩٣٦/٢٢٩

٢٥–رسالة من المهدي إلى أحبابه . ٢٩٤٤/٢٢٩

٢٦–منشور الخديو بتاريخ ١٣٠٢هـ (خطاب المهدي إلى غوردون باشا) ٣٤٤٠/٢٦٠

وثانياً: الوثائق المصرية غير المنشورة بدار الوثائق القومية بالقاهرة:

(أ) المكاتبات الصادرة :

أولاً : المكاتبات الصادرة في عهد محمد علي وحتى نهاية عهد الخديو إسماعيل (١٨٢١–١٨٧٩م)(٢):

وهذه المكاتبات تشمل :

١–المكاتبات الصادرة من المعية السنية إلى حكمدار السودان.

٢–الأوامر الكريمة الصادرة من الجناب العالي إلى حكمدار السودان .

---

(٢) أثبت هنا المكاتبات التي استفدت منها في بحثي . وتوجد تفاصيلها في حواشي البحث .

٣-الإرادات والأوامر الصادرة من المعية السنية إلى مديري المديريات والمحافظين وأصحاب الاختصاص .

٤-المكاتبات الصادرة من القاهرة إلى وكيل حكمدارية السودان .

وهذه المكاتبات توجد في الدفاتر الآتية

٦ ، ٨ ، ١٠ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٤٩ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٢١ ، ٧٥ ، ٨١ ، ١١١ ، ٢٤٤ ، ٢٧٨ ، ٢٦٥ ، ٢٨٧ ، ١٠٦ ، ٣٦٢ ، ١٩٧ ، ٥٢٦ ، ٥٥٥ ، ٥٥٨ ، ٥٣٧ ، ١٤٦ ، ٧٦٣ ، ٨٥٦ ، ٧٢١ ، ٢٦٨ ، ٧٦١ ، ٧٦٦ ، ١٨٣٩ ، ١٨٨٢ ، ١٨١٦ ، ١٨٨٦ ، ١٨٧١ ، ١٨٤٢ ، ٢١٣٣ ، محفظة ١١١ ، محفظة ٤٣ ، محفظة ٣ ، محفظة ٩ .

وثانياً: المكاتبات الصادرة في عهد الخديو توفيق (١٨٧٩-١٨٨٥م):

١- مرسوم خديو بتعيين محمد شريف باشا رئيساً لمجلس النظار ٢٨ أغسطس ١٨٨٢م/١٢٩٩هـ.

٢-محفظة ٧ : مجلس الوزراء بتاريخ ١٢٩٧هـ/٢٩ إبريل ١٨٨٠م

٣-أوامر عالية : أمر عالي بتعيين محمد رؤوف باشا حكمداراً على السودان . بتاريخ ١٥ ربيع الثاني ١٢٩٧هـ/٢٧ مارس ١٨٨٠م .

٤-رقم ١٥ ، دفتر قيد الأوامر الكريمة ، أمر كريم إلى محمد فادي باشا بتاريخ ١٠ صفر ١٢٩٧ هـ/ ١٢يناير ١٨٨٠م.

٥-محفظة ١١١ ، سواحل البحر الأحمر ، أمر إلى مدير المديرية ، بتاريخ ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م .

٦-محفظة ٤٣ ، صورة أمر عالي إلى عبد القادر باشا حلمي . بتاريخ ٣ ربيع الثاني ١٢٩٩هـ/٢١ فبراير ١٨٨٢م.

٧-ملف ٢/٦ ، محافظ الثورة العرابية ، بتاريخ ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م.

٨-محفظة ١٠٢ ، وثيقة ١ من الخديو توفيق إلى هكس باشا بتاريخ ١٣ شوال ١٣٠٠هـ/٢٣ أغسطس ١٨٨٣م . (تعيين هكس رئيساً لتجريدة السودان).

٩-محفظة ٤٣ ، صورة أمر عالي بتقسيم أقاليم السودان بتاريخ ٣ ربيع الثاني ١٢٩٩هـ/٢٣ فبراير ١٨٨٢م .

١٠-المخابرات المصرية ١٨٨٢/١١٩/١١ مكاتبة من القاهرة لسعادة وكيل حكمدارية السودان بتاريخ ٢٥ ذي القعدة ١٣٠٠هـ/١٠ سبتمبر ١٨٨٣م.

١١-مذكرة : مذكرة من مجلس الوزراء بإخلاء إقليم هرر بتاريخ ١٣٠١هـ/١٨٨٤م .

١٢-محفظة ١٠٣ ملف ٣ وثيقة ٥ أمر من سمو الخديو إلى الكولونيل كتشنر بتعيينه مندوباً لحفظ الأمن بجهات وادي حلفا . بتاريخ ٥ شوال ١٣٠١هـ/٢٨ مارس ١٨٨٤م .

١٣-مرسوم خديو ، بتعيين نوبار باشا رئيساً لمجلس النظار بتاريخ ١٢ ربيع الأول ١٣٠١هـ/١٠ يناير ١٨٨٤م.

١٤-مرســوم خديو ، بأن تتبع إدارة السودان وزارة الحربية بدلاً عن رئاسة الوزراء ، بتاريخ ١٥ يناير ١٨٨٤م .

(ب)**البرقيات الصادرة :**

أولاً : البرقيات الصادرة في عهد محمد علي وحتى نهاية عهد الخديو إسماعيل (١٨٢١-١٨٧٩م):

وهي تشمل :

١- البرقيات الصادرة من المعية السنية إلى حكمدار السودان .

٢-التلغرافات الصادرة من الحكومة المصرية إلى حكمدار السودان .

٣-التلغرافات الصادرة إلى مديري المديريات والمحافظين وغيرهم من أصحاب الاختصاص .

وهذه البرقيات توجد في الدفاتر الآتية : ٤ ، ٦ ، ٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ١٦

وثانيا : البرقيات الصادرة في عهد الخديو توفيق (١٨٧٩- ١٨٨٥م):

١- محفظة رقم ٢/١/١ ، محافظ أبحاث السودان ، برقية من الخديو توفيق إلى ياوره أحمد حمدي باشا بالخرطوم. ١٨٨٣م.

٢- المخابــرات المصــرية ١٨٨٢/١١٩/١١ برقية إلى سعادة وكيل حكمدارية عموم السودان بتاريخ ٢٥ ذي القعدة ١٣٠٠هـ/١٠ سبتمبر ١٨٨٣م .

٤-المخابــرات المصــرية ١٨٨٢/١١٩/١١ برقية من رئاسة مجلس النظار لسعادة حكمدار عموم السودان. بتاريخ ٢٤ رجب ١٣٠٠هـ/٣١ مايو ١٨٨٣م .

٥-المخابرات المصرية ١٨٨٢/١١٩/١١ تلغراف ، أمر بتعيين سعادة علي رضا باشا مديراً لجرجا حكمـــداراً لعموم هرر وملحقاتها . إمضاء الخديو توفيق . بتاريخ ٢ رمضان ١٣٠٠هـ/٧ يونيو ١٨٨٢م .

٦-المخابــرات المصــرية ١٨٨٢/١١٩/١١ صورة تلغراف محرر من رئاسة مجلس النظار لسعادة حكمدار عموم السودان بتاريخ ٣١ مايو ١٨٨٣م.

٧-المخابرات المصرية ١٨٨٢/١١٩/١١ من رئاسة مجلس النظار إلى وكيل حكمدارية السودان ، بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٨٨٣م.

٨- المخابــرات المصــرية ١٨٨٢/١١٩/١١ صورة تلغراف لحكمدار عموم السودان بشأن حملة هكس باشا . بتاريخ ٢٦ جمادي الثاني ١٣٠٠هــ/٢ مايو ١٨٨٣م.

٩-المخابــرات المصــرية ١٨٨٢/١١٩/١١ برقية من نوبار باشا إلى مدير عموم بربر ودنقلا نمرة ٣١٩ ، بشأن مهمة غوردون بتاريخ ٨ فبراير ١٨٨٤م .

١٠-المخابــرات المصرية ٢٦/٤/١ تلغراف نمرة ٣٣٦ بتاريخ ٩ فبراير ١٨٨٤م من التاجر أحمد وداعة إلى سالم العجوب بالخرطوم .

(جـ)المكاتبات الواردة:

أولاً :المكاتبات الواردة في عهد محمد علي وحتى نهاية عهد الخديو إسماعيل(١٨٢١-١٨٧٩م):

وتشمل ما يأتي :

١-المكاتبات الواردة من حكمدار السودان إلى المعية السنية .

٢-المكاتبات الواردة من حكمدار السودان ، والمديرين والمحافظين إلى مهردار جناب الخديو .

٣-المكاتبات الواردة من مديري المديريات والمحافظين إلى المعية السنية . وديوان الجهادية .

٤-المكاتبات الواردة من جهات الاختصاص المختلفة إلى مهردار الخديو وغيره .

وهذه المكاتبات الواردة توجد في الدفاتر الآتية :

دفتر ١٠ ، ٦ ، ٢٢ ، ٤٩ ، ١٣٠ ، ١٨٧٦ ، ١٨٤٢ ، ١٨٤٩ ، محفظة ١٩ (بحر برا)

وثانياً:المكاتبات الواردة في عهد الخديو توفيق (١٨٧٩-١٨٨٥م):

١-محفظــة ١٠٢ مــلف ٢/١ وثيقة ٣ من نظارة الأقاليم السودانية إلى المعية السنية بتاريخ صفر ١٣٠٠هــ/ ديسمبر ١٨٨٢م .

٢-محفظة ٧/١/١ من أحمد حمدي إلى الخديو توفيق بتاريخ مارس ١٨٨٣م.

٣-محفظة ١/١/-٨ محافظ أبحاث السودان ، من أحمد حمدي باشا ، إلى الخديو توفيق بتاريخ فبراير عام ١٨٨٣م.

٤-محفظــة ١/١/-٩ محافظ أبحاث السودان ، من أحمد حمدي للخديو توفيق . بتاريخ ٢٦ فبراير ، عام ١٨٨٣م.

٥-محفظة ١٠٢ من ناظر الحربية إلى مهردار خديو بتاريخ جمادى الثاني /١٤ إبريل ١٨٨٣م.

٦-محفظــة ١٠٢ ملف ٢/١ ، وثيقة ٧ كشف عن الموجود بالخرطوم من ضباط وعساكر بتاريخ ٢١ ربيع الثاني ١٣٠١هــ/١٨ فبراير ١٨٨٤م.

٧-٤/٣/٣ من مدير دنقلا إلى مهردار خديو بتاريخ ٣١ ديسمبر ١٨٨٤م.

(د)البرقيات الواردة:

أولاً: البرقيات الواردة في عهد محمد علي وحتى نهاية عهد الخديو إسماعيل (١٨٢١-١٨٧٩م):

وهذه البرقيات تشمل :

١-البرقيات الواردة من حكمدار السودان إلى المعية السنية.

٢-البرقيات الواردة من حكمدار السودان إلى مهردار خديو ورئاسة مجلس النظار .

٣-البرقيات الواردة من المديرين والمحافظين وأصحاب الاختصاص إلى المعية السنية ومهردار خديو وغيرهم.

وهذه البرقيات توجد في الدفاتر الآتية :

دفتر ٣ ، ١٤ ، ٥٠ ، ٢٠ ، ١١ ، ٤٧ ، ٢٨ ، ١٠ ، ٢١ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٣١ .

وثانياً : البرقيات الواردة في عهد الخديو توفيق (١٨٧٩-١٨٨٥م):

١-وارد تلغراف ، برقية من الحكمدار محمد رؤوف إلى الخديو توفيق بشأن أحداث الجزيرة أبا . دفتر قيد التلغرافات بتاريخ ١٩رمضان ١٢٩٨هـ/١٥ أغسطس ١٨٨١م.

٢-وارد تلغرافات ، برقية من حكمدار الخرطوم بشأن تراجع محمد سعيد عن ملاحقة المهدي بالجبال . بتاريخ ٨ أكتوبر ١٨٨١م.

٣-المخابرات المصرية ١٨٨٢/١١٩/١١ ، من سعادة حكمدار شرق السودان إلى ناظر الحربية بتاريخ ٧ مايو ١٨٨٢م .

٤-محفظة ١٠٢ ، ملف ٢/١ ، وثيقة ١٨ . برقية من وكيل حكمدارية عموم السودان إلى سعادة مهردار خديو بتاريخ ٢٣ صفر ١٣٠١هـ/٢٨ ديسمبر ١٨٨٣م.

٥-محفظة ١٠٢ ملف ٣/١ وثيقة ٧ من ناظر الحربية إلى مهردار خديو بتاريخ ٦ جمادى الثاني ١٣٠٠هـ/١٤ إبريل ١٨٨٣م.

٦-محفظة ٢/١/١ برقية من عبد القادر باشا إلى الخديو توفيق بخصوص تحركات ستيوارت في شرق السودان تاريخ ٢ صفر ١٣٠٠هـ/١٥ ديسمبر ١٨٨٢م .

٧-محفظة ١٠٢ برقية من٣ جي لوا بيادة سفرية بالخرطوم إلى مهردار خديو(ملف١/٢وثيقة رقم ٥) بتاريخ ٢ صفر ١٣٠١هـ/٢١ ديسمبر ١٨٨٣م.

٨-محفظة ١٠٢ ملف ٣/١ وثيقة ٣ بتاريخ ٢٩ رجب ١٣٠٠هـ/يونيو ١٨٨٣م من هكس باشا إلى السير إدوارد مالت .

٩-محفظة ١٠٢ ملف ٣/١ وثيقة ٢ من هكس باشا إلى الخديو توفيق ، بدون تاريخ .

١٠-محفظة ١٠٢ وثيقة ٥ بتاريخ ١٥ ذي الحجة ١٣٠٠هـ/١٧ أكتوبر ١٨٨٣م من هكس باشا إلى ناظر الحربية .

١١-محفظة ١٠٢ ملف ٣/١ وثيقة ٤ من هكس باشا إلى ناظر الحربية بتاريخ ٢٨ ذي القعدة ١٣٠٠هـ/٢٣ سبتمبر ١٨٨٣م.

١٢-المخابرات المصرية ١٨٨٢/١١٩/١١ برقية من غوردون إلى سعادة رئيس العسكرية ، بتاريخ ١٦ فبراير ١٨٨٤م. (توجد منه صورة بدار الوثائق القومية بالخرطوم)

١٣-المخابرات المصرية ١٨٨٢/١١٩/١١ برقية من غوردون إلى باشمهندس التلغرافات المصرية بتاريخ ١٦فبراير١٨٨٣م.(توجد منه صورة بدار الوثائق القومية بالخرطوم)

١٤-المخابرات المصرية ١٨٨٢/١١٩/١١ برقية من حكمدار السودان إلى مهردار خديو بتاريخ ٥ رجب ١٣٠٠هـ/١٠مايو ١٨٨٣م(توجد صورة بدار الوثائق بالخرطوم)

١٥-المخابرات المصرية /١٢/٤/١ تلغراف رقم ١٦٠ من غوردون إلى نوبار باشا وسعادة قنصل إنجلترا بمصر في ١٢ فبراير ١٨٨٤م.(توجد صورة بدار الوثائق بالخرطوم)

١٦-محفظة ١٠٢ ملف ٤/١ وثيقة ٢٤ من الجنرال ولسلي بكورتي إلى ناظر الحربية ، بتاريخ ١٤ ربيع الأول ١٣٠١هـ/أول ينار ١٨٨٥م . (توجد منه صورة بدار الوثائق القومية بالخرطوم)

هـ-التقارير غير المنشورة:

١-صورة اللائحة الخاصة بوقف تجارة الرقيق (رقم ١٥٥) محفظة (١) بتاريخ ٢ محرم ١٢٩٥هـ/ ٤ أغسطس ١٨٧٧م.

٢- تقرير إسماعيل باشا أيوب بتاريخ ٢ صفر ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م.

٣-تقرير المسيو جودنج عن سكه حديد السودان بتاريخ ٣١ مارس ١٨٨١م .

٤-تقرير القومسيون ، المشكل لدراسة سكة حديد السودان ، في ١٩ شعبان ١٣٠٠هـ/ ٢٤ يونيو ١٨٨٣م.

٥-تقرير من القائمقام محمد بك وهبي أركان حرب الفرقة السفرية عن القوات التي بالسودان ، محفظة ١٠٢ ملف ٢/١ وثيقة ١٧بتاريخ ٢٣ رمضان ١٣٠٠هـ/٢٨ يوليو ١٨٨٣م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

٦-تقريـــر ببيان العساكر ، الموجودة بجهات مديريات السودان . محفظة ١٠٢ ، ملف ٢/١ وثيقة رقم (١) بتاريخ ٦ جمادى الأول ١٣٠٠هـ/١٨ مارس ١٨٨٣م.

٧-مذكرة عن أسباب هزيمة راشد على يد المهدي . المخابرات المصرية ١٨٨٢/١١٩/١١ بتاريخ ١٣ جمادى الآخرة ١٣٠٠هـ/١٥ إبريل ١٨٨٣م.

ثالثاً : المصادر الأولية الأوربية:

(أ) وثائق محفوظات وزارة الخارجية البريطانية (.F.O):

Un published Documentary Sources
(F.O) Foreign Office Files Public Records Office , London .
1- F.O. 84 . (Slave Trade), 1837-78.
2- F.O. 78 (Nos. of Various Vos.)

(ب) : توجد صورة من وثائق وزارة الخارجية البريطانية (.F.O) بدار الوثائق القومية بالخرطوم:

تحمل الرمز : (.P.R.O) Public Records Office,

The Central Records Office Khartoum, Photocopied Records from the Public Record Office , London.

P.R.O. (Photocopied Material):

1- P.R.O. 1/11/161/ cab 37/12, No.8.
Sudan telegrams (about the Relief of Khartoum), 1884.
2- P.R.O. 1/11/17/cab 37/12, No 36.
The General Plan of the Proposed Operations for the Relief of Khartoum by an expedition from Sudan , 1884.
3- P.R.O. 1/11/18, cab . 37/12/No. 29.
Observations on Relief of Khartoum , 1884.
4- P.R.O. 1/11/19, cab . 37/12/No. 28
Notes on the Construction of the Rail ways from Suakin to Berber , 1884.
5- P.R.O. 1/11/20, cab . 37/12/Vo. 27
Relief of General Gordon , 1883.
6- P.R.O. 1/11/21, cab . 37/12/No. 26
Sir Samuel Baker's Suggested Relief of Berber and Khartoum , from Cairo by The Nile Route , 1884.
7- P.R.O. 1/11/22, cab . 37/12/No. 25
Proposal to relieve Khartoum by expedition up the Nile in Prefairence to Land route by Suakin and Berber . 1884.
8- P.R.O. 1/11/23, cab . 37/12/ No. 22
Material related to the Relief of Khartoum , 1884.
9- P.R.O. 1/11/24, cab . 37/12/No. 18
Material related to the Relief of Khartoum , 1884

10- P.R.O. 1/11/25, cab . 37/12/No. 11,
General Gordon's Mission in the Sudan , 1885.

11- P.R.O. 1/11/26, cab . 37/12/No. 16.
Material related to General Gordons Mission in the Sudan , 1885.

12- P.R.O. 1/11/27, cab . 37/12/No. 54
Material related to General Gordon's Mission in the Sudan , 1885.

13- P.R.O. 1/11/28, cab . 37/12/No. 68
Material related to General Gordon's Mission in the Sudan , 1885.

(جـ): وثائق المخابرات المصرية بدار الوثائق القومية بالخرطوم:

[Cairo Intellgence Department]

The National Records Office Cairint Check List.

1- 3/12/189/A633, 1882,Strength of Egyption army.

2- 4/22/37, 1884,Telegrams to and from Khartoum .

3- 1/11/119 , 1882,Telegrams and Documents reffairs of the Sudan.

4- 6/33/866/D21, 1884-85,Nile Expedition for Relief of Gordon..

5- 8/37/36, 1885,Report on Death of Gordon .

6- 8/38/SG/22, 1885,Kitchener Notes on the fall of Khartoum.

ورابعاً: مخطوطات ووثائق سودانية منشورة ومحققة:

(١) أحمد بن الحاج أبو علي : مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل ، القاهرة ، ١٩٦١م.

(٢) الآثار الكاملة للإمام المهدي ، جمع وتحقيق الدكتورمحمد إبراهيم أبو سليم ، ٨ أجزاء ، الطبعة الأولى، دار جامعة الخرطوم للنشر ، مطبعة جامعة الخرطوم ، ١٩٩٣م.

(٣) الكردفاني (إسماعيل عبد القادر) : سعادة المستهدي بسيرة الإمام المهدي ، تحقيق دكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٢م.

(٤) مذكرات عثمان دقنة : تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، الطبعة الأولى ، دار الجيل،بيروت ، ١٩٩١م.

(٥) منشورات المهدية ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، الطبعة الثانية ، دار الجيل ، بيروت، ١٩٧٩م.

(٦) أحمد العوام : نصيحة العوام للخاص والعام من إخواني أهل الإيمان والإسلام ، والعلاقة بين العرابية والمهدية ، دراسة وتحقيق الدكتور محمد رشدي حسن ، الدار السودانية، الخرطوم . دار الفكر بيروت ، ١٩٧٩م.

وخامساً: وثائق مصرية منشورة :

(١)نصـــوص ووثـــائق في التاريخ الحديث والمعاصر ، جمعها الدكتور محمد فؤاد شكري وآخرون ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(٢)الوثـــائق الـــتاريخية للسياســـة المصرية في أفريقيا في القرن التاسع عشر ، جمعها الدكتور السيد يوسف نصر ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٠م.

(٣)مجموعـــة الوثـــائق السياســـية لمصر والسودان وقناة السويس ، جمعها وقدم لها ، دكتور راشد البراوي ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٢م.

(٤)النظارات والوزارات المصرية ، منذ إنشاء أول هيئة نظارة في ٢٨ أغسطس ١٨٧٨م حتى ١٨/ ١٩٥٢/٦ م ، جمع وترتيب فؤاد كرم ،مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، الطبعة الثانية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر ، ١٩٩٤م.

(٥)أحمد عرابي باشا : تقرير عن الأحداث التي وقعت بمصر من يناير ١٨٨١م إلى أكتوبر ١٨٨٢م كتبها أحمد عرابي في ٢٦ ذو الحجة ١٢٩٩هـ/أكتوبر ١٨٨٢م بمدينة كولمبو بجزيرة سيلان ، طبعت بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ١٩٨٢م.

وسادساً: وثائق أفريقية وإيطالية منشورة :

(١)الوثائق التاريخية الإيطالية ، إشراف كارلو جوليو ، ترجمة جبهة التحرير الأرترية ، الناشر جبهة التحرير الأرترية ، دمشق سوريا ، ١٩٧٨م.

(٢)وثائق عن الصومال والحبشة وأرتريا ، إشراف أحمد برخت ماج سجال ، الطبعة الأولى ، شركة الطوبجي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٣م.

وسابعاً: رسائل الماجستير والدكتوراة (غير المنشورة):

(١) إبراهـــيم الجاك إبراهيم (الدكتور) : الحياة الاجتماعية في الدولة المهدية بالسودان (١٢٩٨–١٣١٥هـ/ ١٨٨١–١٨٩٨م) – رسالة دكتوراة – جامعة أم درمان الإسلامية ، ١٩٩٦م. (مخطوط)

(٢) بابكر فضل المولى حسين : مظاهر الحضارة في دولة الفونج الإسلامية ، (١٥٠٤–١٨٢١م) ، رسالة ماجستير (مخطوط) ، معهد الدراسات الإسلامية ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٣) بشير كوكو حميدة (الدكتور) : السودان في عهد الخديو إسماعيل ، رسالة دكتوراة (مخطوط) ، جامعة الخرطوم ، ١٩٧٦م.

(٤) محمـــد الأمين سعيد (الدكتور): عصرا عباس ومحمدسعيد في السودان ، رسالة دكتوراة ، غير منشورة ،– جامعة الخرطوم ، ١٩٧٦م .

(٥) محمد محجوب مالك : المقاومة الداخلية لحركة المهدي (١٨٨١–١٨٩٨م) ، رسالة ماجستير ، (مخطوط) ، جامعة القاهرة فرع الخرطوم ، كلية الآداب ١٩٧٦م.

وثامناً:رسائل الماجستير والدكتوراة (المنشورة):

١–إبراهيم شحاته (الدكتور) : مصر والسودان ووجه الثورة في نصيحة العوام ، رسالة ماجستير، الإسكندرية ، مصر ، ١٩٧١م.

٢–إبراهيم عكاشة (الدكتور) : التبشير النصراني في جنوب سودان وادي النيل (دكتوراة) ، دار العلوم للطباعة والنشر ، الرياض ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٣–أحمـــد عـــبد الرحـــيم مصطفى (الدكتور) : مصر والمسألة المصرية(١٨٧٦–١٨٨٢م) رسالة دكتوراه ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٥م.

٤–حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : محمد علي باشا في السودان ، (رسالة ماجستير) ، الطبعة الثانية، مطبوعات جامعة الخرطوم ، ١٩٩١م.

٥–عبد الودود شلبي (الدكتور) : الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني ،رسالة ماجستير ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٩م.

٦–عـــز الدين الأمين : قرية كترانج وأثرها العلمي في السودان ،رسالة ماجستير ، الطبعة الأولى ، معهد الدراسات الأفريقية ، جامعة الخرطوم ، ١٩٧٥م.

٧–ميمونة ميرغني حمزة : حصار وسقوط الخرطوم ، رسالة ماجستير ، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم ، الخرطوم ، ١٩٧٢م.

وتاسعاً: المراجع العربية:

١- إبراهيم عبده (الدكتور): جريدة الأهرام (١٨٧٥-١٩٦٤م) ، مؤسسة سجل العرب ، مصر، ١٩٦٤م.

٢-أحمد شفيق باشا : مذكراتي في نصف قرن (جزءان) ، الجزء الأول ١٩٣٤م ، الجزء الثاني ١٩٣٦م ، القاهرة .

٣- أحمد شلبي (الدكتور) : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، ج٦ ، الطبعة الرابعة، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٦م.

٤- أحمد طوبين (الدكتور) : تاريخ مصر والسودان الحديث والمعاصر ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٩٤م.

٥- الجابري (محمد أحمد) : في شأن الله ، أو تاريخ السودان كما يرويه أهله ، القاهرة ، ١٩٤٨م.

٦- الجبرتي (الشيخ عبد الرحمن): عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، دار الجيل ، بيروت ، ١٢٣٦هـ.

٧- الرافعي (عبد الرحمن) : مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، مصر ١٩٨٣م .

٨- الرافعي (عبد الرحمن) : عصر إسماعيل ، جـ١وجـ٢ دار المعارف ، الطبعة الرابعة ، مصر ١٩٨٧م.

٩- الرافعي (عبد الرحمن) : عصر محمد علي باشا ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٢م.

٨- الرافعي (عبد الرحمن) : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر (جزءان)، دار المعارف ، مصر ، الطبعة السادسة ، ١٩٨٧م .

١١- السيد يوسف نصر : (الدكتور) : الوجود المصري في أفريقيا (١٨٢٠-١٨٩٩م)، الطبعة الأولى ، دار المعارف، مصر ، ١٩٨١م.

١٢- الشاطر بصيلي عبد الجليل : معالم تاريخ سودان وادي النيل ، من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي ، الطبعة الثانية ، مكتبة العرب ،١٩٦٧م.

١٣- الشاطر بصيلي عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط ، الطبعة الأولى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٢م.

١٤- الصادق المهدي : يسألونك عن المهدية ، بيروت ، ١٩٧٥م.

١٥- الفـــرد ســـكاون بلنت : التاريخ السري لاحتلال إنجلترا مصر ، راجعه الشيخ محمد عبده ، المركز العربي للبحث والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١م.

١٦- المســـعودي (عـــلي بن الحسين بن علي المسعودي)(ت٣٤٦هـــ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر، الطبعة الرابعة ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨١م.

١٧- المقريـــزي (أحمـــد بن علي بن عبد القادر محمد المقريزي) : الخطط المقريزية ،مطبعة النيل ، مصر ، ١٣٢٤هـــ.

١٨- إليـــاس الأيوبي : تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا (١٨٦٣-١٨٧٩م)، (مجلدان)، مكتبة مدبولي ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٩٦م.

١٩- بشـــير كوكـــو حميـــدة (الدكـــتور) : ملامح من تاريخ السودان في عهد الخديو إسماعيل ، مطـــبوعات كلية الدراسات العليا، جامعة الخرطوم ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٣م.

~~٢٠- بشـــير كوكو حميدة~~ (الدكتور) : صفحات من التركية والمهدية ، دار الإرشاد ، الخرطوم ، مطابع معتوق إخوان ، لبنان ، بيروت ، ١٩٦٩م.

٢١- جـــلال يحـــيى (الدكـــتور) : الثورة المهدية وأصول السياسة البريطانية في السودان ، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٥٩م.

~~٢٢- جـــلال يحيى (الدكتور)~~ : مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤م.

٢٣- جميل عبيد : المديرية الاستوائية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ،١٩٦٧م.

٢٤- المستر جورج يانج : تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل ، تعريب علي أحمد شكري ، الطبعة الثانية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩٦م.

٢٥- حســـن أحمد إبراهيم (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، شركة الطابع السوداني، الطبعة السابعة ، الخرطوم ، ١٩٨٨م.

٢٦- حســـن ســـليمان محمود (الدكتور) : تاريخ السودان من أقدم العصور إلى الآن ، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، مصر ١٩٥٧م.

٢٧- حسين سيد أحمد المفتي : تطور نظام القضاء في السودان ، الخرطوم ،١٣٧٨هـــ/ ١٩٥٩م .

٢٨- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون) :ت٨٠٨هـ ، مقدمة ابن خلدون ، دار الفكر ، القاهرة ، ١٩٧٩م.

٢٩- رأفت غنيمي الشيخ (الدكتور) : مصر والسودان في العلاقات الدولية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧م.

٣٠- زاهر رياض (الدكتور) : مصر وأفريقيا ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٧٦م.

٣١- زاهر رياض (الدكتور): استعمار أفريقيا ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٥م.

٣٢- روثستين (ثيودور): تاريخ المسألة المصرية (١٩٧٥-١٩١٠) أو (خراب مصر) ، ترجمة عبد الحميد العبادي ومحمد بدران ، دار الوحدة ، بيروت ، ١٩٨١م.

٣٣- زاهية قدوره (الدكتورة) : تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٥م.

٣٤-زكي مصطفى عبد المجيد : القانون المدني في السودان ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

٣٥-زلفو (عصمت حسن) : شيكان ، تحليل عسكري ، لحملة الجنرال هكس باشا ، أبو ظبي عام ١٩٧٦م.

٣٦-زلفو (عصمت حسن) : كررى تحليل عسكري ، لمعركة أم درمان ، الخرطوم ، ١٩٧٨م.

٣٧-سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان ، القاهرة ، ١٩٥٢م.

٣٨-سلاطين باشا : السيف والنار في السودان ، ترجمة جريدة البلاغ البيروتية ١٩٣٠م ، أعادت نشره مكتبة الحرية ، أم درمان ، ١٩٧٨م .

٣٩-شقير (نعوم) : تاريخ السودان ، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم ، دار الجيل ،بيروت، ١٩٨١م.

٤٠-شوقي عطا الله الجمل (الدكتور) : سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، المكتبة العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٧٤م .

٤١-صبحي الصالح (الدكتور) : النظم الإسلامية ، نشأتها وتطورها ، الطبعة الثالثة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٦م.

٤٢- صلاح عيسى : الثورة العرابية ، الطبعة الثانية ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ، ١٩٨٢م.

٤٣-ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ، الخرطوم ، ١٩٦٤م.

٤٤-ود ضيف الله (محمد بن النور بن ضيف الله بن محمد الجعلي الفضلي) (١١٢٩-١٢٢٤هـ): كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان ، الطبعة الثانية ، معهد الدراسات الإفريقية ، دار الترجمة والتأليف والنشر ، جامعة الخرطوم ، ١٩٧٤م.حققه وعلق عليه الدكتور يوسف فضل .

٤٥-طوبيا العنيسي : تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية مع ذكر أصلها بحروفه ، دار العرب للبستاني ، القاهرة، ١٩٦٥.

٤٦-عبد العظيم رمضان (الدكتور) : أكذوبة الاستعمار المصري للسودان ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ، ١٩٥٦م.

٤٧-عزيز زند : تاريخ الخديو محمد باشا توفيق ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٩٩١م.

٤٨-علي إبراهيم عبده (الدكتور) مصر وأفريقية في العصر الحديث ، دار القلم ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٢م.

٤٩-علي أحمد بابكر (بروفسير) : أعلام وأيام ، بمساعدة لجنة من أساتذة جامعة أم درمان الإسلامية، توثيق حياة علماء جامعة أم درمان الإسلامية ، الجزء الأول . قيادات الجامعة (١٩٠٠-١٩٦٥م) الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٥٠- علي المهدي: مذكرات علي المهدي ، تحقيق عبد الله محمد حسن (جهاد في سبيل الله)، الخرطوم ، بدون تاريخ.

٥١- عمر عبد العزيز (الدكتور) : تاريخ مصر الحديث والمعاصر(١٥١٧-١٩١٩) ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ، ١٩٩٧م.

~~٥٢- عمر عبد العزيز (الدكتور)~~ : دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر(١٩١٧-١٩٥٢) ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ، ١٩٨٥م.

~~٥٣- عمر عبد العزيز (الدكتور)~~: تاريخ المشرق العربي ، ١٥١٦-١٩٢٣ ، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت ، ١٩٨٥م.

٥٤- فارمـــان (الــبرت) : مصر وكيف غدر بها ، ترجمة عبد الفتاح عنابت ، مراجعة علي جمال الديـــن، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ.

٥٥- الأب ج . فانـــتيني (دكتور) : تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث ، الخرطوم ، ١٩٧٨م.

٥٦- كرومـــر (اللورد) : بريطانيا في السودان ، ترجمة عبد العزيز أحمد عرابي ، الشركة العربية للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦٠م.

٥٧- محمـــد إبراهـــيم أبو سليم (الدكتور) : الحركة الفكرية في المهدية ، مطبعة جامعة الخرطوم ، الطبعة الثالثة ، الخرطوم ، ١٩٨٩م.

٥٨- محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : تاريخ الخرطوم ، دار الإرشاد ، الطبعة الأولى ، الخرطوم ، ١٩٧١م.

٥٩- محمد إبراهيم أبو سليم (الدكتور) : فهرس آثار الإمام المهدي ، دار الجيل ، بيروت ، الطبعة الأولى ،١٩٩٥م.

٦٠- محمـــد سعيد القدال (الدكتور) : تاريخ السودان الحديث ، (١٨٢٠-١٩٥٥م) الخرطوم ، ١٩٩٢م.

٦١- محمـــد سعيد القدال (الدكتور) : الإمام المهدي محمد أحمد بن عبد الله (١٨٤٤-١٨٨٥) ، مطبعة جامعة الخرطوم ، ١٩٨٥م.

٦٢-محمد عبد الرحيم : العروبة في السودان ، طبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٣٥م.

٦٣- محمد عمر بشير (الدكتور) : جنوب السودان ، دراسة لأسباب النزاع ، ترجمة أسعد حليم ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١م .

٦٤- محمـــد عوض محمد : السودان الشمالي سكانه وقبائله، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، الطبعة الثانية، القاهرة ، ١٩٥٦م.

٦٥- محمـــد فـــؤاد شكري (الدكتور) : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ، القاهرة ، ١٩٦٣م.

٦٦- هوري مصطفى عبد الرحمن : الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان المعاصر ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، الدار السودانية ، الخرطوم ، ١٩٧٢م.

٦٧- محمـد محمود السروجي (الدكتور) : الجيش المصري في القرن التاسع عشر ،دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٧م.

٦٨- محمود محمد علي نمر ، ومحمد سعيد معروف: الجعليون ، تاريخهم ونسبهم وحياتهم وأدبهم،دار السودان الحديث للطباعة والنشر،الطبعة الثانية١٩٩٤م ، الخرطوم.

٦٩- مصطفى خالدي (الدكتور) وعمر فروخ (الدكتور) : التبشير والاستعمار في البلاد العربية، الطبعة الثالثة ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، لبنان ، ١٩٥٣م.

٧٠- مكـي شبيكة (الدكتور) : السودان عبر القرون ، دار الثقافة ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٦٤م.

٧١- مكي شبيكة (الدكتور) : مقاومة السودان الحديث للغزو والتسلط ، معهد البحوث والدراسات العربية،المنظمة العربية للثقافة والعلوم ، القاهرة ١٩٧٢م.

٧٢- مكي شبيكة (الدكتور) : تاريخ شعوب وادي النيل مصر والسودان في القرن التاسع عشر ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٠م.

٧٣- مندور المهدي : تاريخ السودان منذ أقدم العصور إلى قيام الأحزاب السياسية ، الطبعة الثالثة، مكتبة النشر التربوي ، الخرطوم ، ١٩٦٠م.

٧٤- مورهيد (آلان) : النيل الأبيض ، ترجمة محمد بدر الدين خليل ، دار المعارف بمصر ، القاهرة، ١٩٦٥م.

٧٥- ناصـر السيد (الدكتور) : تاريخ السياسة والتعليم في السودان ، الطبعة الثانية ، دار جامعة الخرطوم للنشر، مطبعة جامعة الخرطوم ، الخرطوم ، ١٩٩٠م.

٧٦- هاشـم (عبد العزيز سعيد) : التوفيقات العلية ، في موافقة الشهور العربية بالشهور الميلادية للقرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجري مع اسم اليوم الذي يولد فيـه الهلال لكل شهر قمري . الطبعة الأولى،مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

٧٧- هولت ب . م. : دولة المهدية في السودان ، ترجمة هنري رياض وآخرون ، نشر وتوزيع دار الجيل ، بيروت، ومكتبة خليفة عطية ، الخرطوم ، ١٩٨٢م.

٧٨-و.نكولـز : الشـايقية ، ترجمة عبد المجيد عابدين ، الطبعة الأولى ، الدار السودانية للكتب ، الخرطوم ، ١٩٧٢م.

وعاشراً: الدوريات والمجلات والصحف:

١-حسن أحمد إبراهيم (الدكتور) : مقال ، الفكر السياسي عند مهدي السودان ، مجلة دراسات أفريقية ، العدد الثالث ، الخرطوم ، ١٩٨٧م.

٢-عبد الرحمن أحمد عثمان ، مقال ، عرض كتاب انتشار الإسلام في أفريقيا للمؤلف عبده كانوري، مجلة دراسات أفريقية ، العدد الثالث ، الخرطوم ، ١٩٨٧م.

٣- فلوراشو:الزبير باشا يروي سيرته في منفاه بجبل طارق (Contemporary Review)عام ١٨٨٧م – تعريب وإعداد خليفة عباس العبيد ، مركز الدراسات السودانية ، القاهرة ، ١٩٩٥م .

٤- محمود عبد الله برات : مقال ، محمد أحمد المهدي بعد واقعة أبا ، كتاب السودان الحديث ، بيروت ، ١٩٦٥م.

٥- موسى عبد الله حامد (الدكتور) : مقال الثورة المهدية والعلاقات السودانية المصرية ، مقال مجلة الخرطوم ، العدد ٥ ، الخرطوم ، ١٩٨٢م.

٦-جريدة الوقائع المصرية ، العدد ١٩ ، ١٨٥٠م. والعدد ١٦٤٧ ، ١٨٨٣م.

٧-جريدة الأهرام : العدد الأول ١٨٧٦م.

٨-جمال الدين الأفغاني ، والشيخ محمد عبده : مجلة العروة الوثقى .

وأحد عشر: المقابلات الشخصية والروايات الشفوية:

١-مقابلة شخصية مع الشيخ الأمين الفكي يوسف إمام مسجد والده بمدينة شندي . وهو من المهتمين بالتراث وله إلمام كبير بتاريخ المهدية ، وسيرة الإمام محمد المهدي .

٢-مقابلة شخصية مع الدكتور بشير كوكو حميدة ، بمنزله بحلفاية الملوك بتاريخ ٢٠٠٠/٧/٢٤م . والدكتور بشير ، فضلاً عن تخصصه في مادة التاريخ ،له خبرة طويلة، واهتمام بتحقيق بعض القضايا والأحداث ،وقد كانت المقابلة خاصة بدور العبدلاب في إسقاط مملكة علوة. بخلاف ما هو مشهور بأن الفونج هم الذين أسقطوها ثم تمكن الفونج بعد ذلك من هزيمة العبدلاب والاتفاق معهم على الحكم .

٣-مقابـــلة شخصية مع الدكتور أحمد شمس الدين الشيخ ، وهو من سكان مدينة الدويم ، وسليل قـــبائل النيل الأبيض ذات السبق ، والتأييد للثورة المهدية. والدكتور أحمد يحتفظ بروايات عن والده ، عن أجداده الذين شاركوا في حروب الثورة المهدية ، وخاصة موقعة شيكان .

٤- روايـــة الإمـــام عبد الرحمن المهدي ، عن تاريخ ميلاد والده محمد المهدي . نقلها عنه الشاطر بصـــيلي عبد الجليل . في كتابه ، سودان وادي النيل من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر ، القاهرة ، مكتبة العرب ، ١٩٦٧م.

واثنا عشر :المراجع الإنجليزية:

1- Allen ,B.M., Gordon and The Sudan , London ,1961.

2- Arkill, A.J.,A History of The Sudan to 1821,second Edition ,University of London, the Alton press, London , 1961 .

3- Baker . B.S.R., Ismailia , organized by Ismail , Khedieve of Egypt , 2vols. (London,1934).

4- Bruce , J., Travels to discover the Sources of the Nile , Edinburgh , London , 1805.

5- Churchill, W., The River War , Lands borough Publication, Limited , (London ,1964)

6- Crabites , p., Gordon the Sudan and Slavery , Negro University Press , New York , 1982.

7- Gabriel , R.W., Egypt and The Sudan , Frank Cass , First Published , London , 1985.

8- Gray , R., A History of the Suthern Sudan 1839-1889 ,(Oxford , London, 1961).

9- Hamilton , J., The Anglo Egyption Sudan from Within , London , 1967.

10- Hill ,R.L.,Egypt in the Sudan 1820-1881 , Oxford University press , London , 1959.

11- Hill , R ., The Sudan Memories of Carl Chrislian ,Gieglor Pasha 1873-1883 ,Oxford University Press, London , 1984.

12- Holt , P.M., Amodern History of The Sudan from The Fung Sultenate to The Present Day (London , 1961) .

13- Holt , P.M., The Mahdist State in The Sudan ,1881-1898, (Oxford University press ,London, 1958)

14- Hoskins ,G.A. Travels in Ethiopia above the second cataract of the Nile (London ,1835).

15- Marlowe , J. , Mission to Khortoum ,Gamilot press,(London 1969).

16- Marlowe , J. Anglo Egyption Relations , 1800-1956 , second Edition , Frank Cass and company LTD. , (London 1965).

17- EL Mahady,M. , Ashort History of the Sudan , oxford University press , London , 1965.

18- Mostyn T., Egypt's Belle Epoque Cairo, 1869-1952,London New York , (London 1989).

19- Report on Egyption Provinces of the Sudan , Red Sea and Eguatoria , London , 1896.

20- Rich Mand , J.C.B., Egypt (1798-1952 , Mettruen and Co LTD. , First Published , (London , 1977).

21- Shibeika , M., Britsh Policy in the Sudan , (1882-1902) (London , 1952).

22- Slatin , R.C., Fire and Sword in the Sudan , 1879-1895, (LOndon , 1896).

23- Sudan Notes and Records , Vol. XXVII, 1940 .

24- Sudan Notes and Records , VoL. VIII 1920.

25- Theobald ,A . B . , The Mahadiya , Long mans Green and co , London , 1949.

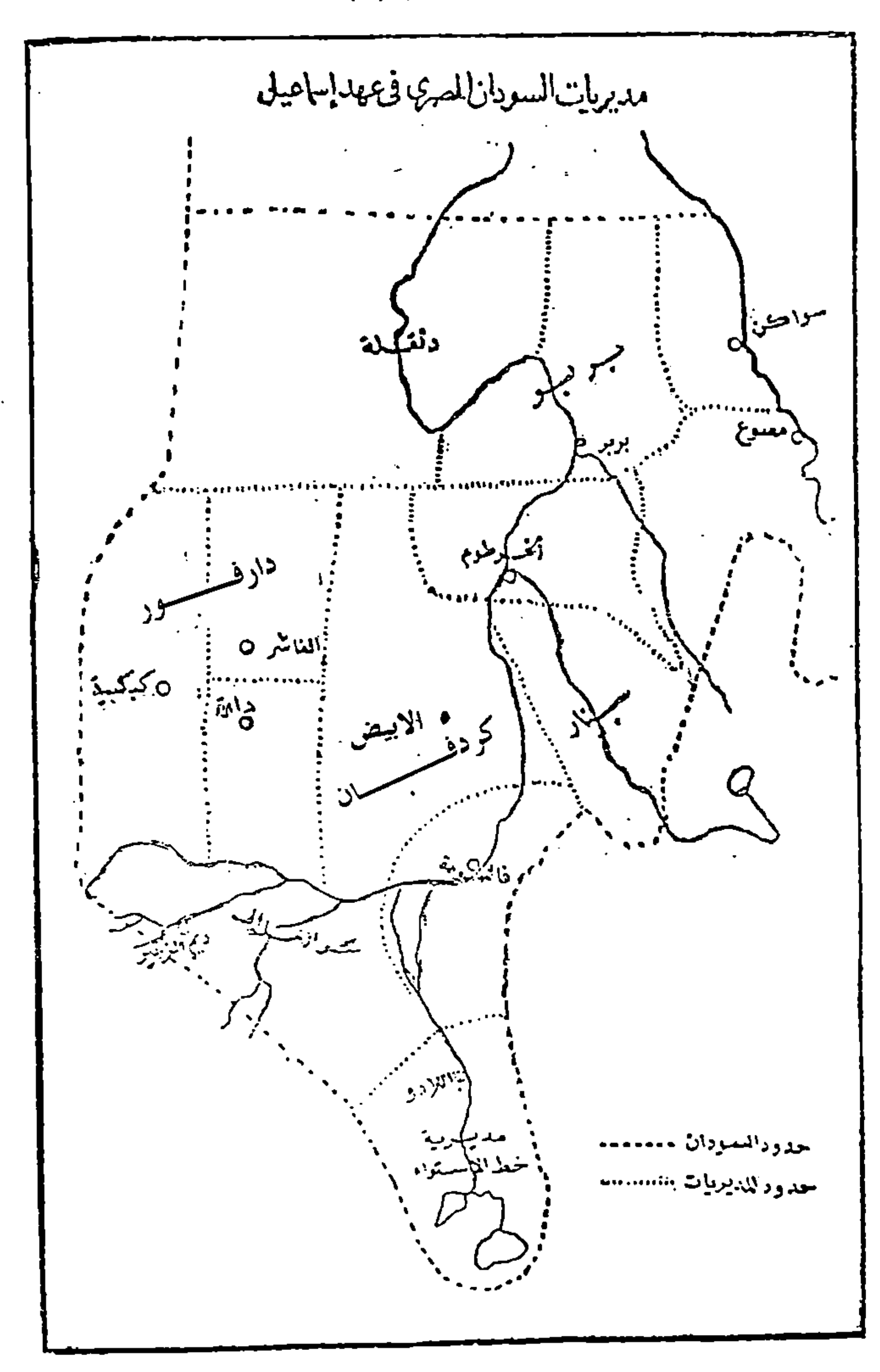
26- Tom ,L , Modern Egypt , Ernest Benn Limited , Second Published , (London , 1968).

27- Urabi , A., The Defense Statement of Ahmad Urabi ,translated and edited By Trevor Le Gassieli , Cairo, 1982.

28- Vatikiotis , P.J. The History of Egypt , Second Edition,(London,1976).

الملاحـــــق

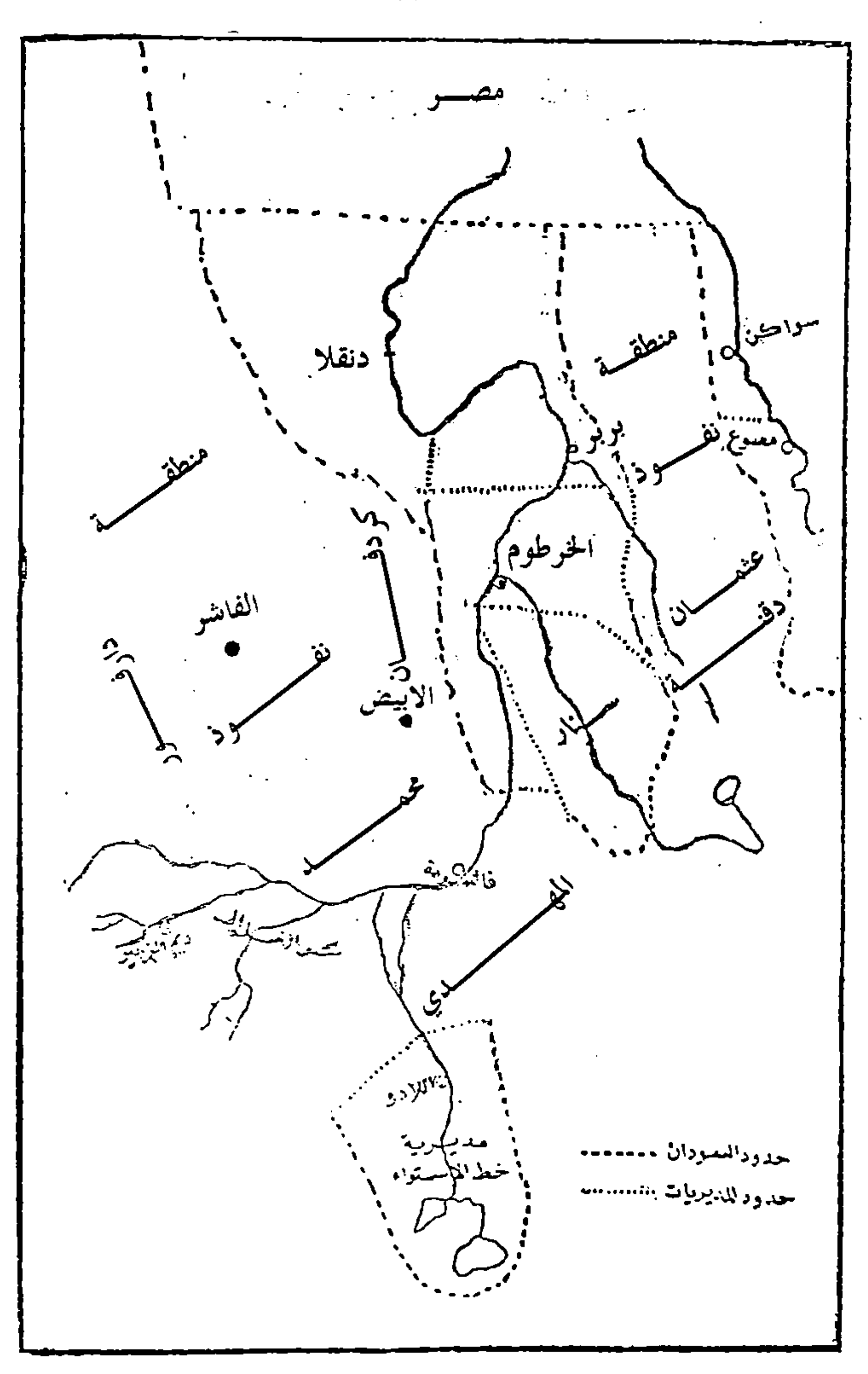
ملحق رقم (١)



مديريات السودان في عهد اسماعيل ١٨٧٩ م وبداية عهد الخديوي توفيق

نقلا عن الدكتور مكي شبيكة ، السودان عبر القرون ، ص ٥٤٩

ملحق رقم(٢)



خريطة السودان التركي المصري في عام ١٨٨٤

(بعد موقعة شيكان)

ملحق رقم(٣)

صورة كتاب ارسله الى الخليفة محمد
المهدي بن الولي السنوسي رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة
على سيدنا محمد وءاله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه
الفقير اليه محمد المهدي بن السيد عبد الله الى حبيبه في الله الخليفة
محمد المهدي بن الولي السنوسي كان الله في عونه امين قيا[illegible]
الحبيب القريب الواقف على سنة النبي الاديب المرشد
المرقي لعباد الله الى مقام التقريب لا يخفاك تغير الزمن
وترك السنن ولا يرضى بذلك ذو الايمان والفطن بل يترك
لذلك الاهل والاوطار والوطن لاقامة الدين والسنن ولا
يتوانى عن ذلك لكون غيرة الاسلام للمومن بجيره واعلم
يا حبيبي قد كنا ومن معنا من الاعوان ننتظرك لاقامة الدين قبل
حصول المهدية للعبد الذليل وقد كاتبناك لما سمعنا باستقامتك
ورعايتك الى الله على السنة النبوية وتأهبك لاحياء الدين بان
نصير اليك ونجتمع معك ولم ترد لنا المكاتبة واظن ذلك من عدم
وصولها اليكم حتى اني ذاكرت جميع من اجتمعت معه من اهل
الدين والشيوخ والامراء المعينين فأبوا ذلك لهوان الدين عندهم
وتمكن حب الوطن والحياة في قلوبهم وقلة توحيدهم حتى بايعني
الضعفاء على الفرار بالدين واقامته على ما طلب رب العالمين
وفنيت نفوس من بايعناه من الحياة لما يرون للدين من الممات
ولا زال المساكين الذين لم يبالوا في الله بما فاتهم من المحبوب
يزدادون وفيما عند الله يرغبون حتى هجمت المهدية الكبرى من
الله ورسوله على العبد الحقير والله هو الفاعل المختار الذي
هو على كل شيء قدير فاخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم
باني المهدي المنتظر وخلفني عليه الصلاة بالجلوس على كرسيه

دار الوثائق القومية بالخرطوم ، قائمة المتنوعات ، ٦٥ / ١٧٤ / ٢٢٥٥
خطاب من المهدي الى السنوسي (غير كامل) وجد بداخل كتاب الجامع
لاحكام القران بمكتبة ال المهدي .

ملحق رقم(٤).

خط بيد الامام المهدي

خطاب من محمد المهدي الى عامله على بيت المال،احمد سليمان،نقلا عن منشورات المهدية / تحقيق الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم ، ص م . ٢٢ رجب ١٣٠٢ هـ / ٨ مايو ١٨٨٥ م

ملحق رقم(٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد

فمن العبد المفتقر الى ربه محمد المهدي بن عبد الله الى كافة الا

صحاب والاحباب ان يتركوا تسمية الانصار بالدراويش

لان هذه التسمية لهم وهم وخروج عن الصواب لان

الذين سموهم بها سموهم لتسفيههم بأبناء الاخرة

ونسبتهم الى عدم العقل والادراك ان لم يبخلوا نحو

هم هم الذين لا عقل لهم اذ هو الذي يبيع الفاني بالباقي

وذلك اذهاب عقل اذ المدبر للباطل ليس له عقل ويحق ان

يسموهم بالدراويش لانهم ابناء الدنيا الذين يعلمون

ظاهرا من الحيوة الدنيا وهم عن الاخرة هم غافلون ومن

سمى الانصار دراويش بعد هذا يجري عليه حكم التعبير

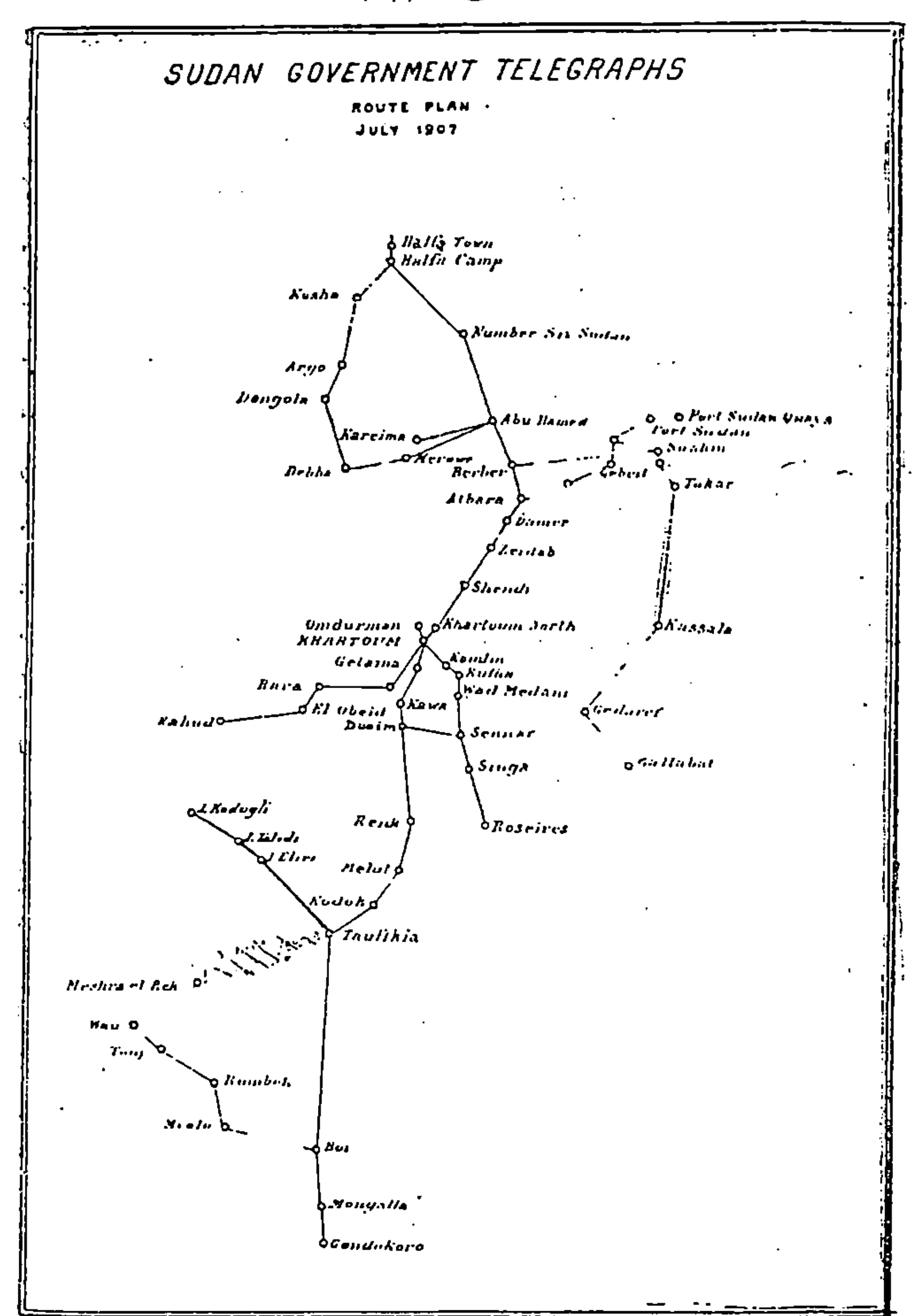
والقذف بالاشد لانه نسب لاهل العقل والاعمال الذين

امن الله بها الى السفاهة فيقرب ذلك الى النفاق

والكفر اعاذنا الله والمسلمين من ذلك والسلام ر شعبان

منشور طبع بمطبعة الحجر بام درمان من محمد المهدي يمنع فيه تسمية الانصار بالدراويش قسم المتنوعات رقم ٦٢ / ١١٠٩ ، دار الوثائق القومية بالخرطوم بتاريخ ٢٠ جمادى الثاني ١٣٠١ هـ / ١٧ ابريل ١٨٨٤ م

ملحق رقم(٦)



الخريطة رقم ١٥

هذه الخريطة توضح لنا مكاتب التلغراف التى انشأتها مصر فى البلدان السودانية وغيرها من البلدان الافريقية الأخرى .

نقلا عن الدكتور يوسف نصر ، الوجود المصري في افريقيا ، ص ٣٣٥

ملحق رقم(٧)

Form No. 71.

مصلحة التلغرافات المصرية

نمرة ٣١٩

عدد الكلمات ٢٩

الساعة دقيقة ورد

الساعة دقيقة على

اسم الموظف

طريق

محطة

الى محطة

بتاريخ

اسم الراسل

الى

جملة المتحصل

بارة	قروش	س	افرنك

ملحوظات

مصلحة التلغرافات تكون خالية المسئولية فيما يحدث بالافادات التلغرافية من نحو التاخير والغلط

دار الوثائق القومية بالخرطوم / المخابرات المصرية ١١/١١٩/١٨٨٢ ،
برقية من نوبار باشا الى مدير عموم بربر ودنقلا . بتاريخ ٨ فبراير ١٨٨٤م
تلغراف نمرة ٣١٩ .

ملحق رقم(٨)

Form No. 72.

مصلحة التلغرافات المصرية

نمرة المكتب ١٠٧ ... عدد الكلمات ١٨

محطة الوزير ... ورد ... بتاريخ ١٦ فبراير

التلغراف الاتى حضر

من شندي بتاريخ ١٥ الساعة دقيقة

الى

ملحوظات

سعادة الجنرال اسيوني رئيس العسكرية

منه ومن جناب الكولونيل ستوارت وصلنا بالسلامة ... والسلام

غوردون باشا

بشندي

لايقبل تشكي من احد ما بدون ابراز هذه التذكرة

مصلحة التلغرافات تكون خالية المسئولية مما يحدث بالتلغرافات من التاخير او الغلط يكون معلوم

دار الوثائق القومية بالخرطوم ١١/١١٩/١٨٨٢ تلغراف نمرة ١٠٧

من غوردون باشا بشندي الى الجنرال اسيوني رئيس العسكرية

بتاريخ ١٦ فبراير ١٨٨٤م